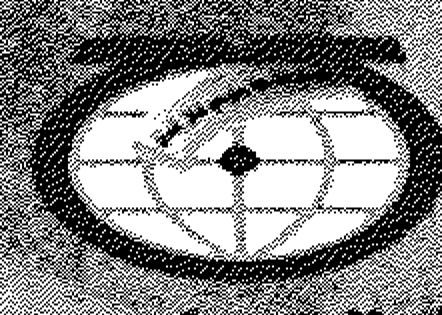
هينز فارنز شميدت

مع روميل في الصحراء

تعريب:

الدكتور يونس عزيز

العميد الركن سليمان محمود سليمان



الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

AD-DAR AL-JAMAHIRIYA
FOR PUBLISHING, DISTRIBUTING & ADVERTISING

مع روميل في الصحراء

هايـنز فارنـر شميدت

مـع روميل في الصحراء

تعريب
• الدكتور يـونـس عـزيـز
• العميد الركن سليمان محمود سليمان

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

□ مع روميل في الصحراء

هاينز فارنر شميدت

الطبعة الأولى: أي النار 1373 و.ر (2005)

رقم الإيداع المحلي : 6234/ 2004 دار الكتب الوطنية بنغازي

رقم الإيداع الـدولي: ردمك 3 - 0187 - 0 - ISBN 9959

جميع حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للنـاشــر:

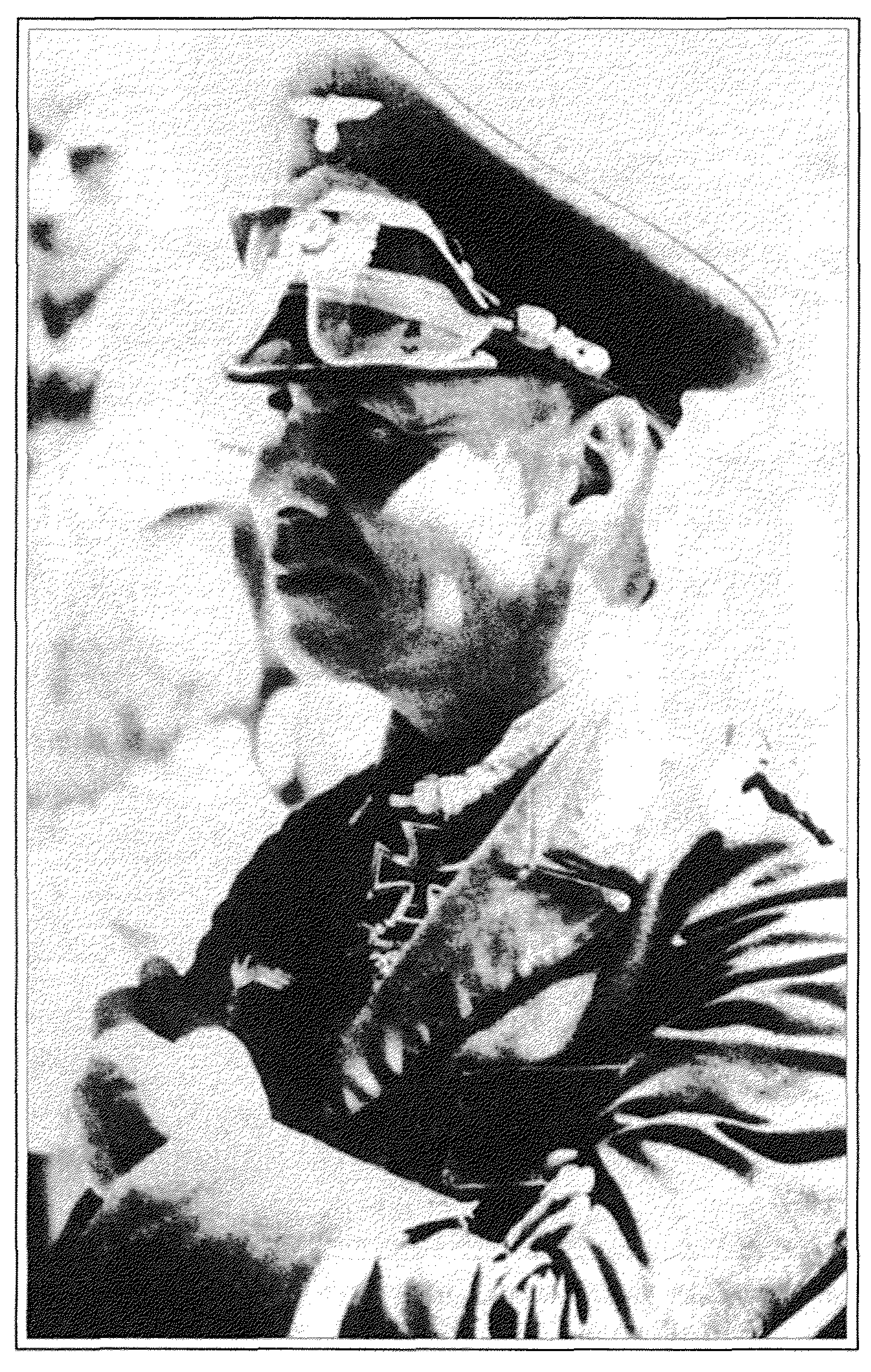
الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

مصراته: هاتف: 614658 ـ 051 ـ 606086 ـ 021

ص.ب. 1459 ـ بريـــد مصور 619410 ـ 051

E-mail: daraljamahiriya@maktoob.com

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى



المشير أرفين روميل المصدر: المتحف الحربي البريطاني



(ويبدو أنه لم يحدث لك أي أذى!.) روميل مع الرائد الإيطالي السمين الذي يقود سرية إنشاء الطريق، والذي يطلب الطعام والنبيذ. المؤلف واقفاً خلف روميل يحمل حقيبة الخرائط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

لقد عينت القيادة العليا الألمانية العميد أرفين روميل قائداً لتشكيل خاص أطلق عليه اسم: (الفيلق الألماني الأفريقي) لمساعدة الإيطاليين في ليبيا.

ولقد كان هدف القيادة الألمانية: عدم سقوط الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط، تحت سيطرة الحلفاء، ولمنع خروج الإيطاليين من الحرب. وكان وصول روميل إلى طرابلس يوم 12 فبراير 1941. حيث جرت معارك بين كر وفر في الصحراء الليبية، انتهت بسقوط القلعة الحصينة طبرق، ثم التقدم إلى العلمين. وانتهت معركة العلمين بهزيمة روميل، والانسحاب العظيم من العلمين إلى تونس.

في أثناء القتال في تونس، أمرت القيادة العليا الألمانية المشير روميل بالتوجه إلى برلين وتسليم القيادة إلى الفريق أول فون آرنيم،

حيث استلم الفريق فون آرنيم قيادة مجموعة الجيوش في أفريقيا (جيش البانزر الألماني ـ الإيطالي)، ومن ضمن تشكيلاته الفيلق الألماني الأفريقي، والجيش الخامس بانزر. غادر روميل أفريقيا يوم 9 مارس 1943. وقد تم استسلام مجموعة جيوش أفريقيا يوم 13 مايو 1943 في تونس بقيادة المشير الإيطالي ميسا.

وخلال عامين من القتال، وبعيداً عن قواعده في الوطن الأم ـ ألمانيا ـ، سبب روميل مشاكل سوقية (استراتيجية) وتعبوية (تكتيكية) بتشكيلاته المحدودة، حيث أطلق عليه أعدائه: «ثعلب الصحراء».

كان روميل يؤمن بالسرعة والمباغتة، وكان دائماً على رأس قواته في الهجوم، مما سبب الإرباك لأركان قيادته بعدم تواجده في مقر القيادة، كان روميل جريئاً في قيادته، يتخذ قراراته حسب المواقف المتغيرة في الصحراء وفي الخطوط الأمامية، غير متقيد بالخطط المعدة سلفاً. كما أقر أعداؤه بإنسانيته اتجاه الأسرى من قوات العدو.

هذا الكتاب تعريب لكتاب: WITH ROMMEL IN THE DESERT لمؤلفه الملازم الأول هاينز فارنر شميدت (HEINZ WERNER SCHMIDT) مرافق روميل، قام بتعريبه الدكتور يونس عزيز من القطر العراقي الشقيق، وشاركت في التعريب ومراجعة الكتاب والتعليق عليه. لقد كان الملازم شميدت محظوظاً، فبينما كان على رأس سرية من المتطوعين ومعظمهم من البحارة في السفن

التجارية، الذين حوصرت سفنهم، حيث تم تشكيل سرية منهم لمساعدة الإيطاليين في أريتريا، وبعد هزيمة الإيطاليين في أريتريا أمام قوات القائد البريطاني الفريق ويفل، انسحب شميدت وأمر بالالتحاق بروميل في ليبيا. فغادر في آخر طائرة إيطالية انسحبت من أريتريا، وبعد رحلة مثيرة في الطائرة، وصل إلى مهبط رأس لانوف، ليلتحق بمقر الفيلق الأفريقي بفندق الودان في مدينة طرابلس، حيث عين مرافقاً لروميل.

إن شميدت يحدثنا عن روميل الإنسان، وروميل المقاتل ... ثم يطلب من روميل إعفائه كمرافق له ليقود وحدة مقاتلة .. فصيل مشاة في فرقة البانزر الخامسة عشر .. ثم ليقود سرية مشاة، وإحدى كتائب المجموعة الخاصة 288.

إن الكتاب يعبر عن وجهة نظر ضابط ألماني شاب حول وقائع وأحداث شارك فيها، في صحارى أفريقيا. وقد انسحب شميدت مع الجيش المندحر إلى تونس، ولكنه كما قلت كان محظوظاً، فلم يقع في الأسر في تونس بسبب حصوله على إجازة .. ليغادر تونس في يوم 25 أبريل 1943 من أجل الزواج.

وبينما كان شميدت يتجول مع عروسه هيرتا في الغابة السوداء بألمانيا، سمع في المذياع، بلاغ عسكري عن استسلام مجموعة الجيوش في أفريقيا.

إن الكتاب، مفيد للقارئ العربي عامة، والعسكريين خاصة .. فدراسة التاريخ العسكري التي جرت فوق أرضنا، نستنتج منها الدروس المستفادة.

وكثيراً ما يحدث في التاريخ أن معركة من معارك العصور القديمة، تتكرر بأسلحة مختلفة، ومتطورة . . .

إنني شخصياً أعتبر معركة عين الغزالة، والالتفاف العظيم حول بئر حكيم لجيش البانزر تحت القيادة العامة لروميل، وهو آخر المواقع البريطانية في عمق الصحراء، وقد دافع عنه لواء الفرنسيين الأحرار الأول تحت قيادة العميد كوينج . . هو تكرار لمعركة كاناي الذي حطم فيه القائد القرطاجي العظيم هانيبال هملكار برقة جيشاً رومانياً تعداده ثمانون ألف مقاتل روماني.

ولا بد لي أن أقدم الشكر للأستاذ سليمان هاشم اسليم المريمي والأستاذ أحمد مصطفى أبو قعيقيص لمراجعتهما للكتاب والتصحيح اللغوي، وشركة الطارق للحاسبات والمهندس علي محمد علي عبد اللّه عمران والفني حاتم عبد اللّه القدار لتصميمهما غلاف الكتاب كما أشكر الموظف محمد منصور التارقي، لإعادته طباعة الكتاب، كما أشكر كل الذين ساعدوا في إخراج هذا الكتاب.

والله الموفق. طبرق في 31 ـ 12 ـ افرنجي2001

العميد الركن/ سليمان محمود سليمان

طبرق في 31 ـ 12 ـ 2001

الفصل الأول

التحاقي بهيئة أركان روميل

قطاعات من حملة ألمانية بإمرة لواء غير معروف يدعى روميل قد نزلت في الشمال الأفريقي.

إن هذا الخبر شيء روتيني، ولا يتميز بأية إثارة، ولكنه خبر مهم بدون شك، إذ كان في نشرة استخباراتية تصدر عن القيادة البريطانية العليا في بداية شهر مارس من عام 1941. قرأت الخبر في وثيقة تم الاستيلاء عليها من العدو في مدينة (قرن)، حيث كنت في جبهة القتال الأريترية آمراً لقوة رمزية من القوات الألمانية المكونة من بحارة طوقت سفنهم في مصوَّع الميناء الإيطالي على البحر الأحمر، وعندما قرأت ذلك الخبر القصير لم تكن تساورني أية فكرة بأنني سألتقي وجهاً لوجه مع القائد المشار إليه بعد ثمانية أيام فقط، وأنني سأرافقه لأشهر عديدة في الصحراء الغربية، عندما كنا نهاجم بكل ضراوة.

كان روميل شخصية غير معروفة، لم يكن بطلاً، ولكن في ما بعد.

كنت لا أزال طالباً في الجامعة عندما أكملت فترة التدريب العسكري، عندها ارتديت البدلة العسكرية الملونة، وعينت قائداً لفصيل مشاة خلال الغزو لهولندا في عام 1939. وبعد ذلك خدمت في خط الدفاع الألماني المسمى (سيجفريد) خلال ما سمي (بمعركة التلفون) ـ إن خط سيجفريد، خط دفاعي ألماني مواجه لخط ماجينو الفرنسي ـ، وعملت في هذا الخط إلى أن استدعيت إلى برلين، وهناك عينت لمهمة خاصة في الجبهة الأريترية. ويومها اعتقدتُ بأَني قد شرفت بهذا التعيين، لأَن أوراقي الخاصة تذكر بأني ولدت في جنوب أفريقيا. وبما أنني لم أجد سبباً مهماً لكي أعترض على هذا التعيين، باعتبار أن والدي كانا قد غادرا ذلك القطر عندما كنت في الرابعة من عمري. قبلت ذلك الأمر بدون اعتراض، بوصفي خبيراً في الشؤون الأفريقية، وهذا هو الانطباع المعروف عني، لذلك قمت بهذه المغامرة.

في منتصف شهر مارس قامت قوات الفريق ويفل المكونة من قطعات هندية وبريطانية (هما الفرقتان الهنديتان: الرابعة والخامسة)، قامتا باحتلال مواقع من بينها مدينة قرن وأصبح من الواضح بأن هذا المدخل المنيع في أريتريا يجب أن يسحق في فترة قصيرة، ويحتل، وأن قوات اللواء كننجهام مع قوات جنوب أفريقيا تحت قيادة العميد دان بينار كانت هي الأخرى تتقدم بكل سرعة عبر

الصومال ـ متجهة نحونا، وبعد فترة قصيرة سنقوم بضربها في الحبشة (أثيوبيا). عندها وصلتنا الأوامر من برلين تقول: بأن مجموعتي المكونة من متطوعين من البحرية التجارية يجب أن تعود إلى سفنها المحاصرة في ميناء مصوع، ثم تحاول فك الحصار والرجوع إلى الوطن. أما بالنسبة لي فكان عليّ أن أطير إلى الشمال الأفريقي جواً وألتحق بالقوة الألمانية التي نزلت في طرابلس. ولحسن الحظ كنت قد تخلصت من الوقوع في الأسر في أسمرة، بحصولي على مقعد في طائرة من نوع سافويا وتلك كانت آخر طائرة إيطالية غادرت المنطقة حسب معلوماتي.

واصلنا الطيران خلال تلك الليلة بأكملها ـ كان معنا ثلاثة من الطيارين الإيطاليين السكارى ـ إلى أن وصلنا إلى مطار قريب من القوس المرمري[1] في خليج سرت. ومن هناك أخذت طائرة إيطالية صغيرة من نوع (قبلى) إلى مدينة طرابلس.

بعد إقلاعنا من أريتريا، اتجهت طائرة سافويا غرباً، وأثناء الليل تعرضت لنيران المدفعية البريطانية المضادة للطيران بكل ضراوة. بالنسبة لي، اعتقدت بأنه من المفيد أن أشغل تفكيري بأشياء أخرى من بينها: هل كنت قد سمعت سابقاً عن هذا الرجل المدعو روميل؟ والذي يفترض أن يكون في طرابلس الآن. إذ كان من المزعج حقاً أن يبقى هذا الرجل لغزاً، بينما هو على قمة

(1) القوس المرمري أزيل بعد الثورة. حيث يوجد مهبط رأس لانوف. حالياً (المراجع).

ذكرياتي. ومن الغرابة بمكان أن سطع بريق في ذهني على أثر انفجار قذيفة مدفع من المدافع البريطانية المضادة للطائرات، بجانبي تماماً، ثم أعقبها وابل من هذه القذائف المتفجرة حولي، وهذه كانت قد أزعجتني حقاً، كما أنها أخافتني، ولكن لا فائدة من ذلك، لذا واصلت الاستغراق في تفكيري وذكرياتي، وقد تواردت هذه الذكريات كسلسلة طويلة من أشباح الماضي، وخلال هذه الذكريات، سطعت في ذهني ذكرى (فرقة الشبح) في الحرب مع فرنسا..

إن اسم (فرقة الشبح) أطلق على الفرقة السابعة دبابات، بسبب شهرتها الفائقة في الهجمات المفاجئة، وظهورها غير المتوقع، ليس فقط في مقدمة الجبهة مع فرنسا، ولكن في التفافها حول ووراء الخطوط الفرنسية خلال تلك الحرب الخاطفة الرائعة، التي لم تدم طويلاً. نعم لقد تأكدت الآن من حقيقة ذلك اللغز الذي شغلني كثيراً. إن قائد هذه الفرقة الرائعة كان هو العميد روميل.

فتملكني العجب الآن، فيما إذا كنت سأراه في شمال أفريقيا.

وحسب التعليمات التي وصلتني لاسلكياً في أريتريا، قدمت إلى مقر القوات الألمانية المتمركزة في فندق الودان الفخم، بعد ساعات قليلة.

كان رئيس الأركان (آمر هيئة العمليات) المقدم فون ديم بورن الذي أمرني بدوره أن أحضر شخصياً للقاء روميل.

انتظرت في صالة الانتظار العامة، وعلى ما يبدو، فإن معظم

الضباط في فندق الودان كانوا غارقين في قيلولة، لأن الشمس الليبية الحارة خلال شهر مارس كانت تسحق الجسد، ثم أدخلني الملازم الأول آلدنجر الذي عرفته فيما بعد كمساعد شخصي لروميل إلى قاعة داخلية، حيث شاهدت لافتة على الباب تقول بكل بساطة «اللواء». دخل عليه، ثم عاد وقال بنغمة خافتة: «اللواء يرغب في أن يراك».

فأخذت نفساً، وبدأت تعديل بدلتي العسكرية، لكي أظهر بمظهر لائق حسب اعتقادي، ولكن بعد استخدامها لأشهر عديدة في أريتريا، لم تكن لتبدو مطلقاً بأنها قد أتت على التو من عند خياط بوتسدام وهذه من أشهر المؤسسات للخياطة في برلين. طرقت الباب، ثم دخلت استجابة لصوت قوي وعميق يقول: «ادخل»، فدخلت وإذ بي في غرفة رحبة.

أديت التحية بكل ما لدي من قوة وذكاء، وحاولت الكلام بدقة وبأسلوب عسكري مقدماً نفسي: الملازم شميدت، من السرية الآلية الألمانية المكونة من متطوعين ألمان في أريتريا، وحسب أوامر القيادة العليا للجيش الألماني التي تنص: «غادر أريتريا وقدم نفسك تحت تصرف اللواء». فتقدم اللواء مني ووقف أمامي، فألفيته ذا قامة قصيرة، ولكنها قوية ومتناسقة. إن ذلك أعطاني نوعاً من الثقة عندما لاحظت بأنه أقصر مني، مع العلم أنني رجل متوسط القامة.

بادرني بمصافحة قصيرة، ولكنه هز يدي بكل قوة. كان

رجلاً ذا عينين زرقاوين، تميلان إلى اللون الرمادي، وكانتا تمعنان النظر في عيني، كما لاحظت أيضاً أن هناك بعض التجاعيد غير العادية تمتد من زاويتي عينيه إلى عظمتي الخدين، في حين أن فمه وذقنه كانا بشكل حسن وينمان عن قوة، كل هذا قد دعم فكرتي عنه بأنه شخصية كلها حيوية ونشاط وقوة.

هل أنت قادم من أريتريا أيها الملازم؟. «نعم سيدي، لقد هبطت قبل ثلاث ساعات». أشار بسبابة يده اليمنى إلى الزاوية الشمالية لخريطة أفريقيا «ما هو الوضع هناك؟».

إنه سؤال متوقع، فأجبته من دون تردد: «إنه سيئ يا سيدي» عندها شعرت بأنه كان يجب علي أن أهذب ذلك التصريح. وبعد وقفة قصيرة، واصلت الحديث: «أعتقد بأنه لا يمكن القيام بأي عمل لإنقاذ الموقف هناك».

إن هذه الصراحة كانت: إما بسبب موقفي العسكري الضعيف في أريتريا أو لكوني متشائماً في تقييم الموقف العسكري في أريتريا، لكن ذلك التصريح كان قد سبب تغيراً خاطفاً في ملامح روميل وعينيه.

وتألق وجهه، وعيناه تمعنان النظر فيَّ بصورة متوحشة، ثم رفع ذقنه إلى الأعلى، وهذا جعلني أشعر بالندم وعدم الارتياح.

وعلى أي حال، ماذا تعرف عن ذلك الوضع أيها السيد الملازم؟، اعترى اللواء وجوم شديد ثم قال: «سوف نصل إلى النيل، ثم نعرج يميناً لنسترجع كل ما فقدناه هناك».

عندها لم أجد لدي ما أقوله، ونسيت حتى تحية الوداع الواضحة، «نعم يا سيدي اللواء». فاستدار روميل فجأة، ثم قال بلهجة هادئة من فوق كتفه: «قدم تقريرك إلى رئيس العمليات المقدم فون ديم بورن وهو الذي سيقرر ماذا يجب أن تعمل، ثم قدم لنا تقريراً مفصلاً عن نشاطك في أريتريا».

كما تعلمون لقد سبق أن التقيت برئيس هيئة العمليات فون ديم بورن فهو شخصية قوية البنية، يميل إلى البدانة بقليل، ووجهه مملوء ومستدير مع عينين ذكيتين، تنمان عن روح مرحة.

إن هذه الظاهرة كانت واضحة في كلماته عندما قدمت نفسي له، قال: «لربما قمت بنصيب عادل من الركض والانسحاب في الحبشة، وإني لست متأكداً الآن من إمكانية استخدامك معنا، ولكن ربما تمتلك بعض الخبرة السعيدة والمفرحة، قد تكون مفيدة لنا أخيراً».

وبعد فترة قصيرة، أردف قائلاً: «اذهب إلى الرائد شرابلر المسؤول عن شؤون الأفراد، وأخبره بأنك ضابط ذو جوانب مفيدة، ويجب أن توضع في الاستخبارات».

خارج مكتب شرابلر، التقيت بالملازم الأَول فون هوسلن وهو ضابط الركن المسؤول عن المعدات الحربية، وقد أخذ على عاتقه مهمة شرح بعض المصطلحات لي، ولكنه لم يخف شعوره بالكبرياء، وأن شرحه لم يكن يخلو من التفاصيل المربكة حول

تعاريف بعض الأقسام ووظائفها الموزعة بين ضباط أركان روميل، ثم لخصت أقواله بما يلي:

I A: ـ تعني ضابط الركن المختص بالتجهيزات والتموين.

I C:ـ ضابط الركن المختص بالاستخبارات، وخطط العدو في المعارك.

II A:ـ ضابط الركن العام المختص بشؤون الأفراد.

وفضلاً عن هذا، فإن فون هوسلن أخبرني بأنه في الساعة 1500 أي بعد نصف ساعة من الآن فإن اللواء روميل سيلقي خطاباً على ضباط الفرقة الخامسة الخفيفة التي وصلت طلائعها إلى طرابلس على التو، جميع ضباط الأركان وحتى أنا من بينهم، يجب عليهم الحضور.

أخذت الآن فكرة للمرة الأولى بأنني أحد أعضاء هيئة أركان روميل وإن لم يتم تعييني حتى الآن. اجتمع قرابة ثلاثين ضابطاً في غرفة استقبال عامة وكبيرة في فندق الودان، البعض من هؤلاء الضباط كان يثرثر في فرح صاخب، في حين كان غيرهم مشغولاً في حوار هادئ، لقد التقطت أذناي مزيجاً من الأصوات.

وبينما كنت أسير بينهم، حييتهم، ولكن كملازم صغير، قليل الأهمية، لم أكن لأحظى باهتمام أي منهم. ثم تمكنت من أن أميز واحداً أو اثنين من الأصدقاء القدماء، واقفين مع مجموعة من ضباط الأركان الذين لا أعرف أياً منهم. إن الأكثرية الساحقة من

الحاضرين كانت تتكون من شباب يضعون على ملابسهم العسكرية السوداء الخاصة بمجموعة المدرعات أوسمة الشجاعة.

وقبل أن يبدأ رئيس العمليات فون ديم بورن عملية عدّ الضباط الحاضرين، دخل روميل بصورة غير متوقعة، فاستعد الضباط جميعاً، ثم أعلن فون ديم بورن بصوت جهوري: «على ضباط الأركان، وضباط فوج الدبابات الاستعداد للمؤتمر».

عندها فوجئت، لأن ما حدث كان يبدو غير رسمي، لا سيما طريقة تقديم المؤتمر، لأنه وحسب تقاليد الجيش الألماني، فإن اللواء يعطي فكرة مختصرة عن عدد الضباط الحاضرين، وإلى أي الوحدات ينتمون وكم عدد الغائبين، وهكذا. ولكن من دون أية مراسم، بدأ روميل كلامه: «أيها السادة إني مسرور بوصول ضباط الفوج المدرع الخامس إلى طرابلس، بكامل قوتهم، بعد سفر دام أياماً عصيبة، فبعد وصول قواتكم المدرعة فإن الوضع في الشمال الأفريقي سيكون مستقراً، وإن هجوم العدو نحو ولاية طرابلس قد أوقف، وإن وحدات من الاستطلاع الخاصة بنا، والمتكونة من كتيبة عربات مدرعة تحت إمرة المقدم فون فايخمر قد وصلت إلى المواقع المتقدمة للجيش الإيطالي الواقعة في العقيلة بخليج سرت، إن كتيبتنا هذه قد دعمت الجبهة معنوياً ومادياً، ومن واجبنا أن نعيد ثقة الشعب الإيطالي بجيشهم، وأن ندعم الروح المعنوية القتالية بين حلفائنا».

كان روميل يتوقف بين جملة وجملة، ملوحاً بقبضة يده

وذراعه، ويثني جسمه إلى الأمام قليلاً، إن صدره القوي، وملامح وجهه الحيوية، وطريقة تعبيراته العسكرية التي تتميز بالدقة والنشاط، كانت تشير بكل وضوح إلى الإرادة والعزيمة. كان الضباط جميعاً واقفين ويصغون بكل إمعان لاستعراضه للموقف العام. ثم رفع صوته ولوح بقبضة يده قائلاً: «يجب أن نحافظ على ولاية طرابلس من هجمات الجيش البريطاني، ويجب أن نوقفه». وبعد وقفة، أضاف يجب أن نوهم العدو بنقاط قوتنا وضعفها، إلى أن يتم نزول الفرقة الخامسة الخفيفة إلى البر بكامل قوتها.

ثم إن فرقة أخرى ستتبعها، وبعد أن يتم إنزال كل دبابة من الفوج الخامس المدرع الألماني وفرقة الدبابات الإيطالية آريتي، سوف نستعرض في شوارع طرابلس بطريقة يمكن معها الاستحواذ على اهتمام:

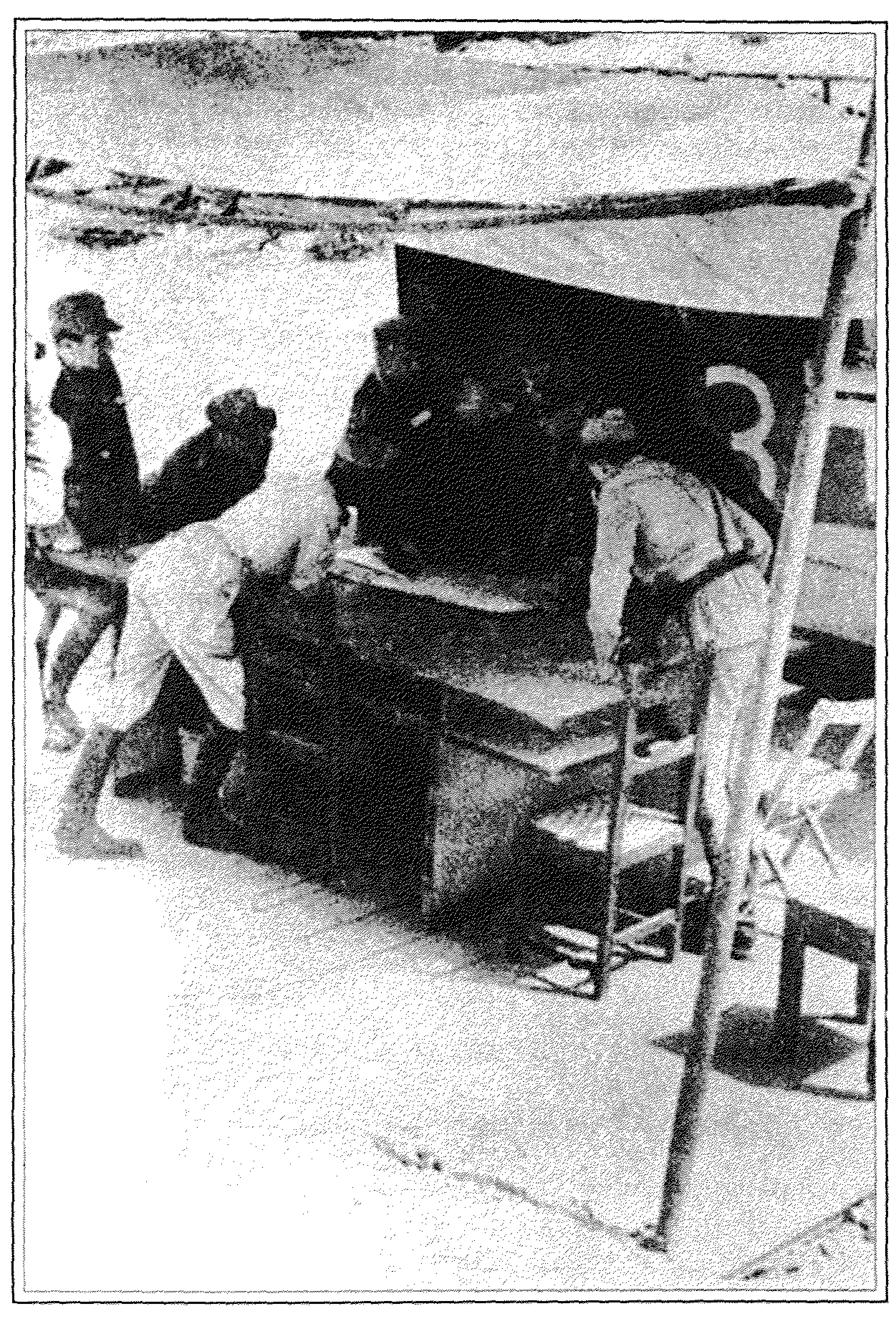
أولاً: اهتمام المدنيين من الإيطاليين.

ثانياً: جذب اهتمام جواسيس العدو.

إن تفاصيل ذلك الاستعراض قد نوقش مع آمر الفوج المدرع. وعند انتهاء الاستعراض، فإن الفوج سيتقدم إلى الجبهة على الفور، حيث يبقى كقوة احتياطية . . . كما إن الفوج نفسه سيكون مثالاً للقوات الإيطالية على ما أتوقع، وعلى الضباط والجنود جميعاً أن يكونوا في نظام مثالي. شكراً لكم أيها السادة، ويعيش هتلر».

ثم غادر روميل قاعة المؤتمر على الفور، متبوعاً برئيس

العمليات، والرائد إيهلر ضابط ركن العمليات وهو رجل طويل القامة وذو شعر أسود. وسوف ألتقي بهذا الضابط كثيراً. ثم كان المرافق آلدنجر، المرافق الشخصي لروميل الذي التفت إلي بسرعة، وهو رجل نحيف وقصير القامة، يقارب عمره الخامسة والأربعين، وكان ذو وجه نحيف وشارب صغير أشبه ما يكون بفرشة الأسنان. كان متأبطاً لوحة الخرائط الخاصة بروميل تحت ذراعه، في حين أن يده الأخرى كانت ممسكة بأسفل سترته العسكرية، ثم قال: «السيد شميدت، سيكون مكتبك في مقر ضابط ركن شؤون الأفراد، كما عليك أن تكون على اتصال بالملازم الأول هملر، أي ستكون مرتبطاً به، وستجده في مكتب ضابط ركن الاستخبارات، ومن دون شك، سوف نضعك في منصب يلائمك بصورة جيدة فيما بعد، وكان يتكلم بصورة ودية وبنبرة مبهمة، ولكنه أثار اهتمامي على الفور، خاصة أني كنت أشعر بالعزلة كما لو كنت ضالاً في أرض غريبة، بعد أن جئت من منطقة نائية وجبهة مندحرة. قمت بتنفيذ تعليمات آلدنجر، وخلال المساء ـ وعلى ما أظن، فإن ذلك اليوم كان الرابع عشر من مارس ـ، وبينما كنت مشغولاً بإعداد تقريري لروميل حول الوضع في أريتريا، التقيت بالملازم الأول برندت، وهو شاب مملوء بالحيوية والنشاط، ذو عقلية نشيطة. بدأ يتحدث عن السنين التي قضاها في مصر، وكيف كان طالباً في إحدى مدارس القاهرة مع رودلف هيس نائب هتلر، الذي سيعرف بطيرانه الجوي غير العادي إلى سكوتلاندة خلال الشهر القادم على وجه التقريب، وبالتحديد في اليوم العاشر من

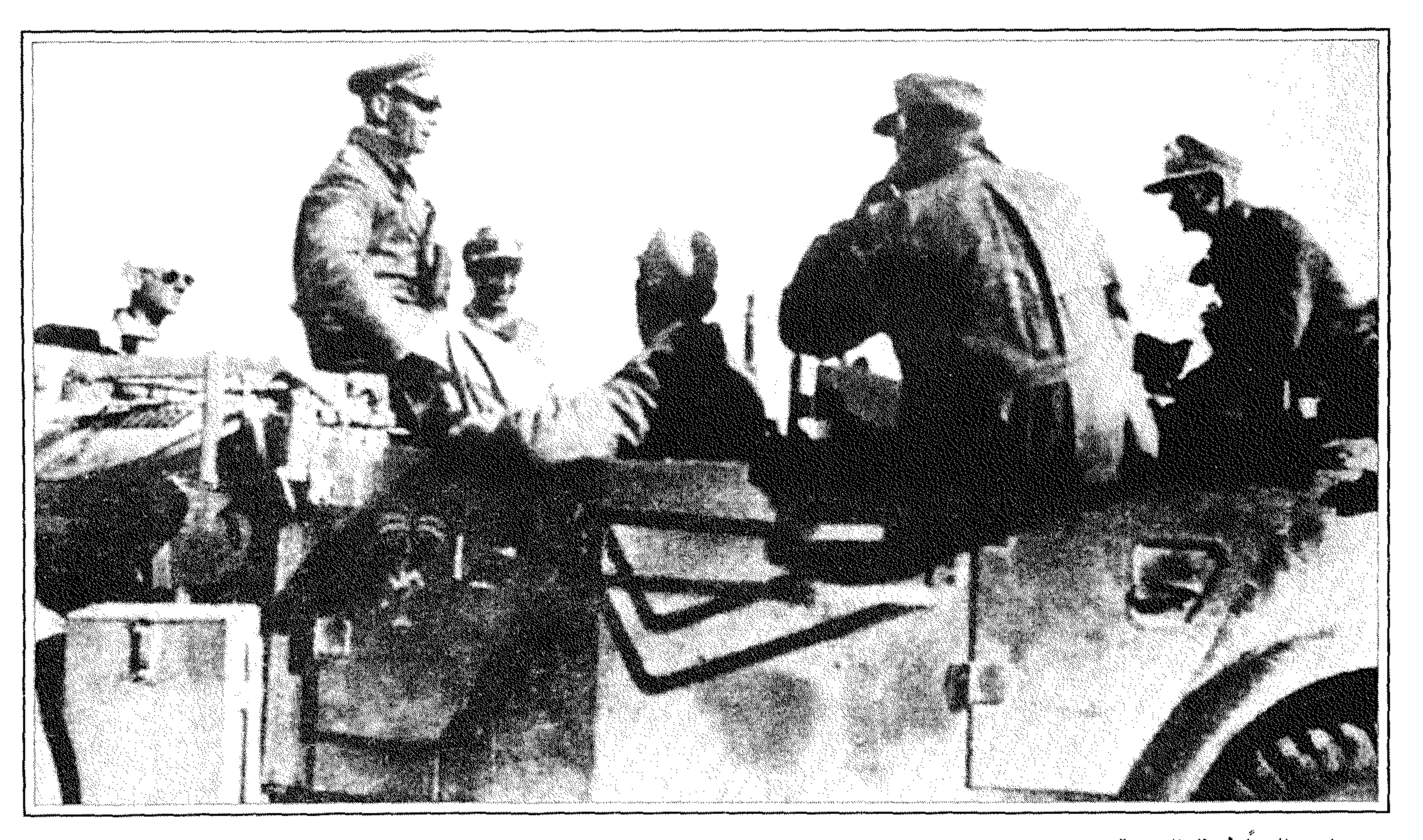


اجتماع بجانب عربة (الماموث) روميل يرتدي قبعة في الوسط. ويلاحظ اللواء الإيطالي كالفي (CALVI) مستنداً على المنضدة والمؤلف في أقصى اليسار مع النقيب آلدنجر

شهر مايو. إن برندت يتكلم الإنجليزية بصورة ممتازة، ويصغي إلى نشرة أخبار هيئة الإذاعة البريطانية كل مساء بانتظام، ثم يترجمها لروميل.

وبينما كنت مشغولاً بكتابة تقريري، كنت أصغي إلى نشرة الأخبار الإنجليزية كذلك مع برندت. وفجأة جلبت انتباهي كلمة جعلتني أتوقف عن الكتابة، وسقط القلم من يدي (كوبرك) ثم واصل المذيع كلامه قائلاً: «بأن سفينة الشحن الألمانية كوبرك ذات الحمولة 9000 طن، والتي كانت قد غادرت ميناء مصوَّع على البحر الأحمر، في محاولتها للوصول إلى المياه الأوروبية عن طريق البحر الأحمر، ثم رأس الرجاء الصالح قد تم إغراقها، بعد أن تم التصدي لها خارج مياه (مورشيوس) وتم إغراقها من قبل ملاحيها الذين أسروا مع غيرهم من المسافرين، ونقلوا إلى جنوب أفريقيا».

انتابتني مسحة من الحزن ممزوجة بنوع من الراحة. فقبل أسابيع قليلة كنت أعيش على ظهر السفينة كوبرك، كما كنت أتوقع بأن أكون على ظهرها في محاولتها فك الحصار الذي قامت به. ولكن القدر، مع الأوامر التي وصلت من برلين مباشرة، ساعداني على الرجوع إلى واجباتي على البر. وإن عدداً كبيراً من أولئك المسافرين كانوا أعضاء أسرتي من البحارة المتطوعين، والآن هم أسرى ومساجين في الأرض التي ولدت فيها، تلك الأرض التي أصبحت من بين الأقطار المعادية لي في ظروف الحرب، والآن تذكرت حبيبتي في ألمانيا، وهي لم تكن تعرف مكان وجودي، لذلك فكرت بضرورة إرسال رسالة عبر اللاسلكي صباحاً إن أمكن.



روميل جالساً فوق العربة

المصدر: المتحف الحربي البريطاني

الفصل الثاني

الخدعة في طرابلس

في اليوم التالي كان استعراض دبابات روميل قد أخذ مجراه في الشوارع الرئيسية لمدينة طرابلس، كانت الشمس ساطعة، غير أن المواطنين الإيطاليين لم يبدوا أي اهتمام باستعراض القوات الذي حدث في ذلك اليوم.

فالإيطاليون كانوا المجموعة الوحيدة من المدنيين الذين جاؤوا لمشاهدة العرض وتجمهروا حول المنصة، حيث كان روميل يرد التحية مصحوباً بعدد من القادة الإيطاليين. كنت واقفاً على مقربة من رئيسي الجديد، وكانت الدبابات تحدث قعقعة عالية، وهي تمر الواحدة تلو الأخرى حسب فترات منظمة، محدثة دوياً في شوارع المدينة، كان دوياً مزعجاً في تلك الشوارع المرصوفة بالحجارة، ثم تدور إلى شارع جانبي قريب محدثة زعيقاً وإزعاجاً بعد مغادرتها منصة الشرف بقليل، تعجبت لذلك العدد الهائل من

الدبابات المستعرضة، وشعرت بالأسى لكوني لم أفهم منذ البداية، إذ بعد مرور ربع ساعة لاحظت ثلمة في جنزير إحدى الدبابات تظهر على شكل علامة واضحة، تلك كانت دبابة من طراز (بانزر 4) كانت تبدو لي معروفة، ولكنني لم أرَ سائقها السابق، عندئذ فقط سقط القناع واكتشفت اللعبة كما يقول الإنجليز فلم أتمالك نفسي من الضحك. لا زال المزيد من الدبابات يمر وتحدث الزعيق والقعقعة عند استدارتها إلى الشارع من جراء جنازير الدبابات والعربات المدرعة، بينما كان الإيطاليون يمعنون النظر بأعين واسعة وبغباء. لقد عجبت أين ذهب حماسهم وحيويتهم؟. ولكن بعد قليل، بعد أن مرت الدبابات مجتازة منصة الشرف، لاحظت فجوة في صفوف الدبابات المستعرضة، وتلا ذلك طابور طويل من الدبابات الإيطالية، ولكن استعراضهم لم يتسم بالسرعة والضوضاء السابقة، وكان آمرو الدبابات يظهرون أنفسهم بصورة مرموقة وجيدة، وتبدو عليهم ملامح الشجاعة والجرأة والمغامرة. عندها تعالت الهتافات على الفور من كل جانب، كان الجمهور يلوح ويصفق بحماس كبير، ويهتف قائلاً: تحيا إيطاليا.

ألفيت نفسي مع رفاقي من ضباط الأركان، نفكر بالاستقبال الفاتر للقطعات الألمانية التي كانت قد أتت كقوة حليفة لتساعد في حماية المدينة، ويبدو أننا لم نحظ بالترحاب، بل كانوا يتحملوننا على مضض. بعد مرور آخر دبابة إيطالية، ألقى روميل أول خطاب عام له في شمال أفريقيا، فجاء خطابه بجمل ألمانية واضحة ودقيقة، معبراً عن ثقته بأن الجهود المشتركة للإيطاليين والألمان

سوف تنجح في إيقاف زحف القوات البريطانية، وكان المقدم هايجنرير ضابط الاتصال بالقوات الإيطالية، يترجم خطاب روميل إلى الإيطالية بصوت واضح وجملة جملة، وهو الضابط الألماني الوحيد الذي شارك في الانسحاب المأساوي من سيدي براني، عندما قام الفريق ويفل بهجومه في منتصف شهر ديسمبر فكانت هتافات الجمهور تتعالى كلما تطرق روميل إلى منجزات القوات الإيطالية. بعد انتهاء خطاب روميل بساعتين بدأت دبابات الفوج الخامس تزمجر نحو الصحراء، عبر الضواحي الشرقية لمدينة طرابلس، متجهة نحو العقيلة، حيث جبهة القتال، وحشود قوات ويفل، وهذه هي المرة الأولى التي كانت تتحرك فيها الدبابات الألمانية على الأرض الأفريقية بهدف اعتراضي (هجومي).

إن استعراض القوة الذي حدث في شوارع طرابلس لم يكن ذا أهمية بالنسبة للمواطنين الإيطاليين في تلك المدينة، ولكنه كان يبدو ذا أهمية بالغة بالنسبة للجواسيس الإنجليز، حيث إن الإذاعات أوضحت ذهول القيادة العامة البريطانية في الشرق الأوسط من قوة الحملة الألمانية في ولاية طرابلس. في اليوم التالي قدمت تقريراً إلى رئيس شعبة العمليات والتعبية (التكتيك) الرائد إيهلر حيث وجدته شخصية تتميز بالوضوح والثقة بالنفس وهو يبدو رجلاً جافاً، كان علي أن أكتب تقريراً آخر، وهو لا يزال تحت الإعداد في ذلك الوقت. أمرني بالدخول إلى الغرفة وقدم لي في عجلة تقديره وأوامره.

كان روميل يخطط لإيهام العدو وعلى الأخص قوات فرنسا الحرة (الديجوليين)، التي كانت تعتبر خطراً مستقبلياً، والتي كانت تحت قيادة اللواء ليكلير الموجود بعيداً نحو الجنوب بين الواحات. كان روميل قد وضع خطة لهجوم خداعي باتجاه الجنوب برتل آلي يفترض أن يقوده المقدم فون شفيرن، وهدف هذه القوة كان مدينة مرزق، صدرت الأوامر لي بمرافقة ذلك الرتل كخبير بشؤون الصحراء. ومن الواضح أن الحياة في طرابلس ستكون مملة فيما إذا بقيت فيها، لذا وافقت على طلب روميل من دون تردد، مدعياً بأني الشخص المناسب لهذا العمل. في تلك الليلة، قصفت طائرات السلاح الجوي الملكي البريطاني مدينة طرابلس، فأصيب أحد جدران غرفتي وتحول إلى أنقاض وتراب، كما أصابتني شظية بجرح في خدي، وأعتقد أن ذلك التراب سبب تسمم جرحي، فأرسلت على الفور إلى المستشفى، وعلمت فيما بعد بأنني لن أرافق الرتل إلى مرزق، بل الملازم الأول هوهماير، كخبير لتلك القوة، والحقيقة أنه شخص متخصص بشؤون الصحراء، بعد أن عاش في مصر مدة طويلة كمدني، لذا فهو خير من يستطلع الواحات. أما أنا فقد أصابني الإحباط لفقداني تلك التجربة الصحراوية الحقيقية، حتى وإن كانت معلوماتي بدائية جداً عن الصحراء. وبعد مكوثي أياماً قليلة في المستشفى، أخبرني آلدنجر: «إنك ستحصل على عمل مهم ضمن أركان روميل، وإن هذا سوف يبدد عنك الملل الذي ينتابك». كانت كلماته صادقة أكثر مما توقعت. وبالتدريج تعرفت على ضباط أركان روميل، فوجدت

المقدم هيجن راينر صديقاً ودوداً بصورة خاصة، رغم الفارق بين الرتب.

كان المعروف لدى الجميع أن كلينا يتميز بنفس الخبرة، إذ كان هو الوحيد الذي شارك في الانسحاب الإيطالي من مصر، في حين أني كنت مع الإيطاليين المندحرين في أريتريا. وإني أذكر هيجين راينر، يقول ويؤكد القول بأن البطل القومي الإيطالي المشير بالبو كان ضحية الدفاعات الإيطالية المضادة للجو، إذ أصابت هذه المدافع طائرته عندما أقلع مغادراً طبرق.

كان هيجين راينر يعيش في طرابلس في ذلك الوقت مع القادة الإيطاليين في دارة فخمة خلفها المشير المتوفى. عندها بدأ ضباط الأركان يطالبون بمكاتب مريحة، وطلبات أخرى تتعلق براحتهم المعيشية والعملية. ثم اتفقوا على أسلوب مهذب وطلبات مثل شراب الليمون، خلال ساعات النهار الحارة، بالإضافة إلى ارتداء بدلات عسكرية بيضاء ذات مظهر أنيق خلال ساعات المساء وبعد ساعات العمل، بينما كان روميل نفسه رجلاً إسبارطياً (نسبة إلى مدينة إسبارطة الإغريقية حيث كان الناس يعيشون حياة الجندية القاسية) يعيش حياة البساطة والزهد، وكان يلاحظ هذا بدون اهتمام، ثم أصدر أوامر فجأة تقضي بضرورة انتقال المقر إلى شرق ولاية طرابلس، لتحقيق الأهداف التالية:

أولاً: لكي يكونوا جميعاً على مقربة من القوات الآلية الموجودة في الاحتياط، خلف شعاب العقيلة، والتي كانت تواجه قوات العدو.

ثانياً: لكي يتعودوا هم أنفسهم، على نفس الظروف المناخية والمعيشية التي كانت تعيشها الفرقة في الميدان.

ثالثاً: للابتعاد عن الخطر الحقيقي المحدق بمقر القيادة، من جراء القصف الشديد لطائرات العدو التي كانت تساعدها شبكة تجسس واسعة سبق أن نظمها العدو في المدينة.

خلال الأيام القليلة الماضية زودني بتفاصيل حول كيفية مرافقة اللواء روميل، وكان هو نفسه يستشير ضابط الإمداد بصورة متواصلة. كان الرائد أوتو مسؤولاً عن تنظيم الإمداد (التجهيزات والتموين). وكان روميل يتفحص كل تقرير يتعلق بوصول القطعات والمواد: كالتجهيزات العسكرية والتموين والوقود، ولكن التقارير لم تكن لتسره دائماً. بينما كان البريطانيون يرسلون العديد من السفن المحملة بإمدادات إلى الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط. وقد وصلت إلى ميناء طرابلس سفينة كبيرة واحدة محملة بالذخيرة، ولكن تفريغها لم يكن بالسرعة الكافية مما عرضها للقصف، فانفجرت وحطمت حياً من المباني بأكمله مع جزء من المقر، محدثة دوياً وانفجاراً عنيفاً، كما دمرت السفينة بالكامل. قلق روميل بسبب هذه الأحداث، لكنه لم يسمح لمثل هذا القلق أن يصل به إلى الإحباط والاكتئاب، فكان يعزي نفسه بقوله: «شكراً لله، لقد وصلت سريتان من فوج الدبابات بدون خسائر وبكامل قوتها».

نعم أقول الدبابات، ومنذ اليوم الأول لوصوله إلى الأرض

الأفريقية فإن كلمة دبابات أهم كلمة كان يرددها، فالمدرعات كانت بمثابة الزبدة على خبزه.

وصلت أوامر من القيادة العليا في برلين، تفيد بتعيين روميل قائداً عاماً للفيلق الألماني الأفريقي، ولكن حسب ما أذكر، فإن أسابيع عديدة مضت قبل أن يستلم تأكيد ترقيته الأخيرة من رتبة عميد إلى رتبة لواء. أما عن تشكيلات الفيلق، فلم تتكامل، حتى إن الفرقة الخامسة الخفيفة، لم تصل بكامل قوتها بعد. لقد لخص الرائد إيهلر ضابط العمليات، الموقف في التقرير التالي: «إن نشاط العدو مقتصر على الاستطلاع فقط، وحسب تقارير استطلاعنا الجوي، فإن العدو يعمل على تقوية تشكيلاته وتعزيزها وتجديد قواته المدرعة. أما من جانبنا، فإن تشكيلات المشاة الإيطالية، لا تزال تحتل الجبهة، وإن كتيبة القديسة ماريا (مريم) كانت تتميز بصورة خاصة بمواقعها الأمامية ومخافرها، وإلى الأبعد كانت هناك فرقة دبابات إيطالية، هي فرقة آريتي المدرعة وفرقة بريسيا ووحدة استطلاع ألمانية هي كتيبة عربات مدرعة، كانت على اتصال بالعدو أما فوج الدبابات، فإنه وصل إلى مواقعه كقوة احتياطية متحركة. في هذا الوقت وصلت كتيبة الرشاشات الآلية، بالإضافة إلى كتيبة استطلاع، وهي كتيبة هندسة ميدانية (هندسة اقتحام) وسرايا إمداد، وبعض عناصر متقدمة من الفرقة الخامسة عشرة بانزر». وأضاف تقرير إيهلر: «إن الوضع الجوي قد تحسن لصالحنا، بعد التعزيزات التي وصلت إلى مقاتلاتنا، مع بطاريات مدفعية ضد الجو، كما إن الفرقة الخامسة الخفيفة بقيادة العميد سترايخ وأركانه، قد احتلت

مواقعها في منطقة (القوس المرمري)» (قرب مهبط رأس لانوف حالياً[1].

أمرت القيادة العليا للجيش الألماني قائد الفيلق الأفريقي باحتلال مواقع في منطقة سرت اعتباراً من هذه الليلة. لقد بدأ الزحف في ذلك المساء، وكان روميل شخصياً يقود الأرتال في عربته. وكان معه بالإضافة إلى السائق، ألدنجر ومراسل روميل وهو ضابط صف يدعى جنثر، قصير القامة، كثير القلق، أشبه ما يكون بلون القش الأصفر. ويتبع سيارة القيادة ثلاثة مراسلين على دراجات نارية، وعربة القيادة بها الرائد إيهلر ضابط العمليات والملازم الأول هوسلن، وهذان كانا يستطلعان الطرق ويتفحصانها لمراقبة العدو أثناء المسير، وكانت العربة التالية تقل المساعدين التابعين لي، وكان برفقتي في العربة الملازم الأول ضابط المخابرة المسؤول عن الاتصالات اللاسلكية، حيث كان يتصل في كل وقفة، عن طريق اللاسلكي، بعربات المخابرة في مؤخرة الأرتال.

بعد يومين من التقدم، تمركز مقر القيادة في سرت، وفي هذه المنطقة، لم يكن هناك أكثر من أكواخ قليلة وبسيطة، وهي منطقة رملية. كان هناك أراضٍ صالحة لهبوط الطائرات، وحشود هائلة من الذباب. هنا لا يمكن الحصول على المشروبات المثلجة، التي كنا نجدها في فندق الودان، ولم تكن سرت المكان الذي يسعدني،

---

(1) المراجع.

ولكن لم يكن لدي المتسع من الوقت لكي أتذمر أو أشكو من المنغصات.

وهنا وصلني أمر فوري: «على الملازم شميدت أن يتقدم إلى ضابط العمليات الموجود في عربة القيادة». ذهبت، حيث وجدت روميل جالساً في ظل إحدى الأشجار خارج عربة إيهلر يتحدث مع العميد فروهلينخ قائد السلاح الجوي في أفريقيا، أديت التحية العسكرية بقوة، ولكنهما لم يكترثا بي، فشعرت بأن كرامتي قد أهينت ـ وقد بلغت الخامسة والعشرين من عمري ـ، كما أنهم لم يبديا أي اهتمام بوجودي، لكنني تمكنت من أن ألتقط شيئاً من كلامهم، وعرفت أنهما منغمسان في قضايا أكثر أهمية من الاهتمام بي بكثير.

سمعت روميل يقول: «إن هتلر قد أمرني بأن أقوم باستطلاع بالقوة بالفرقة الخامسة الخفيفة، لذا فإنني سأحتاج إلى مساعدتك في الجو . . .»، ولكن صوت الهاتف الموجود في تلك العربة، قد طغى على الجزء الأخير من الجملة، مع جواب فروهلينخ واصل الحديث: «سأعمل ما في استطاعتي أيها السيد اللواء، ولكن . .» في هذه اللحظة سمعت صوتاً غاضباً من إيهلرت يقول: «شميدت، تعال على الفور».

الفصل الثالث

مغامرة في الواحات

دخلت عربة القيادة المدرعة، فوجدت إيهلر جالساً أمام عدد كبير من خرائط العمليات، «شميدت، استعد على الفور للقيام بمهمة خاصة خصصت لك من اللواء، فعليك أن تذهب على الفور إلى مقر قيادة الفرقة الخامسة الخفيفة، وقدم تقريرك هذا إلى رئيس عمليات الفرقة هناك». ثم أشار لي بأن أدنو منه أكثر، وقال: «هل ترى هذه الخارطة؟ هنا مباشرة أمام العقيلة، توجد مواقع كتيبة ألمانية، وإلى الجنوب من هناك تقع واحة مرادة، يبدو أن العدو لم يحتل تلك الواحة، عليك أن تأخذ مفرزة آلية مع عدد من العربات المدرعة لتحتل تلك الواحة، ومن هناك، أي من واحة مرادة، يجب عليك القيام باستطلاع، ثم قدم تقريراً حول: هل من الممكن لمفرزة قوية أن تزحف من مرادة، وتقوم بهجوم ناجح على واحة جالو التي يحتلها العدو؟». ثم أضاف إيهلرت: «إن هذه تعتبر ذات أهمية،

فيما إذا تم تنفيذها بكل نجاح». ثم واصل كلامه، وهو غارق في تفكيره: «إذا كانت مرادة محتلة، فعليك احتلالها من العدو، وإذا حاول العدو مهاجمتها فيما بعد، فعليك أن تدافع عنها مهما كان الثمن. وسوف تحصل على المزيد من المعلومات والتفاصيل من أركان الفرقة في منطقة القوس المرمري (عند مهبط رأس لانوف)[1]، فهل كل شيء واضح لك؟». رددت تلك الأوامر التي استلمتها باختصار. ولم تكن لدي الجرأة لكي أستفسر عن بعض الأسئلة التي كانت تدور في ذهني، لأني كنت أعرف مسبقاً بأن إيهلر لا يتعاطف مع من يثير الأسئلة ويطلب المزيد من الاستفسارات، وبينما كنت أستدير لمغادرة العربة المدرعة حيث كان إيهلر جالساً، ناولني خارطة العمليات في الصحراء، ثم قال لي: «اعتن بهذه الخارطة جيداً، لأن كل ما لدينا منها ثلاث نسخ فقط، قدم تقريرك هذا إلى الآمر قبل مغادرتك. فغادرت وكان يساورني شعور يحز في قلبي، ويخامرني شعور من العواطف الجياشة: شعور بالفخر للقيام بهذه المغامرة المتوقعة، وسرور بجانب مسحة من الخوف. بينما كنت أحزم أمتعتي واحتياجاتي للمهمة، أمرت السائق بأن يملأ خزان الوقود بالسيارة. وخلال عشر دقائق كنت جاهزاً للمغادرة فقدمت تقريراً إلى آمري، وأشار إليَّ روميل بالرحيل. إن الرحلة إلى القوس المرمري (مهبط رأس لانوف)، كانت مجهدة، لأننا كنا نواصل مراقبة طائرات العدو، التي كانت تطير على ارتفاع منخفض جداً،

---

(1) المراجع.

بحثاً عن قواتنا. في المساء شاهدت ذلك القوس العظيم في الصحراء، وإلى الجنوب منه وجدت حائطاً مبنياً من الحجارة الخفيفة، ومواقع محفورة للعربات، حيث يوجد مركز قيادة الفرقة الخامسة الخفيفة. على الفور قمت بتقديم تقريري إلى ضابط عمليات الفرقة الرائد هاوسار ـ الذي سيكون في المستقبل برتبة لواء، ورئيساً لأركان الجيش الرابع عشر في إيطاليا ـ وحالما قمت بهذه المهمة، دخل قائد الفرقة العميد سترايخ إلى خيمة الرائد هاوسار، عندها تولد لدي شعور بالمحبة لهذين الرجلين لكونهما اجتماعيين، وغير متمسكين بالرسميات، فقدما لي كأساً من الجعة، وهذا ترف لا وجود له في مقر قيادة روميل في الصحراء. لقد وجدتهما يعرفان كل شيء حول مهمتي، وكانا قد أعدا لي كل الترتيبات والاحتياجات. ناقشت معهما التفاصيل، ثم استدعيا ضابط ركن استخبارات الفرقة إلى الخيمة، وإذا به هو الآخر رجل اجتماعي، وإن كان يظهر قليلاً من الكبرياء وهو النقيب فون كلوغا، وهو ابن الفريق الشهير ـ المشير في ما بعد ـ فون كلوغا الملقب بهانز الذكي، حيث إن كلمة كلوغا التي يكنى بها، تعني ذكياً بالألمانية. لكنني لا أعتقد بأن هذا الابن سيتمكن من تحقيق الشهرة التي حققها والده.

تناولت الطعام في مطعم الفرقة، فوجدته مريحاً وجيداً فهو أجود مما تناولنا في مقر روميل. حيث يمكن هنا شراء المشروبات والسجائر وحتى الحلويات التي كانت تستهويني بصورة خاصة، لأنني لم أكن مدخناً.

إن الحوار حول مائدة العشاء في ذلك المساء تحول إلى السياسة، ولربما كنا نتكلم بدون تحفظ فكنت ألعن سياسة تشويه الحقائق وسوء معاملة الساميين. في عام 1938 كان غوبلز قد شوه سمعة الأمة الألمانية. كما قلت بأن السياسة ضد السامية لم تكن فضيلة. وكان يجلس على يميني ضابط احتياط متوسط العمر، من ملاك الأراضي في مدينة ميكلين بورج، فأبدى سروره على جرأتي هذه، وقال: «إنني مسرور لأسمع هذا من ضابط شاب، ولكن التفت إلى جارك فإن تفكيره مخالف لهذا تماماً».

جاري كان برتبة ملازم أيضاً، وقد قاربت سنه الأربعين عاماً، ويبدو مملوءاً بالحيوية والنشاط، وذو شخصية جريئة، يتميز بحاجبين كثيفين، يجعلهما دائماً بارزين إلى الأمام قليلاً، فيبدوان كما لو كانا ثقيلين، أو كما لو كان هو مطرقاً في تفكير عميق متواصل، فلم تبد منه أية إجابة أو رد فعل على حديثنا، ولقد عرفت بنفسي، وخلال ذلك الحديث عرفت بأن اسمه الملازم برندت، كان موظفاً مدنياً ومستشاراً في وزارة الدعاية التي يرأسها غوبلز، ومؤلفاً لكتاب حول الحرب بعنوان (قانصو الدبابات .. يشقون طريقهم)، ومع هذا فإنه لم يعلق على حديثي عن غوبلز، وما إن انتهى ذلك المساء حتى أصبحنا صديقين حميمين. كما لم يكن أحد منا يتوقع، بأننا سوف نعيش سوية لأشهر عديدة فيما بعد.

في تلك الليلة أمطرنا البريطانيون بالقنابل التي أطلقنا عليها اسم (أشجار عيد الميلاد) ثم أمطرونا بوابل من قنابل ضد

الأشخاص، شظية منها مزقت سطح خيمتي، وفتحت فجوة تظهر منظراً جميلاً لنجوم السماء في أفريقيا.

قبل شروق الشمس بوقت طويل، استعدت الوحدة، واتخذت موقعي على رأس الرتل المتجه إلى مرادة. كانت قوة المفرزة قرابة الثلاثين سيارة من بينها أربع عربات مدرعة، وعربة لاسلكي وقرابة ست عربات نوع (فولجس فاجن) وعربتان تحملان مدافع خفيفة ضد الجو، وعربتان أخريان تحملان مدافع ضد الدبابات. والبقية من سيارات النقل المفتوحة، تحمل جنود المشاة والذخيرة والتموين، وقد رافق الرتل ثلاثة من الضباط الشباب، وآمر السرية، وملازم آخر يدعى أيضاً شميدت، أي نفس اسمي، كان يرافقني في نفس العربة المدرعة، وملازم مسؤول عن اللاسلكي.

اتجه الرتل شرقاً، وما إن أصبحنا على بعد أميال قليلة من العقيلة، حتى أمطرتنا المدفعية البريطانية بوابل من قذائفها، حيث أجبرتنا على الانحراف عن الطريق الساحلي والاتجاه جنوباً.

اتجهنا رأساً مقتفين الممرات الترابية إلى مرادة، وكنا نراقب المنطقة، إلى أن تم التحاقنا بعد ساعتين بقوة استطلاع منفصلة من المدرعات الألمانية التي كانت تجوب الصحراء.

كان آمر المفرزة يستقل مدرعة ضخمة ذات ثمان عجلات، قام بتوجيهنا إلى الاتجاه الصحيح، وعرض علينا مرافقته لنا حتى أوصلنا إلى الطريق المؤدي إلى واحة مرادة، ثم واصلنا المسير.

بعد ذلك بقليل استلم ضابط المخابرة رسالة من قيادة الفرقة، تقترح التوقف، حيث التقطت وحدات التنصت رسالة بالإنجليزية تقول: «لوحظ رتل من العدو يتجه نحونا». عندها استطلعنا وتفحصنا الأفق بكل دقة، لأننا افترضنا بأن وحدات استطلاع بريطانية قد يكونون مستترين وراء بعض المرتفعات القريبة منا يراقبوننا ونحن متجهون على الطريق نحو مرادة.

قمت باستدعاء ست عربات من الرتل، وأمرتهم بانتشار على شكل مروحة غير مستقيمة لاستطلاع المنطقة المحيطة بنا، باتجاه الجنوب بحثاً عن استطلاع العدو، وبعد هذا بقليل، أبلغت عربة المخابرة، بأنها التقطت رسالة أخرى بالإنجليزية تقول: «إن ست عربات استطلاع خفيفة تابعة للعدو، مجهولة الصنع، تتجه جنوباً».

عند ذلك اتصل بنا ضابط الاستطلاع في عربته الضخمة، وقال: «سيهاجم المرتفعات التي كنا نعتقد بأن استطلاع العدو يستتر وراءها». كنت خائفاً من وجود حقل ألغام، فأمرته بأن يتقدم مائة ياردة فقط ثم يتوقف، فنفذ هذا الأمر، وعندئذ التقطنا رسالة أخرى: «إنني أشاهدُ سيارة مدرعة ضخمة تتقدم نحوي، فإذا تقدم العدو أكثر من هذا، فإنني سأضطر إلى إخلاء نقطة المراقبة».

أخذت مدرعتين خفيفتين لألتحق بعربة الاستطلاع الضخمة، (ذات الثماني عجلات) لتبادل المعلومات لفترة قصيرة مع آمر المدرعة، ثم قمنا بهجوم سريع على القمة التي كنا نشك بها. ولكن قبل أن نتقدم ميلاً واحداً، شاهدنا الغبار يتصاعد وراء ثلاث عربات

مدرعة بريطانية صغيرة، تنسحب بأقصى سرعتها. يبدو أن الميدان أصبح خالياً من العدو، ومع ذلك كنا حذرين، وتقدمنا بيقظة تامة، وقبل أن نصل إلى الطريق المؤدية إلى الجنوب، انفجر لغم في إحدى عرباتنا، ولحسن الحظ لم يصب منا سوى شخص واحد. عندها غادرنا آمر الاستطلاع في عربته الضخمة، بعد أن قدم لنا بعض النصائح، ووجهنا إلى الطريق الصحيح، ثم انطلق عائداً ليلتحق برفاقه، بينما كان ضابط الهندسة والمرافقون لنا مشغولين بتطهير ممر خلال حقل الألغام، فتمت هذه المهمة في نصف ساعة فقط، بعدها واصلنا الطريق المؤدي إلى هدفنا.

داهمنا ظلام الليل بكل سرعة وكانت طائرات العدو تجوب المنطقة على ارتفاع منخفض، وكان خطرها علينا لا يقل خطورة من الألغام، لذلك قررنا أن نستفيد من ضوء القمر ونواصل المسير خلال الليل، إلى أن وصلنا إلى واحة مرادة مع بزوغ الفجر المبكر، حيث وجدنا الواحة خالية من قطعات العدو، فأكملنا احتلالها دون طلقة واحدة. وبواسطة المترجم أخبرنا عرب الواحة، بأن مفرزة ضعيفة من القوات الإنجليزية المدرعة، كانت تعسكر هنا، وانسحبت شمالاً قبل يومين. لقد سررنا كثيراً لعثورنا على نبع ماء عذب يتدفق في هذه الواحة.

قضينا يومنا الأول في إعداد مواقع دفاعية، لصد الهجوم المعادي المحتمل على الواحة. في المساء كنا نصغي حول الحرب إلى نشرة أخبار هيئة الإذاعة البريطانية، وكالعادة فإن نشرة الأخبار

أوردت حوادث اليوم السابق، فاستمعنا إلى تقرير الإذاعة يقول: «إن العربات المدرعة الألمانية تتحرك جنوباً من العقيلة». فتأكد لنا بأن هذا الخبر يخص مفرزتنا، فشعرنا بزهو وارتياح.

إن مهمتنا الحقيقية بدأت باكراً في صباح اليوم التالي، بدأنا نخطط في كيفية استطلاع الطرق المؤدية إلى واحة جالو، والتي تقع على مسافة 150 ميلاً شرقاً. تركت آمر السرية في مرادة، واخترت سيارتين، تحمل كل منهما ثلاثة رجال لعملية جالو، كل سيارة مسلحة بمدفع رشاش خفيف ضد الجو وأربع صناديق ذخيرة. وكان المقعد الرابع محملاً بصفائح الوقود، من النوع الذي يطلق عليه الإنجليز اسم (صفائح جيري) وصفيحتي ماء.

كانت عرباتنا تعمل بحركة العجلات الخلفية، مع مبردات تبريد الهواء، وكانت كل منهما تحمل ألواحاً على كل من جانبيها، لاستخدامها في حال غرزت السيارات في الرمال الناعمة. كان الملازم شميدت قد رافقني في هذه المهمة، وقد تركت له اختيار اثنين من راكبي الدراجات النارية المتطوعين، وجنديين من جنود الرشاشات.

خلال الساعات الأولى من رحلتنا المتجهة إلى الجنوب، بدأت أفكر بأننا سوف لن نصل إلى هدفنا (جالو) حيث كانت سياراتنا تغرس في رمال عميقة بين آونة وأخرى. ولقد لاحظنا أن لون الرمال قد تغير بصورة تدريجية إلى لون ضارب للصفرة الخفيفة، ولكنه كان متماسكاً، فأصبح تقدمنا أكثر سهولة في اجتياز

الرمال بكل سرعة، وبعد مرور ثلاث ساعات من المسير، ظهرت أمامنا قمة تل منبسطة في اتجاه الأفق الجنوبي، عندها عرفت بأنه قد حان الوقت للاتجاه شرقاً، وهنا ظهرت أمامنا كثبان الرمال المخيفة، التي لا يمكن التعامل معها بسلام، وهذا ما كان يعرف ببحر رمال (كلانشو)، الذي عرقل مسيرنا.

أصبحت الأرض الممتدة أمامنا ترتفع بصورة حادة باتجاه الهضبة الشرقية، عندها تأكدت بأنه ليس بإمكاننا التقدم كما كنا قد خططنا.

عند وصولنا إلى قمة التل المسطحة، لاحظ سائقي أعمدة عالية مثبتة في الأرض وتمتد شرقاً، يفصل أحدهما عن الآخر مسافة ميل، وكان امتدادها موازياً للأرض المرتفعة، والممتدة شرقاً.

عندها فكرت بأن الأعمدة تشير إلى الطريق الممتدة جنوباً، فقررنا اقتفاءها كمحاولة للوصول إلى قاعدة الأرض المرتفعة أولاً، ثم الوصول إلى الهضبة. كان يوماً مكللاً بالفشل.

لقد واصلت التسلق على قدمي إلى قمة الهضبة حيث وجدت آثاراً جديدة لعربات بريطانية.

اختفى النهار أمام زحف الليل ونجومه الساطعة، تناولنا وجبة خفيفة من طعام جاف، مع عصير الليمون والمخلل، ثم لجأنا إلى الراحة. خلال ساعات حراستي كنت أفكر بالمشكلة إلى أن اقتنعت، بأننا حقيقة على الطريق المؤدي إلى الكفرة.

كانت المشكلة الأولى هي إيجاد طريق خلال كثبان الرمال، ثم تجنب السفوح المرتفعة المخيفة، والمؤدية إلى الهضبة.

واصلنا المسير عند الفجر. كنا نتحرك والعربات تسير جنباً إلى جنب، لكي نتجنب الغوص في أثار العربات الأمامية. وفي حالة توقف إحداها، على الباقين الإسراع في مساعدتها. وهكذا تمكنا من التقدم بصورة مستمرة، لأن هذه العربات الشعبية فولجس فاجن كانت خفيفة جداً، بحيث يمكن لأي رجل من إخراجها في حالة غوصها في الرمال، وكان على السائق أن يبقى خلف عجلة القيادة، بينما يقوم الجنديان المرافقان له برفع العربة لوضع الألواح تحت الإطارات، ثم تعاد الكرة من الجهة الأخرى.

لقد تأكد لي بأننا قد وصلنا إلى نقطة هي أقرب إلى الكفرة منها إلى جالو، وأصبحت الأرض أكثر صعوبة من ذي قبل، والرؤية محدودة جداً في جميع الاتجاهات، وكثبان الرمال ترتفع من حولنا. لقد انزلقت العربتان في وقت واحد من على القمة إلى وادي عميق، بين كثبان رملية هائلة، فأخذت هذه المشكلة من وقتنا عدة ساعات، قبل أن نردهما إلى المسار الصحيح مرة ثانية. كما استهلك هذا منا نصف كمية الوقود. والآن لا يمكننا عمل أي شيء، سوى العودة إلى مرادة، التي وصلناها في منتصف النهار التالي.

في اليوم التالي قمت بمحاولة ثانية مع رجال آخرين، وعربات أخرى، لكي أستطلع طريقاً خلال ما كان يبدو لي كثبان

رمال من المستحيل اجتيازها، تقع إلى الشمال الشرقي من قمة التل المسطحة، وهنا وجدنا الطريق إلى جالو، واكتشفنا بأن الواحة كانت محتلة من قبل العدو. ويمكن القول الآن بأن الطريق، كانت ملائمة للسيارات الخفيفة فقط. ولا تصلح لاستخدام الدبابات.

قررنا العودة بالمفرزة إلى مرادة، وقد ساورني شعور بالراحة تماماً، رغم أن نجاحنا كان محدوداً، حيث كانت تنتظرني مفاجأة في الواحة . .

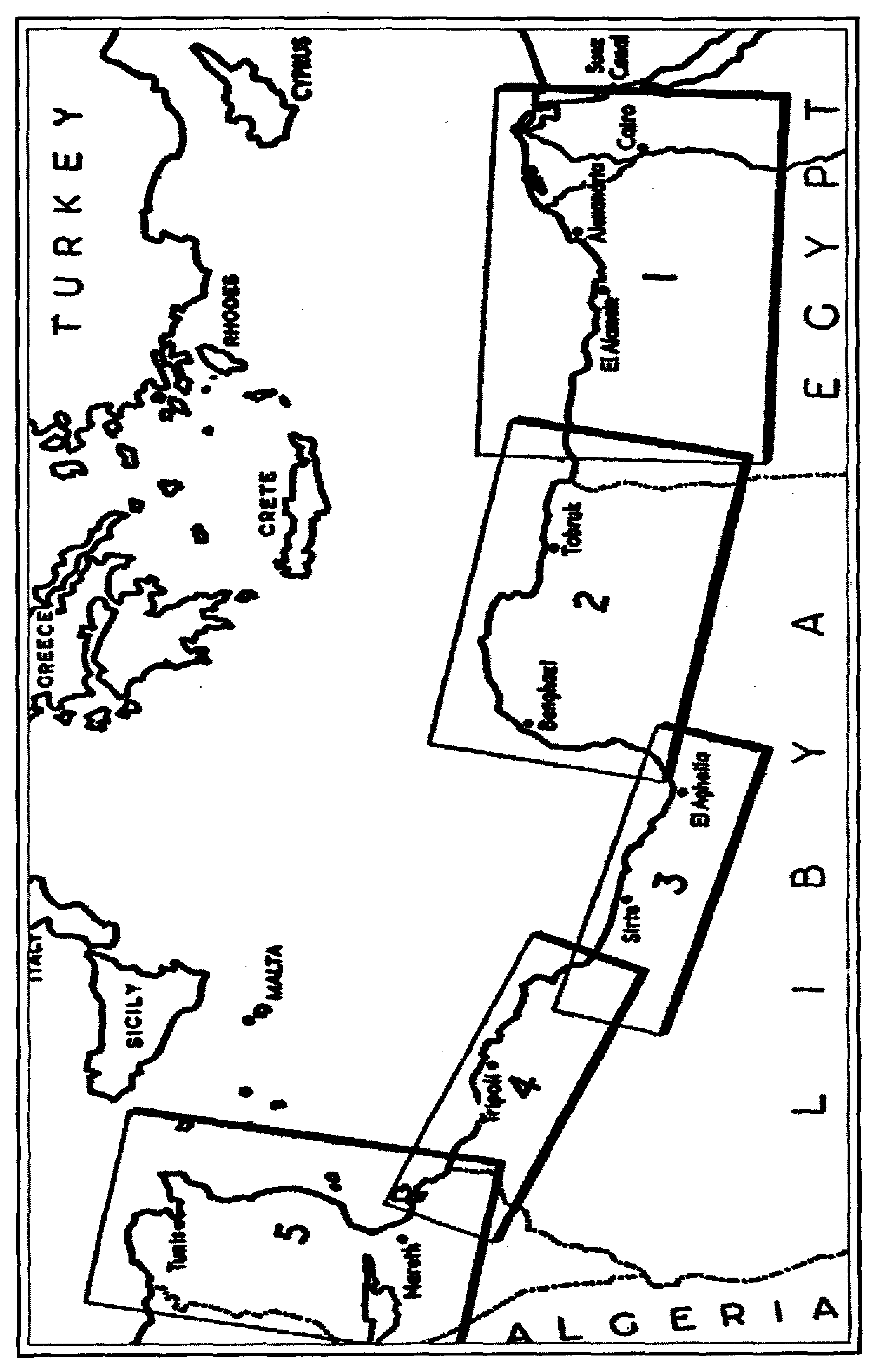
الفصل الرابع

مهمة عسكرية بطائرة روميل

«اختتم مهمة واحة مرداة، وقدم تقريرك إلى اللواء روميل على الفور». هذا كان نص البرقية التي وصلت عن طريق اللاسلكي. ورغم شعوري بالإنهاك حيث لم أنم أكثر من ساعة أو ساعتين في كل ليلة من الليالي الأخيرة. غادرت مرادة على الفور في ذلك المساء، مصطحباً عربتين من أحسن العربات الموجودة في تلك المفرزة، من حيث الكفاءة والعمل. كان هدفي مقر القيادة المتقدم المتمركز إلى الشرق من العقيلة، حسب ما ورد في البرقية المشفرة التي استلمتها عربة اللاسلكي.

في هذه المنطقة نفسها ومنذ أسبوع مضى، قام البريطانيون بقصفنا بمدفعيتهم. وقد تملكني العجب، كيف تغير الوضع؟.

إن ما حدث في الماضي هو الآتي: احتل البريطانيون مركز استطلاع المدفعية، على الأراضي المرتفعة وقمم التلال الواقعة



مفتاح الخرائط

خريطة 1 ـ 2 ـ 3 ـ 4 والخريطة 5

شمال الطريق الساحلي. إن هذا الموقع، مكن البريطانيين من إزعاج وعرقلة تحركاتنا إلى الأمام وإنهاكها بصورة متواصلة.

فأصدر روميل أمراً إلى سريتين من هندسة الاقتحام، لاحتلال مراكز الرصد الأمامية للمدفعية.

كان هجوماً ناجحاً تحت مراقبة روميل الشخصية من طائرته الخفيفة، نوع (فيسلرستورش)، وقد شاهد روميل القطعات البريطانية وهي تنسحب نحو الشرق. ثم هبط من طائرته الخفيفة، وأصدر أمراً إلى مجموعة عربات الاستطلاع المدرعة، بالتعاون مع دبابات فرقة آريتي الإيطالية، بأن تقوم بهجوم مضاد سريع، على الجناح الجنوبي لقوات العدو لتطويقه، كم أصدر أمراً إلى العميد فروهلينخ قائد القوة الجوية، بالاستطلاع ومتابعة نتائج هذه العملية. وكان تقرير الاستطلاع الجوي مذهلاً: «إن انسحاب مؤخرة العدو، بقوات كبيرة باتجاه أجدابيا وبنغازي يجري بصورة شاملة».

طلب روميل من العميد فروهلينخ، المزيد من المعلومات حول المناطق المحيطة بالمخيلي وشرق بنغازي. «إن قطعات العدو تقوم بانسحاب شامل نحو الشرق، خلال برقة». لقد دهش روميل، وقال: «لقد اقتربت الساعة!». هل من الممكن لمدرعات هيكلية، مصنوعة من الخشب ونسيج الكتان أن تكون حقيقة قد خدعت طائرات الاستطلاع المعادية حتى اعتقدوا أنها دبابات حقيقية. واعتقدوا أن هذا اعتراض (هجوم) رئيسي؟، وهل اعتبر العدو أن هذه الحركة المحدود ضد مراكز استطلاع المدفعية، بداية لهجوم

عام؟، وهل تصوروا أن دباباتنا، والتفاف قواتنا حول الجناح الجنوبي لقطعاتهم المنسحبة، بأنها الضربة الرئيسية الحقيقية الأولى لذلك الهجوم العام؟.

لم يكن روميل من الرجال الذين يضيعون الوقت في التفكير الخيالي والعقيم. لذا أصبح مسيطراً على الموقف، واستغل ذلك الضعف من جانب العدو إلى حده الأقصى، فارتجل هجومين: الأول بطول الساحل في اتجاه بنغازي تقوم به القطعات الإيطالية، والهجوم الآخر باندفاع الألمان باتجاه المخيلي. ولقد اتضح الموقف لروميل بعد أن علم أن قوات الفريق ويفل، قد أخطأت تقديرها لقوة التشكيلات المحورية.

لم يكن استعراض الدبابات في شوارع طرابلس مضيعة للوقت. ومن المهم جداً أن لا تنكشف الحقيقة. لقد كانت أوامر روميل كما يلي:

على كل التشكيلات المدرعة الألمانية التقدم، وتقوم عربات المؤخرة بإثارة الغبار.. ولا شيء سوى الغبار. لأنه في الصحراء، لا يمكن التمييز لأكثر من العربات المتقدمة في مقدمة الأرتال، بينما المؤخرة ينكشف عنها الغبار، وإذا كان الغبار كثيفاً، فهذا يعني أن الأرتال كبيرة. عندها تملك روميل لحظات من القلق وعدم الاستقرار، كان يريد أن يكون هو نفسه في كل مكان، في وقت واحد.

استقل روميل طائرته (ستورش) وطار بصورة متواصلة. أخذ يتنقل من موقع إلى آخر، فكان يستطلع الجبهة المترامية الأطراف

بأكملها، وها هو الآن موجود في كل مكان، وحتى في المناطق التي لم يكن أحد يتوقع وجوده فيها.

اقتربت من الساحل شرقي العقيلة تماماً، وجدت القليل من عربات الأركان. وبما أنني كنت منهكاً بعد تلك الرحلة من واحة مرادة خلال الليل بأكمله، نمت لمدة ساعة أو ساعتين. عند الفجر نهضت وأنا أشعر بنشاط وحيوية، ولو أن أجفاني كانت لا تزال متلاصقة بفعل الرمال المتراكمة عليها. وعند الساعة 0700 صباحاً، وجدت مقر القيادة المتقدم، حيث شاهدت العلم الألماني مرتفعاً على أرض المطار (أرض هبوط) بالقرب من أجدابيا.

لقد أصبح تقريري الآن عن الاستطلاع بين مرادة وجالو عديم الفائدة. لم يكن أحد يهتم بفرص التقدم إلى جالو.

استقبلني إيهلر ضابط العمليات بنفاد صبر قائلاً: «في أي أرض كنت مختبئاً؟». ولم يتوقع مني الإجابة. ثم انحنى ثانية على الخرائط التي أمامه، وتجاهل وجودي بالمرة، لبعض الوقت. كانت عربة القيادة المدرعة تعج بالحيوية والنشاط، وتوتر الأعصاب من جراء العمليات المتواصلة. كان الملازم الأول هوسلن ضابط الارتباط جالساً بجانبه، هادئاً ومتزناً، ولكن القلق وعدم الراحة كانا ظاهرين عليه، ومع ذلك لم يجرؤ على مقاطعة إيهلر. فاقتديت به ولم أنطق ولو بكلمة واحدة. وإذ بضابط المخابرة يندفع داخل العربة حاملاً مجموعة رسائل، أخذها إيهلر مباشرة، ثم قام بوضع علامات حمراء وزرقاء على خريطة العمليات. خارج العربة

شاهدت غباراً كثيفاً يتصاعد من مسافة بعيدة باتجاه الشمال الشرقي نحو منطقة مسوس.

وإذا برأس الملازم الثاني هملر يطل من خلال باب العربة، ويسأل: «هل ضابط ركن العمليات موجود هنا؟»... «إذهب إلى الجحيم...» صاح به إيهلر. عندها تمنيت لو كنت بعيداً في الصحراء بين القطعات المقاتلة.

كان إيهلر يتكلم بالهاتف مع رئيس الأركان. وفهمت من الحوار، بأنهما لم يعرفا مكان وجود روميل.

وقال إيهلر: «إن القائد يرغب في الطيران إلى مسوس بطائرته، ولكن الطائرة لا تزال رابضة على أرض الهبوط هنا».

في هذا الوقت زمجرت عاصفة رملية مزعجة، وكانت لا تزال على أشدها، ويطلق عليها الإيطاليون اسم القبلي (وهي التسمية العربية)، ويطلق عليها الإنجليز (الخماسين)[1]. وفي تلك الآونة كان كل واحد منا، يسحق حبات الرمال بين أسنانه من شدة العاصفة، وحرارة الجو كانت على أشدها، وأصبحت حشود الذباب عدائية في هجومها علينا.

ثم توقف إيهلر قليلاً، قبل أن يجيب ثانية: «ربما كان اللواء قد غادر بسيارته المكشوفة، وإن كلا من المقدم شرابلر وآلدنجر، كانا يرافقانه».

---

(1) المراجع.

يبدو أن فون ديم بورن، رئيس الأركان (رئيس العمليات) يطلب تقارير الاستطلاع الجوي، أجاب إيهلر (ضابط العمليات): «لا يمكن الاعتماد عليها بسبب العاصفة الرميلة ولكن يبدو من المؤكد، أن هناك حركة عامة للقطعات البريطانية باتجاه طبرق».

وبينما كان رئيس العمليات المقدم فون ديم بورن، يحلل الموقف العام من وجهة نظره، كان إيهلريت يصغي ويضرب بأصابعه على المنضدة بعصبية وأعلن قائلاً: «وهذا استنتاجي سيدي المقدم، إن الهجوم يجب أن يتجاوز المخيلي ويتجه نحو طبرق، قبل أن يحصل العدو على الوقت اللازم لإعادة تنظيم قواته ودعمها، وإن الأوامر الآن: على الفرقة الخامسة الخفيفة الاندفاع نحو المخيلي».

لقد أصدر أوامره إلى العميد، قائد الفرقة. ولكن هل لديه الصلاحيات لتغيير هذه الأوامر، وتوجيه الهجوم رأساً إلى طبرق مباشرة، بدلاً من المخيلي؟. إن المقدم فون ديم بورن وافق على هذا القرار وقفل الهاتف. التفت إيهلر، ونظر إلي نظرة مجردة.

أخذت الرؤية تتضح في عينيه، كما لو كانتا تحدقان النظر في شيء يتضح ببطء. وعندما تبين له ذلك بصورة واضحة قال: «أنا أفترض بأنك قد استمعت إلى المحادثة الهاتفية.. خذ سيارة.. لا، من الأفضل أن تأخذ الطائرة، واذهب إلى المخيلي جواً. ثم قدم هذه الأوامر الجديدة حول توجيه الهجوم إلى طبرق بدلاً من

المخيلي، إلى كل رتل من أرتالنا المهاجمة. أي أن جميع القطعات، يجب أن توجه هجومها نحو طبرق».

وأجبت: «إنني لم أسمع بالمخيلي، قبل هذا الصباح. ثم هل أخذ الطائرة بهذه السهولة، كما لو أنني أريد التقاط البيض؟ ثم أية طائرة سأستخدم سيدي الرائد؟». كما حاولت أن أسأل عن خارطة جيدة، ولكنني كتمت تلك الفكرة بكل لباقة. وعلى أثر ذلك وجدت وجه إيهلريت قد احمر، وجحظت عيناه قليلاً ثم أجاب: «يا للجحيم!. ماذا تعتبرني؟. ثم انفجر، هل أنا ممرضة لديك؟».

سيدي الرائد!.. وبدأت أتلعثم بالكلام. نهضت وأديت التحية، وقفلت راجعاً بكل سرعة من عربة القيادة. وبينما كنت أغلق الباب ورائي، فتحه على الفور إيهلر، ثم ناداني قائلاً: «خذ طائرة اللواء الخاصة».

وحيث إن الأوامر الصادرة لي كانت في غاية الأهمية..، أخذت تلك الطائرة الخاصة باللواء روميل. وهي وسيلة جيدة من وسائل النقل.

وجدت قائد الطائرة، وهو برتبة ضابط صف، أبلغته الأوامر، فتردد في البداية ولم يصدق أن ملازماً عديم الأهمية يمتلك صلاحية استخدام طائرة القائد العام. عندما اقتنع بأنني لم أكن مجنوناً، قال: «من الجنون حقاً محاولة الطيران في عاصفة رملية كهذه». وربما كان رأيه صحيحاً. ولكن في تلك اللحظة توقفنا عن الحديث بعد أن شاهدنا خلال تلك العاصفة قاصفات

العدو تدوي في الجو، وقنابلها تنفجر على مقربة منا، وفي الحقيقة لم نتمكن من مشاهدة طائرات السلاح الجوي الملكي البريطاني القادمة نحونا بوضوح خلال تلك العاصفة الرملية الشديدة.

إن تلك الغارة الجوية للعدو، أقنعت قائد الطائرة، بأن الطيران ممكن، والطيران يبدو أسلم من البقاء على مقربة من مقر القيادة. أخرج الطيار خريطة صغيرة، وتمكنا بعد جهد من تحديد موقع المخيلي عليها، بعد عناء، ركبنا الطائرة وأقلعنا، كنت مرتدياً قميصاً فقط بدون سترة من شدة الحرارة، كما لم أكن اصطحب معي معدات الحلاقة وفرشاة الأسنان. طرت نحو الجبهة في طائرة روميل.

في البداية كان من الصعب جداً على طيار روميل الارتفاع بتلك الطائرة، وبعد أن دارت عدة دورات حول مقر القيادة، لاحظت بكل ارتياح، بأننا كنا نرتفع بصورة تدريجية، وكنا نجد فجوات صافية خلال العواصف الرملية، بين آونة وأخرى، ومن خلال تلك الفجوات كنت أرى، ولو لبرهة قصيرة، أرتال قطعاتنا تتحرك. إن الأمر الذي لديّ لهذه القطعات كان: «اجتازوا المخيلي، وتوجهوا مباشرة إلى طبرق». إن هذا الأمر، كان يدوي في رأسي بصورة متواصلة، وقد تملكني العجب!.. فهل لرئيس الأركان (رئيس العمليات) الصلاحيات، لتغيير الخطط، تغييراً جذرياً من دون علم روميل؟.

أثناء الطيران، كنت آمل بأن تخف العاصفة الرملية، ولكن

بعد مرور ثلاث أرباع الساعة على إقلاعنا، كانت العاصفة تزداد سوءاً، ولم يتمكن قائد الطائرة من السيطرة على طائرته الصغيرة بسهولة، فكانت تتأرجح وتترنح بصورة غير معقولة، وتتلاعب بها الرياح العاتية. صرخت على الطيار بأعلى صوتي: «يجب أن تصل إلى هدفنا، وأنت تدرك مدى أهمية الأوامر!».

«تماماً أقدر هذا سيدي الملازم، أعترف به، ولكن ما هو مستحيل، يعني المستحيل».

وتأكيداً لجواب قائد الطائرة فإن الرياح قذفت بالطائرة بصورة عمودية إلى الأعلى، ثم رمتها إلى الأسفل، حيث واصلت هبوطها، عندها بدا لي أنه الموت المحتم. وقبلَ فوات الأوان، استقامت الطائرة، وأخذت تطير بصورة مستقيمة.

اتخذ قائد الطائرة قراراً، وقال بأعلى صوته: «إنني المسؤول عن الطائرة وسلامتها، والآن يجب أن أهبط على الأرض». لقد التزمت الصمت، وكنت متعجباً!.. كيف يمكنه الهبوط في مثل هذا الجو؟. لا سيما وأننا لم نكن نشاهد الأرض. على أيِ حال، ومن خلال تلك العتمة، خفّت سرعة الطائرة، وأخذت تهبط، وإذا بي أشعر أن عجلاتها بدأت تتدحرج على أرض الصحراء الوعرة ياردات قليلة، إن طائرة (ستورش) هذه يمكنها الهبوط على ساحة ملعب التنس.

قفزت من الطائرة مباشرة، وأنا في دوار تام، ولكن ليس هناك ما يشغل ذهني، سوى الرسالة المهمة وإبلاغها للقطعات. لقد

قرر قائد الطائرة البقاء، بعد أن ربط طائرته بحبال قوية إلى الأرض لكي لا تجرفها الرياح القوية. صرخت بأعلى صوتي في تلك العاصفة القوية، قائلاً له أن يبقى حيث هو حتى تخف العاصفة، بينما يجب عليّ أن أجد وسيلة أخرى للتنقل.

بدأت أركض مغمض العينين، في تلك العاصفة الرملية، لشعوري بأهمية كل دقيقة تمر من ذلك الوقت الثمين، وكأنها ساعات طويلة.

لقد غمرني إحساس بأنني بعيد عن كل مكان، وإذا بي أتعثر وأسقط على الأرض، عندها شاهدت شبح سيارة (فولجس فاجن)، تتقدم باتجاهي خلال عاصفة التراب الأحمر. لقد اشتدت العاصفة وانطلقت دوامة رملية كثيفة حجبت رؤيتها عني، اندفعت بأقصى سرعتي نحو تلك العربة، وناديت بأعلى صوتي. فشاهدني سائق العربة وأبطأ الحركة. ثم أمعن النظر فيّ بكل دهشة عندما قفزت إلى داخل العربة وأخذت مقعداً فيها. وإذا بالسائق يحذرني بقوله: «احذر الطماطم». ولكن بعد فوات الأوان. ثم قدمت نفسي وأنا منقطع الأنفاس، وشرحت له مهمتي. كان ذلك السائق، مراسلاً حربياً ألمانياً مشهوراً، يدعى فون إيزيبيك وكان هو الآخر قد ضل طريقه، فقال لي: «يبدو أنه لا وجود للحياة لأميال عديدة حول هذه البقعة». وكان من الصعب جداً معرفة موقع الشمس خلال العواصف الرملية، وبما أنه في هذا الوقت من النهار، تكون الشمس باتجاه الجنوب فقد اتجهنا يساراً. وكان من المستحيل

معرفة فيما إذا كان العدو أمامنا، أم خلفنا، ولكن كان هناك شيء واضح لنا، وهو يجب أن نتحرك إلى الشرق.

قبل غروب الشمس بقليل، عثرنا على مدفع من عيار كبير تجره ساحبة. كما وجدنا في هذا الموقع، مجموعة مكونة من ثمانية جنود من المدفعية الألمانية، وهم بدورهم، كانوا تائهين في الصحراء مع مدفعهم هذا من عيار 88مم المضاد للجو، وكان بصحبتهم عربة ضخمة تجر المدفع وعربة تموين. لم يكن بإمكاننا القيام بأي عمل سوى، أن نقضي الليلة معهم، رحب بنا أحد أولئك الجنود قائلاً: «إن عربة التموين معبأة بالبيض الطازج». قمت بسلق ثلاث بيضات، أعطيت واحدة لكل من، فون إيزيبيك المراسل الحربي، والأخرى لسائقه، والثالثة لي. في حين أن المراسل الحربي كان يعد القهوة، فبدت لنا وكأنها رحيق أزهار.

عند الفجر أصبح الجو صافياً كصفاء البللور، ألقينا نظرة حولنا نتفحص المنطقة على مدى البصر، ولكن لم نلاحظ أي أثر لإنسان أو عربات سوى أرض جافة باتجاه الجنوب الشرقي، حاولت تحديد الموقع على خارطة فون إيزيبيك، حيث الصحراء هنا مكسوة بكتل صخرية ضخمة كثيفة.

قررنا: المراسل الحربي ـ وهو برتبة عميد ـ وأنا التوجه إلى أرض سبخة لكي نتحرك بسرعة كبيرة على سطحها الممهد، كانت فكرة جيدة، لولا غارات طائرات الهاريكان البريطانية التي كانت تطير على ارتفاع منخفض، ويمكن أن تشكل خطورة علينا.

واصلنا المسير لعدة ساعات، قبل مشاهدة رتل على مسافة بعيدة، يتحرك نحو الشمال الشرقي.

كان فون إيزيبيك قلقاً جداً، لأننا سنصل بعد مضي الأوان بالنسبة له، كي يبرق تقريره كشاهد عيان.

تجاوزنا أرض السباخ، واقتربنا من أرض مرتفعة قليلاً، عندها شاهدنا في الجو باتجاه الشمال الغربي، وخلفنا قليلاً، طائرة تطير على ارتفاع منخفض، ثم ارتطمت بالأرض والتهمتها النيران، لم نكن نعرف هل كانت صديقة أم معادية، تقدمنا بسرعة نحو حطام الطائرة لنستطلع بأنفسنا. كنا نركض عشوائياً، إلى أن اندفعنا نحو موقع دفاعي، وبعد أن شاهدناه تنفسنا الصعداء، لكونه موقعاً ألمانياً، حيث وجدنا مدفعاً خفيفاً ضد الجو. نادينا بأعلى أصواتنا إلى آمر الموقع، وكان برتبة ضابط صف، وسألناه عن الطريق إلى المخيلي. فأجابنا، بأننا قادمون من طريق المخيلي. ثم أضاف بأن الهجوم على المخيلي على وشك أن يبدأ الآن.

انطلقنا، وبعد مسيرة دقائق قليلة، شاهدت مقر قيادة الفرقة الخامسة، وكان هذا من دواعي سروري.

ودعت فون إيزيبيك على عجل بعد أن شكرته على مساعدته، وأسرعت إلى الضابط الأقدم لأقدم تقريري إلى الرائد هاوسر. أصغى إلى كلامي بهدوء مثل إيهلر ثم قال: «يجب التفكير بهذا الأمر». ثم ناقش الأوامر الجديدة التي قدمتها له مع العميد سترايخ، ولكن العميد سترايخ قائد الفرقة، كان قد استلم الأمر من

روميل شخصياً قبل ساعات قليلة، لذلك فهو على وشك الهجوم على المخيلي.

تقدمنا إلى قلعة صغيرة في الصحراء، فوجدنا المواقع البريطانية حولها من ثلاثة اتجاهات.

كان الاشتباك حاداً، واستمر لمدة ساعتين فقط. عندها تمكنا من أسر قائد بريطاني وهو العميد كامبير باري، داخل خيمته، وبلغ عدد الأسرى ثلاثة آلاف أسير، لقد حققنا نجاحاً رائعاً آخر. كما قامت قوة آلية أخرى مكونة من دراجات نارية، بالاشتباك مع رتل بريطاني كان يتحرك عبر الصحراء شرقاً، وعلى مقربة من الجبل الأخضر. وقد اندهش رجالنا، عندما أسروا البطلين البريطانيين اللذين سبق وأن احتلا بنغازي، وهما اللواء ريتشارد أوكنور الحاصل على وسام الفارس، لانتصاره واجتياحه للجيش الإيطالي. واللواء سير فيليب نيم.

لقد كان مجموع الأسرى، ثلاثة من القادة البريطانيين مع ثلاثة آلاف أسير، كان مطار (مهبط) المخيلي مغطى بحطام الطائرات، حيث إن الطائرات البريطانية كانت تهاجمه بكثافة، وحطمت ما كان عليه من طائرات وفي غمرة إحدى هذه الهجمات الكثيفة، هبطت طائرة روميل الخاصة من الجو ونزل منها مبتهجاً، مبتسماً، مزهواً، بعد عودته من جولة استطلاعية شخصية، مسح خلالها مشهد الصحراء حول المخيلي.

لقد سقطت بين أيدينا غنائم كبيرة، ومن بين هذه الغنائم التي

غنمناها، عربات القائد البريطاني اللواء فيليب نيم، المدرعة، عربات قيادة، وكانت موجودة على أرض مرتفعة قليلاً، كانت العربة تتحرك على إطارات أكبر حجماً من المعتاد، وكانت مجهزة بأجهزة لاسلكية، ومرافق مكتب كامل للأعمال الإدارية، أطلقنا على هذه العربة المدرعة اسم (ماموث) لضخامة حجمها.

في ذلك الوقت لم نكن نعلم أن روميل سوف يستخدم هذه العربات الضخمة والمفيدة، مع ضباط أركانه وبقية القادة، خلال ذلك الصراع الطويل في الصحراء حتى النهاية.

تفحص روميل تلك العربات المدرعة الضخمة، باهتمام بالغ، وبعد مقابلة قصيرة مع القادة الأسرى، تفحص روميل المدرعات وهي تفرغ من المواد البريطانية، ومن بين تلك المواد، وجد روميل نظارات كبيرة ضد الشمس والغبار، فأعجب بها، ثم قال مبتسماً: «الأسلاب مسموح بها سآخذها، حتى وإن كانت تخص اللواء».

أخذ النظارات وثبتها على الحافة الذهبية لمقدمة قبعته. وستبقى تلك النظارات على قبعته إلى النهاية، كعلامة مميزة لثعلب الصحراء.

الفصل الخامس

على أبواب طبرق

قبل بزوغ الفجر، كان روميل يقود الزحف بنفسه متقدماً إلى طبرق. تلك كانت الليلة السابقة لوصول أركان الفيلق الألماني الأفريقي إلى المخيلي. لقد تجنبت اللقاء بالرائد إيهلر، أما روميل فقد وزع عربات (الماموث) بين بعض القادة، فأعطى واحدة للعميد سترايخ قائد الفرقة الخامسة الخفيفة، واحتفظ باثنتين منها لنفسه ولأركانه بعد أن تم طلاؤها ورسم الصليب الألماني على كل منها.

كنا قد غنمنا عدداً لا بأس به من عربات العدو، وقد خصصت لي سيارة قياة مكشوفة، مشابهة لتلك السيارة التي يستخدمها روميل اعتيادياً.

آلدنجر، الذي كان على وشك الرحيل بصحبة روميل في عربة القيادة، أعطاني بعض التعليمات: «السيد شميدت»، من الآن

فصاعداً، عليك أن تسافر دائماً وراء عربة القائد مباشرة، وسوف تكون تحت تصرفه بالكامل.

إن تلك الأيام وما بعدها، كانت مليئة بالأحداث المثيرة. ففي يوم 27 من شهر مارس استولى الملك بيتر على عرش يوغسلافيا بعد ثورة البلاط، في تمام الساعة 0200 صباحاً. وفي28 من نفس الشهر، هزم حلفاؤنا الإيطاليون من قبل البحرية الملكية البريطانية في معركة (رأس ماتابان). وفي اليوم التالي صادف وصول اللواء الأول من قوات جنوب أفريقيا إلى ديرداوا في الحبشة. عندها اتضح لنا بأن مصير أديس أبابا قد انتهى، ثم صادف سقوط مدينة أسمرة بعد يومين من سقوط أديس أبابا، ودخلتها الفرقة الهندية الخامسة، بقيادة العميد أل.أم. هيث في يوم 30 مارس. كان زحف روميل قد بدأ نحو العقيلة. وفي يوم 2 أبريل، أجبرنا الإنجليز على الانسحاب من مرسى البريقة، على ساحل البحر الأبيض المتوسط، كما طردناهم من أجدابيا، وفي اليوم التالي اضطر الإنجليز إلى إخلاء بنغازي وهي مدينة يصعب الاحتفاظ بها. في الوقت نفسه فإن انقلاباً مؤيداً للمحور، وقع في العراق بقيادة رشيد علي الكيلاني. وإن عدة مشاكل اعترضت الفريق ويفل، فكان عليه أن يفكر بحلها، حيث إن كلاً من وزير الخارجية البريطانية إيدن، والفريق سير جون ديل، رئيس الأركان العامة للامبراطورية البريطانية، هبطا في مدينة أثينا استجابة لطلب من الحكومة اليونانية التي كانت بحاجة إلى مساعدات عسكرية،

وأعتقد أنه كان على الفريق ويفل القيام بمسؤولية إرسال قوات من الشرق إلى اليونان.

ألمانيا غزت اليونان في صباح يوم 6/ أبريل، وفي الوقت نفسه تواصل زحفها داخل يوغسلافيا.

في يوم 7 من شهر أبريل، احتلت قواتنا مدينة درنة، بينما سقطت مدينة أديس أبابا، ذلك الشبح الذي كان يطاردني قديماً. ميناء مصوَّع أصبح على وشك الاستسلام، لقد احتلت من قبل اللوائين الهنديين: السابع والعاشر، بالإضافة إلى لواء من قوات فرنسا الحرة (قوات الشرق). أما في الصحراء، فإن روميل قد أصبح في القمة.

أثناء وقفة قصيرة، استلم روميل إشارة لاسلكية من برندت تقول: «وصلنا درنة». وكان مساعداً لركن الاستخبارات، وقد كلفه روميل بقيادة مجموعة من القطعات مع بعض من المدافع المضادة للدبابات، وقد شكلت هذه القطعة مؤقتاً كمجموعة قتال، ثم أمرت بالتوجه إلى درنة.

إن هذه القوة بقيادة الملازم أول برندت، كانت قد سبقت القوات الإيطالية المتحركة على طول الطريق الساحلي، وأخذت عدداً من الأسرى.

كان السلاح الجوي الألماني مشغولاً خلال الأيام الماضية بنقل بعض السرايا جواً عبر البحر الأبيض المتوسط، بهدف تعزيز الفرقة الخامسة عشرة بانزر، الذي تولى قيادتها العميد فون بريتفيز.

هذا القائد كان أول من وضع قدميه على أرض أفريقيا من القادمين الجدد، فقابله روميل، ولخص له الموقف ثم أمره باستلام القيادة والتقدم إلى طبرق. حيث اصطدم بالدفاعات المتقدمة للمدينة وقتل، وكان أول قائد ألماني يخر صريعاً، وهو على رأس قطعاته في أفريقيا.

عند حلول الليل وصل روميل وأركانه إلى بيت أبيض، كان معداً لسكن مهندسي الطرق الإيطاليين في وقت السلم ويقع إلى الغرب من طبرق. وقد تم تزيين الجدران الخارجية لهذا المبنى المربع الشكل بصور فنية، حيث رسم عليها صورة تخليداً لمزايا الشراب المفضل لدى الرسام، كما تم رسم مشاهد فنية جميلة لسباق الخيول.

كانت أعمدة البرق ممتدة عبر الصحراء تربط هذا المبنى مع حصن عكرمة، وعلى مقربة من هذا البيت الأبيض، وارينا التراب جثمان العميد فون بريتفيز مع الذين سقطوا معه من القتلى الألمان، في تلك المواجهة مع المواقع المتقدمة لمدينة طبرق.

لقد تمركز مقر قيادة الفيلق في واد يقع إلى الجنوب الغربي من البيت الأبيض. وخصصت واحدة من العربات المدرعة (ماموث) للرائد إيهلر كعربة قيادة (غرفة عمليات) واحتفظ روميل لنفسه بعربة الماموث الباقية.

في صباح اليوم التالي تقدم روميل نحو عكرمة، وكان الرتل في ذلك الصباح يضم سيارتي المكشوفة، وعربة مدرعة خفيفة

واحدة خلف عربة روميل. واصلنا الحركة نشق طريقنا على طول ذلك الممر الترابي المؤدي إلى عكرمة. إن ذلك الطريق الترابي، سيبقى مألوفاً لدينا لفترة طويلة، بسبب خطوط المواصلات التي تمتد على طول الممر الترابي إلى أن تم بناء طريق المحور الجانبية حول طبرق. بعدما وصلنا إلى ذلك الحصن الصحراوي البدائي، توجه روميل نحو الجنوب الشرقي باتجاه (العدم). ففتح العدو علينا وابلاً من قذائف مدفعيته المتحصنة في طبرق. كانت القذائف تنفجر حولنا وبين عرباتنا، وقد أرعبت تلك القذائف الغزلان التي اندفعت بين عرباتنا الثلاث، لكننا واصلنا الحركة والقذائف تتابعنا لمسافة بعيدة حيث كان تسجيل الأهداف من قبل العدو جيداً.

بعد مرور نصف ساعة على حركتنا، عثرنا على سرايا من المشاة الألمان الذين احتلوا مواقعهم على المرتفعات القريبة من العدم. توقف روميل قليلاً، وتحدث مع ضباطها الذين كانوا قد وصلوا إلى تلك المواقع قبل ساعات قليلة. ومن بين أولئك الضباط قابلت الملازم شميدت، وهو رفيقي في الرحلة الاستطلاعية التي قمت بها، بين واحتى مرادة وجالو. وبينما كان اللواء روميل يتكلم، بدأت قذائف المدفعية تتساقط بيننا، فقتل ملازم شاب، أما رفيقي شميدت ففقد ذراعه.

على بعد ميلين شرقاً، التقينا بالعميد سترايخ مع عربة الماموث التي منحت له، معزولاً هو وضباط أركانه في واد واسع. أوقفت بطاريات العدو من طبرق نيرانها تواً، وأشار روميل إلى

سترايخ بإيماءة وقال: «لربما كان على الإنجليز، أن يوفروا ذخيرتهم، لأنهم سيحتاجون إلى كل ما لديهم من ذخيرة».

لكن البريطانيين ناقضوا كلام روميل، وأمطرونا بوابل من قذائف مدفعيتهم من جديد، التي أخذت تنفجر على مقربة منا محدثة أصواتاً مزعجة. ومن الواضح بأن تلك القذائف كانت موجهة إلينا. ولكن سرعان ما لاحظنا بأن تلك القذائف لم تأت من طبرق، بل من الجنوب، ومن خلال المناظير شاهدنا سلسلة من المرتفعات محاطة بمبنى منخفض وطويل، بالإضافة إلى خط من أعمدة البرق، عندها قال روميل، بصوت هادئ: (العدم..) وأخذ يمعن النظر في خريطته بكل سرعة، ثم عاود استخدام منظاره ومسح الأرض المحيطة بنا.

لقد لاحظ روميل عربة مدرعة واحدة، وهذه حسب اعتقادنا، كانت موقع الاستطلاع والتوجيه لمدفعية العدو. حاولنا تنظيم تدابير مضادة، ولكن بعد مرور خمس عشرة دقيقة، اختفت السيارة، وعلى أثرها انقطعت نيران العدو.

ناقش روميل الوضع التعبوي (التكتيكي) مع العميد سترايخ. وقبل أن نغادر المكان، كرر روميل كلامه لقائد الفرقة: «يجب أن نهاجم طبرق بكل ما لدينا من قدرة وعلى الفور، إن دباباتك قد أخذت مواقعها الآن، ويجب ألا نعطي الإنجليز الوقت الكافي، لكي يحفروا مواقعهم ويحصنوها».

عند غروب الشمس، غادرنا ذلك المكان، إلى المعسكر المؤقت إلى الغرب من البيت الأبيض.

واصلنا الحركة ثانية خلال غبار كثيف إلى عكرمة، حيث شاهدنا أرتالاً أمامنا من الاتجاه المضاد، وكانت جميعها تثير الغبار الكثيف بحيث لم نتمكن من تحديد اتجاهنا، إلا بصورة تقريبية، وكنا نتعقب الممر الصحراوي بمساعدة أعمدة البرق المقامة على امتداد الممر الترابي.

وكالعادة كان رتلنا يتكون من ثلاث عربات، هي: عربة روميل وسيارتي والعربة المدرعة الخفيفة.

في عكرمة شاهدنا الملازم الأول واهل، مع أربع دبابات، وعند وصول اللواء، أسرع الجميع بالاستعداد، تكلمت مع واهل وهو رفيق نشيط، ومملوء بالحيوية والمرح، وذو معنويات عالية، كان روميل يقوم بمسح طبرق والمواقع المحصنة شرقها من خلال منظاره الميداني، وكان صامتاً كما لو كان مفتوناً بما يشاهده. كانت قامته منتصبة وساقاه منفرجتين، ثانياً ذراعيه لكونه ممسكاً بمنظار من نوع (زايس) على عينيه. كانت ذقنه بارزة إلى الأمام، ونظارات الغبار ـ نظارات المخيلي ـ لا تزال مثبتة على الحافة الذهبية لقبعته. وفجأة قال روميل: «أيها السيد الملازم علينا أن نتحرك، وأخبر ذلك الضابط أن يتبعنا بدباباته مباشرة». ثم قفز روميل إلى عربته، وواصل الحركة إلى الأمام. أبلغت أوامره للضابط الذي استدعى دباباته فوراً بمجرد إشارة، وإذ بعدة أذرع تندفع إلى الأعلى. لقد

لاحظت واهل يصعد دبابته مبتسماً ويقول: «التحرك إلى طبرق».

تحركنا شرقاً إلى عدة أميال. وبين آونة وأخرى، كانت قذائف مدفعية العدو تنفجر على مقربة منا. وفي أحد الوديان، مررنا ببطارية إيطالية كانت ترد على نيران مدفعية العدو الصادرة من موقع (مفترق طرق الملك)[1] حول طبرق. وكان رد المدفعية الإيطالية محموماً.

توقف روميل فجأة، وأخذ يدرس خريطته، ثم التفت إلى الوراء، ولاحظت أن الدبابات كانت بعيدة ولم تتمكن من مسايرة سرعتنا، حيث كانت على مسافة بعيدة، وسحب غبارها ترتفع إلى الأمام، ولاحظت أن القائد العام كان يشير على الخريطة، حيث ركضت إلى جانبه، ووضع إصبعه بقوة على قسم من الخريطة، قائلاً: «لقد ميزت الجناح الغربي من الخط».

«إن بطارية المدفعية الإيطالية هذه، كانت قد احتلت مواقعها بصورة غير صحيحة.. ولكن أين كتيبة البرسياليري؟. كان يجب عليها أن تأخذ مواقعها على الأراضي المرتفعة، الواقعة أمامنا مباشرة».

ثم نظر في الخريطة مدققاً، وقال بغضب: «يبدو واضحاً أن

(1) مفترق طريق: العدم ـ طبرق ـ البردى، أطلق التسمية البريطانيون في خرائط العمليات (اسم كودي) وأطلق عليه أيضاً اسم (فورك) الشوكة. (المراجع).

القائد الإيطالي قد احتل موقعاً خاطئاً. إضافة إلى أن الآمر الإيطالي على ما يبدو غير موجود مع رجاله حتى الآن».

وفجأة انهالت القذائف المتفجرة على ذلك الوادي بأكمله، وانفجرت القذائف فوق رؤوسنا على وجه التقريب. صاح روميل قائلاً: «أعط أمراً للدبابات بأن تبقى في مكانها حيث هي، إلى أن تصلها تعليمات أخرى. ثم قال لي، إنني ذاهب إلى تلك القمة من الأرض المرتفعة التي أمامنا». إن الرجوع من خلال الوادي باتجاه الدبابات لم يكن بالأمر الهين، حيث إن نيران العدو على أشدها. كنت أشعر بارتياح بعد أن أبلغت الأوامر، وبإمكاني الآن أن أوجه سائقي لكي يستدير ويتجه بكل سرعة نحو الجبهة ثانية. تركت سيارتي أسفل القمة وتسلقت راكضاً.

هناك وجدت روميل منبطحاً على الأرض، والقنابل تنفجر حوله يميناً ويساراً. كان بمفرده، لأنه لم يأخذ آلدنجر معه في ذلك اليوم، بل تركه في المقر لكي ينجز الكثير من مراسلاته المتأخرة.

أخذت أراقب روميل وهو منبطح على بطنه، يدرس الأراضي ويدرس الأرض الممتدة أمامه من خلال منظاره، لقد كان فمه مطبقاً، وشفتاه المشدودتان واضحتين للعيان، ووجنتاه البارزتان قد أصبحتا شاحبتين. بينما قبعته كانت مائلة إلى مؤخرة رأسه.

وأخذ يزمجر: «حصن بلاسترينو». فنظرت بسرعة إلى خارطته قبل أن أنبطح وراء مجموعة من الصخور، ثم بدأت بمسح المنطقة الممتدة أمامي. فالأراضي الممتدة أمامنا كانت مجرد سفوح

منحدرة، ثم تليها سفوح أخرى صاعدة بنفس تدرج الأولى. وعلى القمة المقابلة، شاهدت أكداساً من الحجارة قائمة على شكل مثلث، ومحاطة بشبكة من الأسلاك الشائكة. ووراء تلك الصخور بمسافة، يبرز تل مرتفع من الحجارة، فاعتقدت أن ذلك هو بلاسترينو، وهو مركز استطلاع العدو.

بدأ روميل يتفحص الدفاعات الحقيقية لطبرق لأول مرة، ولكن ليس لدينا القدرة والمعلومات عن قوة تلك الدفاعات، وكان كلانا يشاهد تشكيلات عسكرية تتحرك في محيط تلك الأنقاض، أكداس الصخور التي أمامنا.

لقد كررت الأمر، وسبق أن لاحظت وجود واد أكثر عمقاً، وغير بعيد عن الوادي الجنوبي، فغامرت بالاندفاع واقترحت على روميل، سيدي القائد: «أيمكن» عندها تملك روميل نوع من الإلحاح مشابه لإلحاح الصيادين: «أيها الملازم. . ! أصدر أمراً إلى الدبابات، للهجوم، وأن تتقدم على طول الوادي الأعمق؟.».

لقد ومضت عينا روميل، واحمّر وجهه، قائلاً: «أيها السيد الملازم، إنني لست غبياً كما تعتقد»، أديت التحية العسكرية، وأسرعت راكضاً لتنفيذ التعليمات. وكنت متجمداً من جرّاء وقاحتي. ولبرهة أصبحت القنابل تتساقط حولي على أشدها، نتيجة لغبائي.

وحالما وصلت إلى الدبابات، بدأت بتوضيح الأوامر إلى الملازم، وقدمت موقفاً موجزاً للأراضي الممتدة أمامنا، قام

الملازم بدوره بإصدار التعليمات إلى آمري الدبابات الأخرى من خلال مكبر الصوت المثبت في جهاز اللاسلكي، ثم ابتسم بكل هدوء، وأومأ بيده تحية لي قبل أن يغلق برج دبابته، ثم شرعت دبابته بالحركة، تليها الدبابات الأخرى وراءه.

أخذنا نراقب هجوم الدبابات، وهي تقوم بتنفيذ الأوامر، وتقترب من الهدف، وهو الأنقاض وأكداس الحجارة. وإذا بنيران مميته تتساقط حولهم بصورة غير متوقعة. وبعد لحظات قليلة، قامت عدة بطاريات مدفعية بتوجيه نيرانها على مواقع استطلاعنا. عندها بدأنا نهرول لإيجاد ملاجئ فوق ذلك السفح، بينما كانت قذائف العدو تزداد قوة، ثم بدأت تتساقط بين مواقع البطاريات الإيطالية، حيث أبيد أحد المواقع مع الجنود التابعين له بالكامل من جراء قذيفة مباشرة. لقد انفتحت أبواب جهنم علينا حتى غروب الشمس عندما توقفت نيران مدفعية العدو، فرجعنا إلى مقر القيادة المتقدم بالقرب من البيت الأبيض، ولكن الدبابات لم تعد.

بعد مرورة أسابيع، وبينما كانت مجموعة من رجال هندسة الاقتحام تقوم بالهجوم على موقع رأس المدور، عثرت على جثمان الملازم آمر الدبابات، محترقاً ومعلقاً على الأسلاك الشائكة المحيطة بتلك الأنقاض.

الفصل السادس

قـائـد على جملـه

تحصل رجال الفيلق الأفريقي على خارطة دفاعات طبرق في ذلك اليوم. تلك كانت المرة الأولى. وبما أن تلك الخارطة كانت معدة من قبل حلفائنا الإيطاليين فقد توقعنا الحصول على نسخ غير محدودة منها، ولكن لم نحصل سوى على نسختين فقط، الأولى كانت من نصيب اللواء روميل، بينما كانت الأخرى قد سلمت للعميد استرايخ: قائد الفرقة الخامسة الخفيفة. لقد أعجب روميل بمهارة إنشاء المواقع وعمق الدفاعات بصورة عامة، وحقيقة كانت الخرائط تمثل دقة تقارير الاستطلاع الجوي التي كنا نشك بصحتها لحد ما، وعلى ما يبدو، فإن سترايخ لم يبد اهتماماً كبيراً وحماساً بدفاعات طبرق القوية.

لقد حل ظلام الليل على المنطقة قبل أن نتمكن من العودة إلى مقرنا.

خلال شهر أبريل بأزهاره كان روميل يصيح دائماً: «على كل رجل أن يتقدم إلى طبرق». وفي هذا الوقت، وصلت بقية وحدات الفرقة الخامسة الخفيفة، وكانت الفرقة الخامسة عشرة بانزر لا تزال تنقل عبر البحر الأبيض المتوسط، غير أن مشاة تلك الفرقة كانت قد هبطت جواً في مدينة درنة، كما بدأت تشكيلات إيطالية في الوصول أيضاً، وهكذا تمكنا من إحكام الطوق يوماً بعد يوم، حول طبرق. طوال تلك الأيام كان روميل يقضي نهاره مع القوات في الخطوط الأمامية، منذ الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة من الليل. لقد كانت نيران مدفعية البريطانيين والأستراليين، على ما يبدو، مركزة كل الوقت على روميل نفسه، ولا هدف آخر غير روميل، وبعد مضي أيام قليلة، لم يكن هناك عسكري من رجال الفيلق الأفريقي في أفريقيا، يعرف الصحراء وشعابها، ومدى تأثير مدافع طبرق مثل روميل، ومن ضمنهم ضباطه المقربون وضباط الأركان.

ومن ضمن هؤلاء الأركان، كان الملازم الأول برندت، وهو من رجال غوبلز، وسبق أن التقيت به عند القوس المرمري (مهبط رأس لانوف).

استدعي المقدم جراف فون شفيرن، من مهمته الاستطلاعية إلى مرزق، تلك المهمة التي كنت قد خسرتها، وعين آمراً لموقع يتفرع من الطريق الساحلي، ويقع على الممرات المؤدية إلى طبرق من اتجاه الشرق، وكان التخطيط قد أعد لرجال هندسة الاقتحام للهجوم على هذا القطاع.

خلال تلك الأيام اعتاد روميل على استخدام عربته (الماموث) عند زيارته للخطوط المتقدمة في الجبهة، إن تلك العربة كانت توفر الحماية المرجوة من نيران القاصفات، والقصف الجوي العنيف، وشظايا القنابل، تلك المصائب التي لم نصادف أكثر منها طوال رحلاتنا اليومية، ولكن روميل ـ اعتيادياً ـ كان يجلس منتصباً على سطح تلك العربة العالية، وينزل ساقيْه إلى داخل العربة من خلال الباب الأمامي المفتوح. وكان آلدنجر، الذي كان معه خلال الحرب العالمية الأولى، يرافقه في هذه الجولات اليومية طوال الوقت، وحيثما يتجول روميل بين القطعات، فإنه كان يثير الحماسة والحيوية والقوة بين رجاله من مختلف الرتب، ولم يتحمل وجود أي شخص مهما كانت رتبته في تلك القطعات التابعة له ينقصه نفس الحماس والحيوية، اللتين كان روميل يتحلى بهما. كما لم تأخذه الرحمة، عند عثوره على أي شخص تنقصه الحماسة والمبادهة، وكلامه الوحيد مع هؤلاء «اخرج إلى ألمانيا حالاً» فكان يرحل حالاً، ولا يستطيع أحد الرد على روميل، في مثل هذه الأحوال.

كانت جولاتنا اليومية في الخطوط الأمامية تبدأ في الصباح الباكر وغالباً ما تستمر حتى بعد حلول الظلام، وأحياناً، كان روميل يتولى قيادة العربة من سائقه عندما يعتريه التعب، وكانت حاسة تحديد الاتجاهات عند روميل رائعة، كما كانت له قابلية خارقة للعادة، في توجيه نفسه عن طريق النجوم.

وبعد رجوعنا ليلاً إلى المقر الكائن إلى الغرب من البيت

الأبيض، فإن إيهلر كان، غالباً ما يرسلني ثانية، وعلى الفور، لكي أسلم أوامر مكتوبة إلى قادة الفرق، متذرعاً بأنني أحسن من يعرف الطرق إلى مواقع هؤلاء القادة.

في كل مساء كان روميل يتناقش مع فون ديم بورن وإيهلر بينما يعد له مراسلهُ جنثر وجبة بسيطة. وبعد تناول طعامه، فإن روميل يبادر على الفور إلى كتابة رسائله اليومية لزوجته وابنه مانفريد. كان من عادة روميل المشاركة شخصياً في حالة الهجوم على أية نقطة أو موقع من مواقع العدو في محيط طبرق، ويوجهه بنفسه، ولم يكن يرافق ضباط أركان التشكيلات المهاجمة، ولكنه كان يتقدم مع قطعات الخط الأول الأمامية في الجبهة، وغالباً ما كان يصدر أوامره الشخصية الفورية، حسب المواقف التعبوية (التكتيكية) التي يكون فيها، مغيراً الخطط المعدة من قبل هيئة أركان العمليات، لكي يتمكن من معالجة الموقف الطارئ بكل نجاح، وهذا كان يزعج ضباط الأركان الذين يسهرون على تخطيط العمليات، حيث كانوا يعتبرون تدخل روميل بهذه الصورة شوكة توخزهم، فيمقتونها بمرارة.

كان جراف فون شفيرن قد فشل في الهجوم ضد الدفاعات الشرقية لطبرق بعد التحام مع دفاعات العدو، ومن الغرابة بمكان، أن روميل لم يكن مهتماً بالقطاع الشرقي في تلك الآونة، وأن هدفه المتواصل، كان الوصول إلى حصن طبرق من اتجاه قطاع العدم ـ عكرمة بينما كنت شخصياً، أفضل أن يكون الهجوم على القطاع

الواقع بين الطريق الساحلي شرق طبرق والطريق الممتد جنوباً إلى العدم.

كان هذا يحزنني جداً، لأن ذلك القطاع، على ما يبدو، كان مهملاً في تخطيط المعارك. ولكن تعلمت أن أكون مؤدباً بعد كل الذي حدث، عندما قدمت نصيحتي للواء في منطقة بلاسترينو (رأس المدور). وبذلك أبقيت النصيحة لنفسي ولم أبح بها لأحد.

لقد سلم العميد سترايخ قيادة الفوج الخامس بانزر، المرابط إلى الجنوب من طبرق، للعقيد أولبريخت، وقد صادف هذا بعد وصول آخر دبابة من ذلك الفوج، قبل أن يعلن روميل بأنه يريد الهجوم على القلعة الحصينة طبرق، من جهة الجنوب. وكما يبدو فإن روميل لم يكن مرتاحاً لأن طبرق لا تزال بيد العدو، ولأنها تشكل تهديداً لخطوط مواصلات المحور إلى الجبهة المصرية.

في هذه المرحلة، قدم الرائد هاوسر رئيس عمليات الفرقة الخامسة الخفيفة، تقريراً جاء فيه: «سيدي اللواء، نحن نتوقع وصول اثني عشر مدفعاً آلياً إضافياً، لذا فإنني أقترح الانتظار حتى وصول هذه المدافع قبل القيام بأي هجوم».

كان روميل يثق بالرائد هاوسر، أكثر من ثقته بالعميد سترايخ آمر هاوسر. فأجاب روميل بالإيجاب قائلاً: «حسناً يا هاوسر افعل ما تراه صائباً. كانت خطة الهجوم تتضمن هجوماً مزدوجاً، يتكون من الدبابات والمشاة التي تتكون من رماة القنابل، وهندسة الاقتحام، وهؤلاء سبق أن أثبتوا نوعية قتالية عالية، وكان يؤمل،

بأن تلك الجبهة سوف تتسع على الفور، بإضافة وحدات من كتائب الرشاشات الآلية، كما أن الأوامر، أوصت بعدم الزج بالدبابات في عمق الجبهة، بل كان عليها أن تنتشر كالمروحة على جانبي الجبهة، ثم تحاول الالتفاف على مواقع العدو في الخطوط الأمامية، وتضربها من المؤخرة.

لقد فشل الهجوم رغم دقة الخطة واكتسابها ثقة عالية. لقد تمكنت الدبابات من الاختراق إلى الأمام خلال دفاعات العدو، كما أن رجال هندسة الاقتحام، تمكنوا من الوصول إلى الخنادق الأمامية للعدو، ولكن القوات البريطانية والأسترالية كانت تقاتل بكل ضراوة وبعزيمة قوية، وتمكن العدو من خلال نيران جانبية من الجناحين من صد هجوم الدبابات، بعد أن أوقعوا فيها بعض الخسائر، إضافةً إلى إيقاف تقدم طليعة جنودنا من رجال العاصفة (الاقتحام). قام العدو بهجوم مضاد بواسطة الدبابات القادمة من طبرق، وتمكنت من مواصلة هجومها المفاجئ فأسرت عدداً كبيراً من رجال هندسة الاقتحام والمشاة، قبل أن تتمكن هذه القوات من تعزيز مواقعها التي وصلتها. لقد ثارت ثائرة روميل بسبب هذا الفشل، وألقى باللوم على العميد سترايخ قائلاً: «إن دباباتك لم تقاتل كما يجب، وتركت رجال المشاة يترنحون أمام النيران»، فدافع العميد سترايخ عن عمليات دباباته خلال المعركة، قائلاً: «أيها السيد اللواء إن الدبابات كان يمكن أن تصل إلى أهدافها أمام النيران القوية المضادة للدبابات، لو لم يكن ذلك القطاع محصناً ومموهاً ومحمياً بالعمق بكمائن ضد الدبابات».

كانت دفاعات العدو أقوى بكثير مما توقعنا، والغريب أننا عرفنا فيما بعد، بأن موقعاً آخر قريب من مكان هجومنا، كان خالياً من أية كمائن للدبابات بالكامل، كما أن مواقع العدو الحصينة، كان قد بناها حلفاؤنا الإيطاليون، ثم هجروها كما هي عندما سيطرت قوات الفريق ويفل على طبرق قبل أربعة أشهر.

لكن صبر روميل كان قد نفد، فلم يقبل أي توضيح، ولم يتعاطف مع أي تفسير لذلك الفشل، واعتبر أن كلاً من العميد سترايخ، والعقيد أولبريخت من دون عزيمة وينقصهما القرار الثابت. انطلق عنان غضبه بالكامل وعلى المكشوف، وجاءت كلماته الفظة كلمات لا يمكن أن يوجهها قائد إلى قائد آخر.

في إحدى الأمسيات، وبالتحديد عند الغسق، وبعد مرور فترة على الهجوم السابق، كنا على وشك القيام بهجوم آخر بالدبابات في ذلك المساء، زار روميل مقر قيادة الفرقة الخامسة الخفيفة ثانية، وكنا: آلدنجر وأنا نرافق روميل كالعادة. وبعد أن انتهى الاجتماع، سمعت روميل يقول لسترايخ مؤكداً معنى كلماته: «أنا أتوقع بأن ينفذ هذا الهجوم بعزيمة وإصرار تحت قيادتك الشخصية. وسأترك تحت تصرفك مساعدي الملازم شيمدت.

لقد فكرت برهة، بأن هذا الكلام يعني إما أن أكون مفيداً، أو أنني سأبقى بجانب قائد سبق وأن أخبر بأنه من الأفضل إن بقي حياً أن يعود بدرعه أو محمولاً معه.. كنت أحب العميد سترايخ، لأنه كان اجتماعياً محترماً، كما أني كنت أعتبره في غاية الجرأة.

وكذلك هاوسر، فهو الآخر لا يقل جرأة واحتراماً عنه، شعرت بحزن بالغ لأنهما عوملا بدون رحمة، فبقيت في مقر قيادة الفرقة الخامسة الخفيفة، وهناك داخل عربة الماموث التابعة لسترايخ، شاهدت صليب الفارس مصنوعاً من ورق مقوى بحجم كبير، وبدلاً من الصليب المعقوف الاعتيادي، كانت العربة تحمل مخططاً لذبابة سوداء كبيرة، فشرح لي ذلك، بأن صليب الفارس، كان يمنح باحتفال كل مساء إلى كل نزيل في عربة الماموث، الذي يقتل أكبر عدد من ذباب الصحراء المزعج خلال اليوم، فتمكنت من أن أفهم ما كان يشغل بالهم ويشغل وقتهم بالصورة الجميلة هذه، كما أني كنت أحب موقف روميل المتصلب وإصراره على ضرورة أن يتحلى تابعوه من رجال القطعات بالمبادرة والإقدام والجرأة والصلابة عند وقوفهم بوجه العدو، إذ لم يكن لدى روميل أي وقت للتفاهات والعبث.

واصلت الحركة مع العميد سترايخ قبل بزوغ فجر صباح اليوم التالي، حيث كان سينطلق هجوم الدبابات مع بزوغ أول ضوء. كان يجب على العميد سترايخ أن يقود الهجوم بنفسه من على إحدى الدبابات المتقدمة، وهي الدبابة التي كانت تتبعنا وراء عربتنا المفتوحة مباشرة، كان مع سترايخ خريطة العمليات الوحيدة والمتوافرة في تلك الفرقة، وها هو يوجه الحركة بمساعدة تلك الخارطة. لقد أمرني بأن أكون على اتصال دائم مع الدبابة التي خلف عربتنا مباشرة.

ولكي يوفر الوقت فإن سترايخ اختار طريق العدم ـ طبرق شمالاً بقدر الإمكان، قبل أن ينحرف نحو الغرب لكي يلتحق بالدبابات التي كانت على أهبة الاستعداد للقيام بذلك الهجوم. كان سترايخ قد لزم الصمت مطرقاً، ربما بسبب تأنيب روميل القاسي له.

واصلنا الحركة لمسافة في صمت مطبق، ثم شعرت بأن الوقت قد حان فقلت: «سيدي العميد، إنني أعتقد بأننا يجب أن نستدير الآن».

فأجاب قائد الفرقة: «نعم، نعم يا شميدت». ثم قال بإيجاز «استفد من هذا الطريق، بقدر ما يمكنك البقاء عليها». وبمساعدة بصيص خافت من المصباح اليدوي الذي كان بيده، نظر إلى الخارطة وقال: «لا زال بإمكاننا الاستفادة من الطريق لمسافة قصيرة».

لم تكن وجهة نظره مماثلة لوجهة نظر روميل؟ وقبل أن ندرك ما كان يحدث حولنا، وجدنا أنفسنا في وسط انفجار حقيقي، قنابل تنفجر، مدافع ضد الدبابات نسمع أزيزها تمر من أطرافنا وقعقعة الرشاشات، جعلتنا نعتقد من دون شك بأننا أصبحنا مكشوفين أمام أنوف أعدائنا، أي أننا كنا قريبين جداً وبصورة مفاجئة.

قفزنا من العربة بسرعة البرق واحتمينا وراء الدبابة، ثم تعلقنا بها رافعين سيقاننا إلى الأعلى تجنباً للشظايا المتناثرة وطلقات المدافع الرشاشة التي كانت تمشط المنطقة بارتفاع الركبة، لا سيما

على جنازير الدبابات، وأذكر في تلك اللحظة، عندما شرع سائق الدبابة يستدير بدبابته بصورة حادة، كان على وشك أن يجعل ظهورنا معرضة لنيران العدو، عندما ظهرت عربة أخرى وراءنا بصورة مفاجئة. في مثل هذه الظروف، هناك طريقة واحدة يمكن اتباعها.

فسائق الدبابة غادر برج دبابته، وبقفزة واحدة، كان إلى جانب الطريق. وبعد أن شاهدناه بهذه الصورة، رمينا بأنفسنا في تلك الحفرة العميقة التي أحدثتها قذائف مدفعية العدو التي كانت تصلينا بنيرانها.

كان الظلام دامساً، وضوء النهار سيبزغ بعد قليل، لذلك لم نجرؤ على البقاء طويلاً في أماكننا داخل تلك الحفر، فقررنا الاندفاع من أماكننا نحو الجنوب الغربي، وبينما كنا نستعد لمغادرة تلك الحفر، انهالت علينا موجة جديدة من قذائف المدفعية انفجرت من حولنا، وسمعنا السائق يصرخ فنادى العميد: «ما الأمر، هل أنت جريح؟». ورغم هذا الموقف الصعب، فإن العميد أخذ يضحك عندما جاء جواب السائق قائلاً: «سيدي العميد لم أجرح بعد». فأخذنا نركض ونحن منحنون، متجهين عبر الصحراء نحو مواقع دباباتنا. عند وصولنا إلى تلك الدبابات كان ضوء النهار مكتملاً. فات أوان الهجوم!..

استمرت القذائف تتساقط من حول دباباتنا، وقد منيت ببعض الخسائر، عندها سأل العقيد أولبريخت طالباً الإذن من العميد

بسحب الدبابات إلى مواقع مجهزة. فاستدعينا عربة اللاسلكي، التي أقلتنا إلى مقر الفرقة.

بعد مرور ساعات قدمت تقريري إلى روميل، وكنت في حالة قلق وخوف من رد فعله لإخفاق الهجوم عند الفجر، ولكنني دهشت وشعرت بالراحة التامة عندما جاء جواب روميل بكل هدوء قائلاً: «شميدت ارجع إلى النقطة 112» ـ وهذه تقع إلى جنوب غرب طبرق، وإلى الغرب من طريق العدم ـ. رجعت بسيارتي فرحاً، وشعرت بأنني أحمل أخباراً سارة أكثر من المتوقع.

عندما شاهدت الدبابات في الأفق مغطاة ومن دون أي حركة، وموصدة فتحات الأبراج. بينما القذائف تنهال علينا من طبرق ببركاتها اليومية. يا الله، من أين يحصل البريطانيون على كل هذه الذخيرة؟. هذا ما سألت به السائق ولكنه لم يجب، كما أنني لم أتوقع الإجابة منه، ثم إننا زدنا السرعة بكل شدة لنجتاز محنة القنابل وشظاياها في تلك الأرض المنخفضة. وصلنا إلى أولى الدبابات التي فتحت أبوابها وظهر منها أولبريخت، فصحت بأعلى صوتي مبلغاً إياه أوامر روميل: «شكراً لله»!..

وشعرت بالسعادة في صوته، عندما قال: «وأخيراً أوامر معقولة وحكيمة».

وبعد مرور أسبوع أو أسبوعين، كان كل من العميد سترايخ، والعقيد أولبريخت، في طريقهما إلى الوطن. أو كما يقال بأن كلا

منهما ركب جمله. إنني لم أشاهدهما بعد مغادرتهما الصحراء. ولكنني لاحظت بأن أحد الضباط المتورطين بالمؤامرة التي حدثت في العشرين من شهر يوليو عام 1944 ضد هتلر، كان اسمه اللواء أولبريخت. فهل يمكن أن يكون هذا نفس الرجل؟

الفصل السابع

الهجوم على بلاسترينو[1]

في إحدى الأمسيات في منتصف شهر أبريل، وصلت مجموعة الاستطلاع المدرعة المفضلة لدى روميل، إلى منطقة مقر قيادة الفيلق الواقع إلى الغرب من البيت الأبيض. كان آمر هذه المجموعة هو المقدم فون فيخمار، الذي قدم تقريره إلى اللواء روميل، وبينما كنت على وشك الاشتراك في تناول علبة قيّمة من الفواكه المعلبة، التي حصل عليها برندت، كامتياز له من الضابط المسؤول عن المطعم، ناداني جنثر مراسل اللواء قائلاً: «إن روميل يطلبك».

وبما أنني كنت أرافق روميل في جولاته باستمرار، عرفت جميع الطرق الممتدة حول طبرق، ومن بين هذه الطرق، الطريق

(1) موقع حصين في رأس المدور (النقطة 209) جنوب غرب طبرق. بناه الإيطاليون يحمل اسماً إيطالياً. (المراجع).

المؤدية إلى مواقع المقدم جراف شفيرن إلى الشرق من قطاع القلعة، وكان هذا سبب استدعائي من قبل روميل، قدمني روميل إلى فون فيخمار قائلاً: «عليك أن تصطحب مجموعة الاستطلاع هذه عبر أقصر الطرق، حول طبرق، وأن توصلها إلى الطريق الساحلي (فيًّا ليبيا)، هذا هو الاسم الذي يطلقه الإيطاليون على الطريق الساحلي.

شرعتُ بالحركة مهتدياً بالنجم القطبي وأراقب المنعطفات والطرق، وما إن حل منتصف الليل، حتى وصلت بهذه المجموعة إلى الطريق الساحلي. عندها تصافحت مع فون فيخمار ورجعت إلى مقر القيادة، حيث وصلنا إليه عند الصباح، وكان كلانا أي السائق وأنا منهكين. في المقر استقبلني برندت بأخبار جيدة، مفادها: «إن فون فيخمار، قد احتل البردى». وهذه القرية الواقعة على قمة الجرف، بالقرب من الحدود المصرية، كانت قد احتلتها القوات البريطانية بقيادة الفريق ويفل، وطردت القوات الإيطالية مع اللواء الإيطالي بروجانزولي الذي أطلق عليه (ذو اللحية الكهربائية).

بعد مرور أيام قليلة، تم تعزيز مجموعة الاستطلاع هذه بعدد من الدبابات، مما شجع قائدها فون فيخمار على التقدم إلى قلعة (كابوتسو أمساعد)، الواقعة على الحدود المصرية واحتلالها، ثم زحف بعد ذلك على السلوم. وفي اليوم السابع والعشرين من شهر أبريل احتلت هذه القوة ممر حلفايا، وأشرفت على الجرف الممتد

على طول الساحل المصري، عندها منح فون فيخمار وسام صليب الفارس، وهو الصليب الحديدي.

إن من يمتلك موقع بلاسترينو، تكون له اليد العليا في الموقف، لكونه مفتاح دفاعات طبرق، هذا ما قاله روميل في اجتماعه مع ضباط الأركان. ومرة تلو الأخرى، كان روميل ينظر إلى عكرمة، ومنها إلى الشرق، وإلى موقع بلاسترينو، وهي أعلى نقطة في القطاع الجنوبي الغربي من الحصن (طبرق). الآن بدأ روميل يخطط لهجوم آخر، متذكراً ما حدث للدبابات الأربعة فأصدر توجيهاته: التي تنص على أن تحتل كتيبة البرسيلياري الإيطالية المواقع على الأراضي المرتفعة المواجهة لموقع (بلاسترينو)، وقيام المشاة بهجوم كاسح. قام روميل باستطلاع تلك الأراضي بنفسه، واختار أنسب المواقع للقطعات الإيطالية لكي تستعد للهجوم.

في ذلك اليوم كنا قد تركنا عربة (الماموث) المدرعة في مقر القيادة، وكان موكبنا يتكون من سيارتين مكشوفتين وعربة مدرعة، وتتكون المجموعة من: آلدنجر وأنا برفقة اللواء.

لقد استلمنا تقريراً مفاده أن القطعات الأسترالية الموجودة في القطاع المواجه للإيطاليين، تقوم بنشاط مؤثر خلال الليل، وحركتها أكثر من المعتاد، فطلب روميل صورة دقيقة للوضع هناك، لذلك ذهب بنفسه لكي يستطلع الوضع في المواقع بصورة مباشرة. عند اقترابنا من ذلك القطاع، وجدناه هادئاً هدوءاً تاماً، وكنا على وشك

الاستنتاج بأن التقارير حول نشاط العدو خلال الليل مبالغ فيها من قبل حلفائنا، وهذا ما يحدث غالباً، حتى مدفعية العدو في طبرق كانت هادئة في ذلك اليوم.

لكن الوقت لم يطل بنا قبل أن نتمكن من حل اللغز، فعند حضورنا إلى الموقع، لم نشاهد إيطالياً واحداً في القطاع بأكمله، باستثناء القليل من المدافع، بدون حراسة المشاة لها، ثم أمعنا النظر بكل حذر، من على أرض مرتفعة، وإذا بنا نشاهد المئات من القبعات الشمسية المزخرفة بصور جميلة، بريش الديكة ذات الألوان الزاهية، تلك كانت تسمى قبعات (البرسيلياري)، وجميعها مرمية ومهجورة، ولم نشاهد أي شيء آخر.

لقد اعتقدنا بأن الأستراليين قد قاموا بتجميع الكتيبة الإيطالية خلال الليل، وأسرها.

أصدر روميل أوامره بسرعة، مستدعياً خليطاً من القطعات وعلى عجل، من مواقع عكرمة لسد الثغرة في القطاع المهجور. ثم أصدر أوامر صارمة كانت قد نوقشت في القيادة العليا الإيطالية، وقد نصت: على الإعدام الفوري مستقبلاً للضباط الجبناء الذين ينسحبون، عند مواجهة العدو.

عند رجوعه إلى مقر قيادته ـ قيادة الفيلق ـ، تكلم روميل بكل صراحة مع ضابط الاتصال الإيطالي، وهو صاحب السعادة اللواء كالفي زوج ابنة الملك فكتور عمانويل، طويل القامة، مسنون الوجه، ذو أنف بارز ورقيق، وهو نموذج لسكان توسكاني، يتكلم

الألمانية بطلاقة، كان روميل يكن له احتراماً كبيراً. وبعد الحوار مع روميل، استسلم اللواء كالفي للأوامر، بطريقة محافظة.

استنتج أركان الفيلق الأفريقي أن الجندي الإيطالي كشخص، يتوق إلى التعاون والمساعدة، وحتى إنه في بعض الأحيان، يظهر حماسة ورغبة في الحرب أكثر من الألمان، ومن دون شك فإن جندياً كهذا، سوف يقاتل بكل شجاعة فيما إذا جهز تجهيزاً جيداً وتحت قيادة حكيمة، ولكن التجهيزات والقيادة الحكيمة، قلما توجد لدى الإيطاليين.

تم تحديد يوم 30 أبريل للهجوم على طبرق من خلال حصن (بلاسترينو).

واختار روميل بنفسه القطعات التي ستقوم بالهجوم، كما سيكون روميل شخصياً على اتصال وثيق بها، لقد اختار رجالاً من مختلف الوحدات، لكي يشكل مجموعة قتال بقوة كتيبة واحدة، تحت قيادة الرائد شرابلر حيث أعدت هذه الكتيبة إعداداً جيداً للهجوم، وتم تجهيزها بأحسن ما لدينا من مواد وتجهيزات.

تقدمنا إلى الأمام في عربة الماموث. وكنا: روميل، وآلدنجر وأنا نراقب انفتاح الهجوم من نقطة المراقبة على الأراضي المرتفعة.

قامت طائرات (شتوكا) بقصف مختلف المواقع، كما قامت مدفعيتنا بدعم التقدم بسدود من النيران، لتمكين قطعاتنا المختلطة من التقدم بأقل قدر من الخسائر، المجموعة المتقدمة الأولى، كانت تتكون من وحدات مختلطة بقيادة شرابلر، التي أبدت تعاوناً

جيداً أثناء التقدم، بدأت مدافع طبرق بالقصف، وكان مصدرها القوات الأسترالية المتمركزة جيداً في مواقعها الحصينة، إضافة إلى كونهم هدافين مهرة.

وقد استماتوا في عرقلة التقدم، ثم إيقافه، وكان الوقت متأخراً من بعد ظهر ذلك اليوم، قبل أن تتمكن طلائعنا من الوصول إلى الأسلاك الشائكة وحقول الألغام.

كان روميل يراقب بمنظاره مسرح المعركة كل الوقت، ثم أشار إلي قائلاً: «شميدت، خذ طريقك إلى الأمام، إلى شرابلر، وأخبره بأنه يجب عليه أن يحتفظ بمواقعه الحالية، وسنعمل على تعزيز قواته، وأن الهجوم سيستمر خلال الليل».

تلك كانت مهمة في غاية الخطورة إذ علي أن أتقدم وحيداً، وبكل سرعة عبر أراضٍ مكشوفة، كلفت المشاة نهاراً كاملاً لكي يتمكنوا من عبورها، ولكنني أسرعت بكل قواي، وكلما فكرت بأن أبطئ قليلاً، كنت أعرف بأن روميل، كان يراقب بنطلوني بمنظاره. وأخيراً وصلت إلى شرابلر، قبل حلول الظلام.

خلال الليل تقدمت مجموعة القتال المهاجمة مع قاذفي المشاعل، وواصلت تقدمها، وبعد صراع شاق خلال عتمة الليل، تمكن رجالنا من احتلال عدد من المواقع المحصنة تحصيناً قوياً. نجحنا في إزالة قسم من دفاعات العدو، هذا ما ذكره روميل في تقريره الرسمي.

عند بزوغ الفجر، أقبل علينا حليف جديد، ولكن يشك في أمر هذا الحليف، فهو عاصفة رملية خفيفة حجبت الرؤية. إن الغبار كان عوناً لنا، كما كان يعوق حركاتنا. إن رأس الرمح من قطعاتنا المهاجمة تمكن من الاختراق وشق طريقه مباشرة أمام رأس المدور، وكانوا يواجهون صعوبة بالغة في رؤية من يقابلهم، وإلى أين هم ذاهبون؟. لم يكن سهلاً تمييز أو معرفة مواقع الأستراليين القوية التحصين، على تلك الأرض المنبسطة، وبعمق كبير. في أغلب الأوقات كان رجالنا يشقون طريقهم إلى الأمام بين خطين من خنادق العدو المحصنة على مستوى سطح الأرض، كانوا يخشون من تلك الخنادق الجانبية. أو في النيران التي ستفتح عليهم من المؤخرة، فأخذوا يصيحون بأعلى أصواتهم يائسين: «لا تطلقوا النار نحن ألمان!». معتقدين بأنهم يهاجمون خطأً من قبل رفاقهم. وأخيراً اكتشفوا بعد فوات الأوان، بأن القطعات التي وراءهم لم تكن صديقة، وقد ابتهجوا، عندما سمعوا أن تلك القطعات تؤكد لهم بأنها ألمانية.

تمكن رجال هندسة الاقتحام ـ الآن ـ من تطهير ثغرة، خلال حقول الألغام وتحت غطاء من العاصفة الرملية، فتمكنت عرباتنا من جلب تعزيزات من مدافع ضد الدبابات، وذخيرة وتجهيزات ومعدات أخرى.

عندها صدرت أوامر روميل تقول: «إن النقاط الحصينة التي احتلت، يجب الاحتفاظ بها مهما كان الثمن». وفي الصباح كان

روميل شخصياً أول من دخل المواقع الحصينة التي تم احتلالها. كنت أزحف وبجانبي اللواء روميل نفسه يزحف، متقدماً مثل رجال المشاة في الخطوط الأمامية، لأنه يريد أن يصل إلى خندق معين أمامه. وحقيقة، كنا على مقربة من هدفنا، ولم يبق أمامنا سوى مسافة قصيرة، عندما لاحظنا مجموعة من رجال هندسة الاقتحام منبطحين وراء أكداس من الحجارة.

سمعنا رئيس العرفاء، آمر المجموعة ينادينا: «يا للجحيم . . إلى أين أنتم ذاهبون؟» فصحت بأعلى صوتي، مجيباً: «إننا متجهون إلى إحداثيات الخريطة، للنقطة القوية التي أمامنا». فرد عليّ رئيس العرفاء بأعلى صوته وبلطف: «لا تكونوا أغبياء، إن الإنجليز قد احتلوها ثانية».

لوحت بتعقل ونحن منبطحين مؤشراً إلى علامة رتبتي ورتبة روميل عندها تمكن ضابط الصف من تمييز النظارات الرملية على قبعة روميل ومعرفته، فلاذ بالصمت ولم نسمع شيئاً.

انطلقت نيران رشاشات العدو نحونا، واضطرتنا إلى العودة، بعد أن اقتنعنا، بأنه ليس من الحكمة البقاء في هذا المكان، فرجعنا زحفاً بكل حذر.

قامت القطعات الأسترالية، بشن هجومٍ مضادٍّ، وتمكنت من استرجاع بعض مواقعها الحصينة.

في اليوم الأول من مايو أعلنت القيادة البريطانية العامة في

الشرق الأوسط، بأن العدو قام بهجوم على طبرق، وواصل هجومه لليوم الثاني مخترقاً محيط دفاعاتنا الأمامية، ولكن الوضع مستقر الآن. كان هذا التقرير دقيقاً جداً. ومنذ ذلك اليوم، فإن المواقع التي احتفظنا بها، بعد الهجوم المضاد من قبل الأستراليين، شكلت مواقع متقدمة للخط الألماني على طبرق.

الفصل الثامن

طائرات الهاريكان تقصف روميل

خلال الأيام التالية وصلت بقية المشاة الآلية، التابعة للفرقة الخامسة عشرة الدبابات (بانزر) الجديدة التي هبطت في درنة، باستخدام طائرات جنكر. في نفس الوقت كانت آليات نقل الجنود بانتظارهم في المطار لنقلهم، وقبل أن يعرف هؤلاء الجنود مكان تواجدهم، نقلوا فوراً إلى الجبهة الأمامية، حول طبرق. لقد تملكهم العجب ... أين أشجار النخيل الأفريقية، الوارفة الظلال؟. تلك الأشجار، التي تمثل العلامة المميزة للفيلق الأفريقي ـ إذ تم اختيار شجرة النخيل، ورسمت على الآليات والدبابات ـ الذي أصبحوا ينتمون إليه.

لقد أصبحوا يكرهون أفريقيا التي يرونها أمامهم: الذباب وحشودها بالملايين، وحركاتهم مقيدة، وتموينهم أقل مما يجب، وغير ممتع والمياه نادرة، ... إن مثل هذه العوامل كانت تؤثر سلباً

على القوات وتؤذيها، أكثر من الدويّ المتواصل لمدافع طبرق، خلال الأسابيع الماضية.

لقد تبين لروميل، بأن القوات الأسترالية المرابطة أمامنا تمثل (خيرة جنود العدو)، ولهم قابلية غير عادية، وبرودة أعصاب غير محدودة في تنفيذ غاراتهم الليلية. وإني أذكر بالمناسبة، عندما صبت نيران رشاشاتنا على خندق أمامنا محتل من قبل الجنود الأستراليين، لقد كان جنودنا يتعجبون ويمعنون النظر بكل دهشة، لجندي أسترالي كان جالساً فوق المتاريس، بكل برودة وهدوء، ويلوح لنا بقبعته، كما لو كان محيياً بينما سيل طلقاتنا الرشاشة تتطاير حوله.

إن تلك القابلية الخارقة للعادة حيرتنا، لا سيما وأنهم كانوا يتغلغلون بين صفوفنا خلال الليل بكل هدوء وصمت ولم نكن نشعر بهذا، حتى تمكنا من أسر جماعة غازية تغير على صفوفنا الأمامية في إحدى الليالي. كانوا مجهزين بأحذية مطاطية خاصة بالدوريات في الصحراء، وكانت كعوب هذه الأحذية مصنوعة من المطاط الكاريبي السميك.

توصل روميل إلى استنتاج مفاده: أن طبرق جوزة قوية لا يمكن كسرها. وبما أنه لا يمكن احتلال طبرق بسهولة، فماذا عليه أن يفعل؟. لقد استقر رأيه على إعداد قطعاته وتعزيزها، ثم تقوية المواقع ومحاصرة طبرق، وبما أنه لا يمكن الإستغناء عن الكثير من القوات الألمانية، فإن القوات التي يجب أن تحاصر حامية طبرق،

يجب أن تكون معظمها من القوات الإيطالية وذلك حسب الموقف، ولنقص القوات الألمانية.

لذلك قرر روميل أن يدرس بنفسه جبهة السلوم، ويدرس الأرض الموعودة عبر الأسلاك الشائكة والواقعة على الحدود المصرية.

في تلك المرحلة وصل وسام الفارس، الذي كان قد منح إلى فون فيخمار، بطل معركة البردى والسلوم. أعلن روميل بأنه سيقلد فون فيخمار الوسام بنفسه.

لكن هذا لم يكن السبب الحقيقي لرحلتنا باتجاه الشرق. في يوم 19 أبريل، غادرنا مقر القيادة، قرب البيت الأبيض (بيت المرصص) برفقة رتل كبير. كانت عربتي تقود ذلك الرتل، وعربة روميل (الماموث) في المقدمة. رافقتنا عربة اللاسلكي لكي تقوم بتأمين الاتصالات مع مقر قيادة الفيلق الخلفي. وكان يرافقنا في هذا الرتل، مجموعة سرية للدعاية الألمانية وعلى رأسها المراسل الحربي وصديقي القديم فون إيزيبيك وزميل له يدعى أيرتل، المخرج الشهير، الذي أخرج شريط (رأس القرن) وشريط (روبنسون)، والشهير برحلته إلى قمة جبل أفريست وتسلقها، وربما كان أول من صعد إلى تلك القمة. وهو رجل من طراز الجبليين المثاليين، كان مجهزاً بآلة تصوير سينمائية، مهمته الدعاية لروميل، تلك كانت تعليمات برندت.

لقد تحرك الرتل على طول الطريق، تحت غطاء عواصف من

الغبار الذي تأثرت أعيننا به، كنا نطحن الغبار بين أسناننا، وعلى وجوهنا، واختفت ملابسنا وتغير لونها بفعل الغبار.

تحركنا حول طبرق باتجاه العدم، ودخلت إحدى عرباتنا إلى منطقة تم زرعها بالألغام المضادة للأفراد التي تم إلقاؤها من إحدى الطائرات المعادية، والتي تعرف بمصائد المغفلين، إنها شديدة الخطورة على الأشخاص، ولحسن الحظ تعرفنا عليها وتم تمييزها. في الوقت نفسه كانت مدفعية طبرق تقصفنا بقذائفها، ولكننا واصلنا الحركة حتى وصلنا إلى الطريق الساحلي (طبرق ـ كمبوت)، ثم قدنا عرباتنا بسرعة عالية، حيث تمكنا من الوصول إلى البردى، قبل الوقت المتوقع.

في قرية البردى، هنّأ روميل فون فيخمار بتحية حارة، وبدأ بتقليده وسام الفارس حول عنقه، بينما كانت آلات التصوير السينمائية، تسجل تلك الأحداث بالكامل.

طلب روميل من فون فيخمار بأن يروي لنا بكل وضوح، تفاصيل مراحل القتال حول أكداس الحجارة التي تسمى حصن (كابوتسو) بالكامل.

من هناك بدأ روميل يتفحص الأسلاك الشائكة التي تمتد بعيداً نحو الجنوب المغبر، على طول الحدود الليبية المصرية. ثم أمعن النظر في العربات المدرعة، وهي من قوة الاستطلاع التابعة للفريق ويفل.

كان بإمكاننا تمييز هذه المدرعات، وهي واقفة في مواقعها

على مسافة بعيدة، ومن دون أي شك، كان البريطانيون يراقبوننا من جانبهم أيضاً بمناظيرهم. كان روميل يتسلى كطفل يلعب ويتجول بين المدافع الساحلية الإيطالية المعطلة، ودخل إلى كل موقع من المواقع الدفاعية من دون كلل أو ملل، ثم زار مواقع اتصالاتهم في خنادقها، ولاحظ أن الإيطاليين قد صمموا تلك المواقع بنفس التخطيط الذي تم به بناء مواقع طبرق.

في نهاية ذلك اليوم، كان الإرهاق قد نال من الجميع، باستثناء (روميل)، الذي ما زال يواصل تحركاته من دون هوادة، وكان علينا جميعاً أن نواصل الحركة أيضاً، كما كنا ننفذ أوامره كلها وعلى عجل، وبكل دقة ومهارة.

عند المساء، كان علينا أن نعود من حيث أتينا، أي إلى مقر القيادة، وفي العودة، ومرة أخرى كنت في قيادة الرتل أيضاً.

بعد مرور نصف ساعة على حركتنا، وصلنا إلى غرب البردى، وليس بعيداً عن كمبوت، في هذا الوقت كانت الشمس تميل للغروب وهي فوق الأفق بقليل، وأشعتها تضرب أعيننا بصورة مباشرة، بحيث لم نتمكن من رؤية الطريق إلا بصعوبة، وفجأة لاحظت طائرتين على ارتفاع منخفض، وفكرت هل هما بريطانيتان أم ألمانيتان؟. في هذه اللحظة انقضت علينا وكانتا طائرتين معاديتين، على ارتفاع منخفض، وبما أنه لا يوجد إنذار جوي، صرخت بأعلى صوتي مشيراً نحو الطائرتين، لقد قصفتنا بوابل من القنابل، إنهما من طائرات العدو بدون شك، وأطلقت صافرة إنذار

وصرخت مرة ثانية بأعلى صوتي، مشيراً إلى الطائرتين، ثم قفزت من العربة إلى جانب الطريق باحثاً عن أي ملجأ يمكن أن أجده، أما سائقي، فقد كان أسرع مني حركة، فعندما ألقيت بنفسي من العربة شاهدته منبطحاً على وجهه بجانب الطريق، فرميت نفسي بجانبه، وطائرتيّ الهاريكان تقذفان علينا حممها، ثم أخذت تدوران حولنا وعاودت هجومهما باتجاهنا لتمطرنا بمزيد من النيران، هاجمتنا أكثر من مرة، وكانت إحداهما أكثر عدوانية في هجومها. فكانت تركز هجومها على السائق وعليّ بصورة خاصة، باعتبارنا كنا نمثل قيادة الرتل، وكرد فعل منّي، دفنت نفسي في الرمال، وبعد قليل غادرتا المكان. كنت أشاهدهما تحلقان باتجاه الشمال نحو البحر، عندما نهضت كانت خدوش وجهي تنزف دماً لأني رميت بنفسي بكل سرعة، وعندما رفعت رأسي شاهدت الشمس تغرب، إن ما حدث لم يكن حدثاً جديداً بل عادة تمر بنا كل يوم، فنهض الجميع وتوجهوا إلى سياراتهم. عندما وصلت إلى سيارتي وجدت ثقوباً لاثنتي عشرة إطلاقة كانت قد أصابتها، وكان ساعي البريد الذي يسير بالقرب من سيارتي، ولم يغادر دراجته البخارية مضرّجاً بدمائه، ومحرك دراجته لا يزال يعمل، لقد أصيب إصابة مميتة في رأسه وفارق الحياة.

أما روميل فقد نزل من عربته المدرعة (الماموث)، إلا أن سائقه السيء الحظ، أصيب بإطلاقة في صدره، لأنه لم يكن سريعاً بدرجة كافية لإغلاق باب برج المدرعة، فسبقته إطلاقة من نيران إحدى الطائرتين المغيرتين، ودخلت من خلال الفتحة وأصيب في

صدره، بعد أن أخطأت روميل بقليل، كما أصيب بعض من عرباتنا، أما عربة اللاسلكي، فكانت أضرارها بالغة، بحيث أننا اضطررنا إلى تركها، وعلى الفور وارينا جثمان الجندي القتيل التراب بجانب الطريق، ثم واصلنا المسير بدون تأخير.

لقد أبدى سائق روميل شجاعة نادرة نتيجة لهدوئه التام، وحفاظه على رباطة جأشه، فأدرج في بطانية ووضع على المقعد الجلدي في مؤخرة عربة (الماموث)، ولم يبد أية آلام رغم خطورة إصابته، فتولى روميل عجلة القيادة مواصلاً القيادة طوال الليل بنفسه، وأثناء الطريق، طلب كل من آلدنجر وشرابلر مساعدته في القيادة، ولكنه رفض، ولم نصل مقر القيادة قرب البيت الأبيض إلا عند الصباح.

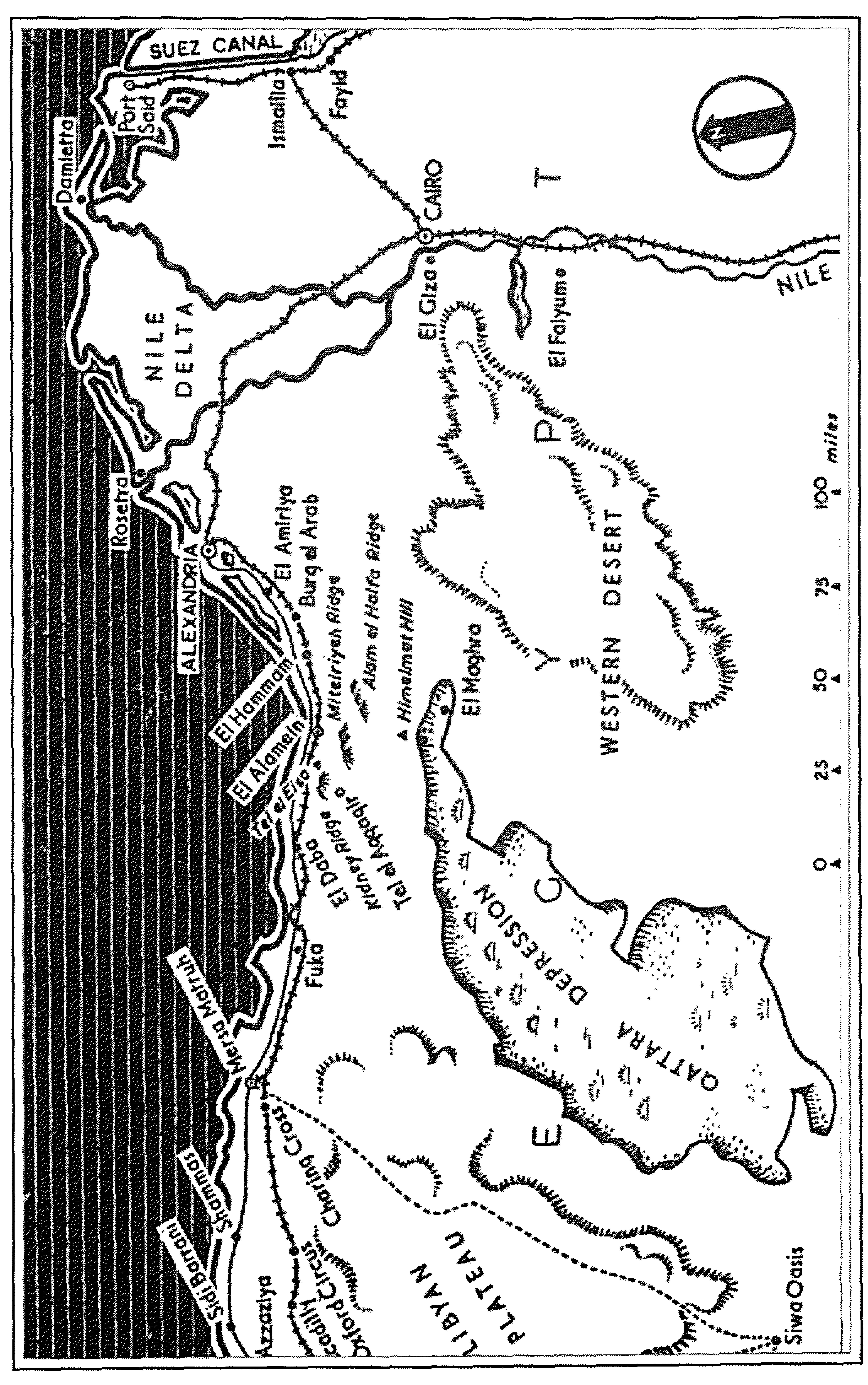
الفصل التاسع

الفريق باولوس: قائد حملة مدينة ستالينجراد وقصتي في أريتريا

كان الفريق باولوس الذي جاء من برلين كمساعد لرئيس أركان القيادة العامة في برلين، أول شخصية مرموقة تزور مواقعنا، وهو الذي تولى فيما بعد قيادة الجيش السادس الذي غزا (ستالينجراد)، ثم رقي إلى أعلى رتبة عسكرية: مشير. حوصر في ستالينغراد واضطر إلى الاستسلام في شهر فبراير 1943، في أكبر هزيمة حلت بالجيش الألماني في تاريخه.

لم يبد روميل أي ترحيب بزيارة باولوس، وشعرت بأنه كان يشك بأن تلك الزيارة، لم تكن من ضمن بعض الخدع والمكائد التي تحاك في قيادة الجيش العليا، لإقصاء روميل عن منصبه ليحل مكانه باولوس.

أما باولوس، فأخبرني بأنه يرغب في مشاهدة جبهة طبرق بصورة دقيقة، وقد افترضت بأننا سنقوم بإحدى جولاتنا الاعتيادية



الخريطة رقم 1: بورسعيد إلى براني

اليومية في اليوم التالي، ولكن افتراضي كان خاطئاً، لأن روميل بقي في مقر قيادته ولم يغادرها في ذلك اليوم، لقد أصدر روميل إليّ أمراً: «شميدت، غداً سوف تصطحب الفريق باولوس إلى جبهة طبرق، وأنت تعرف أمزجة ضباط الأركان، وسوف تقدم كل المعلومات الضرورية» وقد خاطبني روميل مباشرة بعد أن قدمني إلى باولوس، ويبدو أن كلمات روميل لم تكن موجهة لي فقط، ولكن إلى باولوس أيضاً. في الصباح التالي، بدأنا الحركة على طول الممرات الترابية المألوفة في سيارتين، جلس باولوس في مؤخرة السيارة المكشوفة قائلاً: «والآن يمكن أن نتكلم بسهولة أكثر» وجدت بأنه يختلف عن روميل، فأخذ يدون ملاحظات شخصية على الفور، وبعدها شعرت براحة تامة، ثم بادرني باولوس بسؤاله: «ما هي المدة التي قضيتها في أفريقيا؟»، أخذت أحصي عدد الأشهر، ثم قلت: «منذ شهر يناير سيدي الفريق؟» قلت منذ يناير؟ كيف هذا، لأن الفيلق الأفريقي لم يكن في أفريقيا عندئذ. . . وأخذ ينظر إلي مستفسراً. . .؟».

أوضحت له بالتفصيل: «بأنني كنت أعمل في أريتريا لبعض الوقت، قبل نزول الفيلق الألماني الأفريقي على التراب الأفريقي»، «هذا ممتع جداً، واصل الحديث من فضلك».

بينما كانت السيارة تواصل حركتها، لاحظت عواصف كثيفة من الغبار حول ممر عكرمة، ونظراً لعدم وجود أية مواقع عسكرية مهمة هناك لأقوم بوصفها لباولوس، واصلت رواية قصتي في

أريتريا: «وكما تعلم سيدي الفريق، عندما أصبحت الحرب مؤكدة في أغسطس عام 1939 فإن جميع السفن الألمانية حول العالم، استلمتِ أوامر من برلين بأن تتجه إلى أقرب الموانئ المحايدة، ومن بين هذه السفن، كانت تسع سفن شحن ألمانية في البحر الأبيض المتوسط اتجهت إلى ميناء مصوَّع الأريتري، وكانت غالبية تلك السفن خطوط سفن الشرق الأقصى الألمانية، تتراوح حمولة تلك السفن ما بين ستة آلاف إلى تسعة آلاف طن، ومن بين تلك السفن كان اليخت (كوبرك)، الذي كان مجهزاً بكل الوسائل، كذلك السفينة المسماة (بجعة الشرق) وهي سفينة صغيرة غير نظامية، تبحر من مرفأ لآخر بحثاً عن عمل. في شهر يونيو عام 1940، أعلنت إيطاليا الحرب، ونتيجة لذلك، فإن كلاً من الحبشة، وأريتريا أصبحتا مسرحاً للعمليات الحربية. في هذا الوقت، فإن معظم البحارة العاملين على ظهر السفن التجارية الألمانية والراسية في ميناء مصوّع، تطوعوا جميعاً وشكلت منهم سرية عسكرية من المتطوعين، حيث قامت القوات الإيطالية هناك بتسليحهم وتجهيزهم، وارتدوا القيافة العسكرية الإيطالية، لكن الصليب المعقوف كان يلمع على قبعاتهم وأكتافهم، لم تكن قيافة الإيطاليين أنيقة المظهر بدرجة كافية، ولكن حماس أولئك البحارة كان يعوض النقص الظاهر في ملابسهم.

قدم أحد المسافرين نفسه كضابط احتياطي، من المحاربين القدماء في الحرب العالمية الأولى، لذا عين من قبل الإيطاليين آمراً لتلك السرية، ولكن بعد المناوشات الحربية الأولى مع العدو،

اتضح بأنه لم يكن الرجل المناسب لقيادة السرية، لذا أرسلت برقية إلى برلين، تطلب إرسال ضابط مناسب ليتولى قيادة السرية، فاستدعيت لتلك المهمة، حيث ركبت طائرة من روما إلى أريتريا. وكانت الطائرات الإيطالية تطير في تلك الفترة بصورة منتظمة عبر ليبيا والسودان. التحقت بتلك السرية التي لم تكن مدربة مطلقاً، كما أن تجهيزاتها كانت ضعيفة، ومع ذلك كانت تقاتل بكل حماس في أريتريا، لا سيما في معارك (عكوردات) و(كيرن). ولكن امبراطورية إيطاليا في شرق أفريقيا انهارت، والشيء القليل الذي قدمناه لم يكن ليساعد في بقاء تلك الامبراطورية. فانسحبت سريتي إلى منطقة مصوّع، وهناك استلمت تعليمات من برلين تقول: «يجب على السرية أن تسرح على الفور، وعلى الجنود البحارة العودة إلى سفنهم، وعليّ أن أستعد للطيران إلى شمال أفريقيا للالتحاق بالقوة الخاصة الألمانية، التي كانت قد نزلت في طرابلس».

«في ذلك الوقت كنت على ظهر السفينة (كوبرك)، مرتاحاً لكونها مجهزة بأحدث التجهيزات».

«غادرت الباخرة (كوبرك)، وعدت إلى مدينة (أسمرة)، حيث علمت بأن الإيطاليين هناك كانوا قد استلموا تعليمات لإعداد طائرة خاصة لي، لكي أطير إلى شمال أفريقيا».

«بقيت في أسمرة بانتظار الطائرة الموعودة، وكنت أستفسر عنها كل يوم، وفي كل يوم كان الجواب: «غداً وربما بعد غد». إن

جبهة (كيرن) قد اقتربت منا في (أسمرة) بصورة خطيرة جداً. وأصبح من الواضح أن الإنجليز سيدخلون إليها بعد وقت قصير جداً، وفي يوم الأحد صباحاً، بينما كنت خارجاً من الفندق، الذي كنت أقيم فيه، علمت عن طريق الصدفة، بأن الطائرة ستقلع بعد نصف ساعة، وهي الآن في مطار مدينة جورا التي تبعد عشرين دقيقة في السيارة عن أسمرة. ومن دون أن أضيع وقتي في تجميع حاجياتي استقليت سيارة أجرة على الفور، فانطلقت مسرعة نحو المطار بناءً على طلبي، وما إن وصلت المطار حتى شاهدت طائرة من نوع سافويا 87 جاهزة على المدرج ومحركاتها تدور، فاندفعت بسرعة إليها، ولكن حالما وصلتها، خرج إلي ثلاثة طيارين إيطاليين وأخبروني بأن أنزل رأسي أولاً خلال فتحة في تلك الطائرة لكي يمكنني دخولها، وحالما أخذت مقعدي في الطائرة، شاهدت طائرات من جنوب أفريقيا تتجه نحونا، فألقيت بنفسي بكل سرعة فوق أولئك الطيارين الإيطاليين المضطجعين في خندق مجاور. ثم انقضت تلك المقاتلات جميعاً ودمرت عدداً كبيراً من الطائرات على أرض المطار، ولكن جميعها كانت عاطلة عن العمل ومتروكة على أرض المطار، بينما كانت طائرتنا، هي الطائرة الوحيدة الصالحة للطيران، وهي الوحيدة التي سلمت من تلك الغارة ولم تصب. بعد لجوئنا الطيارين الإيطاليين وأنا إلى ذلك الخندق الترابي أصبحنا أصدقاء، فشرحت لهم مهمتي في أريتريا، وهدفي من الذهاب إلى الشمال الأفريقي».

«قبل أن تتوارى طائرات العدو عن الأنظار، رجعنا جميعاً إلى

طائرة السافويا، وأقلعنا على الفور. كنا نطير على طول واد سحيق باتجاه الشرق، على ساحل البحر الأحمر. ثم هبطت طائرتنا على مهبط جوي للطوارئ في سهل منبسط، اعتقدت بأن ذلك كان هبوطاً اضطرارياً، وعلى الفور تمت تغطية الطائرة بشباك التمويه بالإضافة إلى بعض الأغصان التي وضعت فوق تلك الشباك لإخفائها عن الأنظار، ولو بصورة مؤقتة، قبل حلول الغسق، أقلعنا من جديد في اتجاه البحر وبعدها أصبحنا نطير فوق أرض يابسة».

«اعتقدت بأن تلك الأرض هي العربية السعودية، وبعد وصولنا إلى البر بقليل، حل ظلام الليل. كان الطيارون الثلاثة في مقاعدهم في حجرة القيادة، وكل منهم مجهز بمظلة الهبوط وجاهزين لهجر الطائرة في أية لحظة يشعرون بضرورة ذلك، بينما أنا المسافر الوحيد في تلك الطائرة كنت بدون مظلة، لم أخبرهم بأن حليفهم الوحيد على تلك الطائرة بدون مظلة هبوط.

كانت الطائرة بأكملها على حسابي ولم يكن هناك سوى حقيبة رسائل وسلسلة معلقة على جدار الطائرة بجانبي.

كان الطيارون الثلاثة متمتعين يمضون وقتهم في شرب النبيذ الجيد وهم يملكون الكثير منه، وكنت أشاهدهم يخرجون من مقصوراتهم بالتناوب.

أخيراً جاءني أحدهم يحمل قنينة شراب مملوءة وقدمها إلي بينما كنت مطرقاً أفكر بنيران المدافع المضادة للطائرات، التي كانت

قد أزعجت هذه الطائرة عند تحليقها وانطلاقها من أريتريا، كما كنت أفكر بظروف هؤلاء الطيارين.

قبلت الزجاجة من الطيار مع الشكر، وشربتها خلال مدة وجيزة ثم نمت نوماً عميقاً تلك الليلة، وفي الصباح نهضت سالماً.

كان ضوء النهار كاملاً عند نهوضي، لاحظت الطائرة تطير فوق البحر وتقترب من اليابسة التي افترضت بأنه الشمال الأفريقي، بعد مرور فترة وجيزة، هبطت الطائرة إلى الغرب من العقيلة حيث تزودت بالوقود، وهناك غادرت الطائرة بعد أن شكرت الطيارين الثلاثة وودعتهم، لقد واصلوا الطيران إلى روما حيث استقبلهم (موسوليني)، وهنأهم على هروبهم الجريء من أريتريا.

انتظرت قليلاً، إلى أن استدعيت لي طائرة صغيرة من أرض هبوط مجاورة أقلتني إلى طرابلس في عصر ذلك اليوم.

هناك قدمت تقريري إلى اللواء روميل، وأخبرته بأن مهمتي في شرق أفريقيا قد انتهت.

عندها قال الفريق باولوس: «حقيقة، إنها قصة ممتعة، ولكن ماذا حل ببحارتك»؟

علمت فيما بعد سيدي الفريق، أن غواصة إيطالية أو غواصتين نجحتا في أخذهما حول رأس الرجاء الصالح ومن هناك إلى أوروبا، وعلى متن هاتين الغواصتين سافر عدد من رجال سرية المتطوعين الألمانية بالإضافة إلى الضابط السابق للسفينة (كوبرك)،

أما بقية السفن فأعتقد أن معظمها قد أغرق من قبل ملاحيها في ميناء مصوَّع، وعندما كنت في طرابلس سمعت خبر إغراق الباخرة (كوبرك) التي كانت على مقربة من سواحل مورشيوس من نشرة أخبار محطة الإذاعة البريطانية بعد أن تم التصدي لها.

لقد وجه باولوس أسئلة أخرى حول الحملات الحربية في كل من الحبشة وأريتريا. بعد أن تركنا عكرمة على يسارنا واستدرنا نحو خطوط الجبهة حول طبرق، بينت للفريق باولوس أهم المواقع. كنت متعمداً عدم الذهاب معه لزيارة أي منها، وطوال ذلك الوقت كانت نيران مدفعية العدو تقصفنا بصورة متواصلة مع العلم أننا كنا بعيدين عن الخطوط الأمامية. كان هذا شاهداً حياً لنقل صورة واقعية للحياة اليومية في مواقعنا الأمامية.

لم أحتج لأخذ باولوس بين القنابل المتفجرة لكي يرى بأن جبهتنا لم تكن نزهة، وبينما كنا ننتقل بسرعة من قطاع إلى آخر، أبدى باولوس اهتماماً كبيراً بالوضع عامةً، ودخل في نقاش قوي مع قادة الوحدات الصغرى (التعبوية)، وأبدى اهتماماً خاصاً بموقعين أماميين أحدهما بلاسترينو، والآخر رأس المدور.

سأل الفريق باولوس عندما كنا نقترب وبقدر الإمكان من مواقع العدو في وضح النهار: «كيف يتم تزويد رجال فوج البنادق 115 المتمركزين هناك بالذخيرة والتموين؟» فأجبته: «إن تجهيز التموين ممكن ولكن يتم ليلاً فقط سيدي الفريق، إن رجال سرايا

المطابخ يحملون عربة ميدان بالطعام الساخن، والقهوة والخبز وغيرها بالإضافة إلى الذخيرة، وترسل إلى الخطوط الأمامية كل ليلة» ثم سأل الفريق باولوس: «متى يتم هذا التوزيع؟».

«إن هذا يتم بعد منتصف الليل عادة، لأن مواقعنا مكشوفة، وتمكن الأستراليون من مراقبة جميع تحركاتنا نهاراً وحتى في الليالي المقمرة». «فهل هذا يعني بأن رجالنا يجب أن يبقوا داخل ملاجئهم من دون حركة طوال النهار؟» هذا ما تساءل عنه باولوس «نعم سيدي الفريق وإن أسوأ ما في حياة الجنود هي هجمات الملايين من الذباب العدائي الذي لا يطاق وربما فالذباب يهجم بالآلاف على الطعام ولربما يسبب مرض الزحار (الديزنتاريا) وغيره من الأمراض بين رجالنا».

ثم سأل بالولوس: «لكن قد يرجع ذلك إلى طبيعة الطعام؟! وماذا يأكل الجنود عادةً؟» وبهذا، فإنه فتح موضوعاً حساساً يدور بين رجالنا، وإنني لم أعلق على موضوع نوع الطعام لأنني كنت آمل بأن قائداً ذا نفوذ مثل باولوس، يمكن أن يكون في وضع يمكنه من تحسين نصيبنا من الطعام عامةً، فالفاكهة والخضراوات غير معروفة لدى جنودنا، وهم يفتقدون البطاطس بصورة خاصة، وبشكل عام فالتموين عادة يتكون من سمك السردين المعلب في الزيت وقطعة من لحم الخنزير والنقانق المعلبة ولحم البقر المعلب في الزيت المسمى (ألترمان)، عندها بدأ الفريق يمعن النظر بي مستفسراً: «ألترمان»؟ وإني أذكر بأن الفريق باولوس، لم يمكث على أرض

أفريقيا أكثر من يومين لذلك فإنه يجهل تعبير (ألترمان) كما كان روميل في البداية، وهي علب إيطالية صغيرة مستديرة الشكل تحتوي على لحم بقر خشن، أي أنه لم يطبخ بدرجة كافية، وتلك العلب تحمل علامة مكونة من حرفين «AM» وهذا أصل الكلمة (ألترمان) ويطلقون عليه (حمير موسوليني).

ضحك باولوس، ثم التزم الصمت بعض الوقت، وعندما أوشكنا على الوصول إلى مقر القيادة تكلم قائلاً، إن القوات الألمانية حول طبرق تقاتل في ظروف غير إنسانية لا تطاق، وإنني سوف أكتب إلي برلين توصية بالانسحاب إلى مواقع قوية مثل عين الغزالة، حيث يمكن لقطعاتنا من العيش في ظروف أحسن وسوف أتأكد من وجود احتياطي أكبر. . وإنني ألاحظ، بأن كل رجل هنا يقوم بالواجب طوال الوقت بدون الحصول على وقت للراحة، وفي ظل هذه الظروف، فإن استبدال الجنود وراحتهم غير ممكن، ويجب علينا العمل لمعالجة هذه الحالة.

إن كلام باولوس أوحى لي بأن بعض التغيرات في أوضاعنا الصعبة يمكن أن تحدث، مثل: وجوب الاحتفاظ بمواقع آمنة في خط عين الغزالة، ولكنني كنت متأكداً، بأن روميل القائد الجريء، سوف لن يوافق على دور سلبي في هذه الصحراء، والحقيقة لم نلاحظ أية تغييرات مهمة خلال الأسابيع التي تلت تفتيش باولوس لمواقعنا. فنحن لا زلنا نأكل نفس التموين، كما أن قطعاتنا لم تنسحب إلى مواقع آمنة مثل عين الغزالة.

الفصل العاشر

معركة الفأس في الحدود

بعد زيارتنا للسلوم، تحول اهتمام روميل من طبرق إلى الجبهة المصرية، وقد قال روميل: «إن طبرق جوزة صلبة يصعب كسرها، وتتطلب استعدادات دقيقة، وعناية فائقة». كما أن روميل لم يتوقع من الفريق ويفل أن يدعه يستعد من دون إزعاج. والمعروف أن الحرارة ترتفع في شهر مايو في الصحراء، لذلك خطط روميل لتعزيز كل المواقع وتحصينها ومن ضمنها الدبابات، تلك المواقع التي حول محيط الحصن.. طبرق.

حتى في تلك المواقع التي كانت في الخطوط الأمامية للجبهة على الحدود المصرية، كانت هناك إشاعات تدور بين القوات الألمانية، بأن العمليات الحربية سوف تتوقف خلال أشهر الصيف الحارة، والمعروف أن الرغبة تولد الفكرة، وفي الحقيقة، فإن معظم القوات التي تمتلك الخبرة القتالية في الدبابات، كانت تفكر

بأن الإشاعات لا تشملها، كما أنهم لم يكونوا يعلمون بعد بأن ويفل سيكون هو البادئ بالعدوان.

لقد تمكنت في هذا الوقت قوات الاستطلاع الجوية البريطانية من اكتشاف مقر القيادة المتقدم للفيلق، والذي كان بالقرب من البيت الأبيض، لذلك تم نقل مقر قيادتنا المتقدم من هذه المنطقة باتجاه الشمال، على ساحل البحر غرب طبرق.

وحقيقة كنت ممتناً لطائرات استطلاع السلاح الجوي الملكي البريطاني، لأن ظروف الإقامة في المقر الجديد كانت ممتعة، بينما المقر القديم قرب البيت الأبيض يبدو كئيباً ومنعزلاً، كما أن ذهابنا إلى البحر، بعد كل الرحلات اليومية في تلك الصحراء الرملية، يبدو منعشاً بعد السباحة في مياه البحر. كنت أرافق روميل في جولاته إلى الحدود حيث كنا نبني خطاً دفاعياً يمتد من الساحل، أسفل ممر حلفايا إلى سيدي عمر، وكنا نعمل على تقوية هذا الخط الدفاعي بكل سرعة بمدافع عيار 88مم، إضافة إلى بطاريات مدفعية إيطالية.

وقد تمركزت مجموعة الاستطلاع بين قلعة كابوتسو وسيدي عمر، كقوة احتياطية آلية.

كنت أتمتع بالسباحة في مياه البحر كل يوم بعد رجوعنا من منطقة الحدود. وقد سمح روميل لنفسه بالراحة والاسترخاء في هذا المقر الجديد للمرة الأولى منذ أن ألتقيت به في طرابلس، لقد كان يعيش في عربة صغيرة، وكنت وبرندت نشترك في خيمة واحدة



روميل يتحدث عن الهجوم على طبرق مع مجموعة من صغار الضباط

المؤلف واقفاً في أقصى اليسار

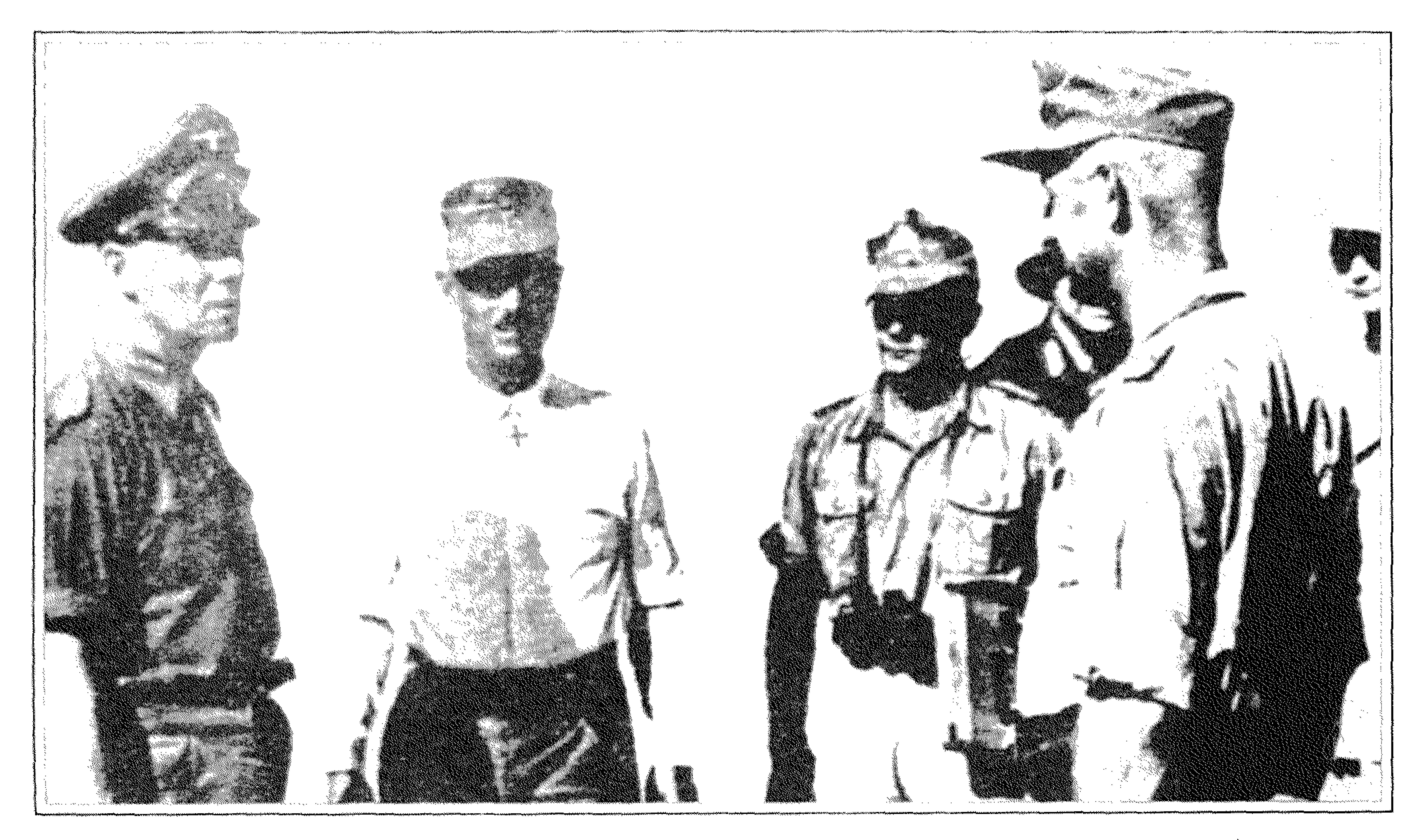
على مقربة من عربة روميل، وفي الجانب الآخر، يوجد مقر جيراننا، المراسل الحربي فون إيزيبيك وإيرتل وبوخيرت، وكان هؤلاء الثلاثة يحلون ضيوفاً على مائدة عشائنا في كل مرة، وكان من عادة إيزيبيك، حبه لوجبة الأرز الجافه تماماً.

وكمضيف، فإنني كنت أحاول جاهداً إرضاء ضيوفنا، وبما أن تلك الصحراء لا تعرف غير الذكور، فإن ارتداء ملابس السباحة في ذلك المقر تكون مقبولة أثناء النهار، وفي المساء كنا نرتدي سترة فوق لباس البحر.

في الصباح الباكر، سمعت برندت يصيح من خلال باب الخيمة المفتوح، انهض يا شميدت بسرعة، هناك سفينة كبيرة قريبة جداً في البحر، تهاجمها طائرات (ميسر شميتس)، اعتقدت بأنه يهزأ مني فقلت: «أعتقد بأننا مشغولون في إغراق السفينة الملكية ثانية؟».

«لا يا شميدت، هذه حقيقة، انظر من خلال فتحة المدخل، هناك سفينة لربما تحاول الوصول إلى طبرق. انهض!» كنت أفكر بتقديم نصيحة لبرندت، لأقول له فكر بشيء آخر أجدى، إذا كنت تريدني أن أغادر فراشي، وإذا بي أسمع أزيز نيران الرشاشات الآلية من بعيد.

«اسمع!. طائرات (الميسر شميتس) تصب نيرانها على السفينة، وإذا كنت لا تصدقني، إبق في فراشك». وإذا برأس برندت الكبيرة تطل من باب الخيمة.



روميل مع الرائد الاحتياط باخ (BACH)

المصدر المتحف الحربي البريطاني

عندها ارتديت سروال السباحة بسرعة، وبخطوات قليلة، عبرت كثبان الرمال الصغيرة التي كانت تحجب منظر البحر عنا. نعم إنها حقيقة، هناك سفينة، ولكنها ليست كبيرة كما قال برندت إنها سفينة مزودة بثلاثة أشرعة ومحرك. هناك سفينة وهناك ثلاث مقاتلات ألمانية كانت تهاجمها وترشقها بنيرانها، بينما كانت مدافع ضد الجو الخفيفة على ظهر السفينة ترد على النيران بكل شجاعة. إن تلك السفينة كانت تبعد بضعة أميال عن الساحل، وكان بالإمكان رؤية كل شيء عليها بوضوح.

تجمهر الألمان على الشاطئ بكل سرعة، ومن بينهم كان روميل نفسه، وعدد من ضباط أركانه، مع المراسل الحربي فون إيزيبيك وإيرتل يحمل آلة التصوير السينمائي، التي تبدو كما لو أنها ملتصقة بعينيه. ثم أخذ يوجه عدسته إلى الأعلى متعقباً أعمدة الدخان المتصاعدة.

بدأت بعض أعمدة الباخرة تتساقط في البحر، وبعد مرور دقائق قليلة، اختفى الدخان الكثيف ومعه اختفت السفينة، ولم يبق أي منها على سطح البحر.

ظهرت قوارب النجاة من خلال الدخان الكثيف ثانية، كان بحارة السفينة يحاولون الوصول إلى الساحل بكل جهدهم، في حين أن عدداً من هذه القوارب تتجه نحو طبرق، ولخيبة أمل هؤلاء، فإن المقاتلات كانت تجوب المنطقة أمامهم، أي باتجاه

طبرق، وأخذت توجه نيرانها على ارتفاع منخفض فوق رؤوس الأشخاص، موجهة إياهم إلى الاتجاه المعاكس.

بعد ساعتين تقريباً، اقتربت القوارب من الساحل. وأنزل الملاحون إلى البر على مقربة من خيامنا. وعلى تلك البقعة نفسها تمكنا من أسر جماعة معادية من المغيرين البريطانيين، فيما بعد. إن قصة أولئك المغيرين سوف ترد فيما بعد، في الفصل التالي.

كان أولئك البحارة منهكي القوى، وكان من بينهم شخصان إصابتهما وجراحهما خطيرة، حيث توفيا بعد نزولهما إلى البر بقليل، كان معظم أولئك البحارة من المدنيين اليونانيين، وهم قسم من مجموعة مدفعية ضد الجو على متن السفينة المنكودة وهي سفينة شحن يونانية صغيرة، غادرت مدينة الإسكندرية لشحن الذخيرة إلى طبرق، فضلّ ربانها الطريق إلى مدخل الميناء خلال الليل. وعند الفجر، كان قد أدرك بأنه على بعد أميال قليلة إلى الشرق من طبرق، عندها وصلت المقاتلات إلى مسرح العمليات. ومن غريب الصدف، أن إحدى الطلقات كانت قد دخلت من خلال باب المقصورة وضربت جهاز الطبخ المتقد لإعداد شاي الصباح، وبعد ثوان معدودة التهمت النيران تلك المقصورة، ثم ازدادت النيران والتهمت المزيد من السفينة، إلى أن وصلت إلى خزان الوقود فاشتعلت فيه النيران، فلم يبق أي مجال أمام البحارة سوى مغادرة الباخرة للنجاة بأنفسهم.

لم نتوقع بأن هذه الحادثة المأساوية ستشكل حالة الحرب إلى

النهاية، حيث إن البحرية البريطانية بدأت قصفها لمدينة بنغازي وهي خلف خطوطنا، في محاولة لشل حركةِ تجمع الفيلق الألماني الأفريقي وإمداداته.

بعد يوم أو يومين، وجه اللواء روميل ضربة أخرى إلى السلوم. في الوقت نفسه، وفي (أمبالاجي) (وهو موقع حصين، يبلغ ارتفاعه 11000 قدم فوق سطح البحر، في الحبشة). استسلم نائب الملك الإيطالي دوق أوستا في يوم 19 مايو والحامية الموجودة معه بشرف أمام الفرقة الهندية الخامسة، بقيادة العميد أي. جي. أو. إم. ماين والعميد بينار قائد اللواء الأول لاتحاد جنوب أفريقيا.

كانت (أمبالاجي)، نهاية المقاومة الإيطالية المهمة في شرق أفريقيا، حيث انتهت الحرب هناك، ولكن بعد يومين فقط، قامت القوات الألمانية بغزو جزيرة كريت، بإنزال قطعات محمولة جواً، وبهذا فإن ألمانيا أنزلت ضربة قاسية بالفريق ويفل.

إن معركة (الفأس)، وهو الاسم الرمزي لهجوم ويفل، الذي لم نكن نعلم به إلا بعد استلامنا التقارير الأولى من جبهة القتال في ممر حلفايا، والتي نصت: «هجوم قوي بالدبابات، وكانت معظم الدبابات البريطانية المهاجمة من نوع (العلامة 2س). وهذه الدبابات، كانت مصفحة تصفيحاً قوياً في المقدمة، كما أن جنازيرها الجانبية محمية بصفائح مدرعة.

كان المشاة يدعمون الدبابات بالتقدم من خلال الوديان

والأخاديد العميقة بكل عزيمة وإصرار، كما تقدموا من خلال جرف ممر حلفايا وواصلوا تقدمهم على طول الساحل إلى السلوم. كان روميل في غاية القلق، لأن خطوط دفاعنا هناك لم يكتمل بناؤها بعد. فأبرق بأوامره إلى عناصر من فوج الدبابات الخامس، بالتقدم بأقصى سرعة ممكنة على طول طريق كابوتسو، وهذا الممر من أحسن الممرات المعروفة في الصحراء، إلى الجنوب من الطريق الساحلي.

في اليوم الثاني من الهجوم البريطاني، فإن الوضع كان لا يزال غامضاً، وإن رأس الحربة لقوات الفريق ويفل كانت تضرب السلوم، لذلك قرر روميل أن يزور هذا القطاع بنفسه، ذهبنا معه آلدنجر، برندت، وأنا، ولم يكن بإمكاننا استخدام الطريق الساحلي، لأن طائرات السلاح الجوي الملكي كانت عدوانية، لذلك اضطررنا إلى اتباع طريق كابوتسو.

إن ما شاهدناه، كان قتالاً ممتازاً، فقد اخترقت دبابات ويفل عدداً من مواقع المشاة، على الرغم من النيران المركزة من مدفعيتنا من عيار 88مم، التي لم يكونوا يتوقعون وجودها. لقد احتل رجال مدفعيتنا مواقعهم على أرض مرتفعة وغير محمية ومكشوفة على مدى البصر، وكان كلما سقط منهم جندي، قام جندي آخر بأخذ مكانه على الفور، لقد تأثر رجال المدفعية الإيطالية بشجاعة وجرأة الجنود الألمان، الأمر الذي شجع الإيطاليين، فبدأوا يقاتلون بجدارة تستحق الثناء، ورغم الخسائر الفادحة التي أوقعتها مدفعيتنا بين رجال المشاة الإنجليز، فإنهم أبدوا بطولة نادرة، وواصلوا ضغطهم للأمام عبر وديان حلفايا.

بعد أيام من القتال، انتهت المعركة لصالح روميل، لكن التقارير الإخبارية لم تتناول هذه المعركة بإسهاب ـ كغيرها من المعارك الصحراوية ـ، والواقع، أن العديد من المراسلين الحربيين المحنكين في الحملة الليبية، قلما يتذكرون معركة (الفأس)، وأن السبب كان كثرة الأخبار في مسرح عمليات البحر الأبيض المتوسط وأوروبا في ذلك الوقت.

رافقت روميل عندما كان يفتش شخصياً ميدان المعركة على طول الحدود، من حلفايا إلى سيدي عمر، حيث أحصينا مائة وثماني دبابات بريطانية مدمرة، معظمها من نوع (العلامة 2س) فقمنا بسحب البعض منها من ميدان المعركة وإصلاحها، حيث وضع عليها علامة الصليب الألماني، وتم زجها في المعارك ضد الرجال الذين كانوا يقودونها من قبل.

إن انتصار روميل، كان يعزى بدرجة كبيرة إلى استخدام المدافع الألمانية من عيار 88مم، والتي صممت أصلاً للعمل ضد الطائرات، لكننا استخدمناها ضد الدبابات، وكانت متمركزة في مواقع جيدة، باعتبارها تشكل قلب المواقع الدفاعية.

أسرت قواتنا عدداً قليلاً من جنود العدو، وقد سمعت حواراً بين أحد رجال الأركان المستخدمين، وشاب إنجليزي سائق دبابة، سمعت الرجل الإنجليزي يقول، وهو ينظر إلى مدفع من مدافعنا القريبة بطريقة عدائية: «حسب رأيي، من غير الإنصاف استخدام مدافع الجو لضرب دباباتنا». .

عندها انبرى له أحد رجال المدفعية الألمان، الذي كان جالساً على مقربة، ويصغي إلى ترجمة حديث الرجل الإنجليزي، فقال بكل حماسة: «نعم. . وأنا أعتقد بأنه من غير الإنصاف مطلقاً أن تهاجموا بدبابات لا يمكن لأي سلاح اختراق دروعها سوى مدفعنا من عيار 88مم».

لقد كنت أبتسم لذلك الحوار، والذي حدث أن مدفع 88مم الذي أمامنا، أثبت بأنه قادر على إيقاف دبابات من نوع (العلامة 2س)، التي أثبتت ضعفها بالكامل أمام قذائف المدافع التي تصيب جوانبها. بعد هذه المعركة، أخذت قطعاتنا في الفرح والابتهاج لروميل حيثما ذهب، والمعروف أن شهرة روميل كانت قد سبقت هذه الواقعة، وهو الآن يعتلي سلم الشهرة ليكون بطلاً.

قام روميل بعد هذه المعركة، بإلقاء الخطب للعديد من مجموعات الرجال، ولم يهمل في خطبه ثناءه على الإيطاليين، الذين قاتلوا قتالاً جيداً، وكان برندت يعرف كيفية استغلال نجاحات روميل ويصوغها في دعاية ممتازة، وهذه الدعاية قد أسهمت كثيراً في الرفع من شعبية روميل وشهرته في الميدان، كما أن نجاحه قد اشتهر أثناء وبعد معركة الفأس. وقد كتب تقرير في صحيفة إنجليزية أشارت فيه إلى ممر حلفايا بأنه «ممر جهنم»، وعند حصولنا على نسخة من ذلك التقرير، قام برندت بدراسة التقرير باهتمام بالغ، ثم أرسله على الفور إلى غوبلز، وزير الدعاية الألماني في برلين.

وقد سبق كل هذا، أسطورة كانت تنمو هناك في الصحراء وأن هذه الأسطورة هي: (ثعلب الصحراء): الدهاء وسرعة الحركة، وأنه موجود في كل مكان.

في هذه المرحلة، أخذ روميل يزيد من اهتمامه في جبهة الحدود، كانت نقاط الملاحظة التابعة لقواتنا فوق المرتفعات على طول الساحل، من البردى إلى طبرق ومحيطها، يراقبون حركة الإنزالات البحرية، وقد وردت تقارير إلينا، عن وصول الإمدادات لتعويض الخسائر التي تكبدها العدو، إلى الميناء المحاصر.

لكن لم نر أية إشارة عن تعزيز قطعاتنا، ويبدو أننا لن نتوقع أية مشاكل، أو القيام بأي اختراق للحصار من طبرق، وحسب تقديرات روميل، فإن أي هجوم جديد للبريطانيين، سوف لن يكون ممكناً، قبل ثلاثة أشهر.

أدرك روميل بأن جبهة السلوم ستكون مسرحاً للعمليات القتالية خلال الأشهر القادمة، لذلك قرر نقل تشكيلاته الأساسية بعيداً نحو الشرق، باتجاه الحدود، واختار البردى لتكون قاعدة خاصة لعملياته ومقراً للقيادة، فاختار مقر قيادته الجديد مع مقر سكنه في بيت قديم يقع إلى أسفل كنيسة القرية، ومن دون شك، فإن هذا المبنى كان معروفاً للآلاف من رجال قوات جنوب أفريقيا والأستراليين والقطعات البريطانية.

كان روميل في هذا الوقت قائداً (للفيلق الألماني الأفريقي) فقط، وكان كل جندي في الميدان يعتقد أنه القائد الحقيقي، وهذا

نظرياً، لكن الواقع أن القائد الأعلى للعمليات في شمال أفريقيا، هو الفريق الإيطالي غاريبالدي.

بعد أن أصبحت دفاعات جبهة السلوم قوية بدرجة مرضية، دعا روميل غاريبالدي لزيارة الجبهة، فقبل الدعوة وجاء مسرعاً إلى البردى، في البردى قلد غاريبالدي روميل وسام الشجاعة الفضي الإيطالي، لقد كنت أكثر اندهاشاً، عندما ثبت غاريبالدي على صدري، هذا الوسام الإيطالي المزخرف والمتميز، وقد عاملنا جميعاً بأبوة وحسن نية.

بعد ذلك قام روميل، بتقديم صورة واضحة للموقف العام إلى غاريبالدي، كما بين شعور المقاتلين، ثم أخذه في سيارته إلى جبهة السلوم، وذلك للتفتيش على المواقع، ولكني لاحظت، بأنه خلال شروح روميل، التي كانت تترجم لحلفائنا الإيطاليين من قبل الدكتور هيجمان، لاحظت امتعاضاً ظاهراً على وجوه الضباط الإيطاليين المرافقين للقائد الإيطالي، وقد كانوا يخفون مرارة نفاد صبرهم، وعند وصولنا إلى ممر حلفايا، تقدم أحد الإيطاليين إلى القائد الإيطالي، قائلاً: «هل يمكن أن أذكر سعادتكم، بأن مؤتمراً مهماً يتطلب حضورنا في شحات؟».

عندها قال غاريبالدي بالإيطالية: «نعم..»، ثم تحدث عن أهمية عودته الفورية، ولكن هذا لم يكن ليتفق مع البرنامج الذي كان قد خططه روميل، لأن الكثير من المواقع في الجبهة لم يشاهدها رئيسه الإسمي، وقد لاحظت وميض ابتسامة ساخرة في

عيني روميل عندما غادرنا غاريبالدي قائلاً بكل رقة: «شكراً لك لإنجازاتك المدهشة. . وإن كل الإجراءات التي قمت بها صحيحة، ولو كنتِ مكانك لعملت الشيء نفسه بالضبط».

ثم ركب الإيطاليون سياراتهم ورحلوا، وبعد مغادرتهم، دعانا الضابط الألماني الأقدم في دفاعات ممر حلفايا، النقيب الاحتياط باخ القسيس الذي تحول إلى مقاتل. وسيرقى باخ فيما بعد إلى رتبة رائد، وهو الذي سيستسلم مع القوات الألمانية في حلفايا، خلال شهر يناير التالي للعميد آي. بي. دي فيلرز، قائد الفرقة الثانية لاتحاد جنوب أفريقيا.

بعد ذلك شرعنا في العودة إلى البردى، وكانت عينا روميل تومضان، ثم قال فجأة مع ابتسامة متشائمة: «إني أستغرب! ما هذا الشيء المهم في شحات؟. . ».

غادر إيهلر أركان روميل وترك منصبه، وعين خلفاً له الرائد ويستفال، كرئيس للعمليات لاتخاذ القرارات التعبوية للفيلق الأفريقي، ولكي يكوّن صورة واضحة للموقف، قام روميل بإعطائه شرحاً وافياً عن الأهداف التي يأمل في إنجازها قبل نهاية شهر نوفمبر، وهي كما يلي:

أولاً ـ علينا تكملة بناء خط نقاط دفاعات قوي من ممر حلفايا إلى سيدي عمر، وهذا يجب تجهيزه بصوره جيدة، لكي تتمكن هذه المواقع من الصمود أمام هجمات العدو لمدة ثلاثة أسابيع أو أكثر من دون أية مساعدة.

ثانياً ـ إعداد قوة خلف ستارة دفاعات الجبهة، ومعالجة أي هجوم قوي من طبرق، بإضعافه أو سحقه، ثم بدا روميل في تفكير عميق، وقال: «نعم يا ويستفال، هذا يعني بأننا نحتاج إلى نصف سنة أخرى لكي نعمل خلالها على إدامة خطوط مواصلاتنا، إلى مواقعنا حول طبرق وإلى هذا الخط الدفاعي».

«نعم سيدي اللواء، وأعتقد، بأنه لا يمكن تجنب ذلك». كانت هذه ملاحظة ويستفال، ولم يبدو عليه أي حماس، وربما يعود هذا لأنه، كان غارقاً في تفكيره، كما كنت أفكر بالطرقات الترابية المعقدة، حول طبرق.

وأضاف روميل: «ومع ذلك يمكن القيام بعمل ما بخصوص ذلك».

«وماذا تقول بخصوص إقامة طريق مناسبة حول طبرق؟!! عندئذ نتمكن من أن نعوض عن الطريق الساحلي، التي تمر عبر الميناء وهي الطريق التي يسيطر عليها الأستراليون الملاعين».

لقد رحب الجميع باقتراحات روميل وبكل حماسة، وبكل سرعة أصبحت الفكرة شيئاً واقعياً.

ثم عقدت مؤتمرات مع قادة الفريق الإيطالي، ونتيجة لذلك، حصلنا على المزيد من القطاعات بهدف بناء الطريق الدائرية حول طبرق، ولقد أمرت بعض الكتائب الألمانية أيضاً، بالعمل، لكنها فضلت القيام بواجبات العمل الميداني على خطوط الجبهة، وبعد التماسات سمح لهم بأن يتمركزوا في مواقع الإيطاليين، الذين كانوا

في مواقع قتالية، لكي يتفرغ الإيطاليون للعمل في بناء الطريق.

تم تحديد تلك الطريق ومسحها بكل سرعة، وكان يوجد الكثير من تجهيزات الحجارة في هذه الصحراء الصخرية، وبكل تأكيد لم يكن هناك أي نقص في الرمال.

وبعد فترة وجيزة، أمكن تجميع ثلاثة آلاف إيطالي، يعملون بجد وحماس كبيرين، في الأجزاء التي تم بناؤها من ذلك الطريق، أصبحت لا أكف عن الدهشة لمشاهدتي أعداداً هائلة من زجاجات الخمور الإيطالية نوع (شيانتي).

لقد تم بناء تلك الطريق خلال ثلاثة أشهر فقط، وقام قائد إيطالي بافتتاح الطريق في احتفال رسمي، وأطلق عليها اسم (طريق المحور)[1] الذي أصبح في الحقيقة مظهراً من مظاهر الحياة في تلك الصحراء، والذي استخدم من كلا الجانبين منذ افتتاحه، حتى نهاية عام 1943، وأعتقد أن تلك الطريق لا تزال تخدم تلك المنطقة حتى يومنا هذا...

(1) طريق المحور: طريق ترابي ممهد يبدأ من الطريق الساحلي، غرب طبرق مروراً بمقبرة الحرب البريطانية عند عكرمة، إلى الجنوب الشرقي من طبرق، في اتجاه العدم، وتمر جنوب العدم وجنوب الطريق الساحلي وتتصل بالطريق الساحلي عند قرية القعرة، ثم إلى كمبوت. (المراجع).

الفصل الحادي عشر

رسـائـل اللـواء

تقع البردى على حافة جرف عال وهي تشرف على البحر، حيث يوجد خليج محاط بالبر بصورة كاملة تقريباً، يقع مسافة أبعد إلى الشرق من البردى، وقد اتخذه القراصنة القدماء ملجأً أميناً قبل ألف عام. وفي زمن السلم، تبدو قرية البردى هادئة وممتعة. لقد وجد فيها روميل موقعاً جيداً لمقر قيادته المتقدم، لكونها توفر الراحة بعد العمل اليومي المجهد، كما أن موقعها ملائم جداً، لقائد يرغب في أن يكون على اتصال وثيق بقطعاته.

لقد وصلتنا الآن بعض التعزيزات. وتم تشكيل فرقة ثالثة من قوات متنوعة ومختلفة، أطلق عليها اسم الفرقة التسعون الخفيفة، ولكن وحدات هذه الفرقة لا تزال بدون وسائل مواصلات. كما تم إعادة تنظيم الفرقة الخامسة الخفيفة وسميت الفرقة الحادية والعشرون بانزر، تحت قيادة العميد فون رافنشتاين بدلاً من العميد

ستترايخ. وقد تولى العميد فون إيزيبيك وهو ابن عم صديقي المراسل الحربي فون إيزيبيك، قيادة الفرقة الخامسة عشرة بانزر، لكنه جرح بعد أيام قليلة، خلال غارة جوية بريطانية، عندما كان بالقرب من عكرمة. والآن، فإن العناصر الرئيسية للفيلق الأفريقي، الذي سيحقق شهرة عالية، أصبحت موجودة، وهي: الفرقة الخامسة عشرة بانزر، الحادية والعشرون بانزر، والفرقة التسعون الخفيفة. كنا في البردى نشعر بالراحة التامة، كما لم نكن قلقين أو منزعجين، حتى عندما عرفنا في صباح أحد الأيام، بأن مجموعة إغارة بريطانية أغارت على المنطقة، بعد عملية إنزال على أسفل ذلك الجرف، أي على الساحل الذي كنا نقوم فيه بالسباحة، حيث تمكنا من أسر اثنين من المغيرين، وتمكن باقي المغيرين من الفرار، على ما يبدو.

بعد مرور عدة أيام، وبينما كنا: برندت وأنا نرافق روميل عند قيامه بتفتيش واستطلاع الأراضي والخنادق الواقعة إلى الغرب من البردى في المنطقة الساحلية الغربية، تعرضنا وبصورة مفاجئة، لنيران قناص جيد منعزل رغم هدوء المنطقة، واستحالة وجود أي إنسان فيها.

استترنا طلباً للحماية، وراء جدار حجري، ولمدة نصف ساعة، لم نتمكن من رفع رؤوسنا دون أن تمر إطلاقة فوقها وعلى مقربة منا، وبعد أن توقفت نيران القناص أسرعنا راجعين إلى عرباتنا.

بعد مرور نصف ساعة أخرى، رجعت برفقة ثلاثين جندياً لتمشيط المنطقة بأكملها وتفتيش كل خندق هناك، لكننا لم نعثر إلا على بطانيات قديمة، وقنابل يدوية، وبقايا معدات حربية مختلفة، يعود تاريخها إلى ما قبل الاندحار الإيطالي، في شهر ديسمبر.

كان من المستحيل العثور على أي أثر يدل على وجود إنسان، لقد كان في المخابئ التي فتشناها قبل نصف ساعة.

بعد مرور ساعتين، توقفنا عن مواصلة ذلك التفتيش العقيم. والحقيقة أنه لا يمكن لأي إنسان أن يخطط للاختفاء في شبكة المتاهات المحيرة بين هذه الصخور من دون خوف على اكتشافه، حيث إن طبيعة الأرض تدل على هذا بوضوح.

كانت هذه محاولة العدو الثانية لقتل روميل. أما المحاولة الأولى فقد حدثت عندما كان مقر قيادتنا على الساحل غرب طبرق، وقد تم أسر المغيرين على بعد مئات قليلة من الياردات عن عربة روميل، وتلك كانت ضربة حظ، لأننا، كنا قد أهملنا تشكيل حرس لحماية مقر القيادة، وفي ذلك الوقت، كان من السهل جداً النيل من روميل وقتله كقتل أي جندي أو مرؤوس آخر في أي موقع عسكري، وحتى أسهل من ذلك، ونحن لم ندرك بأن جماعات العدو المغيرة، كانت في غارات عامة، غارات من أجل التدمير والتخريب، كما أن غارة البردى لم تكن لتخيف روميل، وقد ضحك قائلاً: «يبدو أنني أستحق الكثير بالنسبة للبريطانيين».

إن وضع تموينا تحسن بصورة تدريجية، وبدأنا نستلم

الخضراوات الطازجة للمرة الأولى في الصحراء، من منطقة الجبل الأخضر ومن طرابلس أيضاً. عندها أتى يوم الرسالة الحمراء . . عندما كنا نتناول العشاء، الذي يتكون من كبدة مقلية بالزبدة، وإذ بالضابط المسؤول عن المطعم، ينادي: «من منكم أيها السادة، يريد المزيد من الكبدة؟». كنا مندهشين لهذا الكرم، ولم يكن بيننا من يرفض، ولكن في الوجبة التالية، عندما نادى: «من منكم يريد المزيد من كبدة الإبل؟». امتعضت وجوهنا، ولازمنا الصمت.

كان روميل نفسه متواضعاً جداً في شهيته ولم يتذمر من الطعام مطلقاً، كان مقتنعاً بأنه يجب أن يعيشَ على نفس أرزاق الجنود، وفي أغلب الأوقات لم يكن هناك الكثير من الأرزاق، سوى السردين المعلب، ونوعية رديئة من لحم الخنزير المعلب والخبز، وبطبيعة الحال هناك دائماً ما يسمى (بألترمان) أو اللحم الرديء.

كان روميل يسمح لنفسه بكأس من النبيذ في المناسبات الخاصة فقط، وهو يدعوه مظهراً من المظاهر الاجتماعية. كما أنه لم يدخن مطلقاً. والحقيقة أن كلاً من روميل وغريمه مونتجمري القائد البريطاني، كانا متشابهين بصورة فريدة في تقشفهما في الحياة، ويعيشان حياة إسبارطية قاسية.

كان روميل يفضل أن ينام مبكراً، كما أنه اعتاد على النهوض مبكراً، وكان مجتهداً في تنفيذ أعماله. كان يحب الصيد ومن فترة لأخرى، كان يسمح لنفسه بالاسترخاء وصيد الغزلان في الصحراء،

والحقيقة أنه يمكن ملاحظة غريزة الصيد تظهر بصورة واضحة في مظهره غير العاطفي.

ما عدا هذين فإن لديه رد فعل واحد، وهو ضرب الذباب بعنف، وخلال ساعات الغذاء اليومية، كان يكرس وقته لواجب واحد، وهو القتل المنظم لأي عدد من الذباب.

برندت وأنا، كنا نعيش في دار صغيرة قريبة من مقر روميل. كانت دارنا تقع تماماً أمام الجرف الصخري، وهي معروفة للجميع بأنها كانت تستخدم إسطبلاً في الأيام الخوالي.

لقد سنحت لي تلك الأيام، معرفة برندت معرفة جيدة، إذ اكتشفت بأنه كان يعمل على تنمية أسطورة روميل، أكثر مما يدرك معظم الناس، لقد كان يستغل كل فرصة سانحة لالتقاط صور ثعلب الصحراء ونشرها داخل ألمانيا، وغيرها من الدول المحايدة، وحسب شهادة المراسلين الحربيين، فإن روميل نفسه كان يعرف كيف يأخذ الأوضاع المناسبة، مما يسهل على المصورين التقاط صور دقيقة تتناسب مع الموقف.

ورغم الاختلافات السياسية، فإن برندت وأنا كنا صديقين، إن هذا الإنسان الضخم القامة، ذا الرأس الكبيرة المتدلية إلى الأمام، غالباً ما كان يذكرني بالدب، كان حديثه يتسم بالهدوء، وينم عن ثقة تامة بالنفس، وإن خياله وتصوراته كانا يتسمان بضبط النفس والاعتدال، وتقاريره حول خبراتنا في الصحراء مع خبرته الشخصية تنطق بالدقة والحقيقة. ومع أنه يرتدي البدلة العسكرية،

ويحمل رتبة ملازم أول، غير أنه كان يحاول أن يعطي انطباعاً بأنه لا زال شخصية ذات نفوذ في وزارة الدعاية الألمانية، وكنت أشك في صحة هذا، لكنها مجرد رغبة في أن تسلط عليه الأضواء، ويكسب الشهرة ليكون شخصية مرموقة في ألمانيا. وعلى أي حال، أخبرني في أحد الأيام سراً من أسراره، فقد كان مسؤولاً عن تنظيم اضطرابات على الحدود بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا، على أن تلك الحوادث كانت صادرة عن أعداء ألمانيا لإزعاجها.

لقد كان هو المسؤول عن هذه الأحداث، بينما كان مرتدياً ملابس عسكرية تشيكية، وكانت النتيجة معروفة، وكجندي في ذلك الوقت، فإنني لم أسمع بأن حوادث من هذا القبيل تم تنظيمها، ولو كنت قد أمرت بتنظيم حوادث من هذا القبيل، وبصورة متعمدة، لرفضت ذكرها لأنها مجرد دعاية أعدها أعداء ألمانيا، ولا تستوجب الذكر. لقد تأثرت، نوعاً ما، بهذه التصريحات التي يفخر بها برندت، وكان تعليقي واضحاً: «بأن تصرفاً من هذا القبيل، ليس عملاً قذراً فقط، بل هو في غاية الخطورة أيضاً».

هنا فقد برندت هدوءه الاعتيادي، وأخذ يصرخ بوجهي بغضب شديد، قائلاً: «شميدت، أنت نموذج من سيئي الحظ الكثيرين من الألمان، الذين يبنون آراءهم على ذهول جنوني، نتيجة لنظرتك العاطفية للأمور، ثم واصل كلامه: يجب علينا أن نتبنى شعار الرجل الإنجليزي القائل: «أنا مع وطني سواء كان على حق، أم على باطل». لم أسمع بهذا المثل من قبل، كنت

أعتقد بأن برندت كان مخطئاً في تفسيره لهذا الحديث، ثم إنني أغضبته أكثر بقولي: «بأن هذه المناهج التي يسلي بها نفسه، هي مضللة للشعب الألماني ولغيره من الشعوب، وخاصة للقوات الألمانية المسلحة».

نظر إلي برندت نظرة، كما لو كان يشفق علي، وأبدى بعض الملاحظات: «نعم إن السياسة ليست لكل الناس»، فأجبته: «من أجل السلام فقط، فإني أوافق على هذا القول تماماً». ولكنه، كلما كان يصرح لي برأي كنت أرد عليه دون استخدام الكلمات.

رغم كل هذه الاختلافات السياسية، تمكنا من العيش بهدوء، لقد كان نوعاً من الهدوء الذي يسود عائلة يتكون أفرادها من الذكور فقط، وهذا ما تفرضه ظروف الحرب.

لقد حدثت تغييرات غيرت الكثير من أعمالي اليومية، وليس هذا فحسب، بل زادتني قرباً من روميل أكثر من ذي قبل.

إن قوة البنية الجسدية لآلدنجر لم تكن بنفس القوة البدنية لروميل، لذلك أخذت صحته تنهار أمام المتاعب، إضافة إلى قلب معتل، كل هذه الأمور اضطرت آلدنجر إلى ترك منصبه (الساعد الأيمن) لروميل، وأمين سره لسنين عديدة. فغادر شمال أفريقيا واتجه إلى أوروبا. بعد مغادرة آلدنجر، فإن واجباته قد أسندت إليّ بالكامل، كان عليّ أن أنتقل إلى الغرفة المجاورة لغرفة اللواء.

في نفس الوقت، قدم برندت طلباً يلتمس فيه إجازة عمل

لمدة ستة أشهر والعودة إلى برلين، حيث كان في انتظاره منصب في وزارة الدعاية الألمانية تحت رئاسة غوبلز.

ازدادت مسؤولياتي، بصورة هائلة، لقد أصبح الإعداد للرحلات اليومية إلى خطوط الجبهة مع تفاصيلها، من مسؤولياتي الخاصة. وأصبح علي تسجيل كل ما يصدر عن (روميل) من رغبات وأوامر كتابياً بكل دقة. وكان هناك مذكرات لا حصر لها حول دقة الوقت، الأسماء، المواقع، قوة الوحدات، وغيرها من الأمور الهامة.

مع كل هذا، أصبحت أعمل سكرتيراً خاصاً لروميل خلال المساء، لأني كنت أقوم بالرد على رسائل روميل الخاصة. في ذلك الوقت، لم يكن روميل قد وصل إلى أوج شهرته، ومع ذلك فإن ما كان يصله من رسائل في اليوم الواحد، يتراوح ما بين ثلاثين وأربعين رسالة. تأتي من مختلف الولايات الألمانية، ومن جميع المستويات الاجتماعية، والعديد من هذه الرسائل كان يأتي من الشباب الذين يبجلون الأوطان، ومن فتيات ونساء يحببنه حباً يقارب درجة العبادة. وجميع هذه الرسائل تقريباً، كانت تطلب صوراً فوتوغرافية لروميل. لقد كان من واجباتي الرد عليها جميعها. وكنا نحتفظ بصندوق كبير لحفظ صور روميل، بحجم بطاقة البريد، وهي من إنتاج المصور هوفمان في ميونيخ، وهو المصور الرسمي لهتلر، وكان يزودنا بهذه الصور بصورة منتظمة. كان روميل يكتب ملاحظاته الخاصة على كل صورة كنت أرسلها.

بجانب كل هذا، كنت أجيب أيضاً على الرسائل الشخصية التي تأتي من معارفه وحتى أصدقائه، وهذه مهمة لم تكن سهلة دائماً، لأنني لم أكن أعرف هؤلاء الذين يكتبون إليه، ولا درجة معرفتهم به، ونظراً لضيق الوقت، فإني كنت قد حررت عدداً من الإجابات النموذجية كانت ترسل من مكتب اللواء بصورة روتينية، في حين أن إجابات أخرى كنت أمليها على الطباع، الذي كان برتبة نائب عريف يدعى بوتشر، حيث كنت أعطيه رزماً من الرسائل وأقول له: هناك ثمانية عشر شاباً وشابة يطلبون صور اللواء رجاءً أحضرْ هذه الصور مع رسائل تغطية، ثم ارسلها لطالبيها.

تناولت رسالتين كانتا من رفاق روميل خلال الحرب العالمية الأولى قلت لبوتشر، بأن يكتب: «عزيزي ميرتنس تقبل مني أطيب تحياتي لرسالتك المؤرخة . . ». وهكذا كنت أواصل العمل بكل دقة، وأتمكن من تنفيذ واجباتي بقدر ما يريد روميل ويتفق مع أسلوبه الخاص، غير أن روميل كان يتفحص هذه الرسائل بكل دقة قبل التوقيع عليها، وإذا كانت لا تتفق ورغباته، فإنه كان يردها إليّ لإعادة كتابتها.

كنت أفرح تماماً عندما أشاهده يوقع على الرسائل، وأرى طرف لسانه يمتد إلى الأمام بطريقة ساخرة، بينما ينساب قلمه الوردي المزخرف على الورق، إلى أن يكتمل حرف ال «R» الكبير في توقيعه.

في بعض الأحيان، كنت أرى خطوطاً مألوفة لدي من بين

تلك الرسائل وأقول، آه . . هذه رسالة أخرى من الشيطانة القديمة من مدينة ليبزيج. والشيطانة: هي فتاة في سن النضج كانت تختم رسائلها بعبارة (الشيطانة القديمة). وقد بدأت رسالتها الأولى بعبارة: «يا أشرف لواء . .». لكن هذا الأسلوب تغير في رسالتها الخامسة، حيث كانت قد افتتحتها بكل بهجة بقولها: عزيزي روميل، وأعزائي رجال روميل. اعتادت الكتابة بأسلوب صادر من قلب متفتح، ولم تكن لها موانع من الوصول إلى شخصيات في مناصب عليا، دون أن يمنعها ذلك احترامهم، فعلى سبيل المثال، فإنها تقول: «إن هانز فريتش مشغول مرة أخرى على مذياعه، وأنا لا أتمكن من تحمل ثرثرته وسخريته». كانت رسائلها تنقل لنا الكثير من الأخبار السارة في الوطن، ومع أنها كانت معنونة لروميل شخصياً لكنها كانت تسرنا جميعاً في مقر روميل، حيث كنا جميعاً متفقين: حتى وإن كانت هذه الشيطانة غريبة الطباع، إلا أنها بكل تأكيد ذات معنويات عالية جداً، ويا لها من شيطانة . . . !.

في أحد الأيام وصلتنا رزمة كبيرة من الكتب، أرسلتها هذه الشيطانة، فطلب مني روميل أخذ هذه الكتب وتوزيعها على منتسبي القطعات في مواقع ممر حلفايا.

قمت بتفحص هذه الكتب، وكنت مسروراً عندما لاحظت، بأنها تتكون بكاملها من أدبيات، كانت توصف (بأدبيات القمامة)، وقد أعدمها الرايخ الثالث لأنها لا تصلح إلا للحرق وللديمقراطيات السخيفة.

في رسالتها التالية، كنت قد لاحظت بأنها بدأت: «نحن فخورون بك، يا أخي المشهور». عندها سلمتها إلى روميل دون أن أقرأها، مفترضاً بأنها من أخت روميل.

من بين تلك الرسائل الواردة من الوطن، وجدت أن الرسائل الواردة من مقاطعة روميل - هي سوابيا الواقعة في الجنوب الغربي لألمانيا، على جانبي الغابة السوداء، وبين نيكار وبحيرة كونستاس - كانت ممتعة بصورة خاصة، إذ كان من صفات السوابيين أنهم يتميزون بالوضوح والإخلاص والطاعة والجرأة. إن هذه السجايا تجعلهم جنوداً ممتازين، على حد ظني، ومع ذلك فإن للسوابيين نقطة ضعف واحدة حسب اعتقادي، وهي أنهم شديدو الفخر بإقليمهم، وعلى سبيل المثال: فإن إحدى الرسائل تقول ما يلي: «نحن قد قرأنا بفخر وسرور أخبار نجاحكم. وعظيم جداً أن يكون سوابي قائداً للفيلق الألماني الأفريقي، ونحن في سوابيا سمعنا بأن نسبة كبيرة من قطعاتك، هم من السوابيين. نعم، من دون شك، وعلى أية حال فإن السوابيين هم خيرة الجند..». كنت أحاول الأجابة على حماس السوابيين هذا بكل مهارة ودقة، وأعبر بكل لطف بأن جنود الفيلق الأفريقي يمثلون كل الولايات الألمانية، وحتى فلاحي بروسيا. تردد روميل قليلاً في توقيع تلك الرسالة، لكنه بعد ابتسامة سريعة قام بتوقيعها.

كان ضابط الركن الأقدم، يأتي كل مساء إلى مكتب روميل ليقدم له خلاصة العمليات الحربية في الجبهة الروسية لذلك اليوم.

وقد علقت في الموقع وعلى الجدار خريطة كبيرة بالمواقع داخل مكتب روميل، لأنه كان مهتماً بصورة خاصة بتقدم الفرقة السابعة دبابات، وهي الفرقة (الشبح)، فرقته السابقة، ومن دواعي فخره أن تلك الفرقة، كانت من بين الفرق المشهورة التي شقت طريقها في هجوم قامت فيه بمهمة رأس الحربة في اتجاه موسكو. كما أظهر روميل اهتماماً كبيراً باحتلال قوات مظلات المحور لجزيرة كريت، وهذا شيء طبيعي، لأن هذا الاحتلال قدم لطائرات السلاح الجوي الألماني أفضل قاعدة عسكرية لدعم العمليات الحربية ضد العدو في الصحراء وفي الشرق الأوسط بصورة عامة.

لكن روميل كان يشعر بأن احتلال مالطا، يمكن أن يكون ذا قيمة أكبر بكثير من احتلال كريت، لأن الجزيرة الصغيرة مالطا، بالنسبة للحملة في شمال أفريقيا تمثل تهديداً متواصلاً لخطوط الإمدادات الحيوية، وإني أعتقد جازماً بأنه لو تم احتلال مالطا عام (1941)، لما تمكنت بريطانيا مطلقاً من الانتصار في حرب الشمال الأفريقي.

الفصل الثاني عشر

يوم في خطوط الجبهة

كان روميل في تلك الأيام، يعمل على تقوية جبهة السلوم بنشاط دون هوادة. ففي صباح كل يوم، وبالتحديد في تمام الساعة 0700 صباحاً، نغادر كالعادة متجهين لزيارة خطوط الجبهة، وبما أن المسافات أصبحت قصيرة لقربها من المقر الجديد، كنا نترك عربة روميل المدرعة (الماموث) عند المقر، ثم نغادر ـ مجموعة القيادة ـ مع روميل في سيارتين مكشوفتين، كنا نمر من خلال البوابات (نقاط الحراسة) لنصل إلى مقر قيادة الفيلق الأفريقي. وبعد كل بوابة، كانت عوارض الطريق تهبط عبر الطريق لمنع المرور بعد مرورنا مباشرة، وكان الحراس يؤدون التحية.

منذ مغادرة آلدنجر، بدأت أسافر برفقة روميل، فكان يجلس في المقعد الأمامي بجانب السائق، وأجلس أنا خلفه مع الدكتور هيجمان الذي كان يعمل مترجماً.

كنا نمر في سيارتنا عبر (كابوتسو)، ومن خلال فتحة في خط الأسلاك الشائكة الممتد عبر الحدود، بعد ذلك ننطلق بأقصى سرعة في الصحراء بعيداً، عبر مواقع قطعاتنا على خط الجبهة في تلك الأرض الممتدة، والتي لا تعود لأحد. كنا دائماً نلاحظ حركات دوريات العدو بعيداً في الأفق، ولكنهم، لا يعلمون كم هي جائزة قيمة لو تحركوا باتجاهنا، وهي مسافة لا تبعد عن مدى البصر.

بهذا العمل، كان روميل يدرس مواقع قطعاتنا من نقاط مختلفة، وأفضل النقاط من جانب العدو، ويدقق في مراقبة هذه المواقع من خلال منظاره الميداني، بكل جدّ وتدقيق العالم الذي يفحص العينات تحت مجهره. كان دائماً يطلق شخيراً ـ تعبيراً عن السخط والغضب ـ عند مشاهدته ما لا يعجبه، ثم نقفز في عرباتنا ونقتفي أثر سيارته ونحن نراقبه واقفاً منتصب القامة داخل سيارته، وفي هذه الحالة، نتجه نحو النقطة الحصينة التي كان يراقبها.

عند اقترابنا من المواقع، فإن الحراس يحملقون في روميل، بأعين مفتوحة مندهشين، يصيح فيهم روميل قائلاً: «لماذا لا تؤدون التحية؟»، عندها يقف الجنود في وضع الاستعداد دون أن ينبسوا بكلمة، ثم يتساءل روميل بكل غضب قائلاً: «أين آمر هذا الموقع؟». «إنه نائم يا سيدي.. الرائد! ثم يتلعثم الحارس في كلامه، فهو مجند حديثاً وجديد في الجبهة، كما أنه لم يشاهد روميل من قبل، فقد كانت علامات الرتبة العسكرية مربكة. إذ اعتقد الحارس أنه أحد ضباط الميدان، برتبة رائد.

نعم «يا سيدي الجندي» قال روميل: «يبدو كما لو أن كل واحد هنا نائم. رجاءً أيقظ هذا السيد».

لم يكن ذلك الحارس بحاجة إلى الحركة، لأن وجهاً محتقناً بالحمرة لضابط شاب خرج من الخندق القريب، وعندما رأى هذا الضابط الشاب القائد العام، استعد بكل نشاط وحيوية، ثم أدى التحية وأخذ يقدم تقريره: «ليس هناك شيء خاص يمكن ذكره في الموقع الأمامي».

«كيف تعرف هذا، أيها السيد الملازم»؟. أجابه روميل بقوة مع التوبيخ. «أنت كنت نائماً نوماً جميلاً». لم ينطق الملازم، لأنه ليس لديه ما يقوله. أعقب ذلك وجوم مروع، ثم واصل روميل حديثه: «أيها السيد الملازم، إن موقعك غير مطابق لتعليماتي، وإن ملجأك بارز جداً للعيان وبصورة واضحة، كما أن الموقع غير مموه، وجندك يمرحون ويركضون هنا وهناك، وأنت نائم .. سوف أعود غداً، وأرجو أن أقتنع بأن جميع تفاصيل التعليمات طبقت بحذافيرها، طاب صباحك أيها السيد الملازم» ثم أشار روميل للسائق بالتحرك.

كان الملازم الشاب متجمداً في مكانه، وقد مر روميل بمواقف مثل هذا في السابق، وفي مثل هذه المواقف، لم يكن روميل ليرضى بعبارة: نعم يا سيدي اللواء. وإن كل من يعتقد بأن الصحراء في الشمال الأفريقي هي أرض رومانسية فسوف يلقى صدمة عنيفة هنا.

قبل وصولنا إلى الموقع الأمامي التالي تعرف جنوده على سياراتنا، وقد أطلق على هذا الموقع المتقدم، اسم كاوا. كان جنود هذه النقطة القوية وآمرها الملازم، متيقظين.

كان سلوك روميل في هذا الموقع الحصين مختلفاً تماماً، ومع ذلك فقد قدم بعض الإرشادات بلطف، وكان حديثه يقتصر على: «موقع جيد الاختيار وتصرف حكيم. هذا هو المهم، إذ ليس بوسعنا أن نغامر. إن المشكلة في خطوط مواصلاتنا عبر البحر الأبيض المتوسط، تجعل من الصعب علينا توفير المعدات والتموين، لقطعات أكثر مما لدينا الآن من القطعات في شمال أفريقيا، لهذا السبب، يجب علينا الاستفادة من الموارد الطبيعية في المنطقة استفادة تامة، مع ما لدينا من تدابير، ويجب أن تؤدي النقطة القوية أداء نقطتين قويتين مهملتين تنقصهما الإدارة الحكيمة، والتخطيط الجيد.». عندها قال الملازم: «نعم سيدي اللواء».

سأل روميل: «كيف حال الذخائر والتموين؟»: «لدينا الكثير من الذخيرة يا سيدي اللواء، كما أن التموين يكفي لثلاثة أيام».

«قلت يكفي لثلاثة أيام، يا صديقي!.. أنت بحاجة لذخائر وتموين، يكفي لثلاثة أسابيع. ولكن.. لا بأس سألاحظ هذا».

بعد كلمة شكر قصيرة استقل روميل سيارته وواصل الحركة، وعند الوصول إلى موقع كان روميل يتوقف ثم يغادر سيارته. مع أن عمر اللواء كان ضعف عمري، فلم تكن تظهر عليه أية علامة للإجهاد. كانت رجلاي تؤلماني، وأحسست بها ثقيلة كالرصاص،

بحيث بدأت أجرها عند السير، لأن السير على الرمال صعب. وخلال تلك الرحلة اليومية، كنت أسجل كل الملاحظات وكل طلب وكل أمر، وغيرها من الملاحظات.

عند رجوعنا إلى المقر، تبدأ مهمتي الأخرى، وهي تقديم كل هذه الملاحظات وغيرها إلى رئيس الأركان، أو ضابط العمليات.

قمنا بزيارة إحدى نقاط التنصت على الإشارات اللاسلكية، والتي توجد منها محطتان على جبهة السلوم، حيث كانت كل محطة، تبعد عن الأخرى بمسافة محسوبة ومعروفة، ومهمة هذه المحطات بعد تعييرها على الذبذبات الصادرة عن محطات إرسال العدو، الحصول على معلومات عن اتجاه الإشارات، ومعرفة أماكن تمركزها، وتحديد مواقع الهوائيات، وذلك يتم بالمسح والقياس نقطة بنقطة، لتحديد محطات إرسال العدو، الثابتة منها أو المتنقلة.

لقد التقط أحد رجالنا العاملين في محطات التنصت، رسالة صادرة عن إحدى محطات العدو التي تفيد بأن العدو بدأ ينقل محطات الإرسال التابعة له، شمالاً باتجاه البحر، عندها تبسم روميل وقال: «لا عجب، في مثل هذا المناخ، هل تتصورون بأن الإنجليز لا يحبون السباحة في البحر؟».

كثيراً ما كنا نزور حلفايا، وفي هذا اليوم، كنا قد وصلناها بعد رحلة طويلة حافلة بمشاهدة المواقع القوية المتقدمة، استقبلنا

النقيب (باخ) وهو ضابط تقدم به العمر، كان يعرج، ويستعين بعكاز، فجاء إلى سياراتنا.

كان (باخ) الشخص الوحيد الذي سمح له باستعمال العكاز، كان قسيساً خلال حياته المدنية قبل الحرب، وكان محبوباً من رجاله، نتيجة لمعاملته الحسنة لهم. ورغم أنه لم يحترف الجندية وقت السلم، إلا أنه كان يدير قطعاته بفعالية أكثر من معظم العسكريين المحترفين، وكان روميل يكن له التقدير والاحترام.

كانت حلفايا مسرحاً للعمليات من قبل، وقد لاحظ روميل أهمية موقعها السّوْقي (الاستراتيجي)، لأن موقعها كان يسيطر على الطريق الساحلي، الممتدة من مصر إلى داخل حدود برقة.

فإذا حرمت قطعات العدو من استعمال الطريق التي تمر بالسلوم وحلفايا، فإن هذه القطعات سوف تضطر إلى الاتجاه جنوباً بعيداً في الصحراء فيما إذا قررت الهجوم على برقة، لذلك كان روميل يعمل على تقوية هذا القطاع بكل استطاعته، وقد حشد في حلفايا ـ مؤخراً ـ قسماً من وحدات الفرقة التسعين الخفيفة، وخصوصاً تلك الوحدات التي لم تكن محمولة، نتيجة لنقص الآليات.

في أثناء وجودنا، كان (باخ) قد دعا أمراء السرايا إلى اجتماع، فاغتنم روميل تلك الفرصة لكي يتكلم معهم، وكان حديثه يدور حول التعبية (التكتيك).

استهل روميل حديثه: «أيها السادة، إن القتال في الصحراء

أشبه ما يكون بمعركة بحرية، إن الجانب الذي يمتلك سلاحاً ذا مدى أبعد هو الذي يسيطر على المعركة، ويقرر مصيرها، وهذا في الصحراء كما في البحر، وإن الجانب الذي يتمتع بسرعة الحركة، وخطوط مواصلات للإمداد، فبإمكانه عن طريق العمليات السريعة الخاطفة أن يفرض على العدو إرادته، إن قطعاتكم المتمركزة حول ممر حلفايا هي قطعات ثابتة، وهي ذات قيمة عالية وفعالية كبيرة ضد القطعات المحمولة آلياً، على شرط أن تكون قطعاتكم الثابتة، متمركزة في مواقع حصينة ومعدة إعداداً جيداً، وفي هذه الحالة أيضاً، يسيطر من يمتلك السلاح الأبعد مدى، فهو الذي يتحكم بالموقف ويقرر نتيجة المعركة، ونحن لدينا المدافع من عيار 88مم التي تقدم لنا هذه الميزة، فهي ضرورية بالنسبة لكم، لأنكم في مواقع ثابتة، ومعدة إعداداً جيداً، ومهيئة للسيطرة والحماية، ومموهة بصورة جيدة، ولدينا ميدان جيد لنيران مدافع 88مم وغيرها من الأسلحة».

توقف روميل قليلاً، ثم واصل حديثه، وكان يتكلم كالعادة بنبراته القوية، : «إن اهتمامي الأول هو احتلال خط دفاعي طويل يمتد من ساحل البحر حتى سيدي عمر، ويجب أن تكون المواقع الأمامية بقوة سرية، إن تحديد المسافة بين موقع وآخر تحددها ظروف المنطقة وأهميتها. ولكن، الخط الدفاعي بأكمله، يجب أن يخطط تخطيطاً ملائماً يأخذ في الاعتبار: العمق واتجاه المؤخرة».

«يجب أن تكون كل نقطة قوية، أو أن يكون كل موقع دفاعي

نظاماً دفاعياً متكاملاً بحد ذاته، وأن توضع كل قطعة سلاح في موقع بحيث تتمكن من الرماية في جميع الاتجاهات. والآن يمكنني أن أقدم تصوراً لموقع دفاعي مثالي في هذه الخطوط: يجب حفر خندق للمدفع 88مم، وأن يتمركز داخل الخندق، على أن لا يعوق ميدان النيران في جميع الاتجاهات. ومن هذه الحفرة المركزية ـ الخندق ـ يجب أن تمد في ثلاث اتجاهات، وإلى ثلاث نقاط، موقع الرشاش، وموقع مدفع الهاون الثقيل، وموقع مدفع عيار 55مم المضاد للدبابات، ويجب أن يتوافر في الموقع التموين والمياه والذخيرة، لمدة ثلاثة أسابيع، بصورة دائمة».

«على كل رجل عندما ينام، أن يكون مستعداً للمواجهة والقتال». لقد كان روميل أثناء حديثه حول هذا الموقع الحيوي، يزداد حماسة في حديثه.

«أيها السادة: كلمات قليلة أريد أن أضيفها بخصوص المعركة التعبوية (التكتيكية)، في حالة هجوم العدو، فإن نيران أسلحتنا يجب أن تغطي وبصورة كاملة، الثغرات التي تفصل بين النقاط الدفاعية. وإذا نجح العدو في اختراق هذه الثغرات، من جراء ضعف الرؤية في حالة العواصف الرملية، فيجب على كل رجل وكل قطعة سلاح أن تأخذ موضعاً باتجاه المؤخرة. وليكن واضحاً للجميع، بأنه لا يوجد لدينا قتال باتجاه الجبهة، بل قتال باتجاه العدو».

ثم أضاف (روميل) مبيناً بوضوح: «القرار الأخير في أية

معركة إذا هاجم العدو، يكون على الأرجح مستنداً على الدبابات والقوات الآلية، خلف خط الجبهة مباشرة، ولكسب المعركة لا بد من تدمير العدو، وعليكم أن تتذكروا شيئاً واحداً، على جميع أفراد كل موقع منفرد، أن يحافظوا على مواقعهم مهما كانت الظروف، ولا يمكن أن يتخلوا عنها، مهما كانت نتيجة الموقف العام. إن تشكيلاتنا المدرعة والآلية، لا يمكن أن تتخلى عنكم أو تترككم للهزيمة، حتى لو كانت العلاقة بينكم منقطعة لأسابيع، وشكراً لكم أيها السادة».

انصرف الضباط، وقمنا بمرافقة النقيب (باخ) في طريقنا لزيارة كتيبة مدفعية إيطالية. وفي هذا الموقع أيضاً، كان اهتمام روميل بالذخيرة وكيفية إمدادها. وبينما كان روميل يتكلم بالألمانية، قام الدكتور هيجمان بترجمة الحديث للإيطاليين، ولكني لاحظت أنه يصحح بسرعة عندما تكون الترجمة غير دقيقة، أو لا تعبر عن المعنى الذي يقصده. والحقيقة أن روميل كان يجيد الإيطالية أكثر مما يتصور الإيطاليون.

لا زلت أذكر في ذلك اليوم، بعد أن غادرنا (ممر نار الجحيم) في منطقة حلفايا، واتجهنا نحو الشمال حيث السهول الساحلية، تعرضنا لنيران مدفعية من جهة الشرق. كان روميل يعتقد بأن تلك القذائف كانت ذاتية الاندفاع، وصادرة عن مدافع الميدان التي أرسلها العدو إلى الجبهة مؤخراً.

وبينما كنا نتحرك عبر السهول الساحلية، لاحظ روميل في

بعض المواقع الدفاعية الألمانية، استخدام بعض دبابات العلامة (2س البريطانية)، بعد وضعها في موقع ضامر عميق في الرمال، بحيث يوازي البرج سطح الأرض فقط. إن الاستغلال الذكي لمعدات العدو يسر روميل جداً. واصلنا حركتنا مبتهجين عبر السهل لما شاهدناه، لقد كان روميل في حالة سرور ومعنويات عالية.

عند وصولنا إلى الساحل، اقترحت على الباقين بأن نسبح في مياه البحر، لأنها كانت مغرية في ذلك الجو الصحراوي. لقد سبح الجميع، رغم أننا لم نكن نمتلك ألبسة السباحة. فمن الذي يأبه لهذه التفاصيل وهو في خط الجبهة وفي تلك الصحراء المحرقة؟.. وأول من قفز في مياه البحر الباردة كان روميل، ثم أنا، فشعرنا بنشاط وحيوية في تلك المياه الزرقاء الصافية. كان روميل يقفز هنا وهناك في تلك المياه الجميلة بكل فرح وسرور، كما لو كان طفلاً سعيداً يلهو في مياه البحر.

ثم واصلنا الحركة، والطريق أمامنا تصعد إلى أعلى، من خلال ممر متعرج تقود إلى ثكنات السلوم، الواقعة على حافة الجرف. وفي منتصف الطريق إلى السلوم، شاهدنا مهندساً عسكرياً مختصاً بالألغام، يقوم بالتفجير لإعداد حفرة أشبه ما تكون بالنفق، في تلك السفوح الشديدة الانحدار، بهدف إعداد موقع لمدفع من مدافع الدفاع الساحلي الإيطالية. توقفنا للتفتيش على عمل ذلك المهندس الإيطالي، وكالعادة أخرج روميل منظار الميدان وأخذ

يتفحص المنطقة المغبرة شرقاً حيث كانت قطعات العدو.

عند المساء، قررنا العودة ونحن نسمع دوي الانفجارات إلى البردى. لقد كان يوماً طويلاً بدون أعمال إدارية، ولكن، كان بانتظاري الأعمال المكتبية والإدارية. كذلك بالنسبة لروميل، فلقد كان بانتظاره العديد من الواجبات والأعمال الإدارية المكدسة في مكتبه، رغم كونه قائداً مقاتلاً.

إن هذا يوم نموذجي في حياتي مع روميل.

الفصل الثالث عشر

ولادة مجموعة البانزر

في منتصف عام 1941، حدثت تغييرات كثيرة في القيادة العليا الإيطالية في أفريقيا، فعلى سبيل المثال، فإن اللواء باستيكو حل محل اللواء المهذب غاريبالدي.

وصلت رسالة لاسلكية مشفرة إلى البردى، تطلب من روميل الحضور وعلى الفور إلى اللواء باستيكو في مقره بمدينة شحات.

واصلنا الحركة إلى شحات حيث وصلناها في اليوم التالي، كنا متعبين ومغبرين من جراء تلك الرحلة الطويلة، وبطبيعة الحال، كانت رحلتنا عبر الطرق الترابية. كنا قد اعتدنا الإقامة في بيت صغير مهدم وبالٍ في البردى، لذلك شعرنا كما لو كنا ندخل إلى قصر امبراطوري مترف محاط بمنتزه جميل ورائع، هناك دخلنا إلى مبنى تحيط به الأعمدة المرمرية والزخارف.

في الواقع إنه لشعور جميل أن يكون الإنسان في ربوع الجبل

الأخضر، فبعد عدة أشهر، بدأنا للمرة الأولى نشاهد الحقول الخضراء، والغيوم البيضاء، والغابات على السفوح، وحتى النساء الحسناوات، بعد أن اعتادت أعيننا على مشاهدة الشمس، والرمال والذباب، خلال تلك الفترة الطويلة.

عند دخولنا إلى المقر كنّا روميل وأنا نتصبب عرقاً، وثقوب الطلقات النارية تحفّ بكل جانب من جوانب سيارتنا، التي كانت مغطاة بأكداس الأوساخ المتجمعة عبر أشهر في تلك الصحراء، فعندما أخذنا مقاعدنا في تلك القاعات المرمرية الفخمة والمحاطة بالحدائق الغناء، شعرنا بأننا غرباء أو أننا لا نليق بما يحيط بنا، وقد ساورني شعور بأن ضباط الأركان الإيطاليين كان يساورهم نفس الشعور: وهو أننا لسنا في مكاننا الطبيعي.

قدم روميل تقريراً عن وصولنا لمقابلة باستيكو، القائد الإيطالي الجديد، غير أن الرد لم يأت قبل نصف ساعة، وبعد محادثة قصيرة خرج روميل من مكتب باستيكو ممتعضاً وفي مزاج سيء.

ومنذ ذلك اليوم، أخذنا نطلق على ذلك القائد الإيطالي اسم بومبا ستيكو.

في تلك الأيام، رقي روميل إلى رتبة أعلى وازدادت صلاحياته، وقد وصلت مجموعة من ضباط الأركان اتخذت لها مقراً في شحات.

إن الاستفسارات الأولى التي قام بها روميل، حول هيئة

الأركان الجديدة هذه، أفادت: بأن الهيئة الجديدة سوف تلحق بمجموعة البانزر (الدبابات)، وهي بمجموعها سوف تأخذ موقع الفيلق الألماني الأفريقي.

لاحظت روميل مطرقاً يفكر لمعرفة الدوافع وراء هذه الحركة، أو التغييرات. وهل سيكون ارتباط هيئة الأركان الجديدة مع القيادة العليا الألمانية في برلين بصورة مباشرة؟. أم تراه يعني إرسال قائد ألماني لكي يتولى. . . ؟ القيادة العامة مع قيادة الفيلق الألماني الأفريقي؟. إنّ هذه الشكوك، قد اتضحت لنا بعد زيارتنا لشحات.

بينما كنت بانتظار الفريق روميل، التقيت بعدد من الضباط الأركان الألمان الجدد، كان أحدهم طويل القامة ونحيفاً جداً، ولكنه كان منظم الهندام يدعى الملازم ديكمان، والذي حياني مظهراً لي أنه أعلى رتبة، كما أظهر لي صداقة رئيس لمرؤوسه، مما جعلني أشعر أكثر من قبل بغرابة مما يحدث! وأننا أشخاص خشنو الطباع، أو أجلاف، رغم أننا مخلوقات ذات نيات حسنة، ولكن بعد مقابلة باستيكو، أسرع روميل ليقابل اللواء جوس، رئيس هيئة الأركان (العمليات) الجديد، وقد كان اللواء جوس رجلاً لطيفاً ومحترماً، وكما يبدو عليه فإنه رجل متزن وقوي، فأوضح لنا بأن هيئة الأركان الجديدة سوف تكون ملحقة بروميل.

وهكذا اتضح لنا تشكيل مجموعة بانزر أفريقيا، اعتباراً من شهر أغسطس عام 1941، تحت قيادة روميل. ولدواعٍ عملية، تم

ضم الفيلقين الإيطاليين المتمركزين خارج طبرق إلى الفيلق الألماني الأفريقي، الذي عين الفريق كرويل لقيادته، تحت قيادة روميل مباشرة.

رغم هذه التغييرات التي اشتملت على إنشاء قيادة عليا جديدة، فإن قطعاتنا في الصحراء لم تستلم أية تعزيزات لتقويتها، وقد بدا واضحاً لنا بأننا يجب ألا نتوقع وصول أية تعزيزات فعالة جديدة لبعض الوقت، في حين أن روميل نفسه كان مصرّاً على تقوية خطوط المواصلات في الصحراء بدرجة كافية، لكي يستطيع تقديم الخدمات الضرورية بصورة متواصلة للفرق الألمانية الثلاثة الموجودة في الصحراء الأفريقية، قبل إرسال المزيد من القطعات المقاتلة إلى الشمال الأفريقي.

خلال أشهر الصيف الحارة، تمكنا من تحصين جبهة السلوم وتقويتها حسب أوامر روميل، فتمركزت فيها مدافع ثقيلة للدفاع، كما زرع المزيد من حقول الألغام.

بعد هذه الإنجازات في جبهة السلوم، أخذ روميل يركز على جبهة طبرق بكل جد واهتمام. وفي الوقت نفسه، كان روميل يخطط ويعمل بصورة متواصلة ومنتظمة للقيام بهجوم على طبرق في نهاية شهر نوفمبر، حيث أصدر أوامره لبعض القطعات بالتقدم لاحتلال المزيد من المواقع المتقدمة، وخلال الليل، بدأ العمل على إقامة مواقع متقدمة قتالية جديدة أمام المواقع الحصينة الحالية على الخطوط الأمامية، رغم الغارات الفدائية للدوريات الأسترالية،

وكان يتم احتلال هذه المواقع بالقطعات حال اكتمالها.

في هذا الوقت، قرر روميل إهمال قطاع (رأس المدوّر)، وفضل أن يكون قطاع (الدودة)، الواقع إلى الجنوب الشرقي من طبرق، نقطة البداية لانطلاق أي هجوم، وقد كنت أعتقد أن هذا القطاع خير منطلق لأي هجوم في المستقبل.

خلال شهري أبريل ومايو تم التغلب على النقص في معلوماتنا عن طبيعة دفاعات العدو، بناءً على الإعداد الجيد للصور الفوتوغرافية الجوية، حيث تم دراسة كل صورة بدقة وعناية. كما تم تزويد كل فوج وكتيبة، وحتى السرية الذين سيشتركون في الهجوم، بمعلومات مفصلة وواضحة للمنطقة التي سيواجهونها.

لقد تم تخصيص فرقتين ألمانيتين مدرعتين لكي تقوما بثقل الهجوم، وهاتان الفرقتان تم سحبهما من الجبهة للراحة أولاً، ثم لكي تقوما بتدريبات خاصة لهذا الهجوم. فتمركزت الفرقة الحادية والعشرون بانزر في منطقة تقع بين البردى وطبرق، واحتلت الكتيبة 115 من فوج البنادق التابع للفرقة الخامسة عشر بانزر، الخنادق الواقعة في الجنوب الغربي من طبرق منذ وصولها قبل عدة أشهر ـ كنت قد شرحت للفريق باولوس مواقع هذه الكتيبة ـ. سحبت من قطاعها المزعج إلى مواقع تقع إلى الشرق من طبرق وعلى مقربة من البحر، للراحة وللقيام بالتدريبات اللازمة.

إن رد الفعل الطبيعي بين الجنود كان فورياً ومنتشراً، حيث أُصيب 70٪ من قوة الوحدات بأمراض مختلفة مثل: الإسهال،

والحمة الصفراء. وهبطت الكفاءة القتالية للوحدات بدرجة خطيرة، فأصبحت فعالية السرية الواحدة تساوي فعالية فصيل، بعد أن كانت اعتيادية في جميع الظروف حول خطوط طبرق.

ولكي يتمكن روميل من تشتيت نيران مدفعية العدو، أمر بإقامة مواقع خداعية في مناطق خالية، أي غير محتلة من قبل قطعاتنا. كما أصدر أوامره، بضرورة إقامة المئات من مراصد المراقبة، مقامة من الخشب والأكياس حول محيط طبرق بأكملها خلال أربعة عشر يوماً، معتقداً بأن هذه الخدع ستجعل حامية طبرق المحاصرة تهدر كميات هائلة من الذخيرة القيمة دون أن تلحق أية أضرار بقطعاتنا. بعد أن صعّد العدو من قصفه لهذه المواقع الخداعية، وأهدر الكثير من ذخيرته بدون أية مكاسب، قمنا نحن باستخدامها كمراصد مراقبة حقيقية، حيث كان العدو يعتقد بأنه قد دمرها.

إنني في الحقيقة أقدر تلك الخطة الحكيمة التي أعدها روميل، ولكن في غياب روميل كنت أسمع الضباط المرتعبين بأعلى أصواتهم: «يا للسماء، ماذا تعتقدون أنتم؟ تأمروننا بأن نقيم اثنى عشر برجاً لمراقبة قطعاتنا؟ فمن أين تتوقعون أن نجد الأخشاب وقماش الخيش في هذه الصحراء؟».

لقد كان من عادات روميل أنه يطلب من قطعاته المبادرة، والطاقة والحيوية في جميع الأوقات للتغلب على الصعاب، ولكنه لم يطلبها بإلحاح كما طلبها في هذه الحالة. ثم أخذ روميل يزمجر

بصوت جهوري: «عززوا حرب المواقع، ويجب أن لا تجعلوا جنودنا يعمقون مواقعهم عميقاً في الرمال»، ثم أصدر أوامره: «وفروا قطعات ألمانية جديدة بقدر الإمكان، للقيام بهذا الهجوم، أما الخطوط الدفاعية، فيجب أن يتولاها الإيطاليون إن كان ذلك ممكناً». ومن أوامره أيضاً: «إن القليل من السرايا الألمانية فقط يجب أن تركز نشاطها على نقاط معينة في الجبهة وتحتلها، ثم تحتفظ بها، وإن هذه النقاط يجب أن تستخدم كنقاط دعم لاحتلال بقية الخط». ولكنني لا أعرف كيف يتقبل الإيطاليون هذه الإجراءات.

كان روميل بارعاً في التعامل مع الإيطاليين ويتحمّلهم. ففي أحد الأيام، كنا نتحرك في سياراتنا على طول طريق المحور (الطريق الذي يبتدئ من عكرمة حول العدم إلى أن يلتقي بالطريق الساحلي شرق طبرق والمتجه إلى كمبوت)[1] حول طبرق، عندما أوشك العمل في ذلك الطريق على الانتهاء، وفي الواقع كان روميل مسروراً بذلك الإنجاز الإيطالي، فالإيطاليون بناة طرق ممتازون، وعلى جانبي الطريق تم بناء ملاجئ ضد الغارات الجوية.

كنا كالعادة في سيارتين مكشوفتين وترافقنا عربة الماموث المدرعة، وكان الموكب يتكون من اللواء الإيطالي كالفي وضابط ركنه الرائد توزي والملازم توريني والدكتور فرانز الذي رافقنا بدلاً من الدكتور هيجمان كمترجم. وخلال الرحلة، نادى روميل رائداً

(1) المراجع.

إيطالياً سمين الجسم، يعمل آمراً لكتيبة بناء الطرق، وعند قدوم ذلك الرائد، التفت روميل إلى المترجم الدكتور فرانز، وقال له: أخبره بأنني مسرور للغاية بما أنجز من أعمال ممتازة. وإذ بوجه ذلك الرائد الإيطالي يشرق بهجة وسروراً لثناء روميل عليه.

كان هذا الرائد مرحاً ذا حيوية ونشاط، بحيث جعلنا جميعاً نبتسم، فسأله روميل فيما إذا كانت تعترضه أية مشاكل؟. أجاب ذلك الرائد بكل ابتهاج: «نعم.. نعم.. سيدي اللواء، إن الطعام ممل ورتيب والنبيذ رديء».

فنظر روميل إلى هذا الرجل القصير والسمين، نظرة يأس وقال بكل لطف: «ومع ذلك فإن الطعام على ما يبدو لا يؤذيك».

عندما عين اللواء كرويل قائداً للفيلق الأفريقي، كان روميل قد عين قائداً عاماً لمجموعة بانزر أفريقيا، فترك روميل مقره وأركانه للقائد الجديد في البردى ما عدا: أنا ـ المؤلف ـ، ومراسل روميل جنثر، والكاتب في مقر القيادة بوتشر، حيث تحركنا جميعاً إلى الجبل الأخضر للتمتع بسحر مناظره، ولو لفترة وجيزة. ففي تلك الربوع الخضراء الجميلة، أقمنا في محيط منطقة البيضاء.

الفصل الرابع عشر

كيف أثر روميل في هتلر

هل تذكر مدينة البيضاء، في ربوع الجبل الأخضر؟. نعم أذكر، قالها بشغف. في تلك النزهة، أعد لروميل كوخ صغير، وكان ذلك الكوخ مقارنة بمقره في الصحراء يمثل الراحة نفسها، ورغم هذا، لم يكن روميل معجباً به أو مرتاحاً فيه، لأنه كان يشعر بأنه قد انتزع من بين قطعاته الرابضة على خطوط الجبهة، تلك القطعات التي يحبها روميل وتنال كل اهتمامه في جميع الأحوال، حتى ولو كان قاسياً عليهم.

والآن، بعد أن أصبحت مجموعة البانزر تحت قيادته، فإنه أصبح سيداً على أتباعه. وهذه هي المرة الأولى التي تكون تحت قيادته هيئتان من ضباط الأركان من الدرجة الأولى خصصتا لمعاونته بصورة مباشرة، وبعد مرور فترة وجيزة جداً أثبتت هاتان الهيئتان من ضباط الأركان، أنهما في غاية الأهمية له. من بين أولئك الضباط

كان اللواء جوس رئيس الأركان، ضابطاً لامعاً، وقوي البنية ومثالياً في عاداته وأسلوب تفكيره، كما سبق ذكره، والمقدم ويستفال ضابط الأركان العامة المحنك والكفء، الذي كان عسكرياً منظماً إلى أبعد الحدود.

وإنني أفترض، وحسب المصطلحات العسكرية البريطانية، أن كل واحد من هؤلاء يعادل لواء ركن، ورئيس عمليات حربية.

إن مصطلح: مجموعة البانزر الدبابات، مقارنة مع الجيش البريطاني، تعتبر ضعيفة في وحدات المشاة، ولكنها أقوى بالنسبة للدروع. وبكل تأكيد، لا يمكن أن نقارن كذلك مجموعة البانزر، بالمصطلح البريطاني (جيش) «ARMY». كذلك، فإن مجموعة بانزر أفريقيا، لا يمكن أن تقارن مع مجموعة جيش.

إن هيئة الأركان الجديدة قد تمكنت بكل دهاء من إقناع روميل بأن تأثيره، لا يجري في اتصالاته الشخصية بالقطعات الرابضة على خطوط الجبهة، بقدر ما يجري في نشاطاته الدبلوماسية وعلاقاته العامة. أما من وجهة نظري كعسكري وشاب، فإني أميل إلى العمل في خط الجبهة، وهذا ما يمثل نشاطنا خلال اليوم، وكان أسفي وحزني كبيراً لهذه التطورات الأخيرة، لأنه خلال عملي مع هذه القطعات في خط الجبهة، أصبحت على يقين أكثر بأننا سوف نقابل مشاكل أقل عندما تنفجر الجبهة، ولا بد من الانفجار والالتحام بالقطعات. والواقع لقد كنا نعد ليوم المعركة.

كل من يعرف العدو لا يمكن أن يقبل بغير ما كنا نستعد له، وهو يوم المعركة. لقد تمكن جوس وويستفال من إقناع روميل ببراعة ولباقة، بأن العلاقات الجديدة مع الإيطاليين تتطلب منه اختيار من يمثله، وعليه أن يركز أكثر من ذي قبل على الأعمال المكتبية، إذ ستكون لها نتائج طيبة، لا سيما بالنسبة للمحافظة على علاقات طيبة مع حلفائنا، وهذا واجب روميل، فهو القائد العام للقطعات المقاتلة الإيطالية العاملة تحت قيادته، إضافة إلى التشكيلات الألمانية.

أصبح روميل وجوس صديقين، مع العلم أن روميل لم تكن له صداقة حميمة مع أي شخص.

لا زلت أذكر الكثير من النقاش الشخصي الممتع والمهم مع روميل، خاصة خلال رحلاتنا الطويلة والمملة، بين مقرنا ومقار الإيطاليين، ففي أحد الأيام سأل جوس: أيها السيد الفريق، كيف تم أول اتصال بينك وبين هتلر؟.

أخذت أصغي بانتباه شديد. أما روميل فقد اتكأ على ظهر مقعده وهو بمزاج جيد، نادراً ما يبدو عليه وهو يستعيد ذكرياته. «إن أول مرة كانت عندما التحقت بمقر قيادة الزعيم الفوهرر حيث أصبحت أحد ضباط أركانه لمدة من الزمن، كنت برتبة مقدم، وهذه كانت بدون أهمية، والحقيقة كنت أصغر ضباط مقره رتبة. لقد كنت أقوم بواجب آمر معسكر القيادة، وهي تشبه معسكر مقر القيادة هنا في أفريقيا، ومعنى هذا أنني كنت مسؤولاً عن المواصلات

والنقل واحتياطات الأمن، وغيرها من الأعمال المملة والمتعبة.

في أحد أيام المناسبات المرهقة، وهو يوم احتفال الحزب (يوم الحزب) استلمت أمراً من هتلر بأنه يرغب في مغادرة مقره في اليوم التالي، وأن موكبه يجب ألا يزيد عن ست عربات، وأنني المسؤول عن تنظيم الموكب. لقد كان الأمر ينص على: أن عدد السيارات يجب ألا يزيد عن هذا العدد مهما كانت الظروف، وفي صباح اليوم التالي عندما كان الزعيم هتلر على وشك المغادرة، لاحظت أن الساحة أمام المقر بها عدد كبير من السيارات، وكلها تقل وزراء وقادة ومحافظين وغيرهم من (الحيوانات الراقية)، لكنني كنت مستعداً لهذا الموقف، فعندما تحرك الموكب، سمحت لخمس سيارات فقط بالالتحاق بموكب هتلر، وبعدها تقدمت ووقفت أمام السيارة التالية، وبطبيعة الحال توقفت، ثم أبلغت من فيها أوامر هتلر، فأخذ يزعق علي شخص يدعي أنه وزير. واصل زعيقه قائلاً: «يا للوقاحة، مجرد مقدم يحاول إعاقة مسؤول تنفيذي مهم من القيام بواجباته، فعلى من تقع المسؤولية؟ إن لي واجبات تنفيذية مهمة في موكب الزعيم، يا للغرور. يا إلهي!». وقبل أن أسمح لسيارته بمواصلة الحركة، أوضحت له بكل هدوء: «إنني الآن لا أتمكن من أن أمنعك من مواصلة الحركة، ولكن على نقاط تقاطع الشوارع الثلاثة التالية، سوف تمنع من مواصلة الحركة بواسطة دبابتين». هنا لاحظت شحوب وجهه من شدة الغضب، ثم أخذ يهدر بأعلى صوته: «لعين متغطرس! سوف أقدم تقريراً بهذه القضية إلى الزعيم، أيها السيد المقدم».

لقد كانت خطتي وضع دبابتين على نقاط تقاطع الشوارع الجانبية الثلاثة التالية. إحدى الدبابتين على يمين الشارع والأخرى على جهة اليسار، وكانت الأوامر التي أصدرتها، أن يسمحوا لست عربات من رتل الزعيم فقط بالمرور، وبعدها يجب أن يواجهوا أية عربة أخرى قادمة وجهاً لوجه، لكي يمنعوها من المرور والالتحاق بموكب الزعيم.

لقد سمع هتلر بهذه القصة، ومن دون شك سمعها من الوزير الهائج، ولم تكن قصة هذا الوزير هي الوحيدة، بل هناك سيارات كثيرة أوقفت بهذه الطريقة، ثم انصرفوا بعد أن أعيتهم المحاولات اليائسة لمواصلة المرور. طلبني هتلر في ذلك المساء، وبدلاً من معاقبتي أثنى عليّ، وعبر عن استحسانه لموقفي. لا سيما وأنه لم يكن يتوقع بأن أوامره سوف تنفذ بحذافيرها، كما حدث. بعد هذا الاجتماع الخاص مع هتلر، كنت غالباً ما أدعى إلى حفلاته الخاصة، وخلال تلك المناسبات والحفلات، كان هتلر يتحدث معي حول كتابي عن الحرب العالمية الأولى (المشاة في المعركة)، لأنه كان قد قرأ الكتاب المنشور بكل دقة. بعد كل هذا اقتنع هتلر بأني شخص لامع».

«وعندما نشبت الحرب الثانية، استدعاني هتلر وسألني عن أية قيادة أريد؟. ومن دون تردد، طلبت برجاء، أن يسند إلي قيادة فرقة مدرعة. كان ذلك طلباً من جانبي أكثر مما ينبغي، لأنني لم يسبق لي أن انتسبت إلى صنف الدروع خلال خدمتي في الجيش.

وأيضاً كان هناك عدد لا حصر له من القادة الذين لهم الأحقية بقيادة من هذا القبيل، ومع ذلك، فقد حصلت على قيادة الفرقة السابعة. كما تعلم، إن ذلك التعيين ـ إن كنت لا زلت تذكر ـ لم يلائم السادة في القيادة الألمانية العليا».

خلال حديث روميل، كان جوس يصغي بكل اهتمام، ويبدي بعض الملاحظات بكل أدب، ثم قال: أيها السيد الفريق، يا لها من قصة ممتعة. ثم واصل كلامه ليسأل: «ألم تكن ضابط ارتباط مع (شباب هتلر) لبعض الوقت»؟.

«نعم، هذا صحيح لحد ما». أجاب روميل وأخذ يتكلم بتفصيل لا يستحق الذكر في هذا المجال. كان كلامه يدور حول واجباته وأعماله في الأكاديمية العسكرية في بوتسدام، وكان ذلك يشمل تدريب حركة شباب هتلر تدريباً خاصاً، يسبق تدريبهم العسكري. وقد فهمت من حديثه، بأن تدريب الشباب الألماني هذا كان يختلف عن تدريبات (بولدر فون شيراخ)، وأن روميل يرى في شيراخ رجلاً عديم الصبر، وكان يدعوه بالولد الغبي. ثم توقف روميل عن الكلام واتكأ على كرسي مقعده داخل السيارة، ثم بدأ يتكلم بحزن قائلاً: أعتقد أن أسعد مرحلة في حياتي وحياة زوجتي، كانت عندما كنت قائداً للأكاديمية العسكرية في مدينة (فينر نوستادت)، وهذه المدينة تقع على بعد أربعين ميلاً إلى الجنوب من مدينة (فينا). والآن؟ ماذا أعمل؟ إنه من الجيد أن تكون قائداً، ولدي فرصة عظيمة هنا، وعلى أي حال، نحن والعسكريون

المحترفون، مهمتنا هي التدريب للحرب، فماذا يجب علينا عمله؟ إنه شيء بسيط جداً، يجب علينا أن نضرب الإنجليز، فهم خصومنا، وهم لا يليقون إلا لأسلحتنا الفولاذية».

«إنهم يدعون بأنهم لم يعدوا للحرب، والحقيقة حسب ما نرى، أن ادعاءهم صحيح، ولكنهم رجال جيدون في فن الحرب، أو لعبة الحرب، إن واجباتنا واضحة، فعلى كل رجل هنا في الصحراء، أن يدرك هذه الحقيقة البسيطة: نحن هنا لكي نربح الحرب، وليس هناك أي شك حول هدفنا هذا، فنحن كرجال ملتزمون بمعركة الصحراء، وهذا عهد علينا».

ثم بدأ جوس يروي تجربته العسكرية لروميل. وكنت أكثر من اهتم بهذا الحديث، عندما سمعت جوس يقول بأنه كان أحد ضباط الأركان الذين أوكلت لهم مهام تخطيط (عملية أسد البحر) وهي عملية غزو بريطانيا في عام 1941 بحراً، وعلى حد قول جوس، فإن العملية لم تكن ذات أهمية، فلقد قلل من أهميتها منذ البداية بوصفه مشروعاً لم يقدر له النجاح.

وحسب ما ذكر جوس لروميل ولي، فإن حمولة البوارج المتوافرة وقوتها لم تكن كافية، هذا قبل كل شيء. ثم إن المعارك الجوية فوق بريطانيا، أثبتت بكل وضوح، بأنه لا يمكن توفير غطاء جوي يعتمد عليه لدعم الحملة، بالرغم من تفاؤل جورينج، ومع أن البحرية الألمانية قد تعهدت بدعم الحملة بكل طاقتها، لكنها أقرت بما لا يدع مجالاً للشك، أن البحرية البريطانية ستلقي بكل

قواها وقدرتها في تلك المعركة حتى آخر بحار لديها. وستكون عندئذ النتيجة غير متكافئة. ومن الواضح، أن نتيجة هذه المعركة غير المتكافئة هي التدمير الكامل للبحرية الألمانية. وهذا ما حدث! . .

وحسب ما أذكر، فقد وصل رتلنا إلى مدينة البيضاء في نهاية ذلك اليوم الطويل، حيث كان بانتظارنا مهمة حضور المؤتمر مع رئيس أركان الجيش الإيطالي، وهو الفريق كافاليرو.

بعد المؤتمر حضرنا حفل عشاء وكان ذلك أول عشاء يحضره روميل خلال تلك الحرب، مع ممثلين عن جانبي قوى المحور بصورة رسمية.

بالنسبة لي كملازم لا أهمية له، فإن دوري في الحوار كان ثانوياً، لكنني أذكر بأنني كنت مغتبطاً جداً بفكرة أنني من أكثر الناس حظاً، متمتع بامتياز لا مثيل له، لأنني أمضيت ذلك المساء برفقة رجال دولة متميزين جداً، وساهمت في هذه المناسبة التي هي في الحقيقة تعتبر فوق العادة. الطعام كان جيداً بصورة خاصة.

الفصل الخامس عشر

روميل يصطـاد غـزالاً

لقد كان روميل صياداً، وبعد أن أصبح لديه الآن الكثير من الفراغ للمتعة، أخذ يمضي وقته في هوايته المفضلة، وهي الصيد. والحقيقة أنه يفضل أن يمضي وقته في الجبهة الأمامية مع قطعاته ويخطط لصيد كبير، ورغم هذا، كان عليه أن يخطط في فترة محدودة وخلال فترة الركود هذه للذهاب إلى صيد الغزلان، في أوقات الفراغ.

«إني أتوقع إجازة راحة واستجماع في ربوع أوروبا، عندها تكون لي فرصة الخروج مع مانفريد» هذا ما كان يخبرني به روميل بصورة مستمرة. (مانفريد هو ابن روميل، وقد كان روميل شديد الارتباط بابنه الوحيد). كان عمره في ذلك الوقت اثني عشر عاماً، وكان روميل نادراً ما يذكر أسرته وحياته الخاصة أمامي، كما كان كتوماً تقريباً حول علاقاته الخاصة.

لقد مرت شهور عديدة على التحاقي بمقره، وكان يناديني باسمي الرسمي (ملازم)، ولكن بعد هذه الفترة الطويلة من العمل معه، قرر أن يدعوني باسمي بعد أن أدرك أن وجودي ضروري له، كما أنه لم يزعج نفسه لكي يسألني عن أي شيء خاص مثل: عمري، وهل أنا متزوج أم أعزب، وهل كنت سعيداً أم لا؟ والواقع لم يفكر بي سوى أنني شخص يرتدي البدلة العسكرية وينفذ أوامره، ومن الغريب جداً أن هذا القائد الموضوعي والمجرد كان في الحقيقة إنساناً نبيلاً.

إن المنطقة الواقعة إلى الجنوب من عين الغزالة، هي صخرية وصحراء مقفرة تماماً، في هذه المنطقة قرر روميل إقامة مقر قيادة مجموعة البانزر، بعدما اقتنع أن منطقة البيضاء بعيدة عن خط الجبهة أكثر مما يجب. وكما يدل اسم المنطقة، فإنها مشهور بكثرة غزلانها.

لا زلت أذكر في أحد الأيام عندما توغلنا بعيداً داخل الصحراء بسيارتينا المكشوفتين، بحثاً عن الاستجمام والراحة، كان روميل يصطحب معه بندقية ورشاشة خفيفة، قدمت له كهدية من وحدة إيطالية، إن تلك الأسلحة كانت اعتيادية. المطاردة التي قمنا بها في تلك الصحراء، كانت منظمة تنظيماً أشبه ما يكون بالعمليات العسكرية، لقد شملت الخطة: التعبية (التكتيك) والسوق (الاستراتيجية)، كما طبقت خطة (لعبة الهروب) من المؤخرة.

رافقنا في تلك الرحلة ضابط إيطالي برتبة نقيب، كان يجلس

في المقعد الخلفي داخل سيارتي، يقوم بدور المدير للمطاردة والتوجيه، لأنه كان يعرف تلك المنطقة لسنوات طويلة، أخذ يقود موكبنا بكل إقدام ومن دون تردد إلى منطقة الغزلان مباشرة، حيث شاهدنا قطيعاً، فاندفعنا بأقصى سرعة وراء ذكور الغزلان التي أصابها الرعب فانطلقت تعدو بأقصى سرعتها مثل سيارتينا المندفعتين بأقصى سرعة. لم تستمر المطاردة طويلاً قبل أن نلحق بغزال، عندها غرزت سيارة روميل وجنحت على الجانب من جراء سرعتها على أرض رملية حجرية. أطلق روميل إطلاقة واحدة وهو واقف، ولكن الإطلاقة لم تصب هدفها، وقد شاهدنا إطلاقته في الرمال، على الرغم من الغبار الكثيف المتصاعد من جرّاء أظافر الغزلان وهي تعدو. واصل الغزال هروبه وتعقبه روميل بسيارته مرة أخرى.

أما سيارتي فلم تتوقف عندما جنحت سيارة روميل، لذلك أصبحنا نحن أقرب إلى الغزال من روميل، وكانت سيارتنا على وشك أن تلامس مؤخرة الغزال، وحاولنا ضرب أرجله الخلفية بسيارتنا، ولكن بعد مرور ثوان معدودة أصبحت سيارة روميل قريبة منا. وبينما كانت سيارتنا تصعد على سفح أرضٍ مرتفعة، أخذت أصيح بأعلى صوتي قف!.. فتوقف السائق على الفور، وقد كنت على وشك الاندفاع بقوة غير إرادية من فوق الزجاج الأمامي للسيارة، ورغم الغبار المتصاعد بكثافة أطلقت إطلاقة على أحد الغزلان، لكنها لم تصبه، في تلك اللحظة تجاوزتنا سيارة روميل في أعقاب الغزلان بأقصى سرعة.

وهكذا استمرت لعبة الصيد لبعض الوقت، وطوال هذه المطاردة، لم أشعر بالأسف من أجل طرائدنا فلقد استخدمت تعبية (تكتيكاً) فعالاً جداً، إذ بعد كل إطلاقة ينقسم القطيع إلى قسمين: مجموعة تجنح إلى اليسار، والأخرى تتجه نحو اليمين. وفي كل مرة نقوم بتعقب المجموعة الأكبر عدداً، وأخيراً أصبح عدد غزلان المجموعة الأكبر ثلاثة غزلان فقط، ويبدو أن تلك الغزلان كانت تقول لنا: بإمكانكم أن تدمرونا بالكامل في هذه المهمة، وهذا هو القرار الأخير، لقد أخطأت إطلاقاتكم جميعاً، وضاعت مهمتكم الأصلية. ولكن هل فقدنا الصيد؟ فعلى أرض المعركة لم تكن خطتنا أن نحطم جميع الغزلان، ولكن واحداً فقط لكي نثبت صحة التعبية (التكتيكات) التي اتبعناها. والحقيقة أن سوق (استراتيجية) القطيع كانت هي المنتصرة، فتعبوياً يجب أن يخسر أحد المعركة.

حقيقة، لقد أثار إعجابي شدة مقاومة الغزلان الثلاثة، التي كانت تواصل بقوة وتجرنا بعيداً إلى قلب الصحراء. وأخيراً انحرفت هذه الغزلان بصورة حادة إلى اليمن، وبهذه الحركة اتسعت المسافة بيننا، وابتعدت وكسبت الأرض. يمكنك أن تعتقد بأن هذه الغزلان قد خططت لمناورة وصممتها بكل دقة، كما لو كانت تستعين بخريطة، لكونها دخلت منطقة صخرية تزداد وعورة بصورة متواصلة على طول امتدادها.

أخذ روميل ينادي بأعلى صوته، قائلاً: «استدرج دبابات

العدو إلى أرض أنت تختارها، ثم دمرها هناك». إني أراهن على هذا وإنني سأضربها. وهذه حقيقة مقررة.

في تلك المنطقة كانت تنتشر جحور الثعالب، وكانت تزداد الصخور وعورة. إن تلك المطاردة المجنونة أصبحت مصدر خطورة على الحياة، وعلى الأقل فقدان الأطراف أو كسرها. فماذا سيقول العالم، فيما إذا أشهر قادة ألمانيا في أفريقيا، قتل في مطاردة مجنونة لغزال؟. ورغم هذا فإن روح الصيد كانت متمكنة من روميل، فاستمرت المطاردة الهمجية.

على أي حال، أعتقد أن هذا الصيد قد أصبح لعبة عادلة، لأننا في هذه اللعبة أصبحنا نغامر بأرواحنا، وأن هذا الخطر يعادل الخطر الذي يحدق بالغزلان.

توقفت السيارات فجأة، وأطلقنا الإطلاقات. كنت على وشك أن أقذف من السيارة نتيجة لذلك الصوت الشديد الدوي، وشديد الحرارة، وآلام الوخز في أذني اليمنى، فماذا حدث؟ إن الإيطالي الجالس في المقعد الخلفي داخل سيارتي كان قد أطلق إطلاقة من بندقيته، ولكنه في غمرة هياجه وارتباكه لم يلاحظ بأن فوهة بندقيته ـ بندقية المشاة ـ لم تبعد عن أذني اليمنى إلا ببوصة واحدة.

لقد شعرت بالصمم على أثر ذلك، ورغم هذا واصلت الصيد واستمرت المطاردة. كان يبدو أن الصيد سيهرب منا، وازدادت الأرض وعورة، في حين أن روميل ازداد حماساً وتصميماً على

مواصلة المطاردة، كان يحث سائقه على زيادة السرعة، وبدوري كنت أحث سائق سيارتي بأن يزيد السرعة بقدر الإمكان. بهذه الطريقة الانتحارية التقينا ثانيةً بغزال. لقد أعطى روميل بندقيته إلى الرائد فون ميلنثين ضابط الاستخبارات، والجالس في المقعد الخلفي داخل سيارة روميل، حيث فتح النيران بالرشاشة الآلية وسقط الغزال.

توقفنا جميعاً، وأمامنا جثة هامدة لحيوان جميل، أملس الشعر وينم عن صحة ونشاط. كان الجميع مكتئبين بحزن لمشاهدة هذا الحيوان الوديع ذي الحيوية والنشاط، يفارق الحياة. لقد خيم الوجوم علينا. بالنسبة لي لم أمارس الصيد من قبل، كما لا أعرف ما يجب علي عمله الآن. أخرج روميل سكين صيد كبيرة ومن دون تردد، أنهى حياة ذلك الغزال، ثم فتح أحشاءه وقام بتقطيعه بكل مهارة، ثم انتزع القرون. أخيراً وضع الذبيحة في العربة، ورجعنا إلى المقر حيث فرح الطباخ بتلك الغنيمة.

ماذا كانت الحصيلة في تلك الحملة؟ كثير من لحم الغزال الشهي الطازج، ولكن الخسارة كانت جسيمة وكما يلي:

كسر نوابض إحدى السيارتين، كسر الزجاج الأمامي للسيارة الأخرى، وأذن فقدت السمع! . وفوق كل هذا تأنيب الضمير.

بدأنا نلجأ إلى اتباع فنون صيد أكثر رقياً، كلما خرجنا للصيد، حيث نباغت الطريدة خلسة.

وفي الحقيقة كنا في حالة حرب، وكان روميل سيد الصيادين، فعمله هو إما أن يقتل أو يقتل، وهذا ما ينطبق علي كذلك. هل سيغمى علي بعد اليوم عند مشاهدة المدافع؟ وهل سيصيبني الغثيان والمرض؟.

الفصل السادس عشر

روميل فـي غـارة..
وجنوح في الأرض المحايدة

لم يكن روميل راضياً، عن موقع مقر القيادة المتقدم لمجموعة البانزر (الدبابات) لبعده عن جنوده، وإن الزيارات لخطوط الجبهة التي كانت تستغرق ساعات قليلة، عندما كان المقر في البردى، أخذت تستغرق الآن نهاراً كاملاً، وهي المسافة من المقر في عين الغزالة إلى الجبهة. إن هذا الموقع السيء لا يختلف كثيراً عما لو كان في محيط البيضاء.

أما مقر روميل الواقع على الطريق الساحلي.في مبنى مهندسي الطرق، الذي أطلق عليه اسم (مبنى الطريق) (البيت البيض)، بدأ يتعرض لغارات طائرات العدو عدة مرات، وبالتحديد خلال ساعات الصباح المبكرة من كل يوم. لقد ساورتنا الشكوك بأن العدو قد اكتشف مقر (ثعلب الصحراء). فأصدر روميل أمراً لأحد الضباط بأن يستطلع المنطقة الواقعة بين طبرق والبردى، لاختيار

موقع جديد للمقر، فوقع اختيار الضابط على مبنى آخر يسمى (مبنى الطريق) الواقع في منطقة كمبوت.

تحركنا للأمام لاستكشاف موقع المقر الجديد، وفي الوقت نفسه نقوم بزيارة اللواء فون[1] رافنشتاين، قائد الفرقة 21 بانزر. لقد قمنا بالمرور حول طبرق في نصف الوقت الذي كانت تستغرقه رحلتنا في السابق، لأن (طريق المحور)، قد اكتملت الآن. وكان اللواء فون رافنشتاين قد نقل مقر قيادته إلى منطقة تقع إلى الغرب من البردى قريباً من الشاطئ، وهي بقعة فاتنة ورائعة.

كان اللواء رافنشتاين يحب الجمال، وكانت عربته الماموث في موقع داخل بستان من أشجار النخيل (لقد رسمت شجرة النخيل على عربات ودبابات الفيلق الأفريقي، وأصبحت علامة مميزة للفيلق)، والحصول على موقع مثل هذا نادر جداً، كندرة النساء في هذه المنطقة. وصلنا عند حلول المساء، فوجدنا اللواء رافنشتاين وضباطه يستعدون للجلوس إلى مائدة العشاء. حيث اتخذوا خيمة واسعة وجيدة التجهيز كقاعة للطعام. فاستقبلونا بكرم وحسن ضيافة.

كنت شخصياً ورغم حفاوتهم بنا، أراقب الموقف بشيء من الحسد، لأنني لم أشاهد في شمال أفريقيا، قاعة طعام فقيرة ومتواضعة مثل غرفة الطعام في مقر قيادة روميل. فهنا توجد ألذ

(1) كلمة فون قبل الاسم أو بعده تعني: بارون، وهو لقب يعني أن الأسرة من العسكريين الذين خدموا القياصرة. (المراجع).

المأكولات المتنوعة والشهية: البيض الطازج، والجعة المثلجة وغيرها، وهذه مأكولات لا نحلم بها في مقر قيادة روميل. وعندما تناولت بيضة، تذكرت، بأنه لم يسبق لي تناولها لمدة طويلة فتمتعت بأكلها بسرور.

بعد أن أنهيت تناول الطعام لاحظت أن اللواء فون رافنشتاين يسترق النظر إلي خلسة ومتعجباً، ثم قال: «آه يا شميدت.. إنها لذيذة حقاً!؟.».

كنت أعرف فون رافنشتاين من قبل، وبالتحديد كنا قد التقينا لأول مرة عام 1937، في مدينة آيزرلوهن التي تقع في مقاطعة ويستفاليا، عندما كان فون رافنشتاين آمراً لكتيبة حيث كنت أتلقى تدريبي فيها في وقت السلم. - أي قبل الحرب - في ذلك الوقت كنت طالباً شاباً. ثم لاحظت أن اللواء رافنشتاين، بعد مراقبته الدقيقة لي، مرر بيضته نحوي خلسة وبكل هدوء عبر المائدة قبل أن يلمسها. فمانعت ولم أقبلها، ولكنه بتصميم أخوي وإصرار اضطرني إلى قبولها، وبذلك تمتعت ببيضة اللواء.

بعد تناول العشاء، خرجت أتمشى في تلك الليلة الصافية النجوم التي تلمع في السماء، كانت ليلة رائعة، وقد رافقني اللواء رافنشتاين واتجهنا نتمشى إلى قمة مرتفع رملي. قال اللواء رافنشتاين: «إنني غالباً ما أتمشى إلى هذه القمة الرملية في المساء، متمتعاً بجمال المنطقة والهدوء المحيط بها».

ثم أخذ شهيقاً عميقاً من نسيم الصحراء النقي. وأردف قائلاً:

«في ليل مقمرة كهذه، فإن الكثبان الرملية البيضاء، توهم الناظر إليها، كما لو أن المنطقة مغطاة بالثلوج».

لقد كنا نسير ونحتسي الشراب، متمتعين بجمال المناظر الفتانة وسحر ذلك الهدوء المخيم على المكان. ثم أخذت أفكر بعادات واختلاف وطبيعة كل من القائدين في تلك الصحراء، اللذين أعرفهما معرفة جيدة، فما هي الفروق بينهما: الأول هو فون رافنشتاين المحب للجمال، ورقيق الطباع، وذو الأحاسيس الشاعرية، الذي يرى في الحياة أحاسيس الشعر والخيال. والثاني روميل: الواقعي والعملي إلى أبعد الحدود، والشديد الذي لا يهتم بالمشاكل الشخصية للآخرين، وإنما اهتمامه بالأشخاص يتوقف على مدى تأثيرهم على تنفيذ أهدافه العسكرية فقط. فبالنسبة لهذا القائد، الحياة. ليست بالنسبة له شعراً، بل نثراً بسيطاً وواضحاً.

ورغم الفروق الأساسية بين الشخصيتين، فإن تفاهماً وثيقاً يجمعها، فكلاهما ينظران إلى فن الحرب بنفس المنظار. وكان هذا التفاهم واضحاً بصورة جلية خلال المؤتمر الذي عقد بينهما في صباح اليوم التالي.

كان اللواء فون رافنشتاين متعدد الجوانب، وواسع الدهاء والحيلة، ويعالج أصعب المشاكل وأكثرها صعوبة بكل ثقة وجرأة. فهو لا يؤمن بالهزيمة، ولا يعترف بالاندحار، لأنه يبحث عن أنسب الطرق للتغلب على العقبات التي يواجهها.

من خلال سير النقاش، بدأت أشعر، بأن هناك قائداً مقاتلاً

نداً لروميل. ومن الواضح أن روميل كان يكن له أسمى آيات الاحترام.

كانا معاً يعملان في التخطيط للمشاريع الجديدة. وكنا نعلم بأن البريطانيين قد أقاموا مواقع لاسلكية متقدمة في خط الجبهة، بهدف التنصت على طول جبهة السلوم ومراقبتها، كما كان قد ساورنا شك آخر حول وجود مستودعات تموين في مكان مجهول في الصحراء، لإمداد عرباتهم المدرعة المستمرة في حملاتها الاستطلاعية في المناطق المتقدمة من الجبهة. مخطط القائدان: «بأن على اللواء فون رافنشتاين أن يقوم بغارة سريعة كمجموعة قتال تدعمها الدبابات ومدافع ضد الجو، على أن تقوم بمهمتها في منتصف شهر سبتمبر».

إن تلك الغارة يجب أن تنطلق من خطوطنا الأمامية إلى الجنوب من منطقة حلفايا. وإن عامل المباغتة هو العنصر الأساسي، كما أن نجاح الغارة يتوقف على السرعة العالية، ويعتبر تطبيقه ضماناً لنجاح العلمية.

تم تجهيز مجموعة قتال تتكون تقريباً من قوة نصف كتيبة، لكي تقوم بتنفيذ أعمال النسف والتدمير ومحاولة الحصول على أسرى، قبل أن يحشد العدو قواته والقيام بهجوم مضاد. كان روميل وفون رافنشتاين مسرورين بهذه الخطة، كما لو كانا طفلين يلهوان أو يعبثان بألعابهما. ثم أعلن روميل قائلاً: «إنني سوف أرافقكم، وعليكم أن تتأكدوا من شيء واحد، وهو أن طائرات استطلاع العدو

يجب أن لا تعلم بأي دلالة عن أي شيء، قبل القيام بالمهمة. رجعنا إلى عين الغزالة، وتوقفنا قليلاً ونحن في طريقنا لمشاهدة (بيت الطريق) في منطقة كمبوت، البيت الذي سنتخذه مقراً جديداً لعملياتنا، لقد كان أمراً غير عادي عندما علمنا أن القاذفات البريطانية، قد ألقت بقنابلها على (بيت الطريق) ـ في كمبوت ـ قبل ساعات من وصولنا إليه. تملكنا العجب على أية حال، فهل علم البريطانيون أن هذا سيكون بيت روميل الجديد.

إن غارة سبتمبر استهوت خيال ضباط أركان روميل وتفكيرهم. فرحبوا بهذا الهجوم التضليلي، وقد أبدى معظمهم ـ وهذا غير اعتيادي ـ السماح لهم بمراجعة القائد العام. إن عربة روميل الماموث أقلت أيضاً، اللواء كافلي وضابط الأركان الإيطاليين.

في المساء السابق لتنفيذ الهجوم وصلنا إلى منطقة كابوتسو. حيث أعلن اللواء فون رافنشتاين بأن جميع الاستعدادات قد اكتملت، ولكنه أبدى أسفه الشديد بالنسبة لحقيقة واحدة، وهي أن بعض الدبابات تحركت نحو تلك المواقع خلال الليل والنهار خلافاً لأوامره، ولربما قد تم اكتشافها بواسطة طيران العدو.

عند فجر اليوم التالي، كنا نجتاز ثغرة في حقول ألغامنا، ثم واصلنا الحركة إلى الشرق. كان روميل يشبه قائد سفينة من نوع (يو)، «U»، فوق منصة القيادة وها هو جالس عالياً على سطح عربته المدرعة الماموث، وكان يبدو، على غير عادته، في مزاج

مرح ومعنويات عالية، وكان صوته ينطلق عالياً وبكل كبرياء: «ها نحن منطلقون إلى مصر».

كنا جميعاً متفقين بأننا نتحرك عبر جزء من الصحراء مجهول بالنسبة لنا، وكانت تساورني آمال سارة بالنسبة لهذه المغامرة القادمة. كان الرتل يتحرك بسرعة عالية، حتى اقتربنا من منطقة تقع إلى الغرب من (بقبق)، حيث كنا نتوقع وجود بعض الصهاريج هناك، غير أننا وجدناها فارغة، ثم بحثنا حول المنطقة من دون مشاهدة ما يدل على وجود مستودعات سرية، ولم نشاهد سوى علب لحم البقر الفارغة، وبعض زجاجات الشراب الفارغة لسوء الحظ. لقد تبخرت آمالنا بالحصول على الغنائم المرتقبة: كالفواكه المعلبة والويسكي الإسكتلندي، فجميع هذه التوقعات أصبحت كسراب الصحراء الليبية.

وبصورة مفاجئة لاحظت بأن فمي قد جف من الظمأ، ثم لاحظت أن أحد طوابير عرباتنا من قوة الغارة استدار نحونا، وبصحبته عربة بريطانية أسيرة.

أخذ السائق البريطاني ورفاقه أسرى. بعد تفتيش العربة، تم العثور على كميات كبيرة من المواد المكتوبة، ومن بين تلك الوثائق، عثرنا على العديد من الأوراق المهمة، تتضمن شفرات ورموزاً. درسنا معظم هذه الوثائق، الذي بدا لنا أنها مهمة ثم أرسلها روميل إلى الغرب لدراستها وتفحصها بصورة دقيقة.

كان اللواء فون رافنشتاين مسروراً للغاية عندما قال لروميل:

«أيها السيد الفريق إن أسر هذه الوثائق فقط يقدم لنا التبرير الكافي للقيام بهذه الغارة».

وافقه روميل، ولكن إجابته كانت تخلو من أي حماس. وكنت متأكداً في قرارة نفسي أن روميل لم يكن ليوافقه الرأي.

توغلنا بعيداً في الصحراء، ووصلنا إلى الحد الذي خططنا له، لذا صدرت الأوامر لدباباتنا وقوات المشاة المحمولة بأن تتخذ معسكراً دفاعياً. عندها أبدى البريطانيون لنا سلوكاً عدائياً محتجاً على زيارتنا هذه. ففتح نيرانه علينا مستخدماً مدفعاً محمولاً، ذا فعالية عالية من عيار 25 رطل، وكنا نطلق عليه اسم (راتش بوم) بسبب صوته المزعج.

بعد ذلك وصلت طائرات القوة الجوية البريطانية وأخذت تحلق فوقنا، ورأيت أبواب القنابل تفتح وتنطلق على عربة روميل الماموث. قفزت من عربتي مسرعاً إلى عربة الماموث طلباً للحماية، ولاحظت أن روميل وسائقه يقفزان من العربة المدرعة بكل قوة. وأخذا وضع الانبطاح على الأرض.

كنت أسمع أزيز القنابل تنزل علينا وتصطدم بالأرض منفجرة، كما كنت أشاهد الشظايا تصطدم بالجدران الفولاذية لعربة الماموث.

بعد انفجار القنابل الأولى، قفزت من جانب الماموث، واندفعت بأقصى سرعتي نحو روميل. عندها شاهدت السائق مصاباً

بجراح بليغة ويسبح في دمائه، ثم وقف روميل فأصابني الرعب عندما شاهدته يعرج.

سألته على الفور: «هل أنت مصاب سيدي الفريق؟». فأجابني: «أنا لا أشعر بأي شيء» وأخذ ينظف ملابسه. بعد ذلك اكتشفنا أن شظية قد مزقت كعب حذاء الميدان الأيمن، ثم أخذ السائق المصاب بكل سرعة إلى أقرب سيارة إسعاف. بدأنا نتفحص عرباتنا، فوجدنا شظية قد مزقت الإطار الأمامي لعربة الماموث، ولكن تلك العجلة كانت من نوعية عالية الجودة، لذلك كنا نعتقد بأنه يمكن أن نسير على تلك العجلة، ثم استلمنا رسالة لاسلكية قبل عودتنا، تنص على: «أن البريطانيين، قد أصدروا أوامر للمزيد من الغارات الجوية». وقبل الشروع في الحركة، شاهدنا قاذفة قنابل تنقض علينا. فصدرت الأوامر للقطعات بأن تأخذ تشكيلات خاصة بالتقدم إلى منطقة الحدود. ورافق روميل القسم الأكبر من تلك القطعات، حتى تمكنت من إتمام إجراءات الاستعداد للحركة، وأخيراً تمكنت تلك القطعات من استئناف حركة العودة باتجاه الغرب، ولكن ليس قبل حلول الظلام.

لقد استلم روميل عجلة القيادة نتيجة لإصابة سائقه، وانطلق بعربة الماموث، وكنت أساعده من وقت لآخر. تحركنا في ذلك الظلام الدامس وفقدنا الالتحاق ببقية العربات التي كانت تقل قطعاتنا المتحركة في أرتال. فجأة انفجر الإطار الذي كان قد أصيب بشظية في الغارة، فتوقفنا عاجزين عن الحركة ما لم نستبدل تلك العجلة أو نقوم بإصلاحها.

فجأة ساورتني فكرة، بما أنني أصغر الموجودين سناً، وبما أنني أقلهم رتبة، وربما أكون أكثرهم مهارة من الناحية العملية، إذاً يجب عليّ أن أقوم بتغيير تلك العجلة أو إصلاحها.

في ذلك الظلام الدامس، بدأت أفتش عن الأدوات اللازمة لتبديل العجلة. أخرجت الرافعة لرفع العربة، حيث وجدتها قصيرة جداً، فبدأنا بإزالة الرمال من أطراف العجلة بأيدينا، ثم قمنا بتجميع الأحجار الكبيرة وتنظيمها الواحدة فوق الأخرى، لمساعدة الرافعة لرفع العربة. عندما أقول نحن، فإنني أقصد أنا وشاباً إيطالياً كان برفقة اللواء الإيطالي كالفي. في حين وقف الآخرون يراقبوننا ويسيرون هنا وهناك، على أمل مد العون لنا وقت الحاجة، وكانت مراقبتهم لنا يتخللها النقد.

لم يسبق لي أن قمت بإصلاح عجلة معطوبة، وخصوصاً عجلة عملاقة مثل عجلة مدرعة (الماموث) التي أمامنا. واصلنا العمل بكل جد، وحل منتصف الليل ونحن لا نزال نواصل العمل، إنها مهمة شاقة ومتعبة. ثم تقدم روميل والسادة الآخرون لمد يد العون لنا، ولكن معاونتهم لنا عقدت الأمور وأصبحت المهمة شائكة. كان عامل اللاسلكي جالساً إلى جهازه محاولاً إرسال تقرير إلى قطعاتنا، ليخبرهم بأن القوات الإنجليزية تتعقب الطوابير الألمانية، ونحن عاجزون عن الحركة.

وفي نفس الوقت كان يستلم إشارات اللاسلكي الصادرة عن

مدرعات العدو وهي تجوب المنطقة المجاورة بحثاً عنا، وإن إرسال أي رسالة طلباً للنجدة معناه الهلاك المحتوم.

القطعات المرافقة لنا واصلت مسيرها، وهي على وشك الوصول إلى خطوطنا دون أن تعلم بأننا عاجزون عن الحركة، وحيدين في هذه الصحراء البعيدة، وأن أية رسالة لاسلكية لطلب النجدة سوف تجعلنا تحت رحمة القذائف البريطانية.

نال التعب منا ونحن نعمل على تلك العجلة، وأجسامنا تتصبب عرقاً. في ذلك الوقت كان روميل يمسك مصباحاً يدوياً مموهاً، وأنا أعمل على إصلاح العجلة. عندما ألقيت نظرة على ساعتي، وجدت بأن هناك ساعتين فقط على شروق الشمس. إنه صيد سمين بالنسبة للفريق ويفل!..

أخيراً تم إنجاز العمل، وتم تركيب العجلة في مكانها وهي بحالة جيدة. ثم دخلنا جميعاً إلى داخل عربة الماموث، حيث تولى روميل القيادة، وبدأت تلك المدرعة الضخمة تتحرك بسرعة عالية.

ما إن وصلنا الأسلاك الشائكة عند الحدود، حتى كانت الشمس تشع فوق الأفق. بحث روميل عن ثغرة خلال حقول الألغام، واندفع مباشرة صوب خطوط الجبهة، وإذ بنا نشاهد مجموعة من ممهدي الطرق تطوق هذه العربة المعزولة والقادمة بهذه السرعة، من بين خطي النار، أو الأرض التي لا تعود لأحد.

الفصل السابع عشر

كيز يفشل في اصطياد روميل

انتهى شهر سبتمبر وبدأ شهر أكتوبر، والتخطيط والاستعداد متواصلان ويفاعلية للهجوم على قلعة طبرق في أواخر شهر نوفمبر.

كانت القطعات المخصصة للهجوم لا تزال في مرحلة إعادة التنظيم والراحة، بالإضافة إلى انشغالها بالتدريب بصورة منتظمة، استعداداً للقيام بهذه المهام.

تقرر أن يكون الهجوم في هذا الوقت منطلقاً من اتجاه منطقة (الدودة). وكان على ضباط هندسة الاقتحام أن يفتحوا أول ثغرة بالتعاون مع الدبابات، بعد ذلك يأتي دور القوة الجوية، بعد اندفاع الهجوم الجريء للقوات البرية. كما خطط لهجوم خداعي في نطاق دفاعات العدو الغربية، وذلك لإيهام العدو بتركيز جهود قواته الاحتياطية الآلية وقوات الهجوم المضاد في ذلك القطاع، وبعد فتح ثغرة في دفاعات العدو تندفع كتيبة البنادق (115) من خلال الثغرات

لفتح الطريق أمام هجوم الدبابات والمدرعات والعربات، وقوات الهجوم المضاد مع الدبابات، التي تندفع إلى الأمام باتجاه (مفرق طريق الملك)[1] حيث تقاطع الطريق المؤدية إلى طبرق ـ البردى ـ العدم، ومن هذه المرحلة، يبدأ الهدف التالي، باندفاع الفرقة الحادية والعشرين بانزر إلى طبرق والميناء.

استلم كل فصيل مشارك تعليمات مفصلة عن جميع عملياته القتالية، كما وُزعت صوراً جوية في غاية الدقة على المجموعات المشاركة، إلى مستوى الحضائر التي تتكون من ستة رجال، بغرض حصول كل جندي على صور واضحة لمنطقة العمليات والمعركة التي هي هدفه الذي يسعى إليه.

لقد دربت القطعات المشاركة تدريباً عنيفاً ومنظماً، في مواقع متموجة وشديدة الوعورة، على فن مهاجمة نظم الخنادق والتحصينات المختلفة.

تأخرت بعض الاستعدادات للهجوم، بسبب إصابة الرجال ببعض الأمراض، مثل الحمّى الصفراء والزحار (الديزنتاريا). وكانت هذه الأمراض قد خفضت فعالية وقوة بعض التشكيلات إلى عُشر قوتها الأصلية.

تمركز مقر القيادة بالقرب من مهبط الطائرات في منطقة كمبوت، وقد تمركز في مقرنا أيضاً نيومان: قائد مجموعة

---

(1) مفرق طريق الملك: اسم رمزي أطلقه البريطانيون على مفترق طريق طبرق ـ العدم ـ كمبوت. (المراجع).

الطائرات، حيث اتخذ الطيارون من بئر قديمة مقراً لهم، بعد أن قاموا بتحويره وتجهيزه. كان هذا الملجأ مريحاً، بالإضافة إلى توفيره الحماية من القنابل التي لا تؤثر فيه، وقد نقلوا إليه كل وسائل الراحة الضرورية لاحتياجاتهم من مبنى مطار (العدم). وعندما كنت أزورهم في أوقات العشاء كضيف، كنا نحتفل احتفالاً ملكياً!: الشراب المثلج، والفواكه الطازجة، والسجائر وغيرها.

حسب ما ذكر أحد الطيارين، فإنهم يجلبون هذه المواد وغيرها من اليونان، ومن وجهة نظري، لم يكن هناك وجه للمقارنة بين وجبات هذا المقر الفخم، ووجبات روميل الفقيرة.

لقد سمعت في تلك الأيام، أن الفريق ويفل القائد البريطاني، كان قد تم نقله لاستلام قيادة أخرى في الهند، وعين خلفاً له السير كلود أوكنلك قائداً عاماً لقيادة الشرق الأوسط.

حسب تقارير الطيارين، فإن سكة حديد الصحراء الممتدة من الإسكندرية إلى مرسى مطروح تم مدها حتى منطقة سيدي براني، فاستنتج بيهرنت وهو الضابط المساعد لروميل لشؤون الاستخبارات، واقتنع بأن هذه علامات للهجوم البريطاني القادم: «وإني أراهن يا دكتور هيجمان أن العدو سوف يهاجم قبل نهاية هذا العام».

لقد صدقت تنبؤاتي، إذ بعد عيد ميلاد روميل بثلاثة أيام (ولد روميل في 15/11/1891، بمدينة هايد نهايم قرب أولم في مقاطعة فرتبرج)، وقبل خمسة أيام من موعد هجومنا المتوقع على طبرق.

قام الجيش الثامن البريطاني بأول هجوم أطلق عليه الاسم الرمزي (معركة الصليبي)، في يوم 18/ 11/ 1941، تحت قيادة الفريق سير آلان كننجهام، وهو الرجل الذي كان قد طرد حلفاءنا الإيطاليين من الحبشة.

قامت مجموعة من الفدائيين الإنجليز تحت قيادة المقدم[1] جيفري كيز ابن أمير البحر الشهير (الأميرال) كيز. بالإنزال من غواصات على ساحل برقة، في مغامرة جريئة لقتل روميل أو أسره في مساء الهجوم البريطاني المتوقع. ولكن المغامرة قد أجهضت، لأنه تم التخطيط لها بناء على معلومات خاطئة، كما سأوضحها بالتفصيل.

كانت هذه المجموعة الفدائية تتكون من: المقدم كيز والمقدم ليكوك، مع خمسة ضباط آخرين، وحوالى خمسين من الرتب الأخرى، أرسلوا بغواصتين إلى ساحل شحات. الغواصة الأولى أنزلت المقدم كيز وجميع من كانوا معه عدا اثنين من رجاله، لإصابتهم خلال عملية الإنزال إلى الشاطئ. بينما الغواصة الأخرى لم توفق، لأن المقدم ليكوك مع سبعة من رجاله فقط تمكنوا من النزول إلى الساحل سالمين، قابل كيز مع اثنين من ضباطه وخمسة وعشرين رجلاً من الرتب المختلفة، ضابط

(1) في الحقيقة كان برتبة رائد، ورقي إلى رتبة مقدم ومنح وساماً بعد موته في أثناء الغارة. دفن في البيضاء ونقل إلى مقبرة الحرب البريطانية في بنغازي، ولقد وجدت قبره بالمقبرة. (المراجع).

الاستخبارات البريطاني المتنكر في ثياب البدو. وفي تلك المقابلة، أخبرهم هذا الضابط بأن مقر قيادة روميل توجد في مدينة البيضاء.

خلال ليلة ممطرة، اقتادهم بعض الأدلاء العرب مشياً على الأقدام، حيث قطعوا المرحلة الأولى إلى مدينة البيضاء، التي تبعد ثمانية عشر ميلاً، ثم واصلوا المرحلة الثانية من الرحلة بمفردهم، وفي المساء التالي قاموا بتخزين كل ما لديهم من أمتعة تزيد عن حاجتهم، مثل المأكولات والملابس والأجهزة.

خلال سيرهم التقوا بمجموعة صديقة من العرب (الليبيين)، حيث أخبروهم بأن مقر روميل ليس في الزاوية البيضاء، بل في بيت يقع بالقرب من منطقة سيدي رافع، فغير المقدم كيز خطته.

خلال الليلة التالية اقتادهم مجموعة من العرب الأصدقاء إلى ذلك البيت، وقبل منتصف الليل بدقيقة واحدة هاجموا البيت.

قاموا بإطلاق الرصاص على الحارس الواقف أمام الباب الأمامي وأردوه قتيلاً، ثم قذفوا قنبلة يدوية بين مجموعة من الرجال في الغرفة الأولى التي وصلوها. قام الألمان الموجودون في الغرفة الثانية بإطفاء جميع الأنوار. وعندما تقدم المقدم كيز وفتح باب الغرفة بدفعه بقوة وبكل جرأة لمهاجمة من فيها، سقط بعد إصابته بجروح قاتلة من جراء إصابته بوابل من نيران مسدس، فقام الضابط الآخر المرافق للمقدم كيز برمي قنبلتين يدويتين في تلك الغرفة، ثم أوصد بابها فانفجرتا، على أثر ذلك قام اثنان من رفاق المقدم كيز

بسحبه إلى خارج البيت، ولكنه كان قد لفظ أنفاسه على الفور.

عند انسحاب المجموعة، أصيب ضابط من رفاق كيز بإطلاقة في ساقه، فاضطرت المجموعة إلى تركه فأخذ أسيراً.

كانت خسائر الألمان أربعة قتلى من الضباط الألمان، وهم من أركانات المقدم أوتو آمر ركن إمداد الفيلق الأفريقي. لقد أجريت مراسم الدفن لهؤلاء مع المقدم الإنجليزي كيز قرب سيدي (رافع). وبعد مقتل كيز منح وسام صليب فيكتوريا.

كانت تلك الغارة البريطانية عملاً بطولياً جريئاً، ولكن البريطانيين أبدوا أسفهم لأنهم خدعوا بصورة خاطئة، حيث إن روميل لم يكن في أفريقيا في هذا الوقت، وإنما كان في روما يحضر احتفالاً بعيد ميلاده، تكريماً له.

في ذلك الاحتفال، كانت برفقته السيدة روميل واللواء فون رافنشتاين. وفي تلك المناسبة حضر القائدان عرض الأوبرا في مدينة روما. كان اللواء فون رافنشتاين قد أخبر المؤلف فيما بعد، وبعد انتهاء الحرب: بأن القائدين كانا يحضران العرض في دار الأوبرا وقت تنفيذ الغارة البريطانية، وبعد أن استمعا إلى ذلك الغناء الرائع، التفت روميل إلى فون رافنشتاين، وهما جالسان في بهو دار الأوبرا، وأخبره بما يشغل باله: «فون رافنشتاين يجب أن نتقل تلك الكتائب المتمركزة في قطاع رأس المدور» .. وبدأ النقاش بين القائدين حول القوات في أفريقيا وليس الأوبرا والغناء الجميل. إضافة إلى ذلك، فإن المبنى الذي هوجم من قبل الفدائيين

البريطانيين لم يسبق أن اتخذ مقراً لقيادة روميل، إذ كان مقر روميل في منطقة كمبوت التي تبعد مائتي ميل أو أكثر.

كان البيت الذي هاجمه كيز في منطقة سيدي رافع، إحدى الدور التي تناول فيها العشاء، كل من روميل وجوس وكافاليرو وأنا ـ المؤلف ـ وغيرهم من الضباط الكبار، خلال زيارة روميل الأولى للفريق باستيكو في مدينة شحات، والذي علم فيه روميل بولادة مجموعة بانزر أفريقيا.

كانت تلك الدار، التي داهمتها الغارة البريطانية مصممة لكي تكون ملجأ خاصاً لروميل، يلجأ إليها للاستجمام وليتحرر من ضغط العمل، والابتعاد عن أركانه، من وقت لآخر.

كان مرض الحمّى الصفراء يقلق روميل جداً خلال الحملة الأفريقية، وكان روميل مريضاً معظم أيامه، ومع ذلك كان من أنشط المقاتلين وأكثرهم حيوية وإقداماً وطاقة لا حدود لها، وخصوصاً في خط الجبهة.

والحقيقة، أن روميل كان قد توقف في تلك الدار في منطقة سيدي رافع، مرة أو مرتين فقط طوال فترة الحرب، ولكن الاستخبارات البريطانية أخطأت خطأً فادحاً، عندما اعتقدت بأن روميل سيمضي لياليه في ذلك البيت وخاصة في تلك الأيام.

الفصل الثامن عشر

معركة الصليبي

إن معركة الصليبي كانت مفاجأة لنا ـ جانب قوات المحور ـ لقد شاهد الاستطلاع الجوي الكثير من القطعات تتحرك في عمق الصحراء، جنوب مرسى مطروح. وكانت التقارير توصي بأن هذه التشكيلات منهمكة في التدريب.

لم نكن نتوقع أن الفيلق البريطاني الثلاثين، بقيادة اللواء ويللوجبي نوري الذي يشتمل على دروع، مع الفرقة الأولى جنوب أفريقيا بقيادة العميد بينار، تشق طريقها من خلال الأسلاك الشائكة بعيداً إلى الجنوب ومن أسفل حصن مادالينا، لكي تتجه شمالاً نحو طريق العبد، ثم الاتجاه نحو بئر الغبي بهدف الوصول إلى العدم. في نفس الوقت، تقدمت القطعات الهندية باتجاه منطقتي سيدي عمر (توجد منطقتان بهذا الاسم: عمر الجديد وعمر الليبي) التي تم احتلالها في يوم 22 نوفمبر، بقيادة العميد إتش. آر. بريج قائد

اللواء الهندي السابع، المكون من كتيبة سوسيك الملكية الأولى والكتيبة 4 ـ 16 بنجاب، والكتيبة 44 ـ 11 السيخ. والفيلق البريطاني الثالث عشر بقيادة اللواء جودوين أوستين، والفرقة النيوزيلندية وكتيبة دبابات الجيش حيث قام بعزل كل من السلوم والبردى تقريباً.

ضغط النيوزيلنديون بطول طريق كابوتسو، وعبر الأراضي التي بينهما باتجاه كمبوت لتهديد مقر قيادة روميل. وبعد أن أدركنا قوة هذا الهجوم الهائل، تحول مقر روميل إلى مقر متنقل. وتقرر إرسال الفرقة الخامسة والعشرين (بولونيا) إلى الأمام، من المحيط الخارجي الشرقي لدفاعات طبرق، لمواجهة ضغط النيوزيلنديين قرب كمبوت.

بعد ذلك أصبح القتال مربكاً، وكان الهدف الواضح للطرفين هو تدمير دروع الطرف المضاد.

لقد حدد موعد هجومنا في يوم 23 نوفمبر. ومن الواضح أن ذلك الهجوم المزمع قد ألغي على ضوء التطورات الأخيرة. لكن روميل لا يزال يناقش الموضوع وكان يرى بأن هذه التطورات ربما جاءت من حسن الحظ. فإذا ما واجهنا هجوم الجيش الثامن وتم تحييده عن الأراضي المفتوحة، فسوف يتوافر لدينا الوقت لاحتلال طبرق، دون أن نخشى أي هجوم للعدو من اتجاه الشرق. ثم أضاف: ولعله من الصدف الجيدة أن نقابل هجوم كننجهام، بتشكيلاته النشطة والمطمئنة، وهذه فرصة أفضل بكثير من مواجهته

فيما بعد، عندما تكون تشكيلاتنا في حالة وهن وإرهاق من جراء هجومنا على طبرق. على أي حال فإن خططنا قد تغيرت تغييراً جذرياً نتيجة لهذه التطورات، كما أن مسيرة حياتي في هذه الحرب قد تغيرت كذلك.

أوشك هجومنا الآن على طبرق على الانطلاق، وبدأنا بتجميع كل أنواع المعدات اللازمة للهجوم، وانتشرت قطعاتنا في مناطق مبعثرة ومنفصلة تم اختيارها، للسرايا والكتائب والأفواج وحتى الفرق، لاستعادة قوتها ولكي تكون أكثر فعالية. وقد وجدنا أن بعض الوحدات كانت تنقصها الآليات، وبعضها بحاجة إلى الوقود والزيوت، ووحدات أخرى في حاجة إلى الذخيرة. ومن حيث القوة القتالية، فإن معظم هذه الوحدات كانت تشكو نقصاً كبيراً في قوتها، وفي ملاكها من المراتب والضباط. لقد ورد إليّ تقرير من الفرقة الخامسة عشرة بانزر (دبابات)، وطلب مني أن أقدمه إلى روميل. وقد لاحظت في ذلك التقرير بأن فاعلية تشكيلاتنا، قد انخفضت إلى 50٪ من قوتها الاعتيادية، نتيجة للأمراض والإصابات.

بدأت أفكر ملياً، إلى أن وصلت إلى قرار: إذ في خلال الأشهر الماضية، انتابني مرض الحنين إلى الوطن إلى درجة كبيرة، وتذكرت تلك الأيام اللطيفة في عام 1940 عندما كنت آمر سرية، يومها كنت أمرح وألهو مع ضباط وجنود في مثل عمري. كنت أشاركهم الفرح والسعادة والضحك، كما كنت أشاركهم القلق والقتال، لقد كنت مستقلاً وعملياً وسيد نفسي.

والآن أنا المرافق الشخصي لروميل، وأعلم بكل تأكيد، بأن هناك عدداً كبيراً من الضباط يحسدونني على هذا المنصب، وعلى ارتباطي الوثيق مع روميل. ولكن هل أنا محظوظ حقيقةً؟ بكل تأكيد فإن وجودي إلى جانب قائد لامع وذائع الصيت، هو امتياز عظيم، وأمر مهم للغاية، وكنت أساعده وهو يخطط في عملياته كما كنت أراقبه وردود أفعاله في المعركة.

لقد تبين لي أن معظم الضباط لديهم فكرة خاطئة عن طبيعة العمل، حيث إنهم يعتقدون بأن عملي يقتصر على اللعب واحتساء الجعة.

إن طبيعة عملي اليومية، تبدأ من أول ضوء حتى آخر دقيقة في النهار، وطوال الوقت أقوم بتنظيم شؤون الفريق روميل وإدارتها، كما أن نشاطاته الميدانية يجب أن تخطط مقدماً وخلال كل ساعات المسير، يجب عليّ أن أكون في غاية الحذر والحيطة، وعلى أهبة الاستعداد لأي طارئ. ثم إن كل كلمة يقولها يجب عليّ تسجيلها وأن أفكر بمضمونها، بالإضافة إلى أن جميع أوامره وتوجيهاته وملاحظاته، يجب أن تسجل في مفكرته الشخصية مع ذكر المكان والزمان والأشخاص بكل دقة. وإن كل أمر شفوي يأمر به في الجبهة، كان علي تلخيصه بكل دقة في مذكرة وإرسالها إلى ضابط الأركان المختص. وعند قيادتي العربة، أثناء تنقلاتنا في الجبهة، يجب عليّ معرفة كل موقع بدقة متناهية في جميع الأوقات، وفي كل الظروف والتطورات. كما كنت مسؤولاً عن

توجيه الفريق في الصحراء دونَ أي تردد، وأخذه إلى كل موقع ناء في تلك الصحراء والذي كان يرهقني في كل الأوقات، هو شعوري بأنني مسؤول عن سلامته الشخصية، وعن اتخاذ الاحتياطات اللازمة لسلامته من غارات العدو الجوية المفاجئة وغير المتوقعة، التي غالباً ما تطير على ارتفاعات منخفضة. وبعد نهاية اليوم مع ما يتضمن من واجبات مرهقة ومسؤوليات في غاية الدقة، كان عليّ أن أواصل العمل خلال ساعات الليل للإجابة عن رسائله ومعظمها رسائل خاصة وشبه خاصة، وتقدر بأعداد هائلة. وباختصار، فإن حياتي وأوقاتي خلال هذا العمل ليست ملكاً لي. وبصريح العبارة، فإني لم أكن أكثر من ظل الفريق.

إن القرار الذي توصلت إليه، لم يكن نتيجة لطبيعة الأعمال المجهدة ليل نهار. بل وبكل بساطة اتخذت القرار لأنني أتوق إلى علاقة مع شباب في مثل عمري، كي أشاركهم السعادة والمحن. كان يساورني شعور قوي في قرارة نفسي، بأني أميل مرة ثانية للحصول على بعض الحرية الشخصية، والاستقلالية. هذا ما كنت أبحث عنه، وكنت أعلم بأنه لا يمكنني الحصول على هذه الامتيازات إلا في مناصب أقل من موقعي بكثير. علي أن أذكر شيئاً واحداً، هو أنه ليس لي طموحات مهنية في الجيش.

إن هذه الأفكار كانت تتزاحم في رأسي بينما كنت أقوم بصورة لا شعورية بتنظيم التقرير، ثم قمت بطيه عدة طيات بكل دقة. وبعد أن أخذت نفساً عميقاً طرقت الباب على روميل ودخلت.

وجدت الفريق يجيب على نداء عبر الهاتف، وكالعادة، كانت إجاباته تتميز بالقوة والشدة: «روميل هنا . .». إن تلك المكالمة كانت طويلة، ويبدو أنها مهمة. إن ذلك التأخير وفر لي دقيقة أو دقيقتين لتقييم كلماتي. وفي نهاية تلك المكالمة الهاتفية، وضعت التقرير على منضدة روميل. تناول التقرير وقرأه من دون صوت، ثم أخذ يهز رأسه. تناول قلم رصاص وصادق على تلك الورقة قائلاً إن الكلمة لضابط ركن شؤون الأفراد. ثم ناولني التقرير وقال كلمة واحدة فقط: «لا يصدق! . . .». أجبت: «نعم سيدي الفريق». وقبل أن أخرج سألني الفريق: «هل لديك أي شيء آخر يا شميدت؟»، وكان يدقق النظر إليّ، «نعم يا سيدي الفريق . . هل يمكن لي أن أطلب وبكل احترام، بأن أنقل إلى وحدة مقاتلة؟». عندها بدأت عينا روميل تومضان للحظات، ثم أخذ يحدق فيّ بنظرات ثاقبة. خلال هذه اللحظات الحرجة، ومضت في ذهني خاطرة بأن مثل هذا الطلب لم يكن يتحقق بالنسبة لصديقه آلدنجر، الذي بقي معه منذ الحرب العالمية الأولى، وهو الآن يعاني المرض على سريره في ألمانيا؟. فهل سيعتقد بأنني ينقصني الشعور بالمسؤولية؟.

ظل روميل يراقبني بنظرات حادة، عندها سألني بطريقة ممزوجة بالمزاح: «هل أنت تعب من جراء العمل معي يا شميدت»؟. «لا، لا سيدي الفريق». كان هذا رداً سريعاً على سؤاله، وإذا لم تكن تصدق كلامي، فإني أقول: إني كضابط شاب أود أن أعود للعمل مع القطعات.

فكان جواب روميل غير المتوقع «هذا صحيح يا شميدت. لو كنت ملازماً لاتخذت الخطوة نفسها . . » ثم أضاف قائلاً، بإيماءة غير اعتيادية، «إن حياة ضابط الأركان لا تستهويني كذلك».

ثم عض على حافة شفته وقال: «بكل تأكيد، لدينا حاجة كبيرة لضباط صحراء جيدين، حسناً». ثم أضاف إلى توقيعه على التقرير: الفرقة الخامسة عِشرة بانزر (دبابات). «والآن اذهب يا شميدت، وعليك مقابلة رئيس الأركان بخصوص تعيين خلف لك».

عليّ الآن مواصلة العمل مع روميل لكي أقوم بتدريب الخلف الذي سيقوم بالعمل لحين أن يتمكن من استلام مهام واجباته الجديدة. كما سمح لي باختيار الفرقة التي سألتحق بها للعمل كآمر سرية. وقد وقع اختياري على سرية ثقيلة من فوج البنادق (115) التابع للفرقة الخامسة عشرة بانزر. إن هذه السرية تتكون من: مدفعية ضد الدبابات عيار 50مم و 150مم وفصيل مشاة، وفصيل مدافع هاون عيار 87مم، وأخيراً فصيل هندسة اقتحام.

لقد تم اختيار الملازم الأول جراف فون شفيينبرج خلفاً لي، وهو شاب محارب قديم ومحنك، وحسب ما أذكر، فقد فقد ذراعه اليسرى.

وعلى الفور شعرت بألفة ومحبة له. ولكن سمعت فيما بعد، بأنه عمل مع روميل لمدة ثلاثة أشهر فقط، ثم غادر، ولا أعرف ماذا حل به بعد ذلك.

بعد أن أديت التزاماتي في مقر روميل، انطلقت مسرعاً لألتحق بالفرقة الخامسة عشر بانزر. حيث كنت قد وعدت بمنصب آمر سرية ثقيلة. كانت الفرقة في ذلك الوقت متمركزة قرب ساحل البحر، شرق طبرق. وخلال الليلة السابقة هطلت أمطار غزيرة على المنطقة القريبة من ساحل البحر، ومع ذلك، لم تهطل في الجنوب. على البريطانيين أن يتذكروا كيف أن الرمال قد تحولت إلى أوحال تعوق حركاتهم. في اليوم الأول من معركة الصليبي، تحولت منطقة فرقتنا إلى بحيرة من الأوحال بعمق قدم، وقد استنفدنا يوماً كاملاً لكي نتخلص من محنة ذلك المستنقع، كان قائد الفرقة العميد نيومان سيلكوف، وقد تمركزت الفرقة إلى الجنوب من كمبوت. وكانت مئات من طائرات السلاح الجوي الملكي البريطاني تطير فوق رؤوسنا طوال الوقت، دون أن تهاجمنا. وحقيقة، كنا محتارين لهذا الاستثناء التام، وفي نفس الوقت، فإن طائراتنا لم تغادر أراضي الهبوط لعدم تمكنها من الطيران، بسبب اندفاع المياه فوق أراضي هبوط الطائرات.

ألقيت نظرة على خريطة المنطقة، وقمت بدراستها بتمعن، وخرجت باستنتاج واحد: وهو أن موقع روميل هو الأفضل تماماً، ففرقتا الدبابات الخامسة عشر والحادي والعشرون بانزر والفرقة التسعون الخفيفة كانت قد سحبت في وقت سابق، للاستعداد للهجوم على طبرق المحدد له يوم 23 نوفمبر. كما تمركز الفيلق الواحد والعشرون الإيطالي في خطوط الجبهة حول طبرق بعد دعمه ببعض كتائب المشاة الألمانية، كما تمركزت كل من: الفرقة السابعة

والعشرون بريشيا، والفرقة السابعة عشر بافيا، والفرقة 102 ترنتو، والفرقة الخامسة والعشرون بولونيا، حول محيط طبرق من الغرب إلى الشرق. كما تمركزت الفرقة الآلية 101 تريستا في بئر حكيم والفرقة المدرعة 132 آريتي في بئر الغبي، وفرقة المشاة سافونا في سيدي عمر.

إن المثلث الدفاعي الممتد بين حلفايا ـ السلوم ـ البردى ـ معظمه تحت سيطرة الإيطاليين، وعناصر من الفرقة 164 المشاة التي يوجد فيها أعداد كبيرة من رجال الاحتياط المسنين الذين ينقصهم التدريب. لقد أعيد النظر في الفرقة الخامسة عشر دبابات التي شكلت كمجموعة قتال.

بدأ زحفنا نحو الجنوب، ولا زلنا نسمع أزيز المقاتلات البريطانية فوق رؤوسنا، ولكن لم نتعرض حتى الآن لأي هجوم جوي من هذه الطائرات. فجأة تعرضنا إلى نيران المدفعية من جهة الجنوب الشرقي. وكان هذا القصف المدفعي يتزايد كثافة بصورة تدريجية.

انتشرنا على امتداد الصحراء مع مواصلة التقدم، فوصلنا إلى منطقة كان العدو قد احتلها، ووجدنا أنفسنا نتحرك على خطوط هاتف ملونة كان قد مدها البريطانيون في الصحراء، فقطعناها. ثم بدأنا نشاهد دبابات تحمل أعلاماً مثلثة بريطانية مميزة بعيداً في الأفق، فاعتقدنا أنها الفرقة السابعة المدرعة.

لقد اشتركت مجموعتي في مناوشات خلال تلك الأيام التي

تسودها الفوضى والارتباك. حتى تاريخ 23 ـ نوفمبر.

في ذلك الصباح وصلنا أرضاً صعبة بجوار سيدي رزق، وبعضها أرض منبسطة وممهدة، أشبه ما تكون بسطح منضدة البلياردو، وعند الغروب، لاحظت موقعين احتشدت فيهما دبابات العدو، أحدهما يقع إلى شمالنا، والآخر إلى الشمال الغربي منا. بدأت مدفعيتنا البعيدة المدى بالرماية عليهم. وعلى مسافة من مواقعنا بدأنا نراقب التحام الدبابات والمدرعات. وخلال ساعات الصباح الباكر بدأنا نراقبهم، ولكن العدو حتى هذه الساعة لم يقم بإزعاجنا، بعد ذلك بدأت الدبابات المتمركزة إلى شمالنا تتقدم باتجاهنا. كانت مدافعنا المضادة للدبابات من عيار 50مم مستعدة للقتال، فبدأت بفتح النار عليهم، وعلى الفور شاركت مدفعية الميدان الثقيلة المتمركزة في المؤخرة في قصف الدبابات الزاحفة نحونا. فانحرفت الدبابات الزاحفة مغيرة اتجاهها والتحقت بمجموعة الدبابات الأخرى، التي لا تزال بعيدة إلى الشمال.

الفصل التاسع عشر

الهجوم على سيدي رزق

فكرت بحيرة من هدف هذه الحركات البريطانية، وبدأت بوضوح تتكشف عن هجوم ضدنا. لقد شاهدت بالمنظار عدداً من بطاريات مدفعية العدو تلوح لي من بين الحشد الشمالي لدبابات العدو. أصدرت أمراً إلى رجالي، بأن يحفروا خنادق شقية طويلة. كان علينا في الواقع القيام بهذا العمل، قبل هذه الأوقات الحرجة، لقد كانت الأرض صخرية، وقبل أن نطلق قذيفة واحدة، انطلقت أولى قذائف مدفعية العدو، تزمجر فوق رؤوسنا.

كان آمر كتيبتي وهو رجل كبير في السن، برتبة رائد احتياطي، واقفاً بجانبي، وعلى مقربة منا، كان المقدم آمر الفوج بالوكالة. كانا كلاهما واقفين بهدوء. وبينما كنت أتأملهم، شعرت بأن نيران العدو تزداد ضراوة وقوة، وبالغريزة، شددت على ذراع الرائد الواقف بجانبي وصحت: «انبطح سيدي الرائد». وقفزنا في

الخندق القليل العمق، ولم تمض برهة، حتى انفجرت قنبلة في نفس المكان الذي كنا واقفين فيه منذ لحظات، فلم يصب أي منا بشظايا القنابل، سوى رذاذ الغبار المتصاعد فوقنا.

عند هذه التطورات، أرسل آمر الفوج رسالة يدعو ضباطه للاجتماع، كما أننا استلمنا أوامر من قيادة الفرقة. ويبدو أن الموقف كله كان غامضاً. فلم يكن روميل شخصياً متأكداً من قوة العدو، وقد أرسل معلناً: لقد اتضح وانكشف أن الخطر الحقيقي جنوب شرقي طبرق، في المرتفعات العالية عند سيدي رزق.

لقد شعر روميل بأن عليه اتخاذ قرار سريع، بقطع خطوط مواصلات العدو جنوب سيدي عمر، ولكن في هذه اللحظات يجب علينا الاهتمام بالموقف في سيدي رزق.

وحسب ما أخبرنا به العقيد: «إن التهديد الحقيقي في المعركة في هذه المنطقة سيكون ذا أهمية وخطر كبير».

استلمنا أوامرنا ونحن واقفون وسط وابل من قذائف مدفعية العدو، التي كانت تنفجر في كل مكان من حولنا، وقد جرح أحد الضباط عندما سقطت القذائف قرب موقعه، حيث قام عدد من الضباط لا إرادياً بالقفز والانبطاح أرضاً. وإذ بالعقيد ينادي مؤنباً: «أيها السادة إن الضابط الألماني لا ينبطح أرضاً».

ومن داخل خندقي، همست للرائد القريب مني: «من وجهة نظري، فإن هذه الفكرة، أي: أن الضابط الألماني لا يجب أن ينبطح، هي مبالغة، ولا يمكن اعتبارها فكرة عملية في الحرب الحديثة».

عندها نظر إلي الضابط باستغراب لصراحتي، وأومأ لي بعينه، وهز رأسه موافقاً على هذه الرأي قائلاً: «نعم. أعتقد أنك على حق». وقفنا جميعاً، وقد بدا لي بأن بطاريات مدفعية أخرى تشارك في القصف. ازداد عدد قذائف العدو التي تتساقط من حولنا حيث أصيب ضابطان آخران وسقطا جريحين، فدخل الجميع في الخنادق.

لقد حان الوقت الآن للزحف على منطقة سيدي رزق. بعد أن صدرت إلينا أوامر بمهاجمة تشكيلات دبابات كننجهام مهما كان الثمن، وتدمير قوات الدعم من المشاة التي لم نستطع تحديدها، ولكن يبدو أنهم كانوا من رجال العميد ب.ف. أرمسترونج التابعين للواء الخامس جنوب أفريقيا.

وضعنا مدافعنا على عرباتها بسهولة وأخذ الجنود مقاعدهم، ثم انتشرنا في منطقة واسعة، وشرعنا في الحركة باتجاه الشمال الشرقي.

كانت دبابات العدو تنتشر إلى الجنوب من سلسلة تلال سيدي رزق. وفي اليوم السابق، كانوا قد قاموا بهجوم على مواقعنا التي كانت تدافع عن مهبط الطائرات، لكن الهجوم أجهض. وفي الحقيقة أن هذه المنطقة تبعد أكثر من ثلاثة أميال عن قبر الولي المسلم (سيدي رزق) هناك.

ومن بين قطعات العدو التي منيت بخسائر جسيمة في أفرادها كانت كتيبة ترانسفال والاسكتلنديين الثالثة، وكتيبة جنوب أفريقيا والإيرلنديين، بينما أصيبت كتيبة بوثا بخسائر أقل.

اتخذت هذه الأفواج معسكراً دفاعياً خلال الليل وارتكبوا عدة أخطاء، وذلك بوضع عربات التموين واحتياطات الخط الثاني «B» مع كتلة غير مقاتلة وغير متجانسة في جناحهم الجنوبي. وفي الحقيقة، فإن تهديدنا كان يلوح مترصداً في شمالهم، وكان عليهم أن يدركوا شيئاً: وهو أن في المعركة المرنة في الصحراء قرر روميل ـ الذي تبدو تعبيته (تكتيكاته) الآن واضحة حتى للعدو الذي يشاهدـ أنه سيفتش في كل مكان إلى أن يجد الجناح الضعيف.

في حوالى الساعة 08,30 من صباح يوم الأحد 23 ـ 11 ـ 41، قامت بعض دباباتنا بمناوشات مع دبابات العدو، حيث تغلبت دباباتنا لأن قتالها كان الأحسن، فأوقفت دبابات العدو وبدأت في مطاردتها. إن تلك المطاردة مرت من خلال احتياطي جنود جنوب أفريقيا.

إن ما حدث هو الفوضى المربكة والمقاومة القليلة لقوات العدو، وعندما ظهر آمرو دباباتنا من بين حشود العدو قدموا تقريرهم: «إن مواقع العدو ضعيفة».

أعدت خطة سريعة للهجوم على مؤخرة العدو الحساسة والضعيفة على الفور. إن مواقعنا كانت إلى الغرب من قوات جنوب أفريقيا عند سيدي رزق، وفي ذلك الصباح تحركنا إلى مسافة أبعد إلى الجنوب، حيث أعاقتنا نيران مدافع من عيار 25 رطلاً.

استدعينا مزيداً من الدبابات التي كانت تلوح إلى الشرق من مواقعنا، حيث انضمت إلينا بالعبور من خلال الجناح الجنوبي

لقوات جنوب أفريقيا وضمن مدى مدافعهم، ولذهولهم من المباغتة، فقد أطلقوا النيران بصعوبة على دباباتنا.

علمنا فيما بعد، بأن مدفعية العدو كانت قد أخطأت، لأنها اعتبرتها دبابات صديقة، وقد ظنت أنها دبابات اللواء الأول تحت قيادة بينار القادمة من الجنوب.

هذا شيء لم أفهمه أبداً، لأن دباباتنا، كان من السهل تمييزها عن طوابير المشاة المحمولة. وعلاوة على ذلك، فإن العربات المدرعة لجنوب أفريقيا، تقدمت إلى الأمام بحثاً عن طوابير الدبابات، فتم طردها بنيران المدفعية.

اتخذ روميل مركز مراقبة في قمة سلسلة المرتفعات شمال قوات جنوب أفريقيا، وفي وقت مبكر من بعد الظهر أمر بقصف مدفعي والتحضير لهجوم خداعي من الشمال. وفي الحقيقة كنا نحشد قوة دباباتنا التي يبلغ عددها حوالى مائة دبابة للقيام بالهجوم من اتجاه الجنوب الغربي. وحسب علمي، فإن تقاريرنا هذه قد وصلت إلى مقر قيادة اللواء الخامس، ولكن من الواضح جداً بأن تهديدهم لم يتضح، لأن أمامنا لواء جنوب أفريقيا، وعلى جبهتنا من اليمين توجد مجموعة المعاونة للواء السابع المدرع، أما اللواء السابع المدرع، فقد طرد بعيداً قبل يوم الأحد من أرض هبوط الطائرات بعد معركة دبابات قاسية. وإلى الغرب من لواء جنوب أفريقيا وعلى يسار جبهتنا، كانت توجد دبابات اللواء 22 المدرع البريطاني التي بدأت في الحركة.

كانت الخطة: أن تقوم وحدتنا الكتيبة 115 بنادق بالهجوم مع القوة الرئيسية لدباباتنا على اليمين.

إن هذا يقود إلى المواجهة مع الدبابات البريطانية لتدميرها، والاندفاع من خلالها لإرباك مشاة جنوب أفريقيا ثم التقدم عبرهم إلى احتياطات الخط الثاني الضعيف.

وهذا ما تم إنجازه، ولكن تنفيذ المهمة لم يكن سهلاً، كما يبدو. عند الساعة 1500 قمنا بالقصف التمهيدي، وكانت قوات الهجوم على استعداد للانطلاق. كان العدو تقريباً يشكلون سداً، وعلى يسارهم، كانت توجد مدافع مضادة للدبابات من عيار خمسة وعشرين رطلاً ـ كما علمنا فيما بعد ـ، وهي بطارية مدفعية الميدان السابعة، كما توجد مدافع هاوتزر من عيار 4.5 بوصة أيضاً.

قامت كتيبتنا الآلية بالانتشار واتخذت تشكيل المعركة. واندفعت الأسلحة المضادة للدبابات إلى الجبهة. وقد لاحظنا بارتياح أن بعض دباباتنا تتقدم على جناحنا الأيمن. لقد أمضى الأمر بالهجوم سريعاً، الذي يقوده آمر الكتيبة واقفاً بقامته الفارعة في عربته المكشوفة، كانت عربتي خلف الرائد مباشرة. انطلقنا رأساً نحو دبابات العدو، وقد ألقيت نظرة إلى الخلف فشاهدت مشهداً لعرباتنا على هيئة مروحة في تشكيل عجيب ومتعدد الأنواع، منتشراً ومتباعداً على مدى البصر. كان يوجد ناقلات الدبابات، وعربات مختلفة الأنواع، جرارات ساحبة المدافع المجرورة، وعربات ثقيلة مع المشاة، ووحدات آلية للمدافع المضادة للطائرات. وهكذا

تقدمنا نزمجر باتجاه العدو نحو سد المتاريس. نظرت محدقاً إلى الأمام، فرأيت مشهداً ساحراً، فأمامي مباشرة أرى العقيد آمر الكتيبة واقفاً منتصباً في عربته، وإلى يساره عن قرب عربة الرائد واقفاً باستخفاف.

انطلقت قذائف دبابات العدو تئز فوق رؤوسنا. المدافعون كانوا يطلقون النيران من مدافعهم من عيار خمسة وعشرين رطلاً ومن مدافعهم الصغيرة العيار 2 رطل المضادة للدروع. كنا ننطلق إلى الأمام بسرعة انتحارية.

شاهدت عربة آمر الكتيبة تترنح، ثم وقفت فجأة من جرّاء إصابة مباشرة. لقد كان لديّ وقت لملاحظة العقيد وهو يحاول أن يثبت نفسه. ثم استدار إلى الجانب وسقط من العربة مثل شجرة تهوي. فاندفعت سريعاً كالبرق إلى جانبه واستمر الرائد في تقدمه إلى الأمام.

لقد ميزت مواقع المشاة أمامي مباشرة، حيث شاهدت شخصاً طويلاً ونحيفاً يجري بسرعة على الأرض المكشوفة إلى الوراء وكأنه يتدفق من أنبوب. ثم سمعت أصوات انفجارات خلفي، أعقب ذلك وميض أمتد لمسافات بعيدة إلى الأمام، كم هو بطيء هذا في انطلاقه! وبعد ذلك سقط الرجل الطويل أرضاً. لقد وصلنا الآن تقريباً إلى الدبابات وشبكة المدافع المضادة للدبابات.

شعرت بشظية تخترق جسدي وتمتد إلى العمود الفقري. ثم شاهدت ثقوباً صغيرة في الزجاج الأمامي لسيارتي، كانت تبدو كأن

آلة مثقاب غير مرئية تقوم بثقبها في الزجاج. إنها نيران رشاشة آلية! . لاحظت أن سائقي بدأ يربض أسفل عجلة القيادة. وشاهدت عربة الرائد تترنح، ثم انقلبت على أحد جانبيها. فأصبحت الآن وحيداً في المقدمة وسط هذا الجحيم. وفي الجبهة، لا أشاهد أمامي شيئاً سوى قذائف المدفعية.

بعد ذلك، وفجأة بدأت سيارتي تترنج بكل عنف، ثم حدث دوي تبعه أصوات خافتة، وتوقفت العربة عن الحركة تماماً. شاهدت خندقاً أمامي مباشرة، فقفزت من العربة وغصت فيه، كما قفز سائقي أثناء قفزي من العربة ولكن قبل هبوطه على الأرض للانبطاح على وجهه، توقف عن الحركة وانتصب يدور ثم سقط مترنحاً. شققت طريقي وأنا أتلوى منبطحاً لأجد عزائي في الأم الرؤوم الأرض.

بدا لي بكل وضوح، أنني كنت في موقع متقدم مهجور من المدافعين عن سيدي رزق. رفعت رأسي بحذر شديد، أين تلك الحشود من الآليات التي كانت تضغط في الهجوم خلفي؟ لقد توقفت، يا إلهي. . . !، وماذا يفعل سائقي؟ هل لا زال على قيد الحياة؟، لقد اضطجع قريباً مني وفارق الحياة.

توقفت المروحة العظيمة من عرباتنا تماماً خلفي، مستقرة بلا حراك. اكتشفت فيما بعد، أن القوات قد ترددت واضطربت وتوقفوا تماماً عند مشاهدتهم ضباطهم يسقطون صرعى الواحد تلو الآخر أمام أنظارهم. ولكني شاهدت ملازماً شاباً لا يزال واقفاً على

قدميه، أخذ يجمعهم ويحثهم على الزحف للأمام، لقد كان هذا إنجازاً عظيماً حققه ذلك الشاب، بحيث منح وسام ريتر كروز.

لقد كنت مخطئاً عندما رفعت رأسي، إذ ظهرت للعدو بوضوح، فأمطروني بمجموعة من القذائف التي انطلقت نحوي فقط. ومع كل زخة من الشظايا المتطايرة من حولي ألتصق بالأرض بكل قواي. ولحسن الحظ كان ذلك الخندق عميقاً، ثم سمعت دويّاً أعقبه انفجارات، ميزت الصوت جيداً، وقد تكرر عدة مرات، إنها نيران مدافع الهاون!.

الآن تأكدت بأن مصيري قد حل. لقد جف فمي وشفتاي. فكرت في الوطن. إذاً، هذه هي النهاية في حفرة تعيسة وقذرة في أفريقيا، ولكن لماذا؟.

بدأت أفكر فلسفياً، هل يمكن أن يكون مصيري وقدري مختلفاً عن مصير غيري؟ مثل العقيد والرائد وحتى مصير سائقي، لكن الرائد في الحقيقة، كان قد جرح فقط وعاش وقد التقيت به بعد نهاية الحرب في إيطاليا.

عندئذ شعرت بضربة موجعة على ردفي، وفي نفس الوقت بدأت الرمال تنهال عليّ، حتى كادت أن تغمر رأسي، هنا عرفت بأنني قد أصبت. وعلى الفور ساورني شعور غريب بالسلام. ماذا يعني الموت بعد كل هذا؟. توقفت النيران الآن، وبقيت مضطجعاً ساكناً بدون حراك لبعض الوقت، لم تكن لدي فكرة عن مدتها. بعد ذلك بدأت الحركة بكل حذر فحركت رجلي أولاً ثم رجلي

الأخرى، وشعرت بألم في ساقي اليمنى ولكن كنت أستطيع تحريكها، وتأكدت بأن العمود الفقري والحوض ومفصل الورك وعظام الفخذ كانت سليمة. ولكنني كنت أعاني من جرح مهين في الردف فقط.

وماذا الآن؟ فهل ستتقدم قوات العدو وتعثر علي؟، لم أستطع تجنب التفكير بالحراب الأسترالية، ولكن هل أولئك الرجال الذين أمامي، هم أستراليون؟ أم بريطانيون؟ أم جنوب أفريقيين أم نيوزيلنديون؟ ولماذا لم تستمر قطعاتنا في التقدم على الأرض؟ وأين دباباتنا؟. لقد أعطتني دباباتنا الجواب، وبدأت أسمع أزيز القذائف تمر من فوقي، وكان مصدرها من المؤخرة. قذائفنا الآن ترد بتفوق على الرجال الذين يواجهوننا. المدافع المضادة للطائرات ترد على النيران سريعاً. وهدير أصوات دباباتنا يتصاعد بثبات وتقترب بوضوح. عندما اقترب الهدير، ترنحت واقفاً على قدمي. لقد سمعت جندياً يزأر: «هذا أحدهم». وكان يشير إليّ، لقد كان أحد جنود كتيبتي.

وبمزيج من الفضول والغضب والارتياح، ناديت عليه: «أنت يا غبي» تردد، ثم تعرف عليّ فانحرف نحوي مبتسماً وتقدم للأمام... تقدمت ببطء وأنا أعرج وتبعته. كانت الدبابات البريطانية تحترق وتوقفت رمايتها، وانسحب بعضها إلى الخلف، من خلال عربات لواء جنوب أفريقيا. فتابعت دباباتنا مطاردتها. لقد أصيبت بعض دباباتنا بقذائف مباشرة من مدفعية لواء جنوب أفريقيا، لكنها لم تتحطم أو تتوقف. وكنت أشاهد قذائف مدفعية العدو

تنفجر على دباباتنا دون أن تحدث أضراراً تذكر، وبعض القذائف كانت تنفجر بعيداً.

أدركت أن مدافع لواء جنوب أفريقيا غير جاهزة للعمل. فتلك المدافع لم تكن محصنة في حفر عميقة لحمايتها، وبعضها لا زال على عرباته الناقلة، والبعض الآخر لا زال يحفر مواقعه. إن الإصابات أخرجت هذه المدافع من العمل، ورغم هذا لا زال بعضها يشكل خطراً، إذا ما قاموا باحتلال مواقعهم بثبات لمقابلة هجومنا.

لقد عمت الفوضى مواقع لواء جنوب أفريقيا بالكامل، فقامت دباباتنا مع قوات المشاة باكتساح مواقعهم. حيث تم اكتساح مقر قيادة اللواء، وسقط آمر اللواء العميد أسيراً. بعد ذلك انتشرت دباباتنا على شكل مروحة، وشكلت رتلين رئيسيين لاكتساح وتطهير مشاة كتيبة بوثا، ورجال جنوب أفريقيا والإيرلنديين.

كانت مواقع ترانسفال ـ الاسكتلنديين، بعيدة إلى الشمال، وتم الاشتباك معهم فيما بعد. وقبل أن تنتهي المعركة هاجمنا الجنوب أفريقيين من جميع الجهات وجميع الزوايا في وقت واحد. لقد حدث ارتباك في مواقعهم، حتى إنهم لا يعرفون أين كانوا.

ومن بين الحطام الذي أمامنا، شاهدت دبابات تحترق وعربات ومدافع صامتة، وتلوح قطعات العدو رافعين أيديهم إلى أعلى في الهواء مستسلمين. وبعضهم يقف على أكداس الذخيرة الفارغة ببؤس. وبدأ رجال الإسعاف يقومون بمعالجة أعداد من الجرحى.

استدعيت أطباءنا وبقية مراتب الإسعاف لمساعدتهم. فتقدمت أعداد كبيرة من رجالنا للمساعدة. وإذ بضابط من ضباط جنوب أفريقيا يتذمر من نقص ضمادات الميدان، عند ذلك أشرت بكل وجوم إلى جرحي المهين في الردف. كان الدم ينزف بحرية من أعلى ساقي ويتخثر على بذلتي العسكرية، ثم أشرت إلى الضمادات التي تحف قبعتي التي ارتديتها عند دخولي إلى المعركة.

كما كنت قد أصبت في منتصف جسدي، عندما كنت مضطجعاً في الخندق. كان يوجد أربعة وعشرون ثقباً، بعض هذه الثقوب ملساء، وبعضها مثل الذي يصيب العجلات لخشونتها، وبعضه مزق جسدي. فنحن أيضاً بحاجة إلى ضمادات، ومخزوننا منها في الميدان لم يكن كافياً في هذا اليوم.

عند الغسق وحلول الظلام تم تضميد جراحي، وتحصلت على كوب من الشاي الساخن. لقد نمت تلك الليلة منبطحاً على وجهي داخل سيارتي، ومن حولي يضطجع الموتى والجرحى والأسرى. لقد هرب الكثير من أسرى جنوب أفريقيا في تلك الليلة تحت جنح الظلام. وأمضى الآخرون تلك الليلة يواجهون مغامرة يائسة سيراً على الأقدام في ميدان المعركة وتلك الصحراء المجهولة.

أخيراً، بزغ الفجر على تلك الفوضى في ميدان المعركة عند سيدي رزق. الدخان لا زال يتصاعد من الحطام، والقتلى في كل مكان وأعينهم تحدق في السماء نحو الشمس التي لن تشرق عليهم أبداً.

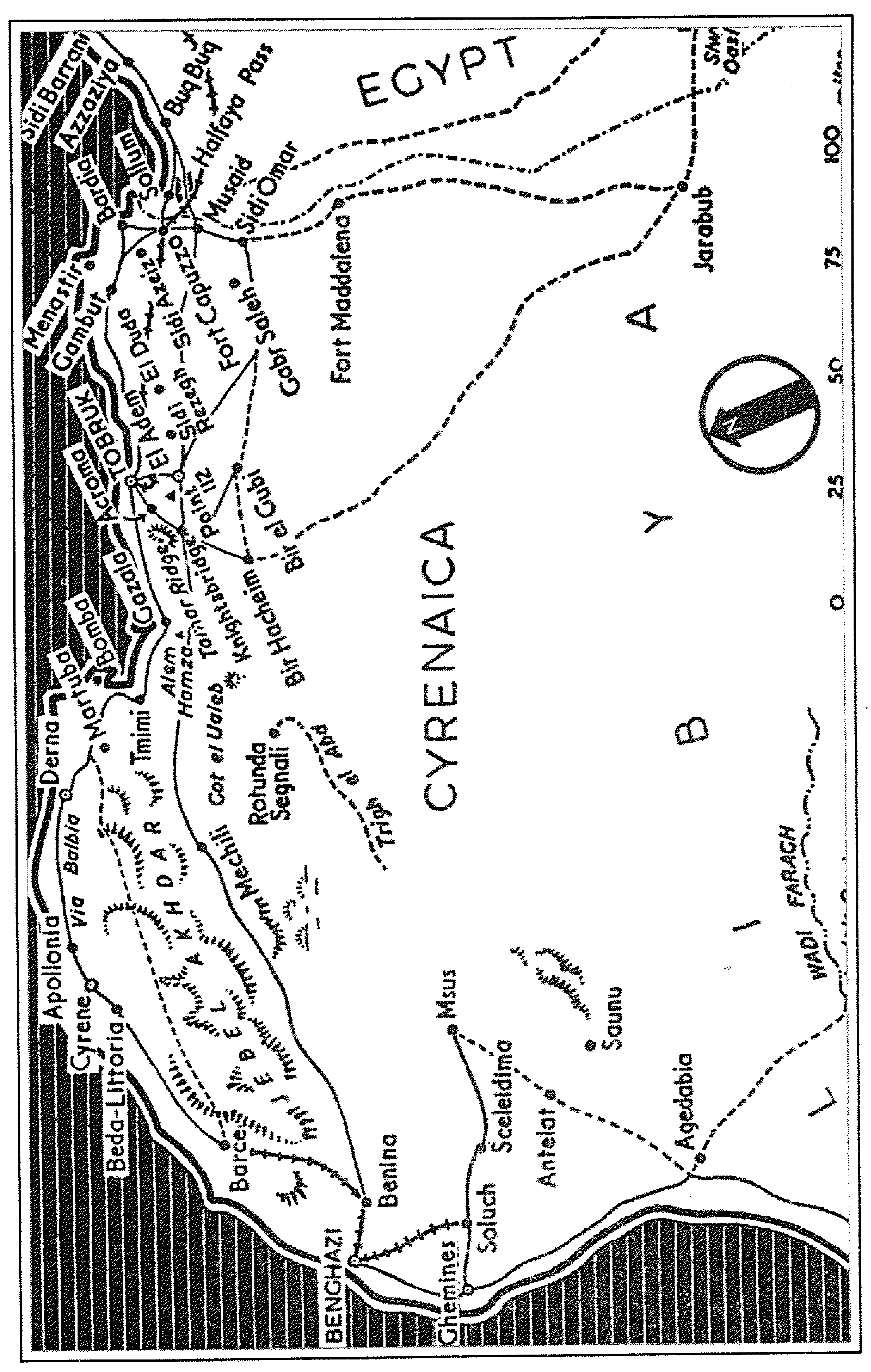
تم تشكيل الأسرى في طوابير، وبدأوا في المسير، ترافقهم بعض مفارز العربات من قطعاتنا. كنت أسير بجانب أحد الأرتال، في بداية رحلة طولها 6 أميال نحو الشمال.

بدأ رئيس عرفاء ألماني يصعب السيطرة عليه، يسمى تودت بالغناء بسخرية: «سوف ننشر غسيلنا على خط سيجفريد..». لقد حملق بعض الأسرى في مقدمة الرتل المتقدم في تودت، بدأ الرجال الذين خلف الرجل الشجاع الذي حملق بسخرية، بترديد الجملة أو المقطوعة. وفي ثوان معدودة، كان كل من في الرتل، يغني بحيوية: «سوف ننشر غسيلنا على خط سيجفريد..».

ماذا كان بإمكاننا أن نفعل؟. فبالنسبة لكثيرين من هؤلاء فإن الحرب قد انتهت.

صدرت إلينا أوامر جديدة. كان علينا أن ننطلق باتجاه الشرق في هذا الارتباك للمعركة المتذبذبة. نظرت إلى لوحة خريطتي ممعناً في العلامات، الحمراء والزرقاء الموقعة على الخريطة. هذا المكان الذي يضطجع فيه الأموات ويتكدس فيه حطام الآليات، يطلق عليه اسم سيدي رزق.

كم عدد المرات التي كنت أمر فيها بضريح المرابط بصحبة روميل؟. وكثيراً ما تناولنا إفطارنا أو غداءنا على مشارف هذا الضريح، وهو جزء من مبنى القبة البيضاء. لا يوجد شيء في سيدي رزق ما يثبت اسمه. لم نفكر أبداً أن هذا الاسم سيبقى في ذاكرتنا إلى الأبد. فهذا وفوق كل اعتبار كان سيدي رزق، لقد أصبح اسمه خالداً في الحقيقة إلى الأبد.



الخريطة رقم: 2 سيدي براني إلى أجدابيا

الفصل العشرون

الفوضى في الصحراء

بعد معركة سيدي رزق انطلقت كلمات روميل بسرعة: في مواجهتنا قوات دبابات أوكنلك القوية نسبياً.

لقد رفض روميل أن يبدد قوات دباباته الضعيفة، التي واصلت القتال، وقبل كل هذا علينا أن نتجنب الخسائر الكبيرة.

استنتج روميل أن الخسائر الكبيرة التي لحقت بالجيش الثامن في سيدي رزق ليس فقط اللواء الخامس الهندي، الذي تم اكتساحه، وإنما أيضاً، الدبابات البريطانية التي ضربت ضربة قوية وعنيفة، وأيضاً مجموعة المساندة السابعة، التي قاتلت قتالاً عنيفاً وشاقاً، والقطعات النيوزيلندية الماهرة التي أصبحت ضعيفة. لذا قرر روميل اللحظة الحاسمة لخلق تغيير في غليان (المرجل) باتجاه الحدود، وجنوب مواقع دفاعاته بين ممر حلفايا وسيدي عمر.

لا بد أن أذكر بأن روميل كان قد أدخل في ذهن القطعات

الألمانية حول ممر حلفايا، بأن كل نقطة قوية يمكن أن تكون ذات قيمة عالية لاحتواء أي هجوم، كقلعة يجب أن يتوافر فيها ميدان رماية في جميع الاتجاهات، وفي حالة تباعد القوات الآلية لبضعة أيام أو أسابيع، فيجب عليهم الثبات والصمود مهما كان الثمن وأن يضعوا في أذهانهم أن الفيلق الأفريقي، لا بد أن يعود لتحريرهم.

لقد أدرك روميل الخطر في حال نجاح كننجهام بالاتصال بحامية طبرق. فكان تصوره أن لا يعطي وقتاً للجيش الثامن بأن يستعيد قوته، لذلك كان عليه اتخاذ قرار فوري، خصوصاً ضد الدروع المنتشرة بين طبرق وجبهة السلوم.

من هنا أصدر أوامره بالغارة الرائعة إلى الشرق عبر الأسلاك الشائكة، التي كلف بها اللواء فون رافنشتاين وفرقته الحادية والعشرين بانزر لتنفيذها.

كان استطلاعنا الجوي يومها ضعيفاً، وكان استطلاع العدو جيداً. لقد كنا نجهل مواقع مستودعات العدو المتقدمة رقم 63 و65، اللذان يبعدان مسافة خمسة عشر ميلاً جنوب شرق قبر صالح.

انطلق فون رافنشتاين بطول طريق العبد وقطع باتجاه الحدود، حيثُ أربك مقر قيادة كننجهام، ثم واصل تقدمه إلى الشمال من هذه المعسكرات المجهولة، حيث أضاع فرصة عظيمة، فلو قام باكتساح هذه المعسكرات، فلربما، كان تغير مصير معركة

الصحراء. البريطانيون لا يستطيعون إدامة النيوزيلنديين أثناء قتالهم، ومعركة نوفمبر، كان النصر الأكبر فيها للنيوزيلنديين.

اندفع فون رافنشتاين نحو الحدود في يوم 24 نوفمبر، وكان هذا التاريخ يصادف اليوم التالي لانتصارنا الساحق على لواء جنوب أفريقيا في معركة سيدي رزق. أمّا روميل الذي اتخذ قاعدته (مقر قيادته) في البردى، فكان يقضي وقته دائماً في ميدان المعركة، وكان يعتقد أن الحركة المضادة داخل مصر يمكن أن تكون ناجحة، أو على أقل تقدير، سوف توقع الفوضى بالبريطانيين. في حال عدم تمكننا من استثمارها إلى أبعد حدود، فإن طابور فون رافنشتاين بكل تأكيد، سبب ذعراً كبيراً للعدو. وإن أحد طوابيره الذي اتجه جنوباً بطول الأسلاك الشائكة، قد أصاب مقر قيادة كننجهام المتقدم بالذعر، والطابور الآخر هاجم القوات الهندية عند سيدي عمر مرتين، وبدون نجاح كامل، سوى سقوط الكثير من الأسرى بين أيديهم، وبحلول يوم 25، أصبح فون رافنشتاين على مسافة تسعة عشر ميلاً داخل مصر، وعلى بعد حوالى خمسين ميلاً من رأس خط السكة الحديدية في الصحراء عند بئر حباطا.

كان لدى فون رافنشتاين وقود للاستمرار في التقدم إلى بعض المسافات الأبعد على الأقل، ولو كان روميل في مقره، فإنني أعتقد أنه سيقوم بالاستمرار في الاندفاع إلى أبعد من ذلك، ولكن لنعد إلى البردى، حيث المقدم ويستفال رئيس عمليات روميل لمجموعة البانزر كان يدرس الخرائط البريطانية التي تم الاستيلاء عليها، مع

تقارير عن قوات البريطانيين، حيث قرر: أن التعرض (الهجوم) المضاد غير ذي جدوى، وكان استنتاجه أن القوات البريطانية أقوى بكثير مما يظن، وخصوصاً مع الفرقة الثانية جنوب أفريقيا التي تتمركز شرق خط ممر حلفايا والتي وصلت حديثاً، وهي في الانتظار.

لقد أحس أننا لا يمكن مواجهتهم بقواتنا في معركة مشوشة، وفي حالة ضعف عام، ووفقاً لحساباته، أبرق لاسلكياً إلى فون رافنشتاين مبكراً من صبح يوم 26: «ارجع إلى الخلف».

شقت الفرقة الحادية والعشرون بانزر طريقها بالقوة من خلال الفرقة الرابعة الهندية، بهجوم خداعي نحو كابوتسو وامساعد في طريقها إلى البردى، حيث تقدمت من خلال الثغرة التي أهملها النيوزيلنديين المتواجدين قرب معسكرات السلوم لتتمركز في تحصيناتنا حول البردى.

عندما رجع روميل[1] من جبهة القتال، وانتهز وقتاً للنوم في عربته الماموث، قام فون رافنشتاين بالإبراق له شخصياً وأبلغه بكل اعتداد بالنفس بعودته بأمان. صدم روميل وأصابه الذهول

(1) لقد أخبرنا اللواء ويستفال في أثناء إلقائه محاضرة على بعض الضباط في عام 1972 في الكلية الحربية بمدينة بنغازي وكنت موجوداً: «لقد رجع روميل في الليل وكان غاضباً، حيث اعتقد أن أمر الانسحاب خدعة بريطانية». ولمّا أخبره ويستفال بأنه هو الذي أمر بذلك. غضب روميل ووبخه. ثم ذهب إلى عربته للنوم. وفي الصباح بعد اطلاعه على خارطة العمليات، شكر ويستفال. (المراجع).

والاندهاش والغضب، وصاح: «لماذا أنت هنا؟ لقد أمرتك أن تحتل موقعاً، للهجوم إلى الشرق داخل مصر!..». أخبره فون رافنشتاين أن إشارة لاسلكية أمرته بالعودة من خلال الأسلاك الشائكة في الحدود، أجاب روميل بكل خشونة: «بأن الرسالة مزيفة، وتم إرسالها من قبل البريطانيين، بمساعدة كتاب الشفرة الخاص بالفيلق الأفريقي، الذي ربما قد سقط بين أيديهم».

اقتنع روميل بأن ويستفال، هو الذي أرسل الرسالة، وفيما بعد، اقتنع بأن رئيس عملياته قد قام بإجراءات صحيحة على ضوء معلوماته المنظمة، والتي كان روميل بعيداً عنها مع الأرتال المتحركة التي لم يستلمها وقد شكلت مجموعة قتال، وذلك لمتابعة خطة روميل، بالإضافة إليّ شخصياً ـ المؤلف ـ حيث كان على الفرقة الخامسة عشر بانزر أن تقوم بحركة سريعة من منطقة سيدي رزق، ومنه تتجه جنوب كمبوت، ثم شرقاً باتجاه البردى.

لا زلت أذكر كيف كانت سريتي في سيدي عزيز، عندما اصطدمنا بقوة مع النيوزيلنديين في يوم 27 حيث تم أسر مقر قيادة اللواء الخامس النيوزيلندي، وقد لاحظت أعداداً كبيرة من الدبابات والعربات المتقنة، التي بها رافعات وبكرات ترافق بعض العربات، وكانت تبدو غنيمة قيمة، فقمنا بمطاردتهم بوحدة آلية صغيرة يرافقها مدفع خفيف محمول على جرار.

لقد تخلى سائقو دبابات النجدة الضعيفة عن عرباتهم عندما كنا على وشك الوصول إليهم، انبطحوا في المنحنيات الأرضية

القريبة منهم ثم بدأوا في إطلاق النيران باتجاهنا، قمنا بمطاردتهم بقوة صغيرة آلية، بعد ذلك استولينا على معدات جيدة، ثم رجعنا والتحقنا بالقسم الرئيسي لطوابيرنا.

توقفنا وقفة قصيرة في البردى، وبعد حوالى ساعة انتهزت المناسبة بزيارة قصيرة إلى مستشفى الميدان لتنظيف وتطهير جراحي وتغيير الضمادات، وللحصول على حقن ضد مرض الكزاز (مرض تشنج العضلات) وبعد ساعتين التحقت بوحدتي.

كان الملازم أول فيشسل، الذي استلم قيادة الكتيبة بعد إصابة آمر الكتيبة بجراح، وخروجه من المعركة في منطقة سيدي رزق، قد أمرني أن تكون سريتي في مؤخرة الكتيبة، فأسرعنا حتى وصلنا إلى الأسلاك جنوب منطقة الجانب الليبي من الحدود، حيث تجاوزنا كابوتسو، ضد الهجوم التضليلي الذي بدأ، ثم إلى سيدي عمر باتجاه مادالينا، كنا غالباً ما نتعرض لنيران العدو من جهة اليسار وأحياناً من جهة اليمين. فجأة صرخت بصوت عال: «دبابات في مؤخرتنا» وتقدمت بسرعة إلى الطابور لأقدم تقريراً إلى فيشسل، لقد سمعني وأجابني على طريقة روميل بإيجاز: «أطلق النيران». رجعت مسرعاً مع رجالي، وأصدرت أمراً إلى الضابط المرؤوس الذي كان بعدي في الأقدمية لتولي قيادة السرية، ثم أمرت وحدة من ثلاثة مدافع مضادة للدبابات بأن ينفصلوا عن السرية.

اندفع الرتل في حركته، ولم تمر دقائق حتى لاحظنا غباراً

كثيفاً مرتفعاً في الأفق على بعد مسافة عنا، قمنا بتجهيز مدافعنا، إنها في الحقيقة دبابات بريطانية، من نوع العلامة 2 كانت تنتشر حول مؤخرة أنساقنا، تقدمت اثنتا عشرة دبابة في مدى مدافعنا، قمنا بالتسديد عليها وأصدرت أمراً بالرماية في وقت واحد، فانطلقت قذائف ثلاثة مدافع تزمجر باتجاههم، تحية لهم.

انفجرت الدبابة القائدة واشتعلت فيها النيران ثم توقفت عن الحركة، أما بقية الدبابات فأبطأت سرعتها وانتشرت على منطقة واسعة. كنا نراقب العدو حين وجهوا رشاشاتهم الآلية باتجاهنا، وانطلقت القذائف نحونا وفي محيطنا حيث انبطحنا أرضاً خلف مدافعنا، لقد مرت إحدى الإطلاقات من فوق كتفي، وبدا لي أن الدبابات في الجناحين ستتقدم نحونا، مثل قرون (خيالات الزولو) عندئذ استنتجت أن الحالة غير جيدة.

ألقيت نظرة خاطفة إلى الوراء مفكراً، هل الانسحاب ممكن وسط هذه النيران؟. ومما زاد في رعبي هو رؤيتي لدبابتين من نوع العلامة 2 تتحركان باتجاهنا.

فجأة تنفست الصعداء، إذ رأيت علامة الصليب المعقوف مرسومة عليها، لقد كانت هذه دبابات بريطانية تم أسرها في ممر حلفايا أثناء معركة الفأس قبل عدة أشهر. ثم سمعت هدير الدبابات على يميني مباشرة، تبادلنا كلمات قليلة مع رئيس العرفاء آمر الدبابات، حيث صاح: «سيدي الملازم، انطلق عائداً إلى الرتل مع مدافعك. سأقوم بتغطيتك».

أوقفت دبابات العدو نيرانها، وظننت أنهم قد ارتبكوا، عند مشاهدتهم للدبابات في مؤخرتنا، اعتقدوا بأننا وقعنا في الأسر. وقبل أن يفكروا في الأمر ويكتشفوا حقيقة الموقف، حركت مدافعي وواصلنا الحركة مسرعين للالتحاق بأرتالنا يرافقنا رئيس العرفاء بدبابتيه الاثنتين من خلفنا لتغطية انسحابنا، استغرق اللحاق برتلنا ساعة كاملة، ووصلنا عند حلول المساء. استدعيت مجموعة قتالنا للقيام بمهمة الإغارة على مادالينا، والتصدي وأسر مقر قيادة الجيش الثامن. ثم ألغي القرار دون أن أعلم سبباً لذلك، لماذا؟ حيث إنه من الواضح الآن أنه لا يوجد صعوبة في اكتساح مقر قيادة كننجهام التي كانت في الغالب غير محمية. ولكن يبدو من الواضح أن روميل قد قرر الآن استرداد المواقع حول سيدي رزق.

في هذا الوقت لم تكن دباباتنا عند سيدي رزق والبردى، موجودة للمقاومة. فقام النيوزيلنديون بترك لواء عند سيدي عزيز، وشقوا طريقهم قتالاً شرقاً باتجاه سيدي رزق ومنطقة بالحامض وأعادوا احتلال سيدي رزق في ليلة 25. في اليوم التالي قامت حامية طبرق بهجوم ناجح من خلال القطعات الإيطالية المحاصرة لطبرق، فتمكنت في يوم 27 من الاتصال بالنيوزيلنديين. خلال هذا الوقت قام اللواء الهندي الأول بقيادة بينار بالثبات خلف ستارة من مدافع 25 رطل في منطقة (طيب الاسم) حيث تصدى وأوقف فرقة آريتي وقسم من دباباتنا.

أصدر روميل أوامره لاسلكياً في يوم 27 من البردى إلى جميع

تشكيلاته للعودة من مهامهم في الحدود. وقد خطط لحشد كل دباباته لتوجيه ضربة إلى الفيلق الثالث عشر المنتشر في المنطقة الواقعة من البردى حتى طبرق. تمكنت الفرقة السابعة المدرعة من تعويض خسائرها، وتم حشدها ثانية بقوة 120 دبابة عاملة.

وقد حاولت عدة مرات بعد ظهر ذلك اليوم التصدي لفرقة فون رافنشتاين وطردها، لكنهم خسروا كثيراً من الدبابات أكثر من خسائرنا.

على أي حال، لقد كسب البريطانيون وحققوا نجاحاً كبيراً، عندما تقدم فون رافنشتاين بالخطأ باتجاه فرقة فرايبرغ النيوزيلندية وسقط أسيراً، وكان أول قائد عسكري ألماني كبير، يسقط في الأسر خلال هذه الحرب. كما سقط في الأسر أيضاً في هذا اليوم الرائد فوسفيلد، أحد ضباط أركان الفيلق الأفريقي كما خسرنا حوالى 600 جندي. لقد شاهدت وتحدثت مع فون رافنشتاين قرب سيدي عزيز قبل ساعتين فقط من وقوعه في الأسر. وعندما سقط بين أيدي العدو، قرر أن يسمي نفسه العقيد شميدت، على أمل أن لا يتعرفوا على هويته وعلامات رتبته. ولكن، عندما أخذ إلى اللواء فرايبرغ، قام ذاتياً بتقديم نفسه: «فون رافنشتاين أيها اللواء!».

كان لدى فون رافنشتاين خريطة بترتيب ومواقع تشكيلاتنا كلها فسقطت بين أيدي العدو. مكث رافنشتاين في الأسر حتى عام 1948، وهو يعيش الآن في مدينة آيسرلوهن حيث قابلته لأول مرة، عندما كنت في مرحلة التدريب العسكري القتالي.

كنت انفصَلتُ لقيادة حرس المؤخرة، الذي شكل من سريتين خلال هذا اليوم. وكانت تزعجنا باستمرار نيرانِ دبابات وعربات الاستطلاع التي تتعقب أرتال دباباتنا، وخلفها مباشرة إلى حيث نتحرك. كانت معركة الصحراء بالنسبة لي تحركات غريبةً وقتالاً عكسياً، لقد كان علينا أن نشق طريقنا قتالاً إلى الأمام باتجاه واحد، وكنت دائماً أنظر إلى الخلف وأتوقف للقتال، ثم التحرك بالاتجاه الخلفي مرة ثانية. ولا يمكن غالباً التمكنُ من المواجهة الحادة، حيث إن العدو كان يضرب من حولنا ومن أقصى الجنوب.

إن السرايا التي تحت قيادتي، تقوم كل منها بقفزة الضفدعة. إحدى السرايا تقف للقتال، والأخرى تتراجع، ثم تتوقف للرماية لحين مرور السرية الأخرى من خلالها. وكانت تنتشر في الصحراء طوابير صغيرة آلية للعدو تسمى (طوابير جوك)، كانت تقوم بإزعاجنا مثل البعوض، وقد تمكنت من توجيه ضربات موجعة. لم يتمكنوا من استعادة قوتهم أو تعويض خسائرهم. وبعد كل ما تكبدناه من خسائر، لا زال روميل يعتقد بأن خسائر العدو كانت أكثر فداحة من خسائرنا.

حشد روميل تشكيلاته يوم 2 ديسمبر باتجاه منطقة سيدي رزق. وأصبحت الأيام التالية غامضة وكان كلا الطرفين يسترد أنفاسه ويقوم بحركات محلية وقريبة. لا زلت أذكر، خاصة، عمليات حرس المؤخرة التي كنت أقودها من البردى إلى منطقة الدودة، حيث انقضت علينا وهاجمتنا قوات قوية من الدبابات التي

تعقبتنا بقوة، ولم تمكنا من الوقت الكافي لاتخاذ مواقعنا الدفاعية المعتادة ولم نستعد أنفاسنا إلا بعد أن قامت مدفعيتنا بدعم غير متوقع من أحد مواقعنا الدفاعية جنوب منطقة الدودة. لقد كان العدو يقصفنا قصفاً ثقيلاً طيلة هذا اليوم.

حاولنا عبثاً في اليوم التالي، التغلب على المقاومة العنيدة للمواقع الدفاعية البريطانية في منطقة الدودة نفسها، حيث قامت دبابات العدو بعدة هجمات مضادة جريئة وشجاعة من الدودة، فحققت إنجازاً ونجاحاً هامين. هنا قرر روميل أخيراً: أنه لا يستطيع دفع الجيش الثامن إلى الوراء بالقوة. لقد امتدت جبهتنا من جنوب منطقة العدم في الشمال، وبعيداً إلى بئر الغبي.

وجدت وقتاً لزيارة المستشفى الميداني في العدم، للحصول على حقنة ضد الكزاز لجرحي الذي لم يندمل. وفي خارج المستشفى اتجهت نحو فريهر فون نوراث، ابن البارون فون نوراث وزير الخارجية الألماني السابق. كان فون نوراث ممثلاً للقنصل الألماني في طرابلس، ثم قدم إلى الصحراء حيث تحصل على رتبة شبه عسكرية بمهمة خاصة. بالطبع لم أتمكن من معرفة هدف مهمته في الصحراء، ولكني افترضت بأنه مكلف ببعض الواجبات المدنية، مثل احتلالنا للمدن الذي يحتلها العدو.

لقد شاهدنا الآن الفرقة الثانية جنوب أفريقيا، التي لم تدخل المعركة من قبل، كانت تتحرك باتجاه الغرب.

إن مناوشة الكلاب (المعارك القصيرة والمتداخلة) حول سيدي رزق كانت معقدة، بحيث لا يمكن شرحها هنا، ولكنها انتهت بانتصار الجيش الثامن الذي هو الآن في القمة. وبعد تلك المعركة العنيفة أصدر روميل أوامره بانسحاب عام.

الفصل الحادي والعشرون

حرس المؤخرة

بحلول يوم 12 ديسمبر تمكن روميل من الانسحاب، بجهد عمليات حرس المؤخرة، إلى خط يمتد إلى الجنوب الغربي من عين الغزالة، كما جاء في التقرير الرسمي البريطاني فيما بعد.

وبالطبع، لقد اكتسبت تدريباً خاصاً في عمل حرس المؤخرة في تلك الأيام، وبالقرب من مرتفعات عين الغزالة، استلمت أوامر بالثبات في خط دفاعي طويل مواجه للشرق، بقوة سريتين ومدفعين بعيدَي المدى من عيار 210مم. استطلعت المواقع باستعجال وتمركزت في نقاط متنوعة، ثم ركزت مقر قيادتي في الجناح الأيمن، حيث استنتجت بأنه الأكثر تعرضاً للهجوم.

اقتربت أولى الدبابات إلى الأمام عند منتصف النهار. كانت تتقدم بعيداً منا وإلى الجنوب من مواقعنا، عند (تبة التمار). بدأت مدفعيتنا بعيدة المدى بإطلاق النار، لكن الدبابات استمرت في

التقدم، ثم استدارت إلى الشمال بدون عرقلة واندفعت باتجاه جناحنا. في نفس الوقت، انتشرت حوالى ثلاثين إلى أربعين دبابة وتقدمت باتجاهنا ونحو الجبهة. قمنا بالانبطاح في خنادقنا وخلف المدافع المضادة للدبابات الجيدة التمويه.

استمرينا في الانتظار وعدم الرماية، لحين اقتربت إلى مدى قصير نسبياً، ثم أطلقنا نيران مدافعنا. فاشتعلت النيران في دبابتين وارتفع اللهب منهما فجأة. تمهلت بعض الدبابات، ومع وميض مدافعنا البعيدة المدى، تراجع البريطانيون وانسحبوا بعيداً عن مدى تأثير نيران رمايتنا. ومن بعيد كان باستطاعتنا مشاهدة مئات من عربات الجيش الثامن تتقدم باتجاه الغرب. عند الليل استلمت أوامر بإرسال المدافع البعيدة المدى لتلحق بالقسم الأكبر من قواتنا. ويجب علينا عدم الانسحاب من مواقعنا لحين إرسال تعليمات أخرى.

انتظرت الأوامر خلال ليلة الشتاء الطويلة، فكان انتظارنا عقيماً. كان من الواضح لنا عدم استطاعتنا الانسحاب في ضوء النهار، كما أنني عاهدت نفسي على الوقوف إلى اللحظة الأخيرة. ثم وصلتنا الأوامر بالانسحاب بواسطة الجهاز اللاسلكي قبل الفجر مباشرة.

قمت بإصدار التعليمات بواسطة الجهاز المحمول، إلى سريتي المتمركزة في القاطع الشمالي تحت قيادة الملازم كلينك، ولكنني لم أتلق رداً على نداءاتي. فقمت بخشونة بإرسال رسالة مع

ساعٍ للاتصال بهم، لكن هذا الرجل لم أشاهده مرة أخرى، وكان ملاذي الأخير، إطلاق إشارات ضوئية، على أمل أن يشاهدها كلينك ويتعرف على دلالتها. ثم بدأنا في الانسحاب التدريجي وبهدوء باتجاه الغرب.

لقد عرف كلينك معنى الإشارات الضوئية، فبعد مرور ثمانية أيام التحقت بنا السرية وانضمت إلينا بعد مغامرات شق فيها طريقه خلال الجبل الأخضر، بينما كنا نحن نتقدم عبر الصحراء. قمنا بانسحاب اضطراري بسرعة عاصفة، وتقدمنا مسافات كبيرة بنجاح عند شروق الشمس في ذلك الشتاء القارس.

في ضوء النهار، بدا أن رتلنا المنسحب هو العلامة الوحيدة على الحياة التي تشاهد على أرض الصحراء. فجأة شاهدنا أسراباً من طائرات السلاح الجوي الملكي البريطاني تطير باتجاهنا. كانت الأسراب تتكون من ستين طائرة. نحن نمر بأوقات عصيبة في هذا الموقف الذي يدعو لليأس، وبكل هدوء أصدرت أوامري إلى الطابور بأن يطلق النيران بكل ما يملك من قوة المفاجأة، وإذ الطائرات قد ردت بإشارات ضوئية، وهي علامة التمييز والتعارف. لقد استحسنا ذلك معبرين لهم عن شكرنا، وأوقفنا إطلاق النيران.

هذا الحدث الذي يعتبر غير اعتيادي، يمكن تفسيره باستنتاج واحد: لقد اعتقد الطيارون أننا رأس الحربة في سباق الجيش الثامن إلى الغرب، لوجود أعداد كبيرة من عربات أرتالنا بريطانية الصنع، سبق الحصول عليها كغنائم، ومطلية بطلاء بني مثل لون الرمال.

في اليوم التالي، التحقنا بالقسم الأكبر لقواتنا مبكراً، والحقيقة أن تقدمنا كان تحت رحمة الغارات الجوية. كانت تشكيلات قوية من طائرات السلاح الجوي الملكي تقصفنا بقنابلها. اندفعت من عربتي إلى حفرة طلباً للحماية. وبعد انتهاء الغارة، وجدت حجرة السائق لعربتي مصابة، فناديت على سائقي الجندي أول شميدت، ولكنه لم يرد على ندائي، وقام جندي بهز ذراعي مشيراً بيده إلى أسفل العربة، حيث شاهدت جثته ملقاة هناك. لقد كان يتحدث معي منذ دقائق عن زوجته وعائلته، وعن إجازته التي ينتظرها بفارغ الصبر. إن لقاءهم لن يحدث أبداً.

كان عدد من جنودي يصرخون من الألم. أحدهم قريب من الآخر وهم يتلوون من الألم. بعضهم فقد يديه وآخر فقد رجليه، رأيت الطبيب بجانبهم منحنياً عليهم. كان أحدهم شاحب الوجه يحاول بشق النفس الابتسام ليسأل: «. . هل يمكن لي أن أواصل مهنتي كممثل، يا دكتور؟». وأجابه الطبيب: «نعم، بالطبع، أيها الفتى الكبير». أعطاه حقنة مورفين، عندها فارق الحياة وكان الموت رحمة له.

الحرب تستمر، وعلينا أن نواصل العمل والتكيف معها. لقد تحصلنا على وقت بصعوبة لدفن قتلانا، ودبابات العدو تواصل زحفها في أعقابنا. وجيش روميل بأكمله يتجه غرباً نحو الشمس الغاربة.

الفصل الثاني والعشرون

العودة إلى العقيلة

عدنا إلى مدينة بنغازي، حيث كانت النيران تلتهم مخازن التموين التابعة لجيشنا. توقفت بعض عرباتنا وبدأ الرجال باختيار وأخذ ما يمكن نقله من تلك المؤن لتخزينه لاحتياجات سريتنا. وصلنا إلى شاحنة يوجد فيها ما لم نحلم به من معلبات الفواكه الإيطالية اللذيذة، وخيار مدينة سبريفالد ـ مدينة تقع غرب برلين ـ وجعة، والسجاير، وأنواع من الشيكولاتة. كل ما لم تقع عليه أعيننا من المأكولات الشهية خلال الأشهر الماضية.

على طول طريق العودة إلى مدينة بنغازي كان الفيلق الأفريقي تحت رحمة نيران القناصة من مجموعات عربية. لقد كنا ـ نحن جميعاً ـ في اليوم السابق لعيد الميلاد، قد دخلنا في مناوشات مع قوات جنوب أفريقيا ومدرعات بريطانية، وخلال انسحابنا تمكنا من أسر ضابط بريطاني شاب مع ثلاثة من الرتب الأخرى، كان أسرهم

نتيجة لجرأتهم وتقدمهم بعيداً إلى الأمام. إن ذلك الضابط الشاب كان يبدو لطيفاً ومتحفظاً جداً. وهذا شيء طبيعي لأي إنسان في مثل ظروفه، وأثناء استجوابي له، لم أسأله أكثر من إثبات هويته فقط.

في تلك الليلة، وهي عشية عيد الميلاد، قدمت لكل واحد من أولئك الأسرى الإنجليز، زجاجة جعة، وشكولاته وسجائر، عندها جاءت إجابة الضابط الإنجليزي: «حقيقة، أنتم تتلقون طعام عيد الميلاد بكل سخاء».

لم أخبره حقيقة الأمر، بأن هذا الترف، هو كل ما أنقذناه من ألسنة النيران التي كانت تلتهم مخازن التموين والعدو يتعقبنا.

بعدها سألني الضابط البريطاني الشاب بالسماح له لينام في الهواء الطلق مع رجاله، ثم أضاف قائلاً: «إنني أعطيك كلمة شرف، بأنني سوف لن أحاول الهروب». فأجبته: «أنا أعتقد بكل يقين بأنك سوف تحافظ على وعدك، وإنني أوافق على ذلك، ولكن التعليمات تفرض عليّ ضرورة تسليمكم إلى مقر الفرقة بدون أي تأخير». ألح الضابط الأسير ثانية، قائلاً: بأنه أعطى كلمته كضابط وكسيد. بدأت أفكر، وأعرف بأن قيادة الفرقة لم تعلم بأننا قد تحصلنا على أسرى. وبدأ يساورني شعور بالارتياح والابتهاج في عشية عيد الميلاد، مع قليل من تأنيب الضمير، فوافقت على طلبه وقررت أن أحقق رغبته.

في صباح يوم عيد الميلاد، خرجت من بين الأغطية

(البطاطين) ومن داخل عربتي التي كنت أنام فيها، وإذ بالبريطانيين الثلاثة من الرتب الأخرى، يتقدمون بكل نشاط وحيوية في صف واستعدوا أمام ضابطهم. عندها أدى ذلك الضابط التحية العسكرية بكل حيوية وجد وقدم لي تقريره: «الجميع حاضرون وبالتمام». عندما حان وقت تسليم أسرانا إلى قيادة الفرقة، شعرت بالحزن والأسى لهؤلاء الرجال الجديرين بالاحترام.

دخل البريطانيون بنغازي للمرة الثانية في يوم عيد الميلاد. انطلقنا في الانسحاب باتجاه الجنوب، في طريق العودة إلى المنطقة الواقعة بين مستنقعات العقيلة والبحر. الفيلق الأفريقي في هذا الوقت كان قوة مضروبة، ولكنه ليس متشائماً. فلم ألاحظ أي علامة تدل على انخفاض المعنويات من خلال قطعاتنا حرس المؤخرة.

كنا أثناء الانسحاب نتوقف عن الحركة ونقاتل كلما وصلنا إلى أراض مرتفعة، وقامت قوات خفيفة من دبابات العدو، التي اتضح أنها من قوة اللواء الثاني والعشرين المدرع. تندفع نحو مواقعنا وتجبرنا على الانسحاب من مواقعنا عدة مرات. لقد أصدر قائد الفيلق الأفريقي أوامر بالاقتصاد في الذخائر، مع تجنب المواجهة مع العدو قدر المستطاع في يوم عيد الميلاد. إن تجنب المواجهة وهذا الأمر، ليس لأسباب إنسانية وعاطفية، ولكن ببساطة، للنقص الشديد في الذخيرة.

لكن الضباط والرجال في الخطوط الأمامية من الجبهة،

شعروا بأن عليهم أن يقوموا بعمل ما للاحتفال بالعام الجديد. تم إعداد الخطط في سرية، دون أن تصل إلى سمع القادة الأعلى رتبة. عند حلول منتصف الليل للعام الجديد، بدأت كل المواقع الممتدة عبر مسافات الصحراء، وعلى مدى البصر بالمشاركة في عرض من الدرجة الأولى، إطلاق نيران المدافع المضادة للطائرات الخفيفة، ثم تبعتها الرشاشات، لقد استخدموا كل ما يفيد، مسدسات التنوير أطلقت الألوان الخضراء والحمراء وشعلات بيضاء، كما أطلق عدد قليل من القنابل اليدوية التي أطلقت بشكل جيد ومستقيم، وحتى المدافع انطلقت قذائفها إلى السماء، أو إلى مسافات بعيدة في الصحراء. ضجيج الانفجارات كان رهيباً، فقد أضيئت وتوهجت الأنوار لعدة أميال في هذه الصحراء المهجورة.

أخيراً، وبعد ثلاث دقائق تماماً، خيم السكون والظلام على الصحراء مرة ثانية، كنا جميعاً مبتهجين مثل تلاميذ المدارس، الذين يتهربون من واجباتهم. بعد قليل شاهدنا من خلال الظلام شبكة من الدبابات المعادية، وهي ترد بدورها، بشعلات صفراء انطلقت ابتهاجاً بالعام الجديد.

بعد هذا الاحتفال الرائع، لم توجه إلينا، ولو كلمة واحدة من روميل وقادته في الخطوط الأمامية.

بعد أيام قليلة، انطوت مرحلة واحدة من معركة الصحراء. لقد رجعنا إلى العقيلة التي كانت نقطة البداية، قبل ثمانية أشهر مضت تقريباً، في عملية كانت غير متوقعة. خلال هذه الأشهر

دارت معارك طاحنة ومتواصلة بدون رحمة، وقد تكبدت تشكيلاتنا خسائر فادحة في الرجال والمعدات التي أنهكت أو دمرت، أما قطعات العدو فكانت تبدو أحسن حالاً منا، فهم يتقدمون نحو طرابلس، ولكنهم لم يستطيعوا أن يشقوا طريقهم من خلال قواتنا.

كانت الأمور غير واضحة، خلال الأسابيع الأولى من معركة الصليبي. كان يمكن لروميل أن يربح المعركة وتكون له اليد الطولى حسب اعتقادي، لو تحصل على مساندة ودعم جوي قوي، ومزيد من الاستطلاع الجوي المركّز. في نفس الوقت، تحصل أوكنلك على الأقل، على انتصار معنوي ومادي أضافه إلى رصيده بعد انتكاسته في سيدي رزق. قام أوكنلك بالضغط وصعد من هجومه بجرأة وجسارة، ثم سلم القيادة إلى اللواء ريتشي، وأمره بأن يستأنف هجومه المضاد بكل قوته.

جبهة روميل في السلوم لا تزال صامدة، وحسب تأكيد روميل لنا، فإنه لا يزال يفكر بالقيام بهجوم مضاد في أول فرصة سانحة. كان في تلك الأيام يعمل جاهداً وبكل سرعة لتعويض القوة الكاملة لتشكيلاته، وتعزيزها بالرجال والإمدادات والمعدات التي وصلت حديثاً، واندفعت عبر طرابلس.

كان الفريق أوكنلك مشغولاً بتصفية الحدود حيث المواقع الألمانية لا تزال صامدة، فوجه انتباهه نحو البردى السلوم. كانت مهمة العميد أي. بي. دي فيلليرز، قائد لواء المشاة الثاني الهندي،

في بداية هجوم معركة الصليبي، هو حماية مؤخرة الجيش الثامن ضد احتمال أي هجوم وحركة تطويق، قد يقوم بها روميل الذي كان متواجداً في الجبهة عند البردى ومنطقة كابوتسو وسيدي عمر. في يوم 31 ديسمبر وبعد دعم مدفعي ثقيل، أطلق دي فيلليرز هجوماً على البردى، الذي انتهت فيه المعركة بعد يومين من القتال الشديد باستسلام العميد شميدت، قائد الوحدات في البردى.

ويبدو من الواضح، أنه لم يبق أمامنا الكثير من الوقت لإنقاذ حامياتنا المطوقة في حلفايا، وبعد فترة وجيزة، اتضح لنا بأنه لا يمكن القيام بهجوم مضاد لاسترداد برقة والاتصال بحامياتنا هناك. وبعد هجوم قامت به كتيبة الاسكتلنديين ترانسفال وبعض وحدات فرقة جنوب أفريقيا، سقطت السلوم بيد فيلليرز في يوم 12 يناير. وأصبح الهجوم الذي يحضر ضد مواقع الحلفايا غير ضروري، فقد أجبرت الحامية على الاستسلام بتاريخ 17 يناير، حيث كان المدافعون من الإيطاليين ومفرزة قوية من الألمان، تحت قيادة صديقنا القديم القسيس الرائد باخ، بدون مياه وتموين.

لا يزال الفيلق الأفريقي على بعد ثلاثمائة ميل إلى الغرب، وكان ثعلب الصحراء يستعد لإنزال ضربته. وخلال ذلك الانسحاب الطويل، كان إيمانه ثابتاً ومعنوياته جيدةً وتفاؤله ازداد بوصول إمدادات جديدة إلى طرابلس. ومن الآن فصاعداً، كان روميل في طريقه لكي يصبح أسطورة.

علمت استخباراتنا في هذا الوقت، أن مجموعة المساندة

السابعة[1]، الخبيرة في حرب الصحراء من قوات أوكنلك، التي قاتلت قتالاً جيداً في معركة الصليبي، كان عليها أن تعيد تنظيمها. فاستبدلت بالفرقة الأولى المدرعة (مجموعة الإسناد) التي تنقصها الخبرة في حرب الصحراء.

في هذا الوقت قرر روميل القيام بهجوم مضاد، والقيام بضربته في أقرب وقت ممكن بعد استعادة قوته. نحن الآن على أهبة الاستعداد، وفي يوم 21 يناير، أعطى روميل كلمته.. وأوامره بالانطلاق.

وعلى ما يبدو، فإن البريطانيين اعتقدوا بأننا نقوم باستطلاع بالقوة فقط، حسب البلاغ الرسمي الذي وصفوا به تقدمنا بهذه الكلمات: قام استطلاعنا الجوي بالكشف لنا عن وجود حشود من دبابات العدو في منطقة مسوس، التي اعتقدنا أنها دبابات تحت الصيانة والإصلاح، كان علينا أن نقوم بضربها.

(1) أعتقد أن المؤلف يقصد الفرقة السابعة المدرعة، الخبيرة في حرب الصحراء. (المراجع).

الفصل الثالث والعشرون

روميل يضرب ثانية

كانت سريتي الآن، تتمركز في منطقة مشرفة على وادي الفارغ، في أقصى الجناح الأيمن للفيلق الأفريقي، في المنحدرات المرتفعة لهذا الوادي العريض في منطقة سرت، لقد تأثرنا بمشاهدة الجرف الشاهق والضخم القاحل، والذي لا بد أنه كان جزءاً من ساحل البحر في مرحلة ما قبل التاريخ.

بعد مقتل نيومان سيلكوف مبكراً في معركة الصليبي، تولى قيادة الفرقة الخامسة عشر بانزر العميد فون فيرست القائد الذي أثبت لنا بسرعة أنه مصدر ثقة، وقد أصدر أوامره بالتقدم إلى الشمال الشرقي.

ومن أقصى الجنوب حيث كنا، كانت عربتي تتحرك على حافة السفوح المنحدرة نحو الوادي الذي كان يقع على اليمين، شاهدت عربات بريطانية تتحرك بسرعة باتجاه الشرق فوق

المرتفعات لتعبر تضاريس هذه المنطقة القاحلة، ومرة ثانية، قمنا بالانقضاض إلى الأمام بمدفع خفيف محمول على عربة ناقلة ـ جرار ـ لقد فاجأنا عربة الاستطلاع الواقفة وبجانبها يجلس طاقمها المكون من ثلاثة رجال وبدون إنذار، كانوا جالسين على كراسي ميدان حول موقد للنار منهمكين في إعداد الشاي، لقد شربنا نحن الشاي واستولينا على العربة كغنيمة، ثم تركنا جنود العدو الثلاثة المهذبين على أمل أن يستطيعوا العودة إلى مقارهم.

لقد بدأت أولى مناوشاتنا مع الدبابات البريطانية، في اليوم الثاني لتقدمنا (22 يناير) في منطقة (أنتيلات)، بعد اختراقنا لشبكة خفيفة من دفاعات لواء الحرس 200، حيث شاهدنا حوالى ثلاثين دبابة في أسفل مرتفع عند منطقة التلال. عند استلامنا للأمر لم يكتشفنا العدو. حركنا مدافع عيار 50مم المضادة للدبابات إلى موقع منخفض. وعندما فتحنا النيران لاحظنا بأن العدو بمجموعه قد تمت مفاجأته، وقامت اثنتا عشرة دبابة بالاندفاع إلى الأسفل ضد دبابات العدو. قرر العدو الانسحاب، حيث إن مواقعه لا يمكن الدفاع عنها، فانسحب بصعوبة بعد خسارته لبعض الدبابات.

بدأنا الآن نتبع أساليب هجومية جديدة، باستخدام مدافعنا الاثني عشر المضادة للدبابات، وبدأنا نتقدم ثم نتوقف مثل قفزة الضفدعة من نقطة إلى أخرى، تتوقف دباباتنا مستترة لحمايتنا بنيرانها، بعد ذلك نتوقف نحن ونقوم بتغطية الدبابات بالنيران وحمايتها بينما تتقدم ثانية. إن استخدام هذه التعبية (التكتيك) كان

ناجحاً. ورغم شدة نيران العدو، لم تستطِعْ دباباته إيقاف تقدمنا. وبالعكس، كان العدو يتكبد الخسائر الجسيمة وينسحب بصورة متواصلة.

لقد بدأت أفكر، وشعرت بأننا حقيقة لا نقاتل ذلك الخصم الشديد المراس ذا الخبرة القتالية العالية التي أجبرتنا على الانسحاب وبصعوبة من منطقة طريق كابوتسو. وبحلول يوم 22 يناير تمكنا من احتلال منطقتي أنتيلات وساونو.

لقد حاول العدو باللواء الثاني المدرع، الذي يضم في تشكيله (الكتيبة التاسعة لانسر ـ الرماح ـ كتيبة الهوسار ـ الفرسان ـ الملكية العاشرة وكتيبة خلجان الملكة)، إيقاف هجومنا بدون جدوى. وبتوجيه من الفريق روميل شخصياً، تقبلت تشكيلاته التكيف مع الظروف، وقد نضجت قابليته وتكيفت مع المواقف الطارئة. لقد تعلموا كيفية تطبيق قاعدة روميل: «إن النجاحات الصغيرة تقود إلى النجاحات الكبيرة». وبصقل هذه الموهبة، تمكنا من صقل واستغلال أي نجاح والاستمرار في ضرب العدو أينما كان، وبدا العدو في حالة اضطراب. وبتموين ثلاثة أيام اندفعت دبابات الفيلق الأفريقي إلى الأمام.

لم يكن في استطاعتنا القيام بهذا أو محاولته، لولا إدراكنا وثقتنا بتفوق أسلحتنا المضادة للدروع في ذلك الوقت على دبابات ومدافع العدو المضادة للدبابات.

إن الهدوء النسبي لأصدقائنا، السلاح الجوي الملكي

البريطاني، في هذا الوقت، قد ساعد على رفع الروح المعنوية لقطعاتنا.

إن المشكلة التي علمناها أن البريطانيين مثلنا، لا يملكون وقوداً في الأمام عند بنغازي كما كانوا يأملون، لهذا لم يستطيعوا الاحتفاظ بمقاتلاتهم القصيرة المدى في مطار (بنينا)، وأراضي الهبوط المتقدمة في منطقة طبرق.

لقد قدم استطلاعنا الجوي تقارير صحيحة، عن وجود معسكر لإصلاح الدبابات البريطانية. تقدمنا عملياً وبدون مقاومة، وفي ميدان معامل الإصلاح وجدنا غنائم ثمينةً، عدداً من الدبابات الجاهزة والمستعدة للانطلاق فوراً.

كنا غير سعداء تماماً من نقص الوقود لدينا، وعندما تقدم أحد الضباط الشباب إلى روميل قائلاً: «سيدي الفريق، نحن بحاجة إلى مزيد من الوقود». جاء جواب روميل سريعاً، كعادته: «حسناً، اذهب واستولِ عليه من الإنجليز».

استمر تقدمنا عبر السهول الواسعة حول مسوس، وكنا في منطقة قتال مثالية كما أتصورها، لصراع وقتال إلى النهاية بين قوات الدروع، إنها أرض خالية من أي علامة للمدنية والحضارة، كما لا يوجد فيها أي عائق يمكن أن يعوق حركة أي من الطرفين، أو يحير الرجال ويمنعهم من واجب تدمير أحدهما الآخر.

تقدمت الفرقة الأولى المدرعة العديمة الخبرة في حرب الصحراء، كما تقدمت الفرقة الرابعة الهندية من خارج بنغازي،

لمواجهة قطعاتنا في المعركة، لكننا تمكنا من أن نعزل ونقطع الفرقة الهندية إلى قسمين وطوقنا لواءهم السابع في منطقة بنغازي، كما أننا لاحظنا بأن دبابات العدو لم تكن قوية لمواجهة دباباتنا، كما كانت أيضاً بحاجة إلى الوقود. وحيثما تقدمنا كنا نخترق المجموعات المعزولة وأرتال الإمداد والتموين. وأصبحت الفرق المدرعة الآن كلها عاجزة عن الحركة لنفاذ الوقود.

توقفنا مع مدافعنا المضادة للدروع، واحتلينا خطاً دفاعياً بالقرب من مسوس لمدة يومين، لكن اتجاه المعركة كان مستمراً باتجاه الشرق.

تلقى الفريق أوكنلك انتكاسة كبيرة بعد أن تغير مجرى الأحداث على أرض المعركة. استقل طائرته من مطار القاهرة متوجهاً إلى مقر قيادة اللواء ريتشي الواقع في منطقة التميمي، وألغى الأوامر التي صدرت إلى الفيلق الثالث عشر بالانسحاب. كان يأمل بالقيام بهجوم مضاد، ولكن بحلول يوم 4 من شهر فبراير، أصبح الجيش الثامن يحتل خطاً دفاعياً جديداً في منطقة عين الغزالة، وأمر بينار قائد لواء جنوب أفريقيا بعرقلة طريق تقدم روميل إلى الشرق.

على أي حال، فإن روميل تقدم إلى أقصى ما يمكنه شرقاً، في مرحلة هجومه المضاد. وكان توقفه لعدم استطاعته المغامرة بالتقدم ضد حشد الجيش الثامن الكبير، قبل استلامه لتعزيزات إضافية لقواته. والملاحظ الآن أن دبابات ألمانية جديدة تم إنزالها في ميناء طرابلس، لذلك توقف روميل قليلاً على خط التميمي - المخيلي.



اللواء فون رافنشتاين المصدر: المتحف الحربي البريطاني

الفصل الرابع والعشرون

خطة طبرق

بكل سرعة، تمكن أوكنيلك وريتشي من بناء خط دفاعي قوي في منطقة عين الغزالة، ومن جانبنا كنا نعرف بأن أوكنيلك ذو عقلية هجومية، وسوف لن يسمح بحصار طبرق ثانية، وقد حرص على السيطرة على ميناء طبرق، الذي ينظر إليه كميناء حيوي لتزويد الجيش الثامن بالإمدادات حتى يتمكن من مواصلة زحفه ضد الفيلق الأفريقي.

كان خط الدفاع البريطاني، حقيقة، يتكون من سلسلة من المواقع الحصينة والقوية المترابطة والمتصلة بحقول ألغام قوية، تمتد من البحر إلى الجنوب حتى بئر حكيم، وبدأ العدو بتقويته بانتظام تحت نظر استطلاعنا، وقد صمم روميل على القيام بتعرض (هجوم) مضاد قبل أن يبدأ العدو هجومه. إن هذه المعلومات أبهجت كل جنود الفيلق الأفريقي. لكن هدوءاً طويلاً سبق هذا الهجوم، وهذا ما لم نكن مستريحين له.

المؤلف الملازم شميدت في عربته في الصحراء

ويلاحظ علامة الفيلق الأفريقي على باب السيارة (شجرة النخيل)

منذ منتصف شهر فبراير وحتى نهاية شهر مارس، لم يحدث سوى نشاط الدوريات، وبعدها قام ريتشي بحملة تمويه لتحويل اهتمام قوات المحور عن القافلة القوية، التي كانت تعبر من الإسكندرية إلى جزيرة مالطا، هذه الجزيرة، التي كان روميل يكرر دائماً: بضرورة احتلالها في أقصر وقت، بعد وصول قواته إلى شمال أفريقيا، ولو فعل لكان نجح في غزو مصر في عام 1941، ولربما كان بإمكانه شق طريقه إلى دلتا النيل، حيث إن هذه الجزيرة، هي مصدر حرمانه من الإمدادات والتعزيزات التي تعبر البحر الأبيض المتوسط.

وحقيقة، فإنني أذكر، عندما كان روميل يرفض إرسال التعزيزات خلال عام 1941 وملاحظاته كانت: «إن خطوط مواصلات الإمداد إلى أفريقيا يجب أن تؤمن أولاً، قبل إرسال المزيد من الفرق».

وفي إحدى المرات، كنا نعتقد بأن القيادة العسكرية العليا في برلين قد قررت ضرورة احتلال مالطا، ففي تلك الأيام كانت طائرات السلاح الجوي الألماني تواصل غاراتها الجوية من جزيرة صقلية، ضد دفاعات الجزيرة الشجاعة.

وكان من نتائج تلك الغارات القوية والمتواصلة، هي تحسن وصول الإمدادات إلى أفريقيا، فكان علينا تحييد هذه الجزيرة لضمان الانتصار في هذه الحرب.

خلال أشهر الانتظار التي سبقت المعركة، لم يكن هناك أية

معارك تذكر بالنسبة لفرق المدرعات سوى القليل، ولا زلت أذكر أن دباباتنا في ذلك الوقت، كانت في مرحلة راحة في منطقة درنة خلال شهر مارس، بينما كانت سريتي تتمتع بفترة راحة واسترخاء في وديان (مرتوبة). كان لدينا وقت فراغ للتمتع بجمال ألوان سماء الصحراء في فصل الربيع المبكر، عندما حدث ما لم يكن متوقعاً، هجوم الأمطار، لقد انفجرت عاصفة رعدية خلال ظلام الليل، علمتنا درساً في أسلوب الحياة الهادئة في ذلك الوادي الجذاب، الذي لا يخلو من المخاطر والخسائر، وبالفعل خسرنا عربات ثمينة وأسلحة أصيبت بالعطب وجرفتها المياه إلى أسفل الوادي. لقد مر شهر أبريل ومرت معظم أيام شهر مايو، وقواتنا تحضر استعداداً للقيام بضربة على طبرق مرة ثانية.

قرر روميل هذه المرة أن يعد قواته لضربة، ويخطط جيداً لمشروع عملياته لكي يمنع تكرار ما حدث في شهر نوفمبر الماضي حول طبرق، عندما أحبطت عملياته في 5 أيام بواسطة الجيش الثامن في هجوم (معركة الصليبي).

تحت جنح الظلام، في ليلة 26 مايو، كان على الفيلق الأفريقي أن ينطلق حول الجناح الجنوبي لخط عين الغزالة عند بئر حكيم، ثم يشق طريقه باتجاه الشمال في مؤخرة العدو، وفي نفس الليلة، كان على الفرقة المدرعة الإيطالية آريتي الهجوم على بئر حكيم، وفي ذات الوقت تقوم فرقة تريستي بفتح ثغرة في حقول الألغام في مرتفعات طريق العبد التي تقع أسفل قسم من الخط الذي تتمركز فيه الفرقة الأولى جنوب أفريقيا.

كان على التشكيلات الإيطالية المواجهة لخط عين الغزالة، أن تقوم باحتواء فرقة جنوب أفريقيا والفرقة البريطانية 50 في اليسار لعرقلة أي مجازفة، والتقدم إلى الأمام بطول الطريق الساحلي.

في اليوم الثاني، كان على قسم من مدرعاتنا من الفرقة 21 بانزر، القيام بضربة باتجاه مؤخرة خط عين الغزالة، بينما يقوم الإيطاليون بالهجوم باتجاه الجبهة، على أمل أن ينجح هذا الهجوم، أو على الأقل، لمشاغلة الجنوب أفريقيين مع الفرقة البريطانية الخمسين ومنعهما من التدخل أبعد في اتجاه الشرق في المعارك التي تدور في مؤخرتهما، في حين أن هدفنا الرئيسي هو القيام بهجوم مباشر على طبرق، وكان علينا التقدم نحو الميناء مع الفرقة 15 بانزر. وحسب جدول التوقيتات الذي خططه روميل، كان علينا احتلال الميناء في اليوم الثالث من بداية الهجوم.

وصل العميد فون بايرلاين ليتولى منصب رئيس أركان (رئيس عمليات) كرويل في الفيلق الأفريقي، تحت قيادة مجموعة بانزر أفريقيا تحت قيادة روميل، التي لا زال جوس رئيساً لأركانها. وتم تعيين العميد فون بسمارك لقيادة الفرقة 21 بانزر. ولا زالت الفرقة 15 بانزر تحت قيادة العميد فيرست.

كانت المعركة ضرباً من المخاطرة، وكان كلاً من جوس وبايرلاين، قد أوضحا لروميل وكرويل باحتمال ظهور حالة حرجة خلال المعركة ومجابهة الدبابات، إذا لم تؤمن خطوط مواصلاتنا باحتلال بئر حكيم، أو فتح ثغرة محددة خلال حقول الألغام. لقد

كان هذا واضحاً لدى روميل شخصياً حيث قال: «إنها فرصة لا بد من المقامرة بها. ولكن سوف لن تكون مقامرة، فيما لو أن الهجوم على خطوط العدو طبق حسب الخطة المعدة، ونفذ بمهارة عالية وبتصميم قوي. ودعونا لا ننسى بأن البريطانيين لا ينقصهم التدريب السوقي (الاستراتيجي). ولا بد أنهم فكروا ملياً بإمكانية إنزال ضربتنا على مؤخرة خط دفاع الغزالة». «ومن المحتمل جداً، بأننا سوف لن نفلح في شل حركتهم وحتى بمباغتتهم بصورة تامة، لذلك يجب علينا أن نضربهم عن طريق التنفيذ الفعال، لهذه الخطة الخاصة».

«دباباتنا سوف تكون وراء خطوط العدو في المعركة. ويجب تحسين خطوط مواصلاتنا وتأمين الإدامة لدباباتنا».

انتشرنا في حالة تأهب في منطقة (روتاندا سيجنالي)[1]، وخلال ليلة 26 ـ 27 مايو، تقدمنا حول الجناح الجنوبي لبئر حكيم وفي نفس الوقت تقدم الإيطاليون نحو بئر حكيم وإلى حقول الألغام الواقعة بين عين الغزالة وعلم حمزة في مرتفعات طريق العبد.

انطلقنا عند الصباح باتجاه الطريق الساحلي، وقد استقبلنا بهجوم جوي عنيف ونيران مدفعية من اتجاه أجنحتنا. كما واجهنا

(1) منطقة حشد الفيلق الأفريقي وتقع جنوب التميمي وإلى الشرق من المخيلي، على طريق أنور، للانطلاق حول بئر حكيم، وهذا اسم رمزي، وهي باللغة الإيطالية: (علامة الدورة)، أطلق على منطقة انطلاق الفيلق الأفريقي حول بئر حكيم. . لقد زرت المنطقة في الصحراء ووجدت هرماً من الأحجار تحيط به دائرة ـ وتوجد أيضاً اتجاهات طرق للانطلاق والانفتاح للتشكيلات. (المراجع).

اللواء الهندي الثالث الذي قاتل قتالاً مستميتاً لإيقاف تقدمنا. ولكننا اكتسحنا اللواء الهندي بخسائر في بعض دباباتنا.

الفرقة الحادية والعشرون بانزر، كانت تتقدم على جناح خط تقدمنا، متجهين إلى الغرب من عكرمة بهدف الوصول إلى مؤخرة خط عين الغزالة، ولكن الفرقة الأولى المدرعة اشتبكت معهم في معركة عنيفة، عرفت فيما بعد باسم (المرجل) عند جسر الفرسان. ومن ضمن الفرقة الخامسة عشر بانزر تقدمنا نحو عكرمة مع مجموعة قتال في محاولة للاتصال بالعدم، وسيدي رزق، والدودة مرة ثانية.

إن ابتهاجنا بهذا التقدم السريع خلال المراحل الأولى من المعركة، لم يدم طويلاً بعد أن اصطدمنا بلوائين مدرعين بريطانيين، علمنا فيما بعد بأنهما: اللواء الرابع المدرع واللواء الثاني والعشرون مدرع. حيث بدأنا وللمرة الأولى نشك في تفوق أسلحتنا.

لقد وقع الصدام والمعركة في المنحدرات والسفوح التي تبعد بضعة أميال جنوب عكرمة. كنت أقود سريتي التي تعزز كتيبة 115 بنادق، بأوامر للاتصال بمعركة واحتلالها. لقد كانت مهمة صعبة، خصوصاً ونحن لم ننسَ، أننا متواجدون في مؤخرة خط العدو في عين الغزالة، وكنا ندرك مدى قوة دبابات العدو التي كانت في انتظارنا.

الفصل الخامس والعشرون

اكتساح كتيبتي

تمكنا من الوصول إلى حافة السفوح، وكان الدبابات التي تدعمنا أثناء شق طريقنا خلال اللواء الهندي الثالث، قد ابتعدت في الأرض المنبسطة نسبياً، شرقاً وغرباً. لم نشاهد قطعات أو مدفعية، سوى نيران مدفعية تنطلق علينا من الجناحين. القذائف تحرث الأرض حولنا، وكنت وسريتي في أقصى الجناح الأيسر، حيث وصلنا إلى حافة المنحدرات. وشاهدت مرة أو مرتين ساحبات جرارات ضخمة تجر مدافع منطلقة بأقصى سرعة.

شاهدت دبابة بوضوح عبر المسافات، أطلقت بعض القذائف في اتجاهنا ثم اختفت مرة ثانية. وما أزعجنا أكثر هو القصف الشديد الذي أنزلته بنا طائرات (الهاريكان) التي نسميها باللهجة العامية للعسكريين (السيدة المومس). لقد عاودت هذه الطائرات قصفها فأشعلت النيران في اثنين من أحسن وأحدث ساحباتي،

حيث تصاعدت أعمدة الدخان وثبتت لتغطي كافة مواقعنا.

وقفت بعربتي على قمة المرتفعات، وكانت الشمس من خلفي، ومن خلال المنظار المقرب شاهدت بعيداً باتجاه عكرمة، سحباً كثيفة من الغبار تثيره حركة الدبابات، كما ظننت. نحن الآن متجهون بعكس غروب الشمس عند خط الأفق. لقد انحدرنا من الحافة وانطلقنا إلى الأمام دون أن نتأكد ومن دون أن نقصف. انحدرت معظم عرباتنا من المرتفعات وانتشرت على شكل مروحة عريضة متجهين في سباق نحو عكرمة. عندما شاهدنا عدداً قليلاً من الدبابات أمامنا، حيث بدأت أولى قذائف العدو تتساقط، توقفنا. واستعدت مدافعنا للقتال، وبدأت بالرد على مدفعية العدو، ثم انطلقنا مرة ثانية مسرعين.

أمامنا مباشرة شاهدنا علامات الطريق المألوفة، أعمدة الهواتف التي كانت تربط عكرمة بمقر قيادتنا القديم، في البيت الأبيض.

بدأ العدو يقصفنا بمدفعيته الثقيلة من مواقعه المتخندقة بين الأحجار، قرب الحصن الصحراوي الصغير عكرمة. لقد أجبرنا على الوقوف قبل الوصول إلى المواقع البريطانية. هيأنا مدافعنا للقتال مرة أخرى، وجرت المواجهة بين أسلحتنا المضادة للدروع وعدوها اللدود الدبابات البريطانية.

قدنا عرباتنا بعيداً إلى واد صغير يقع باتجاه الغرب قليلاً، وبانفعال بدأ الجنود يحفرون الخنادق لحمايتهم وحماية أسلحتهم.

كانت الأرض صخرية وتحتاج إلى قوة هرقلية لشق الأرض من أجل الحماية. بعض مفارز المشاة كانوا محظوظين عندما وجدوا خنادق قديمة تم حفرها خلال معارك سابقة. والآن نحن في انتظار المعركة.

بينما كنت أصدر تعليمات إلى ضابط الصف للمدفع الواقع خلفي، قفز غزالان من خلال الصخور، ومن مسافة خمسين ياردة أمامي، أخذت بندقية على عجل من أحد أفراد طاقم المدفع القريب، وإنني أذكر في بداية التحاقي بالجيش أنني كنت دائماً ضعيفاً جداً في إصابة الهدف.

أما الآن، يبدو أنني سأقوم بضربة حظ، لقد سقط الغزال بالطلقة الأولى عندما عبر جبهتنا. جلبناه، فكان ذكر غزال. قمنا بتقطيعه، ثم أشعلنا النار مستخدمين وقود العربات وبعض خرق النظافة في ذلك الوادي، حيث كانت تقف عرباتنا وبدأنا بالشواء.

كان الهدوء مخيماً على الجميع في قطاعي الأيسر، ولكن السرية المجاورة لنا على اليمين، كانت تحت نيران رشاشات العدو، حتى إني سمعتهم يردون على نيران العدو. ثم بدأت أبحث في الخندق (الشقّي) الذي كان قد حفره الجندي أول موللر لكلينا .. وفي السابق كان موللر مراسلي الشخصي، ولكنه الآن مراسل (عداء) للسرية. والسبب في هذا: أن جميع الضباط الذين دون رتبة العقيد حرموا من مراسيلهم، بهدف تقوية الجبهة بالرجال. نظرت من خلال المنظار، الذي كان على حافة الخندق، حيث كان موللر

يحتفظ به في مكان ملائم دائماً، فوجدت أننا كنا تقريباً على القمة المشرفة على المواقع المتقدمة البريطانية، وقد شاهدت جنود العدو يتحركون بين الصخور على مسافة تقل عن الميل الواحد، وعلى يميني كان يقف رئيس عرفاء سريتي تودت الذي كان نصفه الأعلى مكشوفاً خارج الخندق، وبهدوء صوب نيرانه نحو العدو.

أخذت أفكر بلحم الغزال ثانية، وناديت موللر وأخبرته بأن يرجع مسرعاً إلى الوادي ويأخذ حصتنا من لحم الغزال قبل أن يقضي عليه أفراد طاقم المدفعية الجوعى والمتواجدين خلفنا . . لم أحصل على إجابة منه. وبدلاً من ذلك سمعت صراخاً من عدة حناجر، الصرخة القديمة والمألوفة، إنها صرخة الحرب في الصحراء: «دبابات على اليمين».

في تلك اللحظة شاهدت تودت ملقى على الأرض، لقد أصيب في رأسه وسقط ميتاً. شاهدت اثني عشرة دبابة تظهر من الأرض الميتة أمام السرايا التي على يميني، لقد كانت دبابات من نوع جديد لم نعرفه من قبل، وتبدو أثقل وأكبر من جميع الدبابات التي التقينا بها حتى الآن، وحسب ما عرفنا فيما بعد، كانت دبابات (الجنرال جرانت) الأمريكية الصنع، وقد وصلت بأعداد كبيرة إلى الشرق الأوسط، غير أنها أقل عدداً مما كان يأمل الفريق أوكنلك، وهي أقرب ما تكون نداً لدباباتنا من نوع العلامة 3 والعلامة 4، ولا تعادلها أي من الدبابات التي زج بها البريطانيون في حرب الصحراء في الماضي. فالدبابات التي كانت تقدمها أمريكا في السابق مثل

دبابات هوني (العسل) أو دبابات الجنرال ستيوارت، التي كانت تتميز بالسرعة، لكنها في الواقع لم تكن أكثر فعالية أو تأثيراً من العربات المدرعة. وبكل تأكيد، فإن تلك الدبابات السابقة لم تكن لها القوة الكافية لكي تقابل دباباتنا الثقيلة.

أوقفت نيران أسلحتنا، ولكن بقية السرايا التي على يميننا، واصلت فتح نيرانها بمدافع 50مم المضادة للطائرات، وكنت أرى بكل بوضوح كيف أن بعض القذائف كانت تصطدم بدبابات (جرانت) ثم ترتد دون أن تؤثر فيها، بالإضافة إلى أن العدو رد بنيران قوية حيث كانت قذائفه تنفجر بين مشاتنا بشكل قاتل.

شعرت برعشة تدب في جسدي وأنا أراقب الطوابير تلو الطوابير من هذه الدبابات الجديدة تخرج من داخل المنخفض القريب، فأحصيت منها ما يقارب ستين دبابة، متجهة نحونا موجهة إلينا فوهات أسلحتها التي كانت تقذف اللهب.

وضعت المدفع المتمركز على يميني للقتال فأوقف دبابة واحدة، وبعض الدبابات التهمتها النيران، ولكن أكثرية الدبابات الباقية توجهت نحونا موجهة قذائفها نحو الأرض. ما أدهشني حقاً أن المدفع المتمركز على يساري لم يتحرك؟، كان صامتاً، وكانت فوهته موجهة نحو الأرض، قفزت من خندقي رغم سدود نيران قذائف العدو التي كانت تزمجر في كل مكان باتجاه وحول المدفع.

لاحظت أن جنديين من طاقم المدفع كانا مضطجعين أرضاً، ومغلاق المدفع كان محطماً، وأن الجندي الرامي ملقى على

الأرض بجانب عربة المدفع والدماء تنزف منه لإصابته بإطلاقات رشاشة آلية في صدره، وكان يلهث: ماء، ماء. حالما وصلت إلى المدفع، أطلقت دفعة من نيران الرشاشات على الموقع، لقد كانت الدبابات تهاجم من مدى قاتل، إن الوقوف يعني الموت، انبطحت أرضاً وحاولت احتضان رأس الجريح بين ذراعيّ.

نظر إليّ وهز رأسه فصرخت في أذنه: سوف أحملك إلى خندقي حيث يوجد الماء، هز رأسه مرة أخرى، ومما زاد في ذعري، أنني رأيته يقف على قدميه مترنحاً، وانطلق يركض متعثراً إلى الخندق.

كانت الدبابات في قمة خط الجبهة في القطاع الواقع إلى يميني، أخذت أزحف إلى الخلف باتجاه خندقي، ولكنني لم أجد موللر هناك. ثم بدأت بسحب المدفعي الجريح إلى منتصف المسافة للخندق، فوجدت حافظة المياه الإيطالية الصنع التي تخصني، والتي كان يوجد فيها قهوة حتى منتصفها، دفعتها بين يديّ الرجل الجريح المرتعشتين. شرب منها ثم ارتخى جسده وسقط ميتاً على ظهره، كانت ساقاه متدليتين في حفرة الخندق بينما كان جذعه ملتوياً على حافة الخندق.

بدأت القنابل تنفجر حولنا في كل مكان، أخذت أفكر: هل أنا الوحيد الباقي هنا الآن؟. وبينما كنت أتساءل متعجباً، وإذ بصوت ينطلق من الخلف، لقد كان العريف ويبر، الذي يقوم

بالرماية من مدفعي الثالث، وكان يخرج القذائف واحدة تلو الأخرى ولا يوجد من يساعده سوى شجاعته.

تقدمت اثنتا عشرة دبابة باتجاهنا، لإسكات هذا الخطر الذي يهددها، كانت مدافعها مصوبة نحونا وهي تتقدم بإصرار.

رميت منظاري وبدأت أتدحرج إلى أسفل الخندق، حيث وجدت موللر قد نشر بطانية على جسده، فسحبتها وغطيت بها جسدي وهي وقاية غير فعالة، لقد كنت مضطجعاً، وقدما الرجل الميت لا تبعد عن وجهي سوى ست بوصات.

ارتجت الأرض، وأصبحت حنجرتي مثل ورق الصقل. إذاً هذه هي النهاية!. لقد هربت ونجوت في معركة سيدي رزق. ولكن الآن هذه هي النهاية. وهناك من سيخبر خطيبتي بالكلمات التالية: «يجب علينا أن نخبرك بحزن عميق . . .» وسوف تقرأ بأني قد مت ميتة الأبطال دفاعاً عن أرض الأجداد، ولكن ماذا يعني هذا؟. إنني مجرد جثة ملطخة بالدماء في هذه الرمال، في بقعة غير معروفة، على مقربة من نقطة لا أهمية لها في الصحراء، تسمى عكرمة.

دبابة تزمجر بجنزيرها على حافة خندقي، ثم سمعت صوتاً ينادي بالإنجليزية دون أن أعلم فيما إذا كان الصوت صادراً عن رجل الدبابة، أم جندي مشاة يتبع الدبابة مثبتاً حربته على بندقيته؟. بدأت أفكر بأن البطانية التي فوق جسدي لا تفيد ضد طعن الحراب، ربما لن يروني، وربما يجب عليّ أن أبقى مضطجعاً هنا

إلى أن أفقد عقلي، وربما قامت دبابة أخرى بسحقي تحت جنازيرها، وقد تصيبني قذيفة فتقتلني.

كانت الدقائق تمر ببطء شديد، بدأت أسمع أصواتاً ألمانية. الظاهر أن البريطانيين بدأوا بتجميع الأسرى في قطاعي، وأنا لا زلت ملقى في هذا الخندق. لقد توقفت النيران. وبعد مرور ربع ساعة تقريباً، سمعت الدبابات تزمجر بعيداً إلى الجنوب. خيم الصمت على ميدان المعركة، وأنا لا زلت مضطجعاً في خندقي كرجل نائم.

عندما رفعت رأسي رأيت السماء معتمة، لقد زال وهج الشمس النحاسي وبريقها فيما بعد العصر. حل المساء ولم ألاحظ أية علامة لأحياء في محيطي. ثم أصابني الذعر ثانية عندما سمعت دوي صوت أشبه ما يكون بصوت عفريت ألعاب الأطفال، إنه صادر من الخندق القريب من موقعي في الخلف، لقد كان أحد رجالي إنه موللر. لاحظت تقاطيع الأسى والألم على وجهه، ثم ناداني: «هل أنت بخير سيدي الملازم؟». وأضاف بغرابة: «أمّا أنا فلست بخير». أصدرت إليه أمراً: «انزل هنا في الخندق، وسوف ننتظر هنا ولن نتحرك حتى حلول الظلام». ثم قال موللر: «سيدي الملازم، إن لحم الغزال كان قد نضج وأصبح جاهزاً للأكل عندما قدم الإنجليز».

عندما حل الظلام على ميدان المعركة، اقتادني موللر إلى الوادي، حيث وجدنا لحم الغزال المشوي قد نضج، والفخذ لا

زالت ساخنة، وجدناها على قطعة معدنية هناك، وكانت حافظة مياه موللر لا تزال تحتوي على القهوة. بدأنا نقطع قطعاً كبيرة من اللحم اللذيذ المذاق ونلتهمها، رغم أنه كان لا يزال عسيراً على المضغ.

لا زلت أتذكر إحساسي بعصير اللحم ينزل من زاويتي فمي، إنه شعور عظيم أن يعرف الإنسان أنه حي يرزق، وأن الشعور بالعبث وحتمية الموت التي كانت تغمرني في الخندق قد ولت من غير رجعة، وأن الرغبة في الحياة قد ترسخت بقوة فينا. حقيقة، لم يعش جميعنا. نظرت إلى مدفع العريف ويبر.

لقد مرت فوقه دبابة بريطانية بالكامل، كان مدمراً. ولكن ويبر ذهب بعيداً، وقد قابلناه مع ثمانية آخرين أحياء من الكتيبة. لم يبق من الكتيبة إلا عدد قليل. ووجدنا بعض عرباتنا محطمة، ومعظمها تم الاستيلاء عليها كغنائم، والقليل منها هرب.

توليت قيادة المجموعة الباقية واتجهنا جنوباً. في حوالى الساعة 2200 التقينا بمجموعة صغيرة من الأحياء من كتيبتنا، وواصلنا المسير ببطء.

لقد شاهدنا أضواء تتماوج في السماء، من بريقها ولون المغنيسيوم عرفت أنهم ألمان، لقد أطلق أحد رجالي إطلاقة تنوير خضراء على بيضاء وحمراء، وواصلنا المسير، ونحن نتبادل إشارات التعارف دورياً.

بعد مسير ساعة وصلنا إلى رعيل من العربات المدرعة، التي

كانت من ضمن التشكيلات الخاصة تحت إمرة ريتسمستر هوماير، وهي وحدة استطلاع روميل الخاصة.

وفي الصباح التالي، جاءت عربات ملحقة برعيل المدرعات ونقلتنا إلى مقر الفوج 115، التي تتمركز الآن في الخلف في اتجاه الجنوب. لقد علمنا بأن كتيبتنا قد أبيدت فعلياً، وأن آمر الكتيبة المقدم روسك، الذي التحق بالكتيبة في شهر مارس فقط، قد سقط أسيراً. لقد كنت آمر السرية الوحيد الذي نجا من الموت، وفي الحقيقة، فإن ضابطاً آخر كان قد هرب، وقد عاد حوالى ثلاثين رجلاً من مجموع ثلاثمائة وخمسين رجلاً دخلوا في المعركة.

هؤلاء الباقون، تم تقسيمهم على الكتيبتين في الفوج، بانتظار إعادة تنظيمه. وإن الكتيبة التي شكلت بعد هذه الأحداث ستقاتل حتى النهاية في العلمين. بعد كل هذا أصبحت مؤهلاً لقيادة كتيبة، وانضممت إلى احتياط الفرقة، ثم بمقر قيادة الفوج، بعد ذلك التحقت بالقطعات التي هاجمت طبرق واحتلتها. بعد النصر، تحصلت على فرصة لأطير إلى ألمانيا في إجازة. إن مدة إجازتي الأصلية كانت ثلاثة أسابيع، ولكنها مددت إلى ثمانية أسابيع. والآن فإن الضابط الشاب القادم من الصحراء، لديه الكثير من القصص والأخبار حول حرب الصحراء، ومن بينها قصة احتلال طبرق. وبكل تأكيد فإنه سوف يتمتع كثيراً خلال إجازته في ربوع الوطن.

الفصل السادس والعشرون

التـــوازن

إن اجتياح كتيبتي كان يوماً من أيام المعارك الجنونية. وهدف روميل ما زال هو طبرق، كنا في مأزق غير سار والوقت يمر، ويبدو أننا لن نتغلب على العدو رغم المواجهة القوية في الصحراء.

إحدى مجموعات القتال من الفرقة التسعين الخفيفة اكتسحت مقر قيادة العميد ميسرفي قائد الفرقة السابعة المدرعة وأسرته مع جميع أركانه. إلا أن العميد كان يرتدي قميصاً وبنطلوناً قصيراً، ولا يرتدي علامات رتبته، لذلك لم يتعرف على شخصيته أحد، فهرب أثناء الفوضى من جراء الهجوم المضاد، ولم نعلم أنه كان بين أيدينا إلا بعد فوات الأوان.

عندما كنا نقاتل ضدهم، لم نلاحظ أن الفريق كرويل قائد الفيلق الأفريقي، قد أسقطت طائرته الخفيفة من نوع (فيسلير

ستورش) فوق مواقع الفرقة الخمسين في خط عين الغزالة[1] ووقع في الأسر. وكالعادة، فإن روميل وأركانه كانوا في الخطوط الأمامية معنا. إن حياة القائد عادة وهو يشق طريقه ساحرة ومضمونة، ولكن جوس كان قد جرح، فاستلم مكانه بايرلاين كرئيس أركان (رئيس عمليات) روميل. وأرسل نهرنج على عجل جواً عبر البحر الأبيض المتوسط، ليحل مكان كرويل في قيادة الفيلق الأفريقي.

كان وضعنا سيئاً في غوط العوالب، حيث يوجد اللواء 150 البريطاني الذي يحتل موقعاً قوياً، وكانت كل جهودنا المبكرة لاختراق حقول الألغام قد فشلت.

كان اعتمادنا على الإمدادات التي كانت تمر في خط طويل حول بئر حكيم.

تحرك القسم الأكبر من قواتنا إلى الجنوب تحت قيادة روميل للاتصال بأرتال الإمدادات، التي كانت تتعرض لقصف كثيف من السلاح الجوي الملكي البريطاني.

التحمت بنا الدبابات البريطانية يوم 29 مايو، في معركة دبابات يائسة.

لقد واجهتنا فرقة كاملة، الفرقة الأولى المدرعة بالإضافة إلى لواءين، ولكن بعد الظهر حدثت عاصفة رملية أوقفت المعركة، فلم

(1) لقد أسقطت طائرة الفريق كرويل فوق مواقع اللواء 150، وهو أحد ألوية الفرقة الخمسين، وبالتحديد في الصندوق الدفاعي في سيدي مفتاح بغوط العوالب. (المراجع).

يستطع أحد رؤية الصديق من العدو. يمكن للمعركة أن تنقلب علينا، وأيضاً يمكن أن تجعل طبرق للإنجليز.

في فجر اليوم التالي قام البريطانيون بهجوم على مواقعنا، فتحركنا تدريجياً باتجاه الغرب دون ضغط على انسحابنا.

لقد تمكن الإيطاليون خلال المعركة في اليوم السابق، وأخيراً بالقوة، من فتح ثغرة في حقول الألغام عند طريق العبد وطريق كابوتسو، حيث أصبح لدينا ثغرة يمكن لنا استخدامها في الانسحاب غرب خط عين الغزالة مرة ثانية، أو لتقصير خطوط مواصلات الإمدادات. كانت هذه الثغرة تقصف قصفاً شديداً من الفرنسيين والبريطانيين، ولكن على الأقل يمكننا استخدامها.

قرر روميل سحب دباباته خلال تلك الثغرة، مستخدماً طريقتنا الثابتة في تغطية الانسحاب، فجهزنا شبكة من المدافع المضادة للدروع على هيئة قوس واسع ومنفرج إلى طريق كابوتسو، حيث استقر الجناح الأيمن للشبكة في حقول الألغام البريطانية.

تقدمت الدبابات البريطانية من الجنوب في محاولة للالتفاف حول شبكتنا في الشمال، لكنهم كانوا بعيدين عنها، إضافة إلى أن اللواء ريتشي، كما يبدو، كان يفكر ويناقش بأن الوقت بالنسبة له ليس وقت التحرك للهجوم وإرسال دباباته بعيداً حول بئر حكيم في الجنوب لقتالنا باستدارة على الجناح وفي المؤخرة.

ومن الغريب أنه في ذلك اليوم، كما علمنا فيما بعد، كان قد خطط لدفع الفرقة الخمسين وجنوب أفريقيا إلى الطريق الساحلي،

كهجوم تضليلي لصرف انتباه قواتنا عن حركة دباباته في الجنوب. ولكن التشكيلات لم تكن جاهزة للانطلاق بالهجوم.

في اليوم التالي أدرك ريتشي بأن روميل ليس مهزوماً، ولم تكن عنده أية نية للانسحاب، لقد كان يحاول إعادة تجمع قواته إلى الغرب من الثغرة في حقول الألغام. وكان جاهزاً للتخطيط للهجوم ثانية حالما يتمكن من ذلك.

إن اليوم المحدد لاحتلال طبرق قد مضى، ونحن في مواقعنا البارزة لثغرة حقول الألغام لم نكن سعداء مطلقاً، فذخيرتنا أصبحت قليلة وإمداداتنا تصل بعد جهد.

رتل مفرد للإمداد يتقدم للأمام، كان يُهاجم بقوة من قبل السلاح الجوي الملكي البريطاني. قوات الفرنسيين الأحرار في بئر حكيم لا زالت تقاتل ببطولة وقد سقط بين أيديهم أسرى أثناء قيامهم بهجوم مضاد. إن الاحتياطي الآلي المتقدم للجيش الثامن حسب اعتقادنا كان يبدو كما لو أنه يريد تطويقنا.

وفي مواقعنا هذه نبدو كما لو أننا محتجزون في قفص بين حقول الألغام والعدو، مع القليل من الذخيرة ونقص في التموين، والأقل من المياه الذي نحتفظ بالقليل منه للأسرى ومعظمهم من رجال اللواء المحمول الهندي الثالث. وقد قامت بعض قطعاتنا بشرب مياه مبردات العربات سراً.

إن مصير الفيلق الأفريقي يعتمد على فعالية القوات المتمركزة في حقول الألغام.

وفي عصر يوم 31 مايو بدأ روميل يقامر ثانية. فزج بكل ما

يملك من قوات في هجوم على اللواء 150. وتقدمت الدبابات البريطانية لدعم ونجدة المشاة، لكن في اليوم التالي عند الظهر تم اكتساح وإبادة معظم دبابات لواء دبابات الجيش الأول. فقام اللواء ريتشي بهجوم مضاد بلواء بريطاني آخر من الشمال واللواء الهندي من الشرق. إن الهجوم الرئيسي المضاد للواء ريتشي قد انطلق في يوم 5 يونيو، اللواءان 9 و10 بمساندة اللواء 22 دبابات من الشرق، اللواء 9 يسانده اللواء 32 دبابات الجيش هاجما من الشمال، ولكن هذه الهجمات كانت قد فشلت.

كان هدف ريتشي فتح طريق بالقوة خلال حقول الألغام، لكي يرسل دباباته غرباً بهدف سد الثغرات، ثم يقوم في الشمال بمحاولة التقدم بطول الطريق الساحلي.

إن هذه الجهود البريطانية الكبيرة كانت قد فشلت جميعاً في تحقيق أهدافها. وباختصار فإن النتائج كانت: خسارة ريتشي لأربع كتائب من مدفعية الميدان، واللواء الهندي العاشر بقيادة العميد س. إتش. بوشر، وكتيبة محمولة من اللواء 22 المدرع بقيادة العميد دبليو. جي. جار، إضافة إلى أننا قد دمرنا عدداً كبيراً من دباباتهم، وأنزلنا خسائر كبيرة في وحداتهم الأخرى. لقد أصبح العدو في حالة إرباك وفوضى لأننا اكتسحنا مقر قيادة إحدى الفرق التعبوي (التكتيكي) وحطمنا اتصالاتهم بتدميرنا لعدد من وحدات المخابرة (الإشارة).

أصبح روميل في القمة. وعند حلول مساء يوم 5 يونيو بدأ يعد لتصفية حسابه مع طبرق، لقد وضع طبرق في حقيبته بعد كل ما حدث.

الفصل السابع والعشرون

على الأبــواب

زج روميل ضد بئر حكيم بالمجموعة الخاصة 288، وهي تشكيل آلي مدرب تدريباً عالياً على العمليات الخاصة في الشرق الأوسط. (لقد قدت، فيما بعد، كتيبة من هذا التشكيل) ورغم هجمات طائرات شتوكا القوية والقصف التمهيدي المدفعي الشديد، فإن رجال كوينج الفرنسيين قد دافعوا عن أنفسهم بعناد شديد.

لقد صمدوا حتى ليلة 10 يونيو، وكانت الإمدادات تسقط بواسطة الطائرات، إلى أن أصبح من المستحيل على البريطانيين إمدادهم.

فصدرت إليهم الأوامر بالانسحاب، إن القسم الأكبر من الحامية نجح في الاختراق وشق طريقه والتحق بالجيش الثامن بعيداً إلى الشرق. إن قتال هذه الحامية كان العلامة الأولى لانبعاث

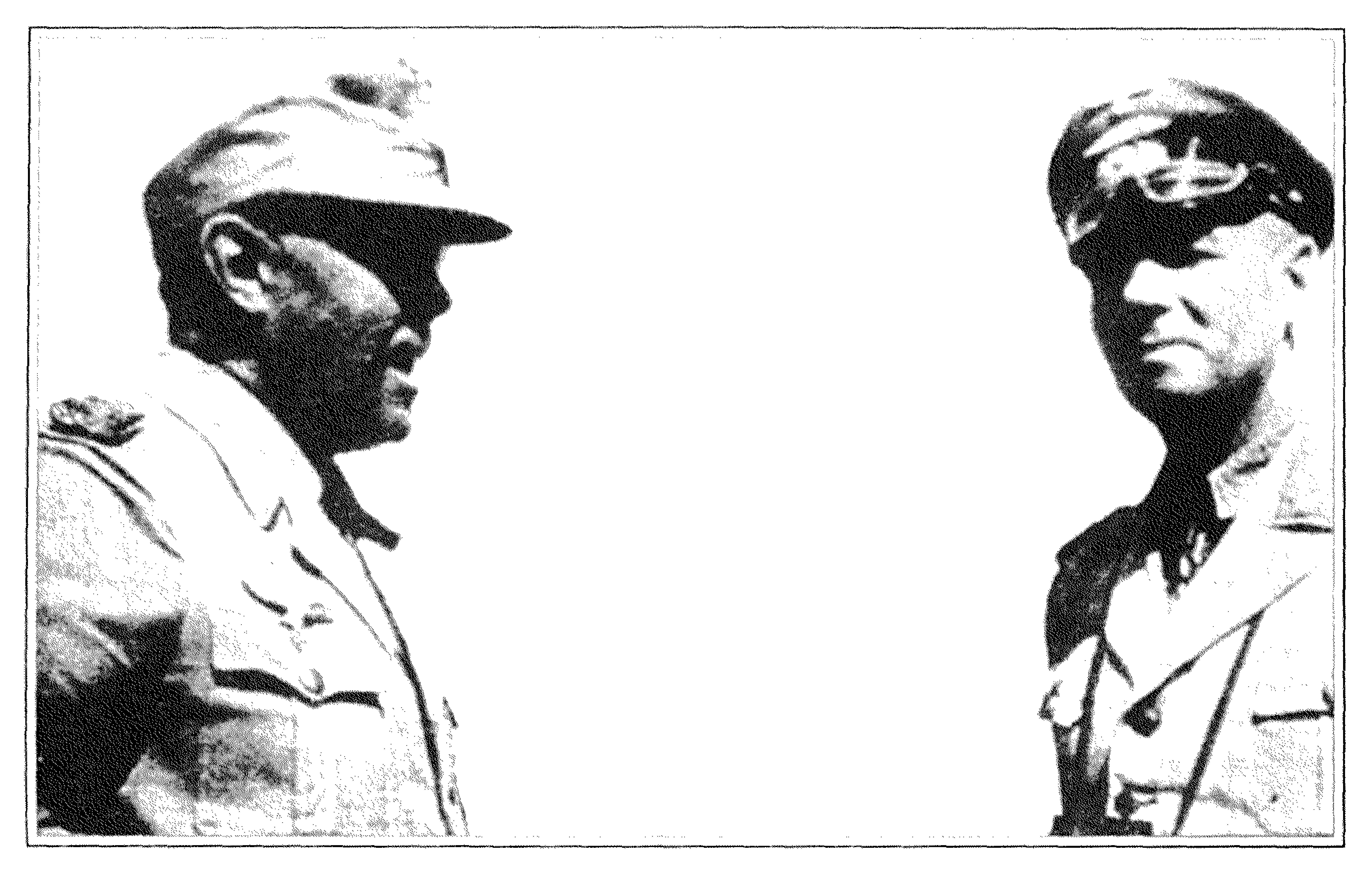
المقاومة منذ انهيار فرنسا في عام 1940، في هذا الوقت صمدوا ضد روميل العظيم قائد (فرقة الشبح).

تمكنا من اختراق خط جبهة عين الغزالة في منطقتين، لكن فرقة بينار الجنوب أفريقية لا زالت سليمة في نهاية الخط الشمالي. قرر روميل المجازفة باقتحام العدم، فدفع بالفرقة التسعين الخفيفة إلى الأمام تتبعها فرقتا البانزر الضعيفتان. لقد تمت السيطرة على الأرض الواقعة جنوب المطار.

في هذه الأيام كان القتال شديداً والمعارك شاقة، دبابة ضد دبابة في معركة تفور كالمرجل (القدر) في منطقة جسر الفرسان. إن قصة انتصارنا في تلك المعركة العنيفة، كانت تكمن وبكل بساطة في تفوق قوة ضربات دباباتنا وقذائف مدافعنا المضادة للدبابات. لقد ضربت الدروع البريطانية وانهزمت، وعندما خسر البريطانيون معركة الدبابات، فإن طبرق في الواقع أصبحت عملياً ساقطة.

وعندما تراجعت دبابات ريتشي فإنه أدرك بأن الجنوب أفريقيين، والفرقة 50 باتجاه الساحل في نهاية خط عين الغزالة، قد أصبحا معرضين للخطر فقرر سحبهما. شقت الفرقة البريطانية 50 طريقها قتالاً عبر الصحراء ومن خلال تشكيلاتنا للوصول إلى طبرق، ولكن بخسائر وتضحيات كبيرة، لكنها لم تنهر ولم تفقد معنوياتها.

أما الجنوب أفريقيين فقد انسحبوا، تقريباً، بكامل قوتهم في مساء 14 يونيو وعصر 15 يونيو من خلال الطرق الثلاث أسفل



محادثات كيسلرنغ مع روميل

المتحف الحربي البريطاني

المرتفعات إلى الطريق الساحلي، وفي أسفل تلك السفوح كان لدينا بعض القطعات والدبابات التي قطعت عليهم الطريق الساحلي، فشق الكثير من جنود العدو طريقهم إلى الخلف، إلى طبرق عبر الممرات الصخرية الوعرة القريبة من البحر.

وحسب اعتقاد روميل، فيما بعد، فإن أوكنلك، كان قد خطط مسبقاً لتجنب حصار ثانٍ لطبرق، فخطط لاحتلال مواقع حصينة تتمكن من منع قوات روميل وإيقافها عن التقدم باتباع تعبية (تكتيك) في مواقع ثابتة في مساحات في الجنوب والجنوب الغربي لمحيط طبرق، بقطاعات ثابتة وطوابير آلية متحركة تتمركز كدفاعات محلية. وبعد أن تم احتلال مواقع العدو في جبهة عين الغزالة، فإن أوكنلك أصدر أوامره بكل وضوح بضرورة إيقاف العدو عند الخط الممتد من عكرمة إلى العدم وإلى الجنوب من هذا الخط، وأن حصار القلعة يجب أن يمنع مهما كان الثمن. كما أن أوكنلك لا يزال في تخطيطه مصمماً على القيام بهجوم مضاد وإنزال ضربته، ولكن بعد إعادة تنظيم تشكيلاته حالماً تصل التعزيزات من سورية، (والتي تضم قيادة الفيلق العاشر والفرقة النيوزيلندية).

كان روميل يأسف لعدم قدرته على منع وصول القادمين، وفي نفس الوقت جهز أوكنلك مواقعه الدفاعية عند الحدود المصرية، كما تم تعزيز حامية طبرق وتقويتها بقوة من أربعة إلى خمسة ألوية مشاة، بالإضافة إلى دبابات دعم المشاة البطيئة من نوع «I» ومدفعية، وتبين لنا فيما بعد بأن المدفعية غير كافية.



روميل مع المؤلف، يتفحص مدفع ثقيل قرب حلفايا

استلم اللواء كلوبر قائد الفرقة الثانية جنوب أفريقيا قيادة القلعة حامية طبرق. وتولت ألويته الرابع والسادس مع لواء آخر مشكل من الفرقة الأولى تحت قيادة بينار، مسؤولية الدفاع عن القطاع الغربي لطبرق إلى طريق العدم. كان اللواء السادس يحتل مواقعه في أقصى الغرب، بينما احتل اللواء الرابع مواقعه في الجناح الجنوبي من خط الدفاع. لقد قاما بتغطية القطاع الذي كان روميل قد هاجمه بقوة من دون انقطاع في عام 1941 عندما كان الأستراليون يدافعون عن طبرق، وإلى الشرق من الجنوب أفريقيين كان يوجد اللواء الهندي الحادي عشر بقيادة العميد أندرسون، كان يحتل القطاع الذي كنت، بصورة خاصة، أفضله لهجومنا على القلعة في ذلك الوقت من اتجاه الدودة، وهو الموقع الذي اخترقه البريطانيون في شهر نوفمبر، فقرر روميل في خطته، أن يبدأ الهجوم من هذه المنطقة.

في اليوم الذي استلم فيه كلوبر قيادة الحامية وهو يوم 15 يونيو، قامت مجموعة استطلاع مدرعة بقيادة ريتسمستر فون هوهماير، تحت سيطرة وقيادة روميل شخصياً بالاتصال بسيدي رزق، وهنا وضع ثعلب الصحراء اللمسات الأخيرة لخطة الهجوم.

أصبحت طبرق تستحوذ على أفكاره، وإن احتلالها كان الشاغل الأكبر لتفكيره وأمنيته لأكثر من عام، ومع ذلك فإنه يعد لعمليات أخرى، وقد ذكر أنه لا يستطيع احتلال مصر إذا ترك طبرق وراءه. لقد فكر بدقة في خطة هجوم شهر نوفمبر، التي أحبطت

نتيجة لمعركة الصليبي، ولكنَّ كفته هي الراجحة الآن مرة ثانية، وكان ينوي استخدام خطته القديمة تماماً قدر استطاعته، مع استخدام كل قوته المتاحة.

في هذه المرة أيضاً، وجدت نفسي على نفس الأرض المألوفة عندي الواقعة إلى الجنوب من العدم، يوم كنت أرافق روميل في جولاته في هذه المناطق. إنه روميل القوي الجسم وذو العزيمة والتصميم، الذي يعمل بجد كما كان في الماضي منذ عدة شهور، عندما كنت بجانبه...

إن نيران مدفعية العدو وقصف طائراته، قد حولت حياتنا إلى شقاء وتعاسة وإلى إرباك، قمنا بهجوم بمجموعة قتال من الفرقة الخامسة عشرة بانزر، فرد البريطانيون بالدبابات التي ثبتت في القتال. أصدقاؤنا من الفرقة الحادية والعشرين بانزر اندفعوا بمجموعة قتال لمهاجمة الهنود في سيدي رزق، لكنهم تراجعوا أمام القصف المدفعي والجوي، بينما قامت الفرقة التسعون الخفيفة بهجوم خداعي باتجاه (العدم)، وتحرك القسم الأكبر من الفرقة الحادية والعشرين أسفل الوادي باتجاه سيدي رزق مرة ثانية، وفي اليوم التالي تمكنوا من احتلاله.

وخلال الليل، انسحبت القوات المدافعة عن العدم، وهي اللواء 29 الهندي بقيادة العميد دي. دبليو رايد. فكان ذلك إخفاقاً كبيراً للفريق أوكنلك، حسب اعتقادي، لأنه يريد منهم الصمود إلى

أن تصلهم التعزيزات. والآن، فإن مصير حامية طبرق قد حسم أكثر من ذي قبل.

في يوم السابع عشر شاهدت عيناي مرة أخرى مبنى ضريح سيدي رزق عندما كنت جريحاً، وعندما تكبد الجنوب أفريقيين خسائر ثقيلة قبل سبعة أشهر مضت. في عصر ذلك اليوم جرت معركة عنيفة، حيث زج روميل بمائة دبابة ضد اللواء الرابع البريطاني فتمكن من تحطيم دباباته، ولم يبق منه سوى عشرين دبابة.

وبذلك انسحبت الدروع البريطانية إلى قرب كمبوت، مخلفة طبرق وراءها من دون حماية.

رأيت الماموث، المنظر المألوف لي، وهي عربة القيادة المدرعة الضخمة، وهي تنحدر متهادية من سفوح العدم ثانية، وروميل جالس في مكانه الاعتيادي على سطح العربة، وصاح قائلاً: «إن الدرع الواقي الذي كان يجب أن يحمي الجانب الضعيف لهذه القلعة، والكائن إلى الشرق من موقعنا، قد تم سحقه بالكامل، لقد ربحنا الجولة الأولى قبلَ المعركة المباشرة للنطاق الدفاعي لطبرق. علينا الآن أن نغتنم هذه الفرصة حالاً، فجميع تشكيلاتنا تقوم بهجوم على طبرق، مستخدمين كل ما لديهم من قوة»..

الفصل الثامن والعشرون

نحن نسحق طبرق

في تلك الأيام من شهر يونيو عام 1942 كان الصيف حاراً في الصحراء، أما في الليل وفي الصباح الباكر فيكون الجو بارداً جداً، وحسب ما أذكر فإني لم أر أبرد من ليلة 19 ـ 20 من شهر يونيو، فربما كان كَظْمُ الانفعال أو كبْحُ شعور الاهتياج يجعلني أرتجف كثيراً؟. كانت ليلة هادئة ما عدا انفجارات عرضية بين فترة وأخرى، ولكن بعد عدة ساعات بدأت ضوضاء المعركة وضجيجها.

مجموعات من البشر تربض تحت بطاطين من الصوف في هذا الوادي الصغير، (الدودة)، لقد خيم الصمت على الجميع وأصبح الحديث همساً، وفكرت بأن العدو ربما سمعنا مع أنه كان يبعد عنا كما أعتقد أميالاً بعيدة، فالثرثرة هنا تبدو وقاحة وليس لها علاقة بالمعركة. كان الحديث مميزاً قبل المعركة.

هندسة الاقتحام ومشاة العاصفة (الانقضاض) وبجانبهم

أسلحتهم ومعداتهم التي صرفت خلال النهار: متفجرات، قنابل يدوية، كاشفات الألغام، قاطعات الأسلاك الشائكة، رماة المشاعل، وشموع توليد ستارة الدخان رشاشات آلية وذخيرة. إنها دقائق معدودة قبل ساعة (ص)[1] الصفر. دقائق معدودة للتفكير، وخاصة، أولئك الرجال الذين اشتركوا خلال أبريل ومايو منذ عام مضى في الهجمات العقيمة والذين يكرهون القلعة.

لكنني الآن أكثر تفاؤلاً من قبل، يوم كنا في قطاع بلاسترينو ورأس المدور، خلال العام الماضي. هل تولّد هذا الشعور نتيجة لما يبدو أننا نركب موجة النجاح؟ أم أنه قد تولد نتيجة لمعرفتنا الأكيدة بأن حامية طبرق ليست مستعدة كما كانت في عام 1941؟ أم أن هذا الشعور بالتفاؤل هو نتيجة لمعرفتنا بجبهة طبرق جيداً، وأن (الدودة) تم اختيارها كأحسن نقطة للانطلاق.

عدت بأفكاري إلى بداية شهر أبريل من عام 1941، عندما أصدر روميل ـ وكان يطوف في هذا القطاع ـ أوامره لي بأن أقود دورية استطلاع ليلية، رافقني فيها هوندت الضابط الخبير من الفرقة الخامسة الخفيفة، ويرافق كل منا ثلاثة جنود لتشغيل كاشفات الألغام. كنا نتقدم بهدوء لاستكشاف الموقع الذي نحتله الآن والأراضي الممتدة إلى الأمام. وبعد ساعات من العمل، أخذنا

(1) وهي الوقت المحدد لانطلاق الهجوم (ساعة الصفر)، وتبدأ عادة بغارات جوية وقصف مدفعي على أهداف محددة وفي وقت محدد. (المراجع).

طريقنا إلى الأمام باتجاه خنادق المواقع الرئيسية، وكانت المفاجأة، أن هذه المواقع كانت مهجورة.

وقبل الفجر زحفنا إلى الخلف باتجاه الشمال بموازاة طريق البردى، لقد اهتم روميل بتقريري، لكنه لم يكن مستعداً للقيام بأي عملية من أي نوع في قسم من محيط طبرق، ولكن قيمة الدورية بالنسبة لي هو أنني تعرفت على طبيعة الأراضي الممتدة أمامنا.

«الجميع يستعدون!»، نداء الأوامر مر عبر الخطوط، أوقف الجميع التدخين، الأسلحة والمعدات بدأت تزمجر، أشكال مظلمة بدأت بالوقوف في كل مكان، ركبنا عرباتنا وقدنا بحذر إلى مسافة أقرب نقطة من أهدافنا. ترجلنا من عرباتنا وتقدمنا بشموخ على أقدامنا إلى الأمام حيث قطعنا مسافة لبضعة أميال بأعين مجهدة ومشدودة وآذان مرهفة، وفي النصف الأيمن من السماء كان يلمع نجم الشمال الذي ساعدني على تحديد الاتجاه نحو الشرق.

بدأنا نستخدم كاشفات الألغام، وإلى حد الآن، لم نصادف أي لغم يمكن أن يعوق تقدمنا. فكنا نتقدم ونسحق تحت أقدامنا القواقع البحرية والآثار التاريخية الماضية عندما غسل البحر الأبيض المتوسط سهول هذه الصحراء التي نطحنها تحت أحذيتنا.

ها هي الأسلاك الشائكة تلوح أمام أعيننا في عتمة الليل، بدأت الأيدي التي تحمل كاشفات الألغام تتحرك، وبدأت تلك المعدات تطلق أصوات الإنذار. كان الهدوء يخيم على خطوط

العدو، ما عدا حفيف بعض القذائف التي تطلق عرضاً وتمر عالياً فوق رؤوسنا.

زحف رجال المشاة بكل هدوء في أحد المواقع، ثم تقدم رجال هندسة الاقتحام تحت تغطية من نيراننا إلى أن وصلوا إلى الأسلاك الشائكة.. وقد تمكنوا من رفع الحواجز وقطع الأسلاك بهدوء تام، ورفعوا عدداً من الألغام. ثم رجعوا زاحفين إلينا، حيث كنا منبطحين على بطوننا في انتظار لحظة انطلاق الهجوم عند الفجر.

ومن أحد الجانبين سمعنا رشقات من رصاص رشاشة (الفيكرس)، وأعقب ذلك صوت انفجار سريع وقصير، كان هذا مدفع رشاش ألماني. إن قوات الهجوم في جناحنا يجب أن تكون على اتصال بالعدو أو ربما قد اصطدمت بدورية معادية. ساد الهدوء مرة ثانية ونحن ثابتون في انتظار إشارة الانطلاق للهجوم، بدأت تلوح في السماء بداية الفجر المبكر، ومع ظهور ضوء النهار بدأت مدافعنا بفتح نيرانها، في البداية كانت رماية مفردة ثم ازدادت عنفاً وكثافة، لقد غمرت كل محيط دفاعات العدو، وانفجرت أولى القذائف على بعد ياردات قليلة فقط أمامنا. تملكني الخوف، كان يجب أن أطلق إشارات تنوير للتحذير، لكنَّ هذا سيكشف مواقعنا، سدود النيران تزحف إلى الأمام، ثم سمعنا زئير أصوات عالية: إنها طائرات شتوكا تقترب بحذر، وضعنا أشرطة التمييز (التعارف) التي جلبناها معنا، وقبل الآن كنا قد ذقنا طعم قنابل طائراتنا من نوع

شتوكا، كما ستحدث مرات أخرى في معركة العلمين في ما بعد.

بدأت المعركة بعيداً، في الجناح الذي كان عصيباً من قبل، حيثُ انطلقت نيران الرشاشات الآلية الثقيلة ومدافع الهاون، وكانت طائرات شتوكا تلوح مقدماتها وهي تنقض قريباً ومن فوق رؤوسنا، لقد التحمت بتهور بمحيط دفاعات العدو، وانفجارات القنابل تدوي في الأسفل لتسقط داخل حقول الألغام، لقد فكر روميل في خدعة جديدة في الصحراء، لم يكن يقصف المدافعين، ولكنه يقصف بعيداً في حقول الألغام، لقد كانت القنابل تنفجر واحدة تلو الأخرى في سلسلة متواصلة: قنبلة واحدة تفجر سلسلة من الألغام، تشبه انفلاق الذرة المتواصل بعد صدمة الانفجار الأول. وحالما تفرغ طائرات شتوكا حمولتها، تزيد من سرعة هدير محركها وتعود منخفضة من فوق رؤوسنا، الطائرات تطير بدون تدخل من طائرات السلاح الجوي الملكي البريطاني التي تم طردها من مهابط الطائرات في كمبوت، وإن السلاح الجوي الألماني لم تزعجه طائرات الهاريكان البريطانية.

عند سقوط أول قنبلة من طائراتنا شاهدنا عدداً من الرجال أمامنا يرجعون بأقصى سرعة إلى ملاجئهم، أولئك كانوا رجال المراصد الأمامية للعدو، لقد كنا منبطحين في وادٍ غير عميق ويبدو أن العدو لم يتمكن من رصدنا. حانت اللحظة الحاسمة، فبدأنا نفرغ أشرطة رشاشاتنا في تتابع سريع نحو الأرض التي اختفى فيها العدو، وواصلنا دكهم وهم في ملجأ بارز ومجرد، كان يوحي لنا بأنه نقطة قوية.

قفز رجال هندسة الاقتحام وتقدموا حاملين المتفجرات لتدمير عوائق الأسلاك الشائكة الأبعد، وانطلقت نيران الجحيم.

انطلقت النيران الكثيفة من المدافعين: اللواء 11 الهندي الذي يتكون من كتيبة الملكة الخاصة الكاميرون للأراضي المرتفعة وكتيبة المهراتا 215 والكتيبة الهندوسية جوركاس 7 ـ 2 الذين كانوا يواجهوننا.

ومن الجناح بدأت رماية رشاش تصب نيرانها نحونا، ولكن رجال هندسة الاقتحام ضغطوا عليهم بشدة، فأطلقوا إشارات ضوئية إلى المدفعية، فبدأ سد من النيران ينطلق إلى الأمام، ثم أشعلوا مثيرات الدخان.

كانت هذه إشارة لنا، وتحت غطاء شبكة من الدخان اندفعنا إلى الأمام. سقط قليل من الرجال. ولكن بخطى سريعة وصلنا إلى الخندق الأول الذي كان خالياً، لدينا الآن غطاء وميدان جيد للرماية، وحماية من قذائف النيران التي تنطلق من طبرق وتسقط خلفنا، تقدمت مشاتنا الآلية مع المدافع المضادة للدبابات وبدعم من الدبابات التي بدأت بالتقدم نحو الثغرة.

تغلب رجال هندسة الاقتحام على خنادق ضد الدبابات حيث تم ردمها بالتراب حتى أصبحت كالجسور، وزمجرت الدبابات متقدمة إلى الأمام، وزحفت قوات الدعم من المشاة من خندق إلى آخر. توقفت للحظات لأنظر بعيداً وإلى يميننا، لقد تقدمنا بنجاح، وقد زحفت قطعاتنا إلى الأمام وهي مستعدة لتغطيتنا بنيران جانبية

وحمايتنا من المواقع التي أمامنا. جيد . . . إنه عون عظيم . . ! . .

نحن نتعرض الآن لضربات مدفعية طبرق، كان المجهود الرئيسي لقذائف العدو تنطلق ضد دباباتنا والمشاة الآلية من الفرقة 15 بانزر، أصبحنا الآن تقريباً عند الخط الدفاعي الرئيسي القوي.

عاق تقدمنا للحظات حقل ألغام غير متوقع، واخترقت الدبابات مع المشاة والمدافع المضادة للدبابات خلفهم، فتصدى لنا الهنود وخصوصاً كتيبة مهاراتا 5 ـ 2 بقوة وقاتلوا قتالاً جيداً حسب استطاعتهم، لكنهم كما يبدو فقدوا صوابهم من جراء هجومنا السريع وصدمات قنابل طائرات شتوكا.

قامت كتيبة جوركاس 7 ـ 2 بشن هجوم مضاد في ناقلات رشاشات (برين)، لكننا اكتسحناهم من الجوانب ومن الخلف بنيران مكثفة من الرشاشات الآلية، ومدافع ضد الدروع ومدافع الهاون. كان الوقت الساعة 07:30 أو بعدها بقليل، قبل أن تبدأ المدفعية الخفيفة بالقصف المركز نحونا، لقد كان عملاً متأخراً، رجال مدفعية العدو يركزون نيرانهم على الدبابات وفي الوسط بين قواتنا.

ولكن، كانت لدينا التغطية الجيدة، ونحن مسرورون لذلك.

الهجوم جرى وفق الخطة، ما عدا أن هذا النجاح حدث بأسرع مما كنا نتوقع، لقد خسرنا عدداً قليلاً من القتلى والجرحى، إلا أنها خسائر خفيفة نسبياً. قمنا بنقل أسرانا إلى الخلف وتقدمنا إلى الأمام، اتصل رجالي مع بعض القطعات المحمولة من كتيبة

البنادق 115، وخلال عصر ذلك اليوم، كانت مدرعات روميل تتقدم تحت ستارة من المدافع المضادة للدبابات من المشاة الآلية الأولى، تحرث الأرض بثبات بقذائفها متقدمة باتجاه هدفها الأول (الشوكة) (مفرق طرق ـ العدم ـ طبرق ـ البردى، والتي يطلق عليها المدافعون عن طبرق مفترق طرق الملك).

منذ بداية عام 1941، كنا نعلم بأن العدو أقام بطاريات مدافعه الفعالة في هذه المنطقة، وأن عدداً من بطاريات العدو القوية هذه كانت قد أبطأت تقدمنا، في البداية الكتيبة الملكية الأولى وفيما بعد، على ما أظن، مدفعية جنوب أفريقيا، لكنها ضربت مدفعاً بعد مدفع واكتسحت بواسطة الدبابات والمشاة. وواجهت الدبابات الأخرى كتيبة الدبابات الملكية الرابعة قرب مفترق طرق الملك ودمرتها. أعادت الدبابات البريطانية تنظيم تشكيلاتها واندفعت إلى الأمام في هجوم مضاد بالقوة، وكما يبدو فقد اختل نظامها ولا يوجد تنظيم للتعاون ودعم من المشاة، كانت دباباتهم ضعيفة في مواجهة دباباتنا البانزر العلامة 3 و4. عند الضحى لم يبق من دباباتهم سوى ست دبابات لا زالت في المعركة، وبدأت تكافح للانسحاب بعيداً من مسرح القتال.

بعض الدبابات، رعيل أو أكثر، حاولت مهاجمتنا من مواقع كتيبة الكاميرون الجبلية التابعة للواء الهندي الذي كان يقاتل قتالاً شديداً وحسب قدرته، ولكنهم أيضاً، تم سحقهم بالمدفعية المضادة للدروع من الفرقة 90 الخفيفة في طريق البردى عند (مفترق

طرق الملك). أربعة دبابات فقط، كما قال رجالنا فيما بعد، هربت بعيداً من القتال.

لم تعد دباباتنا تهتم بنجاة قليل من الدبابات، فالخطة التي كانت لديهم أن يقطعوا القلعة إلى قسمين وذلك بالضغط على الشمال إلى الميناء.

كنا نعلم بأن الجنوب أفريقيين لم يتورطوا في القتال، وكان انتظارهم لنا عبثاً إذ تمت مهاجمتهم من الجبهة في قطاعهم. نحن الآن داخل القلعة ومتواجدون خلفهم، إحدى مجموعات دباباتنا استدارت إلى الغرب مع قسم من الفرقة 90 الخفيفة، لإكمال مواجهة الجناح الغربي، حيثُ احتياطي مشاة العدو ومن ثم التدخل في معركة مع اللواء (201 حرس).

قامت أربع عشرة دبابة ترافقها مشاة آلية من الفرقة الخامسة عشر بانزر بالاندفاع في سباق على الطريق باتجاه الميناء، على الرغم من نيران المدفعية الدفاعية ونيران المشاة العقيمة من العربات، فاكتسحت دباباتنا المدعومة بكتيبة 115 المزيد من بطاريات المدفعية البريطانية، وفي الحال شاهدنا الميناء بوضوح، حيث انطلقت سفينتان صغيرتان بسرعة يتصاعد منهما البخار عالياً، وجهنا مدافع عيار 88مم المضادة للجو نحوهما ولكنهما ابتعدتا بعيداً نحو أعالي البحار.

بعد ذلك تقدمنا مسرعين لنتجاوز كتلة من العربات الواقفة التي سيحتاجها العدو في حال محاولته الاختراق من القلعة مع

حاميته المندحرة. وصلنا إلى الميناء تماماً وحسب الخطة، قبل حلول الظلام.

أوقعنا الاختلال والفوضى في طبرق، لم نعد نحتاج إلى تبادل إطلاق النيران في القسم الأكبر من حامية كلوبر الجنوب أفريقية.

كان روميل، شخصياً داخل قلعة طبرق منذ منتصف النهار، وكان الأسرى يتقدمون قرب عربة قيادته الماموث عند تقاطع طرق الملك، وعلى ما يبدو فإن عدداً قليلاً من أولئك الأسرى كانوا يعتقدون أن هذه الشخصية القوية، والقصيرة القامة الجالسة على سطح عربة الماموث ورجلاها متدليتان من على سطح العربة يراقب من خلال منظار الميدان تقدم دباباته، كان هو ثعلب الصحراء شخصياً. إن طموحاته وأهدافه منذ أربعة عشر شهراً قد تحققت.

وحسب علمنا، فإن العميد كلوبر كان على مقربة منا في هذا الوقت، وعند حلول الساعة 1600 من بعد ظهر ذلك اليوم، كانت دباباتنا تبعد بمسافة نصف ميل، وعلى ما يبدو، فإنه نقل مقر قيادته نتيجة لقوة قاهرة، ولم يبق لديه إلاّ القليل ليعمله.

ارتفعت أعمدة الدخان المتصاعدة إلى السماء، الذخائر تحترق وتنفجر مستودعاتها قرب الميناء، وما إن غربت الشمس حتى أصبح الميناء بين يدي روميل، لواء الحرس واحتياطي حصن كلوبر، تم اكتساحهم جميعاً ودمرت مقارهم، ولكن الجنوب أفريقيين، عملياً لا زالوا بكامل قوتهم.

خلال الليل خطط روميل لمهاجمتهم من المؤخرة، وخطط لمشروع خاص للهجوم، معتمداً على اتجاه الحك البوصلة بين الميناء وحصن بلاسترينو.

في نفس الوقت كان كلوبر يعقد مؤتمراً عند منتصف الليل مع ضباطه، فيما إذا كان في استطاعته محاولة الاختراق والخروج، والتي كانت مستحيلة لاحتياجهم إلى الآليات، أو القتال حتى النهاية. كان على اتصال مع الجيش الثامن باللاسلكي، اللواء ريتشي على أي حال لم يكن موجوداً، وترد أوامره فقط.

الجيش الثامن يطلب الصمود لمدة 24 ساعة، ولكنه لم يستطيع في نفس الوقت جلْبَ تعزيزات من قوات الدبابات في الخلف من منطقة كمبوت، إلى محيط منطقة طبرق لمساعدة كلوبر.

إن الخطط السريعة التي وضعت من قبل الجنوب أفريقيين خلال الليل، للوقفة الأخيرة، أصبحت غير ذات جدوى، وفي الأراضي الصخرية المحيطة بطبرق، أصبح من المستحيل عند الفجر القيام بدفاع سريع لمواجهة مؤخرة خط الجبهة القديم، لا يمكن لأي عمل مرتجل إيقاف هجوم روميل، خصوصاً أنه لا يوجد أي علامة لتدخل قوات الدروع البريطانية. وعند الساعة 07:45 صباحاً استسلم كلوبر.

لقد سقط خمسة وعشرون ألف رجل أَسْرَى وكميات كبيرة من الإمدادات قبل نهاية اليوم، فأصدر هتلر قراراً بترقية روميل إلى

رتبة مشير. احتفلنا جميعاً بالغنائم! علب فواكه معلبة، بطاطس أيرلندية، سجائر.

ابتهجنا طوال اليوم متمتعين ببركات (النافي البريطاني) N.A.A.F.I [1]، كنا مبتهجين ونحن ندور حول مطابخ الميدان حيث يوجد سجق الخنازير، والبطاطس، وكل الأشياء النادرة الجاهزة للأكل، كانت توجد علب الجعة وعلب الأناناس من جنوب أفريقيا. لقد رفضنا تموينا، وخصوصاً اللحم المعلب الإيطالي (حمير موسوليني) المكروه والبغيض، واستبدلناه بلحم البقر الأسترالي الشهير، الذي كان الأستراليون يمقتونه، كما نمقت نحن لحم البقر الإيطالي. كل هذا حدث لبعض الوقت، وقبل أن نجد أنفسنا متعاطفين مع مشاعر رسائل العدو التي وقعت بين أيدينا، والتي كانت بعيدة عن لذة لحم البقر. عندما أتيحت لنا الظروف، قمنا بإرسال جزء من اللحم الأسترالي المحفوظ إلى الوطن، لقد كنا ننظر إليه بترف في ألمانيا.

(1) اختصار لخدمات حوانيت: الجيش، البحرية، القوات الجوية والمدفعية (المراجع).

الفصل التاسع والعشرون

لماذا سقطت طبرق؟.. تقييم المعركة

لم يكن لدينا وقت طويل لتقييم معركة طبرق في ذلك الوقت، ولكن السؤال العسكري الذي يطرح نفسه، كان في غاية الوضوح، كيف صمدت طبرق تماماً خلال سبعة أشهر من الحصار، وسقطت الآن بدون أن تتمكن من المقاومة، ليوم واحد، ضد هجوم لا يختلف عن الهجمات السابقة؟..

حسب اعتقادي، أن هجوم روميل الأول في بداية عام 1941، كان ضد القوات الأسترالية الرابضة في محيط طبرق، يومها لم يكن تحت تصرف روميل ولو فرقة ألمانية كاملة في ترتيب قواته، كما كان روميل قد استخدم القسم الأكبر من فرقه الألمانية المتاحة لتجهيز المواقع، وبخاصة لإيهام العدو بقدرته على حصار مواقعهم. بالطبع لم يهاجم القلعة طوال السبعة شهور الأخيرة، لقد قام بهجومين فقط في شهر أبريل، وفي بداية شهر مايو 1941، بعد

ذلك ركز روميل انتباهه على الحدود، بينما كان يعد خططه للهجوم في شهر نوفمبر، ذلك الهجوم الذي كانِ من الممكن أن ينجح، أما هذا الهجوم فقد خطط له لينطلق ضد القلعة الأصلب من طبرق يونيو 1942.

وخلال الأشهر التي كان الأستراليون قد تولوا الدفاع عن طبرق، فإنهم كانوا يقوون خطوط دفاعاتهم بثبات وبكل مهارة وإحكام، حتى إنه لا يوجد وجه للمقارنة بين قوة طبرق في تلك الأيام، وطبرق يوم تولاها الفريق ويفل. إن الهجومين الأولين اللذين قام بهما روميل ضد طبرق، كانا منطلقين ضد قطاعين قويين بصورة خاصة في الجنوب الغربي من القلعة، وكلما غير تعبيته (تكتيكه) كان المدافعون ينجحون في حشد قواتهم الاحتياطية، وخصوصاً دباباتهم، أينما انكشف لديهم موقع الخطر، وعندما يصدون الهجوم، كانت لديهم القدرة لإعادة بناء وتقوية محيط دفاعاتهم.

أما عندما هاجم روميل في شهر يونيو، لَمْ يكن المدافعون تقريباً، مُهيَّئين مادياً ونفسياً. ولم يكن هناك خطأ أو تدهور في معنويات الجنوب أفريقيين، غير أن القسم الأعظم من الفرقة كان عديم التجربة نسبياً، ولم يكتسب الخبرة والثبات في المعركة مثل معظم رفاقهم ومعظم قوات الفيلق الأفريقي.

لم تكن الحامية في مجموعها تتوقع الاندحار، وبرغم ذلك فقد أجبر الجيش الثامن على إخلاء خط عين الغزالة، وخسر

المعارك الشاقة للدبابات في (جسر الفرسان)، وقد عرف هؤلاء المدافعون عن القلعة، أن القسم الأكبر من الجيش الثامن قد انكفأ وانسحب إلى الحدود.

من ناحية أخرى لم تكن الحامية في حالة نفسية جيدة للانتصار، أما روميل فقد كان مبتهجاً لنجاحه وكذلك كان رجاله من الفيلق الأفريقي. مادياً قلعة طبرق تركت تحت ضغط الحصار ليفسدها ولتهمل تحصيناتها.

في شهر نوفمبر كان الجيش الثامن لديه الثقة لتحرير طبرق مبكراً في شهر ديمسبر، وقد دفع روميل إلى الانسحاب إلى العقيلة، وبرغم ذلك لم يتمكن الجيش الثامنُ من الضغط على روميل ودفعه إلى أبعد من ذلك، انتعشت طبرق من الناحية النفسية، وبدأ البريطانيون ينظرون إليها كقاعدة إمداد متقدمة وملائمة. وحتى عندما انسحب الجيش الثامن عائداً إلى عين الغزالة، لم يتم إعداد طبرق وتجهيزها لمقاومة هجوم العدو، لم تعد فيها نقاط قوية بعيداً عن المركز، وطوابير آلية لإيقاف العدو عن بعد؟. حقول الألغام، في الحقيقة كانت ضعيفة، فعدة آلاف من الألغام رفعت لتزرع في الأمام لتقوية خط عين الغزالة، حتى الخنادق المضادة للدبابات أهملت وامتلأت بالتراب.

وأخيراً، ولأسباب عدة، كانت طبرق لا تزال في الحقيقة تتوقع التهديد والخطر، وبأن روميل سيهاجم مرة أخرى من قطاع رأس المدوّر رغم سقوط بعض وثائقنا السرية بين أيديهم، التي

كشفت خطة روميل المبكرة للجناح الخارجي لبئر حكيم وخط عين الغزالة والضربة الموجهة إلى منطقة العدم وسيدي رزق! تلك كانت الخطة المبكرة التي تم إعدادها للهجوم على القلعة من اتجاه الدودة، في حال وصول قواتنا إلى تلك المنطقة، أما الآن فقد وضع روميل الخطة المبكرة للعمليات بدقة وإحكام، التي نفذت كنتيجة ظاهرة، أكثر من عنصر المفاجأة.

يجب على روميل الآن أن يتحصل على ميزة كان في حاجة إليها من قبل منذ أربعة عشر شهراً. حيث إنه في ذلك الوقت، كانت معرفته بالدفاعات في الغالب صفراً، وحتى في الأخير كان هذا جديراً بالاهتمام، الخريطة الأولى التي تحتوي على تفاصيل ومعلومات دقيقة كانت مفيدة بعد الهجمات الأولى فقط، وكان عدد من النقاط القوية الطبيعية التي اكتشفت مفاجأة لنا، ولكن تم دراسة هذه الدفاعات عن قرب في الشهور التالية، وتم تدقيق قوة وضعف كل قطاع من القطاعات في وقت إعداد خطة الهجوم في نوفمبر.

أما الآن، في شهر يونيو، فإن كل جزء من الدفاعات كان أضعف بكثير مما كان عليه في شهر نوفمبر. لقد كانت جبهة طبرق البحرية تبلغ خمسة وعشرين ميلاً ومواجهة الجبهة البرية امتدت بطول 33 ميلاً. ومع ذلك، فلحماية هذه الجبهة الهامة، خصص الجيش الثامن 61 مدفعاً من عيار 6 رطل فقط، إن هذا الأمر لا يتيح الفرصة لآمر الحامية لحشد وتركيز قوات كافية لإعداد واتخاذ الإجراءات لشبكة مضادة للدروع، يمكنها توجيه ضربات للهجوم

المركز لدباباتنا، أو لاحتوائها وإيقافها لفترة حتى تتمكن دباباته المدافعة من الاحتشاد لهجوم مضاد فعال.

لقد سقطت طبرق، لعدم إعداد خطة قياسية ناجحة لمواجهة الاحتمالات الطارئة لأي هجوم جبهوي متهور، وبسبب الدروع التي يفترض أن تمنع روميل من الضرب لمسافات وإرهاقه في الميدان.

الفصل الثلاثون

فــي إجـــــازة

احتل روميل مدينة طبرق، ولكنه غير راضٍ. لذلك لم يتريث للاحتفال بالنصر. ففي أقل من يومين اندفع بقواته بعد إعادة تنظيمها في تقدم أبعد.

في يوم 22 يونيو اندفعت قواته الخفيفة بطول الطريق الساحلي ودخلت البردى، التي اعتبرها مكافأة، عندما احتلها فون فيخمار قبل عام مضى. في تلك الليلة انسحبت الفرقة الأولى جنوب أفريقيا التي كانت تحتل مواقع حرس المؤخرة في نهاية مرتفعات ممر حلفايا، وفي الصباح كان روميل مستعداً لشق طريقه والاندفاع داخل مصر جنوب سيدي عمر.

في فجر يوم 24 دفع قواته الآلية إلى الأمام من ممر حلفايا عبر الصحراء وبطول الطريق، وبحلول الليل كنا قد وصلنا بمحاذاة سيدي براني، على مسافة أربعين كم فقط من مرسى مطروح. كانت

بعض عرباتنا المدرعة، في الحقيقة، قد توغلت حوالى عشرين ميلاً أبعد إلى الأمام.

عقد روميل مؤتمراً مع رئيسه الاسمي القائد الإيطالي باستيكو، فعند وصول طلائع الجيش إلى البردى قرر باستيكو ضرورة الوقوف واحتلال جبهة السلوم ثانية، وعدم محاولة التقدم إلى داخل مصر.

ولكن روميل طمأن باستيكو بأن كيسلرنغ قد وعده بحل مشاكل الإمدادات، إمدادات القوات المتقدمة إلى مصر، فهي مؤمنة. عندها ترك باستيكو القرار النهائي لروميل.. فقرر روميل الاستمرار في التقدم.

عبرت وحدتي الحدود بعيداً إلى الجنوب من مادالينا وتقدمت سريعاً إلى الشرق. وصلنا إلى خط السكة الحديدية شرق سيدي براني في مساء 25 وهو اليوم الذي عزل فيه أوكنلك ريتشي من قيادة الجيش الثامن، واستلم قيادة الجيش الثامن شخصياً. لقد تسبب روميل حتى الآن في عزل اثنين من قواد الجيش الثامن كننجهام وريتشي ويواجه الآن قائدين في القيادة العليا ويفل وأَوكْنِلِكْ.

وسنرى أوكنلك معزولاً أيضاً، وبعد ذلك سيواجه ألكسندر ومونتجمري. هذان القائدان البريطانيان الشهيران كانا قد وصلا إلى الصحراء قبل أن أعود للقتال ثانية، وكان هذا في العلمين في شهر أغسطس. بالنسبة لي فقد تمتعت بضربة حظ غير متوقعة بحصولي على إجازة إلى ألمانيا.

ارتكبت خطأً في تقييم سَوْقِيَّة (استراتيجية) الموقف العسكري، حيث كنت أعتقد بأن روميل سوف لن يواصل تقدمه في عمق الأراضي المصرية، وفيما إذا كان قد خطط لهذا، لأن الجيش الثامن لا زال على جانب من القوة، بحيث يمكنه وقف روميل على جبهة السلوم.

وكان عليّ أن أعرف جيداً، بسبب معرفتي لجرأة روميل وعقله المنظم، لقد حقق ما كان يبدو مستحيلاً، وقلص طبرق إلى حجمها في لحظات، وأصبح الآن شخصية عالمية وبطلاً قومياً لوطنه ألمانيا. لقد بدأ نجمه في الصعود، حيث إن هتلر قدمه وأمر بترقيته من عقيد إلى مشير في ثلاث سنوات.

كنت أفكر بفخر وغرور لعلاقتي التي اقتصرت على مرافقتي لبطل الشعب الألماني، غير أنني أعتبر نفسي جندياً في خطوط جبهة القتال، وعندما تمركزت كتيبتي في معسكر مؤقت، على مسافة ما شرق طبرق، وبعد يومين من احتلال القلعة، ذهبت إلى ضابط الركن رئيس شؤون الأفراد للفرقة الخامسة عشرة بانزر وطلبت منه بإصرار وباحترام، عملاً قتاليّاً جديداً، لقد دمرت كتيبتي تقريباً، ولكن لا توجد في العادة حجرة للآخرين لضابط بصحة وشباب. «هذا صحيح يا شميدت، أنت تريد قيادة رجال مرة أخرى». وهز ضابط الركن رأسه: «ولكن ليس ما نحتاجه كلنا هو القطعات»، ثم قال بدعابة: «إذا لم نستطع منحك قيادة، فلماذا لا تأخذ إجازة؟».

إنني أعتقد بوجود فرص قليلة لعمليات مثيرة على الحدود المصرية في الأسابيع القليلة القادمةِ، واتخذت قراراً سريعاً. فوجئت بالرائد يقول: «نعم صحيح. سأكون سعيداً». وعلى أي حال، إنني في السادسة والعشرين من عمري، وأنا الأقدم في تواجدي؟ في أفريقيا من بين القوات الألمانية.

وقبل أن أعرف أين أتواجد، أمرت بالذهاب إلى درنة. حيث أُرسلت ضابطاً في مهمة سرية عاجلة باليد إلى روما، لقد أجبرت على الطيران في هذه الطائرة.

بعد أيام من وقوع تلك المعركة البطولية الدموية، وجدت نفسي أتجول ماشياً في شوارع تلك المدينة الخالدة بسلام، مع النساء الأنيقات والرجال الذاهبين إلى المطاعم، إنها حياة لطيفة يسودها الترف.

كم هو إحساس جميل، الشعور بالمتعة في الوقت الذي يتودد لي الحلاق أثناء الحلاقة مستخدماً الشامبو، وحلاقة وتدليك الوجه وتقليم الأظافر، من شقراء تتأنق بالبهجة!.. لقد تناولت المثلجات في المقهى أراقب النساء الجميلات اللواتي يعبرن الشارع، وفجأة شعرت بالبهجة والسرور لأنني قريباً سأرى حبيبتي هيرتا.

كما أنني لا زلت أفكر، فقبل أيام قليلة فقط، كنت في أوج سعادتي وسروري عندما شاركت وشاهدت معركة البانزر (الدبابات) الناجحة تصل إلى ذروتها. أما الآن فتبدو الحرب غير ذات أهمية

بعد كل هذه الشهور، عندما كانت تسيطر عليّ وكأنها أسمى شيء في تفكيري واهتماماتي، والآن العلاقات الشخصية أخذت مكانها خفيفة مرة ثانية في حياتي.

وبعد حمام فخم ومنعش ارتديت ثيابي، لقد اشتريتُ من زوجة إيطالي تتكلم اللغة الألمانية، وهي تعمل في متجر لبيع التحف الأثرية القديمة، بعضَ الهدايا، ثم عرضت علي أن تطلعني على ما لديها من ثياب أنيقة وأردية النوم بدون الاهتمام بقسائم الشراء، لذلك اخترت جوارب حريرية وفستاناً نسائياً للسهرة، وملابس رياضية وقبعة نسائية، وحقيبة يد نسائية، قفازات ومعطف.. ونسبياً كنت بحالة جيدة، حيث استلمت مرتباً خاصاً من الإيطاليين في أريتريا، وهو قسم من مرتباتي من الجيش الألماني، ومن شمال أفريقيا حيث هناك لا يوجد شيء يمكن شراؤه، حتى إن غروب الشمس هناك كان مجاناً.

بعد أن فرغت من مشترياتي، اشتريت حذاء لهذه الدليلة اللطيفة، وهي تبدو لي أكثر حماسة لهذه الهدية من حماسها لانتصارنا في طبرق.

وبعد ذلك، بدأت أتجول في ساحة البندقية ومتاجرها من دون هدف معين، وإذ بشاب عريس أنيق الهندام مرتدياً بدلة سوداء بدأ يخاطبني، كانت ترافقه فتاة ترتدي فستاناً على طراز الملابس الرومانية، ومرتدية معطفاً من فراء الثعالب رغم المناخ الصيفي.

وبينما كان عريسها يتكلم معي، كانت هي تراقب معروضات

أحد المخازن، إن ذلك الشاب الأنيق كان معروفاً لي في الصحراء، فهو كان ذلك النبيل الكونت الإيطالي، الذي ساعدني في إصلاح العجلة المعطوبة لعربة الماموث عندما توقفت عربة روميل إلى الشرق من أسلاك الحدود في مصر.

لقد بدأ حديثه قائلاً: «يا رفيقي العزيز، أرجو أن تسمح لي بأن أقدم لك..»، ثم عرفني بها ببساطة وتأثر، ثم واصل كلامه المهذب: «أقول لك ببساطة، يجب أن تأتي لزيارتنا في الوقت الذي يناسبك».

فقبلت منه تلك الدعوة العرضية بحماس صادق، ولكنني كنت أعرف، كما هو الآخر يعرف، بأن هذا الحوار والزيارة كلها مجاملات شكلية.

على أي حال، انتهت مهمتي في روما، وكنت قد أنجزت مهمتي مع الملحق العسكري، ركبت القطار الذي انطلق بي من خلال فيرونا إلى ممر برينر، حيث اشتريت زجاجة شراب مارسالا التي، عندما فتحتها، شممت رائحة عطرة مثل مسحوق الوجه (البودرة).

واصل القطار حركته خلال جبال الألب إلى أن وصلنا مدينة (ميونيخ)، الحياة المدنية هنا كانت مقيدة وتختلف كثيراً عن إيطاليا، لا يوجد أحد في شوارع هذه المدينة يتنزه متأنقاً كما في روما، الرجال والنساء جميعاً يعملون بنشاط، وجميعهم بالملابس العسكرية أو ملابس المصانع. في روما يوجد حشود من الحمالين،

وهم في الغالب يتصارعون من أجل حمل الحقائب، أما هنا في ميونيخ، كان عليّ أن أحمل حقيبتي، وقد أعجبني هذا، نقيب وأنا، جلبنا معاً عربة مدولبة لنقل حقائبنا وذهبنا إلى محطة القطارات، حيث كان قطار مدينة كولن في الانتظار.

في مدينة هيجن غادرت القطار مشياً على الأقدام إلى بيت والدي، حيث لا توجد سيارات الإجرة، كما ذهب والدي مشياً على الأقدام إلى بيت خطيبتي ليخبرها بوصولي، وليكذب لها بلطف الأخبار التي تقول: إنني كنت ميتاً في أفريقيا. خلعت ملابسي العسكرية وارتديت ملابسي القديمة التي كنت أرتديها عندما كنت طالباً، ولأتحرر من شعوري ومسؤولياتي، دخلت الحمام لأرمي ملابسي العسكرية على أرضية الحمام، هذه الملابس التي كنت أرتديها خلال الحملة الأفريقية.

بعد ذلك بدأت أقضي أيامي مع هيرتا نتجول في الغابات الهادئة ونخطط ليوم زواجنا. إن هذا ليس بالأمر الهين والسهل، فعندما يقرر الضابط الزواج عليه أولاً، أن يحصل على موافقة خاصة من القائد المساعد لقيادة الجيش، وأن تكون الموافقة مرفقة بما يثبت أن العروس من سلالة العرق (الآري)، وشهادة طبية تثبت خلوها من الأمراض، وأن يشهد شهود مميزين من الأشخاص المعتبرين، وأخيراً يجب أن يحصل الضابط على موافقة قائد فرقته العسكرية ويصادق على شهادة الزواج.

أخذت هيرتا، بكل المكر النسائي، وكل الغرائز العنيفة لبنات

حواء خلال القرون، تحاول اكتشاف أخطائي وآثامي خلال مهمتي الطويلة في الحبشة بأفريقيا. ولكنها اكتشفت أن كل شيء حسن.

سألتني: «وماذا عملت بحق الله طوال ذلك الوقت في أسمرة». «وعندما سرحت سريتك من المتطوعين، هل كنت تعيش هناك كل هذا الوقت مع رئيس العرفاء بوهل»؟.

أما من جهتي، فقد قمت بما في وسعي، فقدمت لها كشفاً بتفاصيل قصتي وكل ما قمت به من مهام، وربما، كنت أروي الأحداث بعد تهذيبها وحذف بعضها، ولكن لم يمض الكثير من الوقت حتى اكتشفت كل شيء وما كنت أنوي إخفاءه عنها. عزيزتي! عزيزتي، إنني بريء وطاهر، أشياء صغيرة لا تعني لي شيئاً!.. وتحت ابتساماتها المتسائلة، اعترفت لها، نعم، كان يوجد هناك نساء جميلات يعشن في الفندق. نعم، وأزواجهن كانوا بعيداً مع قواتهم. فسألتني: «من كانت الأجمل فيهن؟» حسناً، زوجة رائد إيطالي..

ما هو الجيد بعد هذا الاحتجاج، إن تلك السيدة الفاتنة كانت أماً لثلاثة أطفال مزعجين؟. وبالطبع، لم أقل لها بأن أكبر الأطفال، كانت فتاة جميلة تبلغ السابعة عشرة من عمرها، يحيط بها دائماً حشد من الشباب الإيطالي المندفعين. لاحظت أنها تتسكع في الفندق وهي تحاول تعلم اللغة الألمانية، ولم تكن لكنتها جيدة، وماذا كان عليّ أن أعمل سوى أن أقترح مساعدتها؟. الإيطاليون يبدو أنهم انسحبوا من الميدان.

ثم بدأت دروس اللغة الألمانية تتقدم بالألفة والدماثة. وفي مساء أحد الأيام أرسلت إليّ أم الآنسة عبر المنضدة شكرها وتحياتها مع زجاجة من النبيذ الإيطالي. بوهل، الذي شاركني الجلوس حول المنضدة، قال متجهماً: «إنها من حماتك؟».

يجب ألا أنسى تلك المجاملة المؤدبة، لذلك أرسلت في اليوم التالي إلى والدة الآنسة، زجاجة جعة صناعة ألمانية، وهي من حمولة السفينة كوبرك التي كانت مرسلة إلى الشرق الأقصى منذ شهور مضت.

في اليوم التالي، تقاربت مناضدنا سوية، أما رفيقي بوهل، الذي كان متزوجاً منذ 5 سنوات، فقد أصبح في حالة لا يمكنه فيها تحمل الحماة، وكان يكيد ويسخر عندما يقول: تلك حماتك!...

وبعد مضي عدة أيام، استأذنت من السيدة الأم أن تسمح لي بمرافقة ابنتها للصيد ليوم واحد. وفيما بعد، شرح لي أصدقائي من الإيطاليين مغزى دعوتي. فأخبروني أن المتعارف عليه بين الإيطاليين أن تلك الدعوة تعني عرضاً للزواج، وأن الموافقة للفتاة تعني الاستحسان والقبول بالزواج. لقد وافقت السيدة الأم على الفور للقيام بتلك النزهة اليومية.

في صباح يوم الأحد، وهو اليوم الذي كنت قد خططت للقيام بنزهة الصيد مع الفتاة، استلمت رسالة من الآنسة تعتذر فيها عن مرافقتي لأن صحتها متوعكة ولا يمكنها القدوم إليّ. وبذلك كان عليّ أن أقضي اليوم مع بوهل وسخريته كبديل لتلك الفتاة.

عندما وصلنا إلى القرب من ضواحي المدينة (أسمرة) التقينا بصراف سريتنا، الذي رحّب بنا قائلاً: «سيدي الملازم، إن القيادة العليا الإيطالية أبلغت بأن الطائرة التي ستسافر عليها ستكون جاهزة للإقلاع بعد نصف ساعة..». وكان هذا سبباً لأطير بعيداً عن أسمرة بدون أن أقول كلمة وداع للسيدات، وبدون أن أحمل أمتعتي وبدون أن أعلم بأنني سأقابل روميل.

حسناً، تلك كانت القصة التي تمكنت هيرتا من انتزاعها مني. وإن كل ما جرى كان عملاً بريئاً. وهل تعتقد بأن هناك مشكلة لراوي القصة؟

وها أنا عسكري من الفيلق الأفريقي يقضي إجازته في ألمانيا، ويأمل في الحصول على إذن غير مجد للزواج.

قضيت إجازة جميلة لمدة أربعة أسابيع، ثم انتهت. لا زلت أذكر التنزه مشياً على طول ضفة نهر الراين مع هيرتا، والانطلاق في بعض الأيام بقوارب بخارية. كنا في بعض الأوقات نتسلق صخور الدراجون والجبال السبعة، وفي المساء ننطلق إلى مقهى درسدن في جادسبيرج، حيث كان هتلر يحتفظ بغرفة خاصة... كنا نتناول المثلجات والحلويات، لقد كانت المثلجات والحلويات الإيطالية أكثر جودة وأكثر حلاوة. ولكن عواطفي جعلت من تلك الأطعمة العديمة المذاق حلوة ولذيذة بالنسبة لي.

انتهت الإجازة، وكان على هيرتا أن تعود إلى عملها، أما أنا

فلم أحصل على وسيلة نقل للعودة إلى أفريقيا. طلبت تمديد إجازتي، ولم تكن لدي مغريات للبقاء في ألمانيا بدون أي عمل، لأن العسكريين في الجيش يعلمون ويقدرون قيمة المواصلات والحركة، ويعلمون ماذا تعني بالنسبة لهم. لقد كنت قليل الأهمية، ليس من المفيد أن أقول أنا كنت، ومن أنا، ولا جدوى من أن أقول إنني كنت مساعداً ومرافقاً لروميل.

كان روميل بطل الساعة في ذلك الوقت. ومن الناحية الرسمية، فإنني لست سوى ضابط شاب مقاتل، بدون وحدة محددة لأعود إليها. وأفريقيا؟.. أشياء صغيرة. مرة ثانية، الجبهة الشرقية أصبحت رهيبة وشاقة الآن.

اتصلت بجامعة بون، لأطلب إمكانية قضاء أوقات فراغي في الجامعة، محاولاً تعويض سنوات دراستي في الزراعة التي انقطعت عنها طيلة التحاقي بالجيش وارتدائي الملابس العسكرية. لقد أصبح ذهني مشتتاً، فبأذن واحدة أستمع إلى المحاضرة، والأخرى مشدودة لأي كلمة عن أفريقيا. وبالتحاقي بالجامعة لم يعد لدي وقت. فقط في عطلة نهاية الأسبوع، أنام في منزلي وأرى خطيبتي. ومرة ثانية، كنت أنتظر كلمة مرور للعودة إلى أفريقيا. وقد أمضيت أيامي في بون.

في تلك الجامعة، كما في أي مكان آخر، أعداد النساء يفوق أعداد الرجال. كانت الفتيات في الغالب يتهربن من العمل في المصانع. وكان الرجال الموجودين في ألمانيا غير لائقين للخدمة

العسكرية، بالإضافة إلى القليل من الشباب الذين يمضون إجازات قصيرة ويحاولون حضور بعض المخاضرات في الجامعة. ومن الغريب أن الفتيات لم يكن يكترثن بالحرب ولا بالعسكريين. لقد لاحظت شعور اللامبالاة لدى الجميع. والقليل منهم يشك ويستبعد النصر في هذه الحرب، غير أن الجميع يريد نهاية سريعة للحرب والتخلص من الصعوبات التي يعانون منها. في مدينة بون، يلاحظ نسبياً، أعداد قليلة يرتدون الملابس العسكرية. أولئك الذين يرتدون الملابس الرمادية عادة، هم من الجبهة الشرقية الذين يقاتلون في روسيا. وعدد منهم يرتدون بدلة زرقاء فاتحة اللون وبنطلوناً من الجلد، هؤلاء من سلاح المدفعية المضادة للجو من صقلية. والذين يرتدون ملابس الكاكي، وهم قليلون، هم رجال الفيلق الأفريقي. لقد كنت أرتدي ملابس مدنية، وكنت قد استلمت عدة مرات ريشة بيضاء. لقد كان والدي رجلاً عالمياً متفائلاً. يستمع باهتمام لما كنت أقوله عن مجرى الحرب في أفريقيا، ثم يهز رأسه. ويستمع ضد الأوامر إلى إذاعات الحلفاء. «روميل؟..» يريد أن يقول والدي: «ربما.. ولكن دعنا فلنكن واقعيين يا بني..».

إن الهجمات الجوية العنيفة لم تبدأ بعد على منطقة (الروهر). أما مدينة كولونيا فقد قصفت. نزلت في فندق قرب الكنيسة.. وفي عطلة الأسبوع التالي ذهبت مرة ثانية، فشاهدت الحطام والخراب والقليل من أعمدة المباني لا تزال قائمة.

أخذت أفكر بما يجري..:

حسناً، ماذا يجري في أفريقيا بعد مغادرتي لها؟ لقد كانت أفكاري خاطئة عندما اعتقدت أن قطعاتنا لن تتقدم. لقد اندفعت قواتنا إلى الأمام، إلى العلمين. قوات روميل تنتشر على أبواب الإسكندرية ودلتا النيل. أقرب مما نأمل، وقد اخترقت حقول الألغام جنوب مرسى مطروح. وحدث قتال في الحدود مع الفرقة الأولى دبابات، لقد وصلنا في مدة قصيرة إلى ساحل البحر على مسافة عشرين ميلاً شرق المواقع البريطانية الحصينة. لقد وقع بين أيدينا العديد من الأسرى. ولكن إمكانية طبرق ثانية قد تلاشت. وللمرة الثانية ألخص المرحلة كما وقعت في الصحراء، فقد قامت الفرقة خمسون والفرقة النيوزيلندية باختراق تشكيلات روميل المتقدمة، وتراجعت إلى دلتا النيل. بعد ذلك وصل رجالنا إلى العلمين. لا يوجد هناك سوى عدد قليل من الدبابات ترافق الكتلة الرئيسية من عربات النقل. وقد سمعت أن اثني عشرة دبابة قد وصلت إلى هناك بصعوبة. كما أن فرقة جنوب أفريقيا أوقفت قوتنا على بعد مسافة قصيرة من الإسكندرية..

مسكينة هيرتا الصغيرة، تبدو شاحبة ونحن صامتون في انتظار القطار. لم تستطيع كبح دموعها. لقد كان هذا صعباً بالنسبة لي، البدلة العسكرية وأوشحة الأوسمة تفرض علي الانضباط.

ورغم أنها في هذه الحالة، فإنها عندما تحرك القطار، تحركت نحوي على رصيف المحطة لتطيل مدة بقائها وهي تلوح

يدها بالوداع، لقد شعرت بألم في عيني. إذاً، حسناً، إلى أفريقيا ثانية.

أخذت القطار عبر ألمانيا، ثم إلى مدينة إيطاليا (مدينة بريينديزي). ومن هناك أخذت الطائرة إلى أثينا فمطار كريت ومن ثم إلى مطار طبرق في منطقة العدم، ذلك المكان المتوقد بالذكريات. لقد قدت السيارة خلال الصحراء عبر الطريق الساحلي القديمة، إلى الجبهة في العلمين.

الآن وبصدق انتهت إجازتي، لقد قصفتنا الطائرات ونحن في طريقنا إلى الأمام. كم هي بعيدة عن عطلتي اللطيفة في روما، ورزانة ووقار الوطن. إنها جبهة القتال مرة ثانية.

الفصل الحادي والثلاثون

غريب في العلمين

كان في انتظاري موعد جديد في العلمين. استلمت قيادة كتيبة من مجموعة القتال 288، وهي تشكيل مقاتل، وقد دربت تدريباً راقياً وأعدت للقتال في إيران، ولكنها الآن، تقاتل اعتيادياً في عمليات بالتعاون مع الفرقة 90 الخفيفة.

تم تلقيني وتوضيح الموقف بسرعة منذ مغادرتي للفيلق الأفريقي. تمت مطاردة الجيش الثامن، وتقدمت قوات استطلاع روميل حتى وصلت إلى خط السكة الحديدية العديمة الفائدة عند العلمين، فأوقفتها مدفعية العدو بتحياتها.

وجد رجال مدفعيتنا موقعاً للمراقبة في قمة مرتفع يسمى تل العيسى. واندفعت عربة استطلاع مدرعة بأقصى سرعتها وبداخلها روميل شخصياً. أصدر أوامره إلى القطعات بالهجوم على القطاع الشمالي الذي أقام فيه العدو، ويبدو، أنه الخط الدفاعي الجديد،

استفادوا من غروب الشمس فتقدمت مشاة الفرقة 90 الخفيفة تساندها بعض قطع المدفعية، وعندما واجهتهم نيران الرشاشات الآلية ترجلوا من شاحناتهم، وتوقفوا لحفر خنادق تحت حماية عرباتهم. لقد بدأت معركة العلمين، التي لم يكونوا يعلمون بها.

التوقف المفاجئ لقواتنا الأمامية المسرعة، كان في الواقع نتيجة لاصطدامها بقطعات مدربة وذات تقنية عالية، كما كان بعض القادة يرغبون في إعادة تنظيم تشكيلاتهم، ولكن مشاتنا لم يشعروا بالارتياح، وأدركوا منذ وصولهم إلى العلمين في نهاية شهر يونيو، بأن حرب الحركة كما في الأيام الخوالي، قد انتهت، والآن يواجهون الحرب الثابتة، الوحشية والمهلكة، حرب الخنادق. إن هجماتنا ضد الخط الدفاعي الجديد في القطاع الشمالي، كانت غير ناجحة، فقد أوقفنا الجنوب أفريقيين بقيادة بينار. وإن الهجمات المتزامنة في وقت واحد على منخفض دير الشين، قد نتج عنه تدمير أو أسر معظم مجموعة اللواء 18 الهندي في الأول من يوليو.

قام روميل بمواصلة ضرب الجنوب أفريقيين، وفي عصر اليوم الثاني من يوليو، بدأ تهديد خطير لجناح مواقع بينار، وخاصة من نيران المدفعية القوية الموجهة ضد القوات غير الآلية وشبه الآلية من أرتال لواء بينار. إن اللواء الأول جنوب أفريقيا، كان من ألد خصومنا وأكثرها إزعاجاً لنا في الحرب التي دارت في شرق أفريقيا، منذ كنت في أريتريا (حيث إن هذا اللواء كان قد شق طريقه

شمالاً عبر الحبشة، وساهم مع الفرقة الهندية الخامسة في هجومها على أمبالاجي في شهر مايو عام 1941).

لقد علمنا فيما بعد، بأن بينار قائد اللواء، قد التمس من قائد الفيلق التابع له، اللواء نوري، دعمه بالدبابات أو السماح له بسحب جناحه الأيسر المهدد. ولكن قائد الفيلق رفض هذا، وعلى ما يبدو، فإن بينار التمس من أوكنلك شخصياً، غير أن القائد العام البريطاني دعم قرار قائد الفيلق، وقام نوري في ما بعد بدراسة الموقف، وأخبر بينار بموافقته على الانسحاب، ولكن اللواء الأول في هذه الحالة، يجب أن يرسل إلى الاحتياط في المؤخرة. اعتبر بينار هذا الأمر إهانة لقطعاته وهدد بالاستقالة من قيادته. ويبدو أنه تم الاتفاق بين قادة العدو حول الجناح المكشوف والمعرض للخطر بالموافقة على الانسحاب.

إن هذا الخلاف بين القادة البريطانيين، وصل إلى سمع روميل بعد فترة طويلة من الأسرى، وإن الرواية وصلت بصورة يمكن أن يشك بصحتها. إذ إن ذلك الخلاف كان بسبب جواب بارع وشهير يعزى إلى بينار. فحسب التقارير الواردة، فإن القذائف التي كانت موجهة إلى ذلك الجناح المهدد بالفناء، لم تكن من قذائف روميل فقط، بل من النيران الموجهة خطأً من الفرقة النيوزيلندية، والتي سقطت على مواقع الجنوب أفريقيين، وكذلك من نيران الدبابات البريطانية وقصف طائراتهم. ويفترض أن يقوم بينار بالاتصال هاتفياً بقائد الفيلق، وفي سياق الحديث، كان الرد:

انظر هنا، يا نوري، أخبرني ضد من تقاتلون، أنا أم روميل؟ إذا كنتم تقاتلونني، فأؤكد لك، بأنني ولواء جنوب أفريقيا يمكنني احتلال الإسكندرية في مدة 48 ساعة.

نحن لم نكن بالطبع، نقاتل ضد الجنوب أفريقيين فقط، ولكن من دون شك نقاتلهم، وبالأخص مدافعهم من عيار 25 رطل، وروميل يحاول اختراق القطعات النيوزيلندية الممتازة والصلبة في الدفاع، والمستعدة للهجوم، والأكثر براعة وذكاءً أيضاً في خطوط الدفاع، على الرغم من المعارك الشاقة التي خاضوها في الصحراء.

الفرقة الأسترالية التاسعة (جرذان طبرق) وهي من أصلب التشكيلات التي دفعت بها أستراليا إلى الميدان، اشتهرت بين رجالنا بسمعة شرسة في قتالهم الكريه بالحراب، عادت الآن إلى الصحراء من سوريا أو فلسطين، وكان ضدنا أيضاً، تشكيلات هندية ودبابات بريطانية، وخلال الأشهر القليلة التالية وجدنا أنفسنا ضد الفرنسيين، والبولنديين، واليونانيين وغيرهم. لقد كان يدافع عن مصر جيش عصبة الأمم، ما عدا المصريين.

خلال شهر يوليو، قام كلا الجانبين ببناء نطاق قوي من الدفاعات على الجبهة بصورة محمومة. وكان هناك مجال واسع للكثير من الهجمات التمهيدية، والجرأة والجسارة لدى الجانبين، في الهجوم، والهجوم المضاد، وعمليات مختلفة من أجل النقاط التعبوية المهمة.

لقد نجح الأستراليون في احتلال تل العيسى، الذي استخدم كموقع قيادة متقدم للجيش الثامن. وفي المقابل، احتل روميل موقعاً حيوياً في تبة المطرية، أما في الجناح الجنوبي، فتمركزت فيه قطعاته الممتازة، لواء المظلات تحت قيادة اللواء رامكة، والقادمين حديثاً من كريت، تدعمه المجموعة الخاصة 288 وبعض المجموعات الممتازة من فرقة المظلات فولجوري التي تمكنت من الضغط لمسافة هامة على الجناح الجنوبي للجيش الثامن في منخفض القطارة.

وخلال النصف الثاني من الشهر، فإن أوكنلك مع قوات التعزيزات الأسترالية والدبابات الجديدة القادمة من وراء البحار، والتي دعمت مواقعه بقوات حديثة ونشطة من المشاة، جعلت روميل يفكر في إمكانية الانسحاب بالقوة إلى مواقع السلوم، وإنني أعتقد بأن البريطانيين لا يحلمون بهذا. كما لم يكن روميل سعيداً لنقص الذخيرة، حيث إن معظم المدافع تنقصها القذائف، وللحجم الهائل لفعالية ونشاط قوات العدو الجوية، التي أصبحت خطيرة على استنزاف إمداداتنا، ولطول خطوط مواصلاتنا.

عند نهاية الشهر، خفف (أوكنلك) هجماته العدائية، وذلك لحاجته إلى أعداد كافية من القوات الاحتياطية. ولم يكن روميل في حاجة إلى الانسحاب، ولكنه حتى لو انسحب، لكان من المشكوك فيه، ما إذا كان الجيش الثامن في موقع يمكن أن يؤثر فيه بفعالية، ومن المحتمل أن يعقب هذا مرحلة ركود حرجة على الحدود، وسيعود كلا الجانبين عملياً إلى الخلف، حيث كانا قبل عام مضى.

وفي بداية شهر أغسطس، سمعنا بتغييرات مهمة في قيادة الجيش الثامن، لقد زار تشرشل العلمين، وقدم إليه أوكنلك تقريراً عن الموقف العسكري وخططه للمستقبل، كما قابل تشرشل جوت، واستشاره ليتولى قيادة الجيش الثامن الذي لا زال تحت قيادة أوكنلك شخصياً منذ إقصاء ريتشي.

ولكن القضاء والقدر لم يشأ ذلك، إذ جوت قتل من قبل إحدى طائراتنا التي أصابت طائرة النقل، التي كانت عائدة حاملة جوت من الجبهة إلى أرض الهبوط قرب القاهرة بنيران رشاشاتها. ولولا هذه الحادثة لما أمكننا أن نسمع باسم مونتجمري أبداً.

وصل الفريق ألكسندر، وقد أخبر رئيس الوزراء أوكنلك، بأن وزارة الحرب قررت استبداله بالفريق ألكسندر. وأعطى تشرشل توجيهات بسيطة إلى القائد الجديد: «إن أولى واجباتك، بل أهمها في أول فرصة هو تدمير أو أسر الجيش الألماني ـ الإيطالي الذي يقوده المشير روميل في مصر، مع كل معداته وإمداداته»..

علمنا بوصول مونتجمري في الخامس عشر من أغسطس، وبعد وصوله بثلاثة أيام من بريطانيا، استلم قيادة الجيش الثامن. وقد وصفه تشرشل في ذلك الوقت بأنه: «شجاع ومعوق». وحالما استلم مونتجمري مهام قيادته، أصدر أمراً فورياً بمنع أي انسحاب على جبهات القتال.

خلال تلك الفترة لم يحدث أي قتال ذي أهمية في العلمين لبعض الوقت، وبعد السادس عشر من أغسطس، حقق مونتجمري

الاقتراب من النصر ضد روميل. وفي الحقيقة قبل تسلم قيادته، فإن زيارة رئيس الوزراء البريطاني كانت برهاناً وإثباتاً لقوة قرار الحلفاء ببذل الجهود العظيمة لمسرح العمليات. أما من جانبنا، فلا يوجد أي علامة على هذا القرار، حيث تعتبر برلين مسرح الشمال الأفريقي ثانوياً وغير ذي أهمية، حيث أصبحت روسيا هي مسرح العمليات الكبير، ومع ذلك، يطلبون ويتوقعون من روميل إنجازات فوق طاقة البشر، مع النقص التام في التعزيزات بالرجال والمعدات.

إن رئيسي الجديد، قائد المجموعة الخاصة 288، كان العقيد مينتون. وكنت أعلم مسبقاً، بأن كلاً من روميل ومينتون، كانا صديقين منذ الحرب العالمية الأولى، وكلاهما من مقاطعة سوابيا، وأن كلاً منهما ينادي الآخر باسمه الأول.

عندما التحقت بهذه المجموعة، وقدمت تقريري إليه لأول مرة، كنا قد دخلنا في نقاش سريع عن معرفتنا الشخصية بالمشير. ثم أشار مينتون لي بأن مقر الأركان، كان على الساحل بالقرب من منطقة الضبعة.

لم أر ثعلب الصحراء منذ معركة طبرق، وقبل ذهابي في إجازة. راودتني خاطرة مفاجئة، وسألت مينتون فيما إذا كان بالإمكان تأجيل استلامي قيادة الكتيبة ليوم واحد، لكي أقوم بزيارة شخصية للمشير. فأجابني مينتون بلهجته السوابية العريضة: «على الرحب والسعة، اذهب، إن كتيبتك سوف لن تحتل مواقعها قبل

مرور ثمانية أيام أخرى، ونحن نتوقع استبدال القوات التي لا زالت متمركزة في جزيرة كريت».

وفي اليوم التالي، استقليت سيارتي على طول الطريق الساحلي، حيث شاهدت الألوان السوداء والبيضاء والحمراء، ألوان علم قيادة مجموعة جيش البانزر، ثم استدرت نحو كثبان من الرمال حيث موقع مقر قيادة روميل، شاهدت هناك عربات القيادة المدرعة في مواقع محفورة في الأرض، حماية لها من قوات العدو الجوية، وكانت جميعها مموهة بشبكات التمويه المتشابكة مع شجيرات أشواك الإبل الصحراوية. اعترضني الحارس وأخبرني بأن أوقف سيارتي لمسافة أبعد، حيث وجهني إلى اتجاه آخر حتى لا تتمكن طائرات العدو من اكتشاف آثار عجلات العربات، وتحديد موقع مقر القيادة.

كانت وجوه الضباط الذين قابلتهم غريبة، لقد تغير ضباط الأركان منذ أيام عملي مع روميل، شاهدت بنظرة خاطفة بايرلاين، رئيس الأركان. فسألت ضابطاً شاباً: «أي نوع من الرفاق، رئيس الأركان؟»، أجاب بهدوء وبأسلوب المحادثة الرسمية للجندي الألماني: «رفيق ممتاز».

بعدها رأيت برندت وهو الشخص الوحيد المعروف لديّ بينهم، وقد سررت لرؤيته، لكن جوابه كان صدمة لي، حيث لمست في حديثه الكلفة والشدة، ولم أخف شعوري بأن برندت كان يخاف من أنني أبحث عن تعيين في مقر قيادة روميل لأكون

منافساً له، فإذا كان هذا تفكيره فإنه على خطأ تام، لقد كنت سعيداً مع القطعات، فقط، كنت أريد مقابلة رئيسي السابق، كما قلت في المقر.

«إنه حظ سيء يا شميدت». أجاب برندت بتذمر. «القائد العام لن يتيح لك فرصة للمقابلة، اليوم أو حتى غداً».

فسألته لماذا؟ فلاحظت على برندت أنه يريد أن يخفي سراً، لم ألح عليه أكثر من هذا، ولكي أواصل الحديث معه، سألته: «كم لك في مقر القيادة؟». فأجابني بعد قيامه بتعديل ملابسه متبرماً: «أنا أعمل مع القائد العام لعدة أشهر، للمرة الثانية، وأضاف: إن مهمتي مع الدكتور غوبلز انتهت في شهر مارس، وإن تلك المهمة كانت في غاية الأهمية، ولكنني رجعت للعمل هنا في الوقت المناسب، أي عندما بدأ المخطط، وأنا كنت ولا زلت ألعب الدور الأساسي في هذا المخطط أيها الولد الكبير».

فسألته: «ماذا تعمل في المقر؟ هل أنت مساعد، ثانية؟». لا، لا، «قال برندت، أنا الآن آمر سرية أمن المقر، وهذه السرية ستكون بقوة كتيبة، وإن اتصالاتي مع المشير يومية، بالإضافة لاتصالي الدائم مع وزارة الدعاية».

لقد تملكني العجب، فيما إذا كان برندت مسؤولاً عن شهرة روميل في أَرض الأجداد. ثم أخبرني برندت ثانية: «إنه من المستحيل لي مقابلة روميل وبصوت كالهمس، «إن المشير مضطجع في عربته لمرضه الشديد باليرقان».

رجعت كئيباً يراودني شعور بالغربة، كان القادة في مقر القيادة غرباء عني، وشعرت أن لا مكان لي بينهم، لقد حرمت من فرصة السلام على الرجل الذي عملت بجانبه منذ عدة أشهر، وأن صديقي القديم يبدو عليه القلق ويرغب في إبعادي، معتقداً بأنني أحاول إزاحته عن منصبه! . إن الذين عرفتهم من قبل، سائقون ومراسلون. رحبوا بي ترحيباً حاراً، فأدركت وجود بعض الأصدقاء القدامى.

أشار لي أحد السائقين، سيدي المقدم، نحن السائقون، دائماً نذكرك كضابط حذر، كنت تطلبنا لقيادة السيارات في اللحظات الأخيرة فقط، وفي بعض الأوقات عندما يكون القائد العام في طريقه إلى العربة. بينما الآخرون، الذين عملوا بعدك، يأمروننا بالانتظار قبل ساعة كاملة من الموعد.

التقيت بروميل ثانية بأسرع مما كنت أتوقع، وكان ذلك على مسافة قصيرة وراء الخطوط الفعلية للجبهة، حيث كان رجالنا من المهندسين يبنون نماذج من النقاط القوية مطابقة لخطط روميل المحددة، وكان على قادة القطعات وضباطهم أن يزوروا هذه النقاط القوية في كل يوم لدراسة طريقة تشييدها، ومزاغل النيران، ومواقع الأسلحة ونظام المواصلات، وغيرها. كذلك مشاهدة التطبيقات العملية التي يقوم بها رجال المشاة، حسب الطرق التي يوصي بها لأفضل طرق الهجوم، وسحق النقاط الحصينة المختلفة الأنواع.

وأثناء إحدى هذه المظاهرات التدريبية، كنت مع مجموعة من الضباط أراقب عرضاً تدريبياً، عندما وصل روميل بصورة غير

متوقعة، أصبح وجهه نحيفاً عن ذي قبل، ولكن حسب ظني، لم يكن مريضاً كما قال برندت. تقدم الضابط الأقدم ليقدم تقريره، عندما شاهدني روميل، الذي شكر العقيد بإيجاز، وتقدم نحوي وصافحني باهتمام: «كيف حالك يا شميدت؟».

إن مصافحة وتحية من روميل القليل الكلام، كانت تعني أكثر من الكلمات المتدفقة من الكثيرين من الرجال غيره، ولم يصافح أي شخص غيري.

وعندما غادرنا في عربته، لاحظت نظرات فضولية تتركز عليّ، لقد احتار الضباط من الرتب الأعلى، كيف أن روميل قد ميز ضابطاً أقل رتبة منهم.

الفصل الثاني والثلاثين

محاولة روميل الأخيرة

في تلك الأيام، كانت الضرورة تقتضي أن نكون على أهبة اليقظة في منطقة العلمين، فطائرات العدو كانت تواصل هجومها علينا ليلاً ونهاراً، والطائرات البريطانية مع طائرات جنوب أفريقيا لم تكن تعرف المهادنة، خاصة خلال الليل. كانت خطوط إمداداتنا مضاءة باستمرار طوال الليل باستخدام شعلات المظلات المضيئة، وكان انفجار القنابل المتواصل ليلياً يقض مضاجعنا، فلم نتمكن من النوم أبداً.

وفي كل ليلة كنا نسمع نشرات الأخبار، ونصغي لسماع الموسيقى من إذاعة القاهرة، رغم أن هذا كان ضد الأوامر الصادرة إلينا، لقد أقام البريطانيون محطة ناجحة للدعاية هناك.

وحسب ما علمنا من أسرى الجيش الثامن، فإن منتسبي الجيش الثامن أنفسهم كانوا يصغون لإذاعات العدو، وخاصة كانوا

مهتمين بسماع ليلى مارلين التي تذاع من محطات بلغراد وأثينا، إن تلك الألحان العاطفية كانت تذكر الرابضين على خطوط الجبهة، بأن هناك أشياء أخرى إلى جانب القصف الجوي وحرب الصحراء.

وأخيراً وصلت بعض التعزيزات القليلة لروميل، لكنها كانت أقل مما كان يرغب، فإلى جانب اللواء المظلي بقيادة رامكة، وصلت فرقة المشاة 164 من جزيرة كريت، إن هذه الفرقة لم تمتلك عربات لنقلها، وأرسلت لتستخدم كدعم وتثبيت مواقع الجيش الإيطالي، أما التعزيزات الإيطالية فكانت تتضمن فرقة فولجوري المظلية، كما ذكرت سابقاً، لقد كنت مندهشاً في حينها لماذا لم ترسل قوات المظلات من كريت فور نجاح العدو في إيقاف زحفنا في العلمين، وكان الجواب أن هذه الخطة يتعذر تنفيذها في مواجهة قادة جو العدو الذين يسيطرون على الأجواء.

إن الوقت يمر ضدنا، لقد أبلغت تقارير الاستخبارات عن شحن أعداد كبيرة من الدبابات الشيرمان الأمريكية الجديدة بحراً، ويتوقع وصولها إلى الموانئ المصرية في شهر سبتمبر، كما أن نشرة عسكرية صادرة عن جيش جنوب أفريقيا في القاهرة، أعلنت البحث عن بطاقات عيد الميلاد، وقد أوضحت تلك النشرة بوضوح وصول دبابات شيرمان الجديدة، فقام القسم الفني من رجال استخباراتنا بدراسة خصائص المدافع الجديدة لهذه الشحنة الكبيرة من الدبابات.

وحالما استلم روميل وعداً قاطعاً بإرسال إمدادات كافية من

الوقود في طريقها إلى الميدان، قرر المجازفة بضربة حاسمة ضد مونتجمري.

في يوم عيد ميلادي السادس والعشرين، قامت طائرات القوة الجوية الملكية، بدون ترو وبكل بغض وتهور، بإسقاط قنبلة على عربة تموين الكتيبة، التي تحمل تموينا لمدة ثلاثة أيام، لقد تأسفت بشدة لضياع تلك الوجبات العديدة، والشحيحة. عندما استلمت خطة الهجوم الجديدة ليلة 30/ 31 أغسطس في اليوم الثالث من أيام المعركة، فإن المجموعة الخاصة 288 كانت لا تزال متمركزة في خنادقها في منطقة الاحتياط في هدوء التقارير من الأمام أصبحت غير واضحة! وبدأنا نشعر بأن الإطلاقة الأخيرة نحو الإسكندرية قد أخطأت هدفها. لقد بدأت أفكر بندم وحزن، أنني فقدت في دلتا النيل ثلاث بدلات عسكرية بيضاء كنا نرتديها في المناطق الحارة، والتي تركتها في فندق بمدينة أسمرة عندما طرت منها إلى الحبشة، والآن بدأ كل شيء يتلاشى، وبدأت تلوح لي الشكوك التي ترافقني دائماً، كعسكري، بأنني لن أشاهد الأهرامات.

توقفت دباباتنا فجأة، والعدو تملكه العجب، كما ظهر لنا فيما بعد، في ما إذا كانت هذه الحركة متعمدة، ولعبة من ألعاب روميل، أو خطة لإغراء دبابات الجيش الثامن للقيام بهجوم مضاد. بينما في حقيقة الأمر، وبموضوعية، كانت دباباتنا قد فقدت روحها القتالية، فإمدادات الوقود التي وعد بها كيسلرينغ وكافاليرو لم يتم وصولها. وكان لتدخل السلاح الجوي الملكي البريطاني أثره، ليس

فقط في مجرى الحوادث المباشرة في ميدان المعركة، بل في النتائج التعبوية، بإغراقه لثلاث ناقلات وقود في البحر المتوسط، وفي إسقاط عدد من طائرات نقل الوقود من نوع (جنكرز 52).

لقد جرح الفريق نهرينج قائد الفيلق الأفريقي، واستبدل بالفريق فون توما.

خلال ليلة 3 سبتمبر، تخلى روميل عن محاولاته لمواصلة اختراق جبهة العدو، وخلال الأيام القليلة التالية، سحب روميل قواته إلى مواقعها الصلبة. أما وحدتنا، مجموعة القتال الخاصة فلم تدخل في أي قتال مطلقاً. وفي نفس الوقت، وصلت 500 دبابة من نوع شيرمان إلى السويس. روميل لا يستطيع إخضاع مصر.

في شمال الطريق الساحلي في المنطقة بين العلمين والضبعة، منحت أربعة عشر يوماً، لإعادة تنظيم كتيبتي وتدريبها تدريباً عنيفاً على الحركات القادمة.

وصلت إلينا تعزيزات من ألمانيا، قسم منها يتكون من المحاربين القدماء، الذين خدموا في الماضي في الفيلق الأجنبي الفرنسي في شمال أفريقيا، وقسم من البحارة العاملين في السابق في الأسطول التجاري، والذين هم الآن بدون سفن، كلا النموذجين كان ينقصه الانضباط، ولكنهم محاربون من الدرجة الأولى إذا أحسن قيادتهم، إن قادة الكتائب والسرايا يعترضون على قبولهم لهؤلاء الرجال، أما أنا كنت مستعداً لاستلامهم واستبدالهم بقطعاتي المدربة.

استلمنا مؤخراً مدافع مضادة للدروع جديدة تحتوي على مدافع روسية من عيار 76,2مم التي تم الاستيلاء عليها في روسيا.

قمت بتدريب رجال الفيلق والبحارة خصوصاً على هذه الأسلحة. والآن، وصلت تقارير من استخبارتنا، تعلمنا، بأن البريطانيين يخططون لإنزال بحري بين منطقة الضبعة ومرسى مطروح، ونتيجة لهذا التقرير تم نقل كتيبتي، لقد رحبت بهذا التغيير، حيث صدرت لنا الأوامر بإقامة مراقبة دفاعية على ساحل البحر، كانت المهمة عملياً تعادل إجازة، لقد قمنا ببناء واحتلال معظم النقاط المهمة في يومين، وتم ربط نقاط المراقبة بسلسلة من المحطات اللاسلكية التي عملنا على تمويهها تمويهاً جيداً.

وبينما كان بعض الرجال يؤدون واجباتهم، كان الآخرون يقومون بالسباحة في البحر المتوسط، وقد رحبنا جميعاً بتغيير وجبات الطعام التي سببت لنا الحمية، فاشترى سائقي التمور والبيض والدجاج من البدو المحليين، الذين كنت أنظر إليهم بارتياب واستنكار، حيث كان هؤلاء العرب يمرون راكبين بهدوء، بينما نساؤهم مجهدات خلفهم يحملن أحمالاً ثقيلة، أولئك العرب، كانوا يملكون نظراً حاداً في الصحراء، ولا يخفى عليهم شيء، هنا كما في أماكن أخرى، كنت متأكداً أن بينهم الكثير من الجواسيس. أمتان عظيمتان تتقاتلان بقوة في هذه المناطق غير المأهولة والمقفرة، وهؤلاء البدو يتجولون في غمرة الحرب، وهم يعتبرون أن هذه الحرب ليست حربهم ولا تخصهم، وأنها ليست

سوى جنون الكفار (وأعتقد وأقول جازماً، بأنها كذلك). كانوا جميعاً متشابهين، إنهم لا يرتدون علامات الحلفاء ولا يرتدون علامات الصليب المعقوف على جلابيبهم، ويمكن القول بأن بعضهم ربما يأخذ مكافأته منا أو من العدو، وربما يتجسس لكلا الجانبين؟؟.

منظمة استخباراتنا في هذا الوقت، أبلغتنا بمعلومات جديدة تعلمنا فيها، بأن مونتجمري يحضر لأعظم معركة عرفتها أفريقيا، ومثل روميل، كان يستخدم براعته ويستخدم الخداع، وكان يقوم بتمويه دباباته لتكون شبيهة بالعربات للتقليل من قوته. الآن، يوجد في الصحراء ثعلب جديد.

لقد قام أيضاً، بالخداع بمد خطوط أنابيب جديدة، ومحطات الضخ بعيداً في الجنوب، وكان العمل يجري بطيئاً متعمداً لإطالة مدة إنجازه، حتى يوحي لنا بأن هذا العمل سيستغرق بعض الوقت قبل أن يقوم الجيش الثامن، في ما يبدو، بوضع خطة للهجوم في القطاع الجنوبي من خط العلمين.

لم يتمكن استطلاعنا الجوي من معرفة أن خط الأنابيب هيكلي، وأن تركيبه تم من صفائح الوقود القديمة، نفسياً كانت كفة مونتجمري هي الراجحة، لقد وصلته تعزيزات وباستمرار من الرجال والمعدات، قطعاته كانت تعلم ذلك، فمونتجمري كان يعلمهم بذلك، إن مهمته الأساسية، هي هزيمة روميل، إزالة التهديد عن مصر، وأن يكسب الشهرة بعمله هذا.

وفي المقابل، فإن قوات روميل المكونة من قوميتين (ألمان وإيطاليين) لم تكن قوتها فعالة، وقطعاته تعلم بذلك، لقد وصل إلى طريق مسدود، لقد أنجز خطته الطويلة بانتصار عظيم في طبرق، ولكن لم يحصل على زخم القوة التي يواصل بها إلى الإسكندرية، فجبهة الشرق الأوسط أصبحت ثانوية، لقد شعر روميل بأنه ليس في استطاعته أن يكون سيد مصر.

وروميل الآن رجل مريض، بدأ يفقد وزنه، إن قسماً من مسؤولياته في الحرب، بعد مرور عشرين شهراً مستمر في الإجهاد العقلي والبدني في الصحراء، ولأكثر من سنة بدأ يتعرض لنوبات عديدة من مرض اليرقان، أصبح روميل الآن قوة منهكة.

إن العلاج في ألمانيا كان هو الحل، فطار إلى ألمانيا، وقبل دخوله إلى المستشفى في سيميرلنج (جنوب غرب النمسا) قابل هتلر، الذي لم يتطرق للخطر الذي يظهر لنا في أفريقيا، وأخذ يلوح بدون تعزيزات من الدبابات في جبهة العلمين، والمشاكل المؤكدة والثابتة لإمدادات القوات في أفريقيا لم تتم معالجتها، لقد وعد هتلر روميل بكل شيء، ولكن هل ينوي روميل العودة إلينا، في أفريقيا، فعندما يتماثل للشفاء سيتولى قيادة مجموعة جيوش في أوكرانيا، ويستلم الفريق شتوما قيادة مجموعة البانزر في أفريقيا.

الفصل الثالث والثلاثون

هزيمة في العلمين

أطلق مونتجمري على تعرضه (هجومه) في العلمين اسم (عملية الشعلة)، وقد بدأت في ليلة 23 أكتوبر.

تم إعداد خطة الهجوم لهذه الحشود الضخمة في سرية تامة، لقد بدا الهجوم مفاجأة كاملة، رغم أن قيادات الأركان الألمانية جمعت وحددت ما يوحي بهجوم متوقع خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية قبل فتح السدود النارية الابتدائية.

تم تقوية وبناء الجيش الثامن للقتال اعتباراً من 1 أغسطس حيث عُزز بواحد وأربعين ألف جندي وألف دبابة، وتسعة آلاف عربة من جميع الأنواع.

اهتزت نجوم السماء في تلك الليلة، عندما انطلق دوي حوالى ألف مدفع تزمجر بوميضها ضدنا. إن هذه الأرض منذ العصور القديمة، لم تشهد في وقت واحد مثل هذا الدوي، الأرض

من منخفض القطارة إلى البحر المتوسط كانت تهتز، وكانت أسنان الرجال تصطك على مسافات بعيدة خلف الجبهة.

استمر هذا الدوي لمدة خمس عشرة دقيقة ثم توقف لمدة خمس دقائق، كان هذا الهدوء الذي يسبق العاصفة، وتماماً في الساعة 22:00 انطلقت نفس الأعداد من المدافع بالقصف بالإضافة إلى ألف دبابة وأسلحة المشاة، بتركيز نيرانها على خطوط جبهتنا، وانطلق هجوم الأستراليين في المجهود الرئيسي، وأيضاً البريطانيين والاسكتلنديين والنيوزيلنديين والجنوب أفريقيين، وكان هدفهم الرئيسي تبة المطرية، فتم احتلالها في تلك الليلة الأولى من المعركة، ولكن مونتجمري لم يتمكن من إحكام قبضته عليها إلا بعد يومين من القتال المستميت واليائس.

كانت الفرقة الخامسة عشرة بانزر في منطقة الانتظار في الشمال، والفرقة 21 بانزر في الجنوب على مسافة قصيرة خلف الخط الأمامي المضطرب، كانتا مقسمتين إلى مجموعات قتالية حسب الخطط الدفاعية التي خططها روميل قبل مغادرته أفريقيا للعلاج في ألمانيا، في هذه الحالة كنا في ارتباك مميت. كان هدف روميل وقصده الاحتفاظ بمجموعات مستقلة فقط، خلال مرحلة اندفاع هجوم العدو، حيث سيتم حشدها فوراً عند وضوح وتحديد اتجاه الهجوم المتفوق ضد قوة مونتجمري القوية التي تم تشكيلها، ولم يفكر روميل بدفع دباباته لمقاتلة العدو ليهزم كمجموعات ومفارز كما فعل العدو الذي جزأ دباباته في الماضي وقام روميل بهزيمتها.

كان بايرلاين، رئيس الأركان في إجازة، وكان على روميل أن يعود لإنقاذ الموقف غير المجدي، وفي اليوم الأول لهجوم مونتجمري مات الفريق شتوما بسكتة قلبية عندما هاجمت طائرات العدو الوحدة التي كان معها. ولم يلاحظ سائقه سقوطه خارج العربة في الصحراء، لقد وجد جثمانه فيما بعد.

إن إدارة استخباراتنا في برلين أخبرتنا بأن البريطانيين لن يستطيعوا مهاجمتنا قبل نهاية الشهر.

اتصل هتلر هاتفياً بروميل في المستشفى بألمانيا عند ظهر اليوم الثاني للمعركة وطلب منه أن يعود سريعاً إلى أفريقيا لأن الموقف أصبح يائساً، وروميل لا زال مريضاً بعد مرور ثلاثة أسابيع في العلاج، لكنه لم يفكر في أن يقول لا، فطار جواً عند الفجر وفي الصباح توقف في إيطاليا لمعرفة الموقف في الجبهة، وخصوصاً لمعرفة موقف الوقود لقواته، وهل يوجد المزيد من الدبابات لإرسالها إلى أفريقيا، وهل قام كيسلرنغ بإرسال الإمدادات من مدافع الهاون ذات الماسورات المتعددة التي وعد بها هتلر. لقد وصل روميل مرة ثانية إلى مقر قيادة مجموعة البانزر بعد عدة ساعات عند غروب شمس تلك الليلة.

وأعتقد بأنه علم في تلك الليلة بأن معركة العلمين خاسرة، فقد وجد نقص في الوقود لدى الفيلق الأفريقي، فأخبر بايرلاين بأننا لا نستطيع النجاح، لكنه قام بمحاولات يائسة لاسترداد الموقف العام، قضى معظم تلك الليلة يخطط لهجوم مضاد ضد تبة المطرية

(التي أطلق عليها البريطانيون اسم تبة كيدني[1]) في الشمال، لقد كان يائساً يجمع ويحشد قوات دباباته ليجعلها جميعاً تشكيلاً متماسكاً، كما كان في السابق. كانت الفرقة 15 بانزر قد دُمرت بصورة خاصة لذا استدعى الفرقة 21 بانزر وفرقة آريتي الإيطالية من الشمال، ثم حرك الفرقة 90 الخفيفة والفرقة الإيطالية تريستي من مواقعها في المؤخرة لحماية الجبهة قرب ساحل البحر.

إن الهجوم المضاد، الذي قاده روميل شخصياً حطمه عدونا القديم بواسطة القاذفات المتوسطة ومدافع 25 رطلاً، وحاول مرة أخرى في اليوم التالي ولكنه ضرب مرة ثانية، وخسر دباباته القليلة التي لا يمكن تعويضها، وقد قامت الفرقة التاسعة الأسترالية بضربه وطرده إلى الخلف.

توقف مونتجمري بعد ثلاثة أيام من القتال لإعادة تنظيم قواته، وقد قام الجنوب أفريقيين وقسم من عرباتهم المدرعة بأداء واجبهم الرئيسي في قتال معركة العلمين، ولن نقابلهم مرة ثانية إلا في إيطاليا. في تلة العقاقير وقعت معركة دبابات شرسة. كلا الجانبين تعرض لخسائر ثقيلة، غير أن خسائرنا كانت أكبر، فقد أبيدت معظم دباباتنا، ولم يبق منها سوى مجموعات قليلة.

إن هجوم مونتجمري الذي أطلق عليه اسم (عملية الشعلة)، والانقضاض الجديد الذي أعقبه، وقد أطلق عليه اسم (الشحنة

---

(1) وتعني الكلية باللغة الإنجليزية. (المراجع).

الفائقة) كانا نهاية العلمين، لقد قامت الفرقة 21 بانزر بنضالها الفعال الأخير، وقد تغلب عليها أعداؤها القدامى فرقة الدبابات البريطانية الأولى التي ضربتها. قرر روميل الانسحاب ليلة 2 ـ 3 نوفمبر، وأبرق قراره وأسبابه إلى مقر قيادة هتلر في تلك الليلة، سلم التقرير إلى هتلر في اليوم التالي، حيث إن ضابطاً للخفر لم يجرؤ على إيقاظ هتلر، فعوقب بتخفيض رتبته، وهاجم هتلر روميل وشتمه.

كان انسحاب روميل ناجحاً عندما وصلت برقية لاسلكية من مقر قيادة هتلر: «إن الموقف يتطلب الاحتفاظ بمواقع العلمين إلى آخر رجل، وإن الانسحاب غير وارد، النصر أو الموت، يحيا هتلر!». كانت البرقية بتوقيع هتلر شخصياً ولسبب أو لآخر، كنا نقوم بالانسحاب، وتم إرسال وتعميم البرقية لكل وحدات الفيلق الأفريقي.

إن تلك البرقية التي تدعو إلى السخرية لم تعمل على رفع معنوياتنا في ذلك الوقت، ورغم أننا استلمناها، لم يتجاهلها روميل، فعندما اتصل فون توما قائد الفيلق الأفريقي طالباً من روميل في مقر قيادة مجموعة بانزر أفريقيا، جنوب الضبعة الإذن بالانسحاب إلى منطقة فوكا، لم يوافق روميل على خطة الانسحاب، ولكنه أعطاه صلاحيات للعمل حسب تقديره. في صباح اليوم التالي حصل فون توما على معلومات بأن (التومي) البريطانيين قد طوقوا الجناح الجنوبي للفيلق الأفريقي، فأرسل المعلومات إلى روميل الذي لم يصدق هذه المعلومات. إن تقريراً

عن هذه التشكيلات يفيد بأنها في الجنوب، يمكن أن يكون انسحاباً لفرقة إيطالية، فذهب فون توما في دبابة ليستطلع الموقف وليتأكد بنفسه. فانقضت عليه الدبابات البريطانية، واشتعلت دبابته وتم أسره.

ذهب بايرلاين رئيس الأركان، للبحث عن فون توما، وكاد يقع في الأسر عندما اقترب على بعد عدة مئات من الياردات، ومن خلال منظار الميدان شاهد فون توما يحيط به جنود العدو، فانسحب إلى الخلف بأمان ونجح في قيادة ما تبقى من الفيلق الأفريقي.

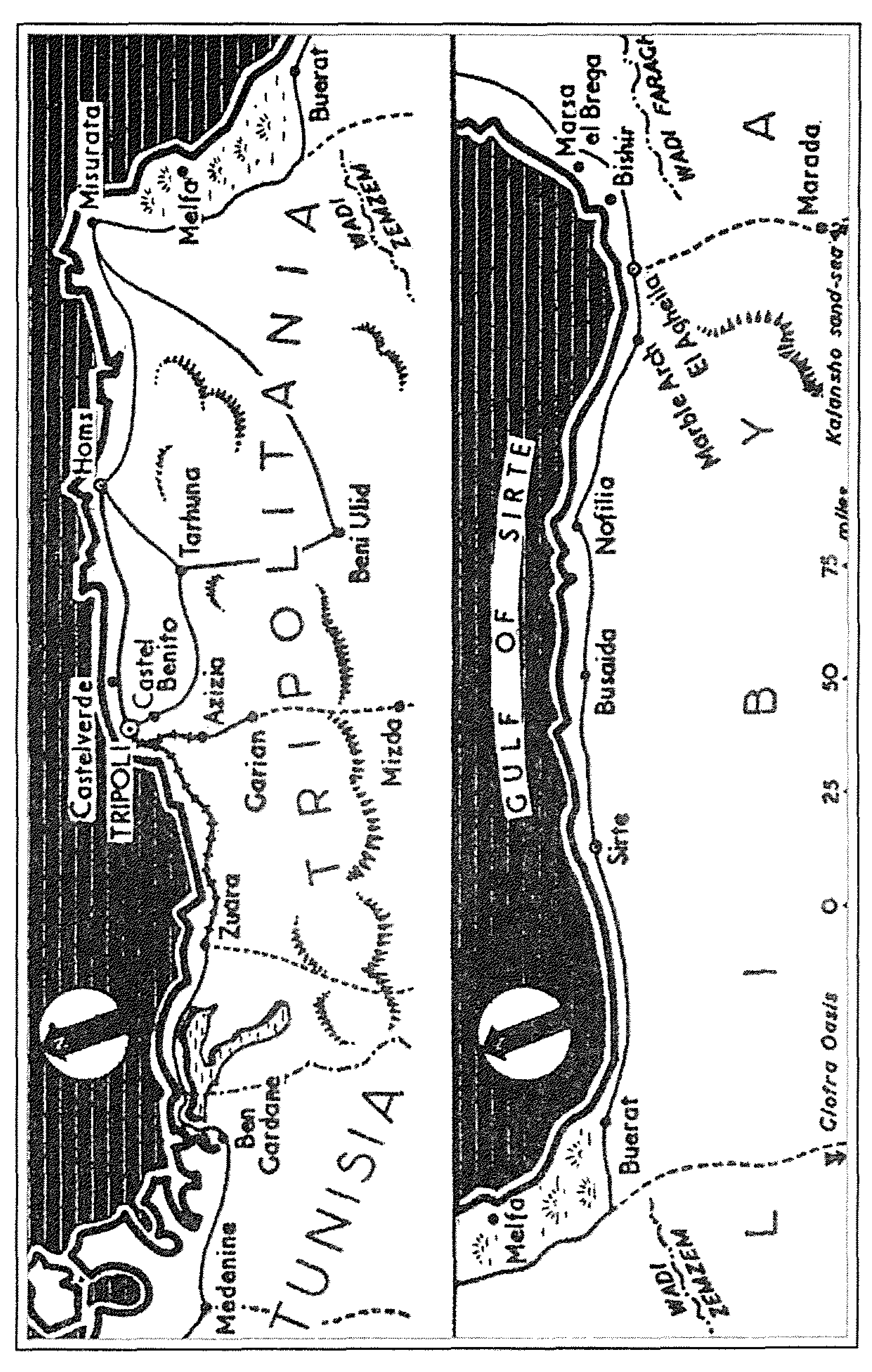
الفصل الرابع والثلاثون

الانســـحاب

لقد بدأت معركتي فقط بعد خسارة معركة العلمين. وحتى بداية الانسحاب، فإنَّ المجموعة الخاصة 288 لم تشترك في المعركة. وفي الحقيقة، كانت الوحدة الوحيدة التي لم تشترك في أي قسم من القتال. كانت ضمائرنا تؤنبنا خلال تلك الأيام ونحن نسمع ذلك القتال الضَّاري يدور على بعد اثني عشر ميلاً إلى الشرق منّا، بينما كانت أسلحتنا في المواقع هادئة ولم يكن لدينا شيء نفعله سوى السباحة والاضطجاع تحت الشمس.

وعندما انسحبت آخر دباباتنا باتجاه الغرب، بدأت مهمتنا. فقد كنّا حرس مؤخرة روميل.

كنا آخر من يقوم بالانسحاب، وعندما انسحبنا أميالاً قليلة فقط بطول الطريق الساحلي اشتبكنا بسرعة مع عربات مدرعة جنوب الطريق. بدأت مدافعنا في العمل، وقاتلناهم فلاذوا بالفرار.



الخريطة رقم: 3 مرسى البريقة إلى البويراتالخريطة رقم: 4 البويرات إلى مدنين

المجموعة الخاصة تتحرك إلى الخلف بحركة قفزة الضفدعة. كتيبة واحدة كانت دائماً تتوقف في مواقع دفاعية لتغطية الانسحاب، ثم تقوم بفتح مدافعها للقتال ثم تحركها. حتى وصلنا مرسى مطروح في 5 نوفمبر.

صدرت لنا الأوامر باحتلال مواقع مؤقتة في مرسى مطروح في الخط الدفاعي الجنوبي وعلى جانبي طريق واحة سيوه. قمت بنصب المدافع المضادة للدبابات ـ يوجد في كل سرية من السرايا خمسة أو ستة مدافع ـ في معظم النقاط التعبوية (التكتيكية) المهمة. كانت مواقعنا بين التحصينات الخداعية حيث شراك الأسلاك الشائكة وحقول الألغام التي تركت سليمة كما كانت في شهر يونيو عندما فكر رجال أوكنلك باحتلال هذا الخط.

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم شاهدت دبابات بريطانية تلوح جنوب مرسى مطروح، وبحلول الظلام فتحت نيرانها على مواقعنا بطول طريق الواحات.. كانت مطاردة شاقة. وتحت جنح الظلام قامت طوابيرنا السليمة من مجموعة البانزر بترك مواقعها القوية واستأنفت زحفها باتجاه الغرب.

بعد عدة ساعات حضر مراسل دراجة نارية يحمل إليّ تقريراً مكتوباً عن الموقف. علمت من هذا التقرير أن رأس الحربة لقوات مونتجمري أصبحت إلى الغرب من مرسى مطروح. توقعت وصول أوامر عند منتصف الليل لإخلاء مواقع حرس المؤخرة الحالي. وكان عليّ الانسحاب بالاعتماد على اتجاه الحك (البوصلة)، التي

وحدها يمكنها أن تأخذني على قدمي عبر الممر خلال حقل الألغام.

إنني أذكر بكل أسف أنني لم أحصل على فرصة لتحديد أو تأشير مدخل الثغرة في حقل الألغام خلال ضوء النهار، وعلى أي حال، لقد كنا في ارتياح لقدرتنا على التملص من العدو خلال الليل، وبكل تأكيد فإننا سنقع في الفخ في حال بقائنا مدة أطول خارج مرسى مطروح.

قام سائقي وساعي الدراجة النارية بتعتيم عربتي بالبطاطين.. وعلى ضوء مصباح صغير تم توصيله بنضيدة، تناولنا وجبة معلبة، وكتبنا رسائل إلى الوطن. انشغلت في الكتابة، بحيث نسيت أن ألاحظ أن موعد منتصف الليل تم تجاوزه. فجأة، سمعنا صوت محرك دراجة نارية متقطع، ثم توقف، وسمعت صوتاً ينادي: «هل هذه المجموعة الخاصة 288؟. وإذا بصوت أجش يهمس: «اسكت! فقد يسمعك (التومي) الإنجليز!».

اقتيد ساعي الدراجة البخارية إليّ. ودفع إليّ بيده من خلال البطانية السوداء. وكرر بصوته الأمر المكتوب الذي قرأته: «لقد أخلينا مرسى مطروح. وعلى حرس المؤخرة أن يتبعنا!».

عليّ الآن أن أطبق التدريب الصحيح. كل مفرزة من الكتيبة كان لديها ساع في الانتظار قرب عربتي. أعطيت التعليمات في دقيقة أو دقيقتين، ثم تحركت العربات بهدوء من خلال الظلام إلى مواقع المدفعية. أعددت المدافع وحملت ذخيرتها، وتجمعت

العربات من كل الاتجاهات قرب عربتي في واد صغير. وعلى الرغم من الحذر، فإن صوت المحركات التي تدور لا يمكن كتمانها تماماً، لقد كنتُ منزعجاً وموزعاً بسبب صياح عدد من السائقين الذين يتصل بعضهم ببعض. ماذا حدث عند انتظام طابوري؟ انفجارات واصطدامات وأزيز الرصاص من حولنا. قذائف دبابات تنفجر على الأرض قريباً من أقدامنا وتئز بين العربات، أصيبت بعض العربات واشتعلت فيها النيران. في لحظة وجهت إلينا وتوهجت نحونا حيث أصبحنا هدفاً جيداً للدبابات البريطانية، التي أصبحت تمثل خطورة على جبهتنا الجنوبية.

قدّرت أنها قليلة العدد، ولكن الموقف أصبحَ متأخراً حقاً. إن التوقف لحفر الخنادق لا جدوى منه. يجب علينا الانسحاب حسب الأوامر. ولكن في حالة إجبارنا على التوقف والحفر، فقد أعددت معدات الحفر بواسطة شريط ووضعتها مائلة فوق كتفي. هذه الحركة تعني غالباً أننا سنقوم بذلك.

انتشرنا بفواصل للمسير، وصحت مصدراً الأوامر، واقفاً في عربتي وناظراً بعيني في إبرة (البوصلة) لأحدد الاتجاه في الظلام إلى الثغرة في حقل الألغام.

كنا نقود خلال عاصفة غير مؤثرة من قذائف العدو. وكان هدف السائقين الوحيد هو الابتعاد عن مدى مطاردة دبابات العدو، ففقد الطابور انضباطه واضطرب نظام الرتل، واقتربت العربات من

بعضها ضد الأوامر، وأحياناً كانت تتسابق جنباً إلى جنب، مستخفين بأوامر التدريب.

أخذت قذائف العدو تتلاشى، فانتابني شعور بالارتياح وتنفست الصعداء، عندها حدث صوت انفجار، تمايلت عربتي وتوقفت: لقد تحطم المحرك والمبرد.

اللعنة! دبابات أمامنا! لقد ومضت فكرة في خاطري: «إنَّ الأَوغاد قد قطعونا».

صحت في سائقي الذي أصيب بجرح طفيف، «اقفز من العربة». فكرت بأنه علينا الابتعاد من هنا. السرعة فقط هي التي تخرجنا من هذا الموقف. قفزنا إلى العربة التالية التي كانت تتعقبنا، وصحت في السائق: «اتجه إلى الأمام ولا تنحرف!». ولكن ليس باستطاعة هذه العربة التقدم مرة أخرى فقد تحطمت.

الوميض مرة أخرى، التدمير والإزعاج. لقد جرح السائق واثنان من الرجال في العربة رغم أني كنت في العربة أيضاً، لكني هربت ولم أصب.

عندما قفزت من العربة لاحظت على يميني وميضاً ينطلق، ثم سمعت انفجارين. لحظة ذهول ثم فكرت وصحت: «ترجلوا! واحفروا!». وهذا الأمر كان غير ضروري فقد توقفت كل العربات. معظم الرجال كانوا منبطحين أرضاً، وأعقب ذلك سكون تام، فقط أصوات منخفضة من المحركات. ومرة أخرى سمعنا أصوات القذائف التي تنطلق فوق رؤوسنا وكان مصدرها من المؤخرة،

قذائف قليلة تدوي من الدبابات، ولكن من هو هذا الشيطان الذي يطلق علينا النيران من الجبهة؟ وفكرت هل نحن هدف للنيران، أم نحن نسير وسط حقل ألغام؟.

كنت في حاجة إلى عدة خطوات إلى الأمام لفحص الأرض الواقعة خلف أقرب سيارة مدمرة. نعم، كانت توجد حفرة وهي تشير إلى ألغام!. أصابتني الحيرة. لقد كانت قراءتي للبوصلة دقيقة، وكنت متأكداً، رغم استخفافنا بالسرعة التي نتنقل بها والتي يمكن أن تحطم رقابنا. شعرت بوخزة حارة تزحف فوق جلدي: إنها عدة الحفر للتحصين! بالطبع، المجرفة الفولاذية تسببت في تغيير وانحراف إبرة الحك.

الليلة كانت مظلمة، وضعت (الحك) قرب عيني وأخذت الاتجاه الصحيح على شعاع وميض. ثم رميت عدة الحفر بعيداً وأخذت الاتجاه ثانية. وكما توقعت، أشارت الإبرة بعيداً وإلى حد كبير إلى اليسار، لقد كنت غبياً فنحن هنا كنا في وسط حقل الألغام، ودبابات العدو تلاحقنا بقسوة. كان عليّ وحدي استعادة الموقف. فكرت بهدوء ووضعت خطتي مع رجالي المنبطحين على الأرض، خطوت خارجاً لأبحث عن حافة حقل الألغام. ورافقني جندي كان قد سلب رفيقه قمت بمعاقبته، وقد لحقه العار عندما أطلقت عليه (كلب الصيد) أثناء عرضٍ للكتيبة منذ أيام مضت، والآن أصر على مرافقتي. كان يجري معرضاً نفسه للخطر، ويقوم بفحص المسارات بحثاً عن الألغام بعينيه.

عادة، كنا نعلم بأن الألغام الخفيفة والسريعة الانفجار هي

الألغام المضادة للأفراد والتي تزرع مبعثرة حول الألغام الثقيلة المستخدمة ضد الدبابات والعربات، ولكن يبدو هنا أنَّ صفيحة الألغام التي تم زرعها هي من النوع الاعتيادي، وهي لا تبدو أنها ألغام ضد الأفراد. أخيراً اكتشفت سلكاً صدئاً من الأسلاك الشائكة، يشير إلى حافة حقل الألغام، وفي الحال عثرت على الثغرة التي كنا قد تجاوزناها بحوالى خمسين ياردة. كانت العربة التي في المقدمة والمدافع فقط قد توغلت في حقل الألغام، أما معظم الرجال فقد انتشروا في دفاع منظم.

طلبت من سائقي عربات المؤخرة بالاتجاه رأساً إلى الثغرة، وتجزأت الحضائر الأخرى لتتجنب المصائد الخداعية، وهي مهمة صعبة لرجال يقودون عرباتهم ومدافعهم إلى الاتجاه الخلفي في ممرات للوصول إلى حافة حقل الألغام. انفجر لغم واحد، لكنه ولحسن الحظ لم يقتل أحداً منا. وأصبحت الصحراء من حولنا في سكون وهدوء تام، حيثُ لم يسمع حتى صوت إطلاقة واحدة. استغرق عملي ساعتين لإخراج الطابور وإعادة تشكيله مرة ثانية والتحرك من خلال الممر بأمان. لقد خسرت أربع عربات ثمينة، لكن أحداً لم يمت. في المحيط الغربي كان في انتظارنا مجموعة من خبراء كشف الألغام القلقين. وبعد قليل من مرورنا قاموا بزرع الألغام في الثغرة ثم التحقوا بنا بعد نصف ساعة مسرعين.

واصلنا التقدم مسرعين بطول الطريق الساحلي إلى الغرب. حل الصباح، ودبابات مونتجمري لا بد أن تكون قريبة في مكان ما في أجنحتنا، ويمكن أن تكون أمامنا. كانت أشعة الشمس وراء

ظهورنا تبالغ في ظهور الظلال من أمامنا عندما ظهر لنا سرب من القاصفات تدوي فوق رؤوسنا. نشرت طابوري بسرعة، ولكن الطيارين تجاهلونا. تملكني العجب، هل أخطأوا في تمييزنا واعتقدوا أننا طلائع الجيش البريطاني؟. وفي الأفق الغربي شاهدناهم ينقضون ويلقون قنابلهم. عرفنا الآن موقع القسم الأكبر من الفيلق الأفريقي.

كنا نتحرك خلال منطقة سيدي براني ليلاً، حيث كانت الممرات رملية ومعظمها يصعب اجتيازها. حتى كادت تنقلب العربات والمدافع.

قبل منتصف الليل بساعة أو ساعتين شاهدنا أولى قنابل التنوير بالمظلة تطلق فوق رؤوسنا، لم يسبق لي أن شاهدتها، وقد بهرتني عندما انبثقت من الظلام بابتهاج أحمق. وفي دقائق معدودات امتلأت السماء بأشجار الميلاد وأضيئت المنطقة بالأنوار الكاشفة، وأصوات قصف القنابل في الأرض من الطائرات المنخفضة الطيران.

كنا نسابق الأوقات المضطربة وسط الوميض ودوي الانفجارات. وإذا توقفنا ونزلنا إلى الأرض فإن الطائرات تهاجم حتى الجندي المنعزل الذي يصطادونه وهو منتصب، فظلالهم الغريبة تتراقص وتنكشف عبر الأراضي عند توهج لهب الأنوار بعد سقوطها إلى المستوى المنخفض. وإذا لم ننطبح فإنهم سيروننا.

لقد ضربنا بشدة طوال تلك الليلة. كنا نندفع بجنون ثم

نتوقف، ثم نتقدم ببطء، إن تحدينا لن يذهب عبثاً، وإلا فسندمر بواسطة دبابات العدو المتجهة نحو الجرف قبل الوصول إلى الأمان نسبياً في منطقة السلوم العليا.

كانت ليلة شرسة على الفيلق الأفريقي، وعندما أحصينا خسائرنا فيما بعد، تبين أنها كلفتنا خسائر كبيرة في الرجال والدبابات، أكثر مما خسرنا في معارك الدبابات السابقة.

استقبلت الصباح باعتدال وتحفظ، وكنت أعرف أن هجمات الطائرات ستستمر، وربما بقوة أكبر، ولكن على الأقل سنكون سعداء لأننا سنرى عن مسافات أبعد، ويمكن الوقوف للدفاع بأسلحتنا.

عند بزوغ الشمس لاحظت أنَّ طابور كتيبتي كان يتحرك في حشود بسرعة عالية. إن تجاوز العربات في الطابور كان ممنوعاً في جيشنا، كما في الجيش البريطاني، إلا في حالات خطر الهجمات الجوية الكثيفة، لأن الطرقات المزدحمة تكون أهدافاً جيدة. وكان عليّ اتخاذ خطوة لتصحيح سلوك السائقين المضطربين الذين يتجاوزونني عند وجود فرجة بين العربات. أمرت السائقين بأن يبطئوا الحركة، وقد أبطأت الحركة من حولهم بحسم. وبعد ذلك قمت بإعادة تنظيم العربات المتقدمة. شاهدت عربة الماموث القديمة والمألوفة لديّ، وعلى سطحها شاهدت من الخلف أكتاف تلك الشخصية المعروفة. تقدمت وأديت التحية بكل احترام.

لوح روميل بيديه وصاح بأمر تناقلته الرياح نحونا. لكن وجهه كان جاداً ومتجهماً..

الفصل الخامس والثلاثون

شيرمــان الأمريكية
ذات القـدرة العـالية ..

كان يبدو على وجه روميل التجهم. وفي اليوم الذي أخلينا فيه مرسى مطروح، نزلت الموجات الأولى على سواحل شمال (أفريقيا الفرنسية)[1] على بعد ألفيْ ميل إلى الغرب. كان على روميل أن يتقدم إلى الحدود الليبية، وللمرة الأخيرة وفي الطريق الخطأ. كان عليه أن يقطع مسافات طويلة في قتال تراجعي. وكان يرى أن مهمته هي مواجهة التهديد الجديد في أفريقيا.

كانت سرعة المطاردة ساخنة. النيوزيلنديون يواجهوننا في مناوشات قصيرة في الصحراء شرقي سيدي براني وفي الخط البريطاني القديم لحقل الألغام عند بقبق. وبحلول يوم 10 نوفمبر كنا نعبر بسلام أكثر مما كنا نتوقع، السهل الساحلي المعتاد أسفل

(1) لقد تم إنزال أمريكي ـ بريطاني يوم 8 نوفمبر 1942 في المغرب والجزائر والتقدم نحو تونس، وكانت هذه الدول تحت السيطرة الفرنسية. (المراجع).

ممر حلفايا، وعلى يميننا تمتد شواطئ البحر التي كنا روميل وأنا نلهو ونسبح فيه. ثم بدأنا نتقدم متسلقين منعطفات السلوم

النيوزيلنديون أخذوا السلوم والبردى وكابوتسو وهم في أعقابنا، دبابات الفرقة السابعة المدرعة تنطلق مسرعة عبر الصحراء بطول حافة المرتفعات حيث اتصلت بالنيوزيلنديين.

كانت أول وقفة قصيرة لنا عند سيدي عزيز، على طريق كابوتسو. وكالعادة دائماً، نشرنا مدافعنا المضادة للدبابات على الفور. كنا حذرين من الغارات الجوية بقدر حذرنا من الهجوم الأرضي. حفرنا الخنادق وطهينا الشاي ليساعدنا على ابتلاع البسكويت ولحم البقر المعلب، وهو من المدخرات القليلة المتبقية من أسلاب طبرق. ثم انطلقنا إلى الخلف مسرعين إلى طبرق.

بدأ الماء يغلي عندما بدأنا نشاهد تلك الأعلام الصغيرة والمألوفة ترفرف في الأفق. إنها أعلام العربات المدرعة لفرقة جنوب أفريقيا تزمجر خلفنا. وبدأنا نشاهد الكثير منها في خط الأفق. أعداد كثيرة منها تقدمت إلى الأمام في عرض شجاع. استعد المدفعيون للقتال سريعاً ضد هؤلاء الضيوف غير المرغوب فيهم، وأطلقنا النيران من مسافات بعيدة فغيرت العربات اتجاهها واختفت خلف المرتفعات القريبة.

لم يكن لدينا شك في أن هذه كانت مؤخرة رتل الجيش الألماني ـ الإيطالي المدرع، وكان علينا أن نبقى خلف المؤخرة لأسابيع عديدة، وبما أن تشكيلنا كان الوحيد الذي لم يشارك في

معركة العلمين، فكان علينا أن نعوض عن هذا بأحسن ما لدينا.

كنت أعرف هذه المناطق التي نمر بها، ليس بسبب رحلاتنا مع روميل، ولكن أيضاً بسبب خبرتي عندما كنت أقود حرس المؤخرة منذ عام مضى. ووحدتي الآن اكتسبت خبرات في فن القتال والحركة لحرس المؤخرة.

فنحن نستطيع احتلال مواقع دفاعية في دقائق والانسحاب منها سريعاً. إن الروح المعنوية العالية والممتازة للفيلق الأفريقي حتى الآن والمتوقعة، تعود لإيمان الرجال بتفوق دباباتهم والمدافع المضادة للدبابات ـ والتي تحمي المشاة حماية جيدة ضد هجمات الدبابات ـ على معدات العدو. أما الآن فقد تغير توازن التفوق. فالقدرة العالية لدبابات شيرمان الأمريكية أصبحت كابوساً مرعباً لرجالنا.

اهتزت معنوياتنا عند انسحابنا إلى الخلف بأسلوب قفزة الضفدعة على طول الطريق الساحلي. ووجدت مواقع جيدة لمواجهة المطاردين في الشرق، كما شعرت بالسرور عندما شاهدت التعزيزات القوية من المظليين، من تشكيل اللواء رامكه الذي شق طريقه قتالاً بشجاعة بعد تطويقهم في العلمين مع مدافع 88مم المضادة للطائرات والمعدة للقتال، حيث شعرت بأنني على استعداد لمقاومة أي شيء. الدبابات الأمريكية تلوح في الأفق. الأراضي كانت متموجة وكانت الدبابات تظهر وتختفي مرة ثانية، دعها تأتي! فخطتي: كانت الانتظار بصبر في هذا الموقع المموه

جيداً وكبح نيراننا لحين اقتراب دبابات العدو لمسافة كافية لمدافعنا من عيار 50مم لمقاتلتها في المدى الفعّال. وقد أكدت ذلك وشددت على هذه النقطة مع الضابط الأقدم للمدفعية.

ولكن حديثين بين رجال المدفعية المضادة للدبابات في حاجة إلى تدريب وأعصاب وجسارة قدماء في الفيلق الأفريقي.

عندما ظهرت دبابتان بريطانيتان على مسافات بعيدة عن مدى المدفع من عيار 50مم، قامت مدافع 88مم بفتح نيرانها. فقامت الدبابتان بمناورة نحو الأراضي الميتة. راقبت المنطقة مدققاً من خلال منظار الميدان. قامت الدبابات بالرماية على مواقعنا، وكانت نيرانها مباشرة وفعالة كما لو كانت رماية مدفعية اعتيادية. كانت مركزة على مدافعي من عيار 88مم التي قامت بالرماية قبل الأوان.

لم يتمكن رجال مدفعيتنا من مشاهدة خصومهم!. لقد لاحظت حركة غير بعيدة من المكان الذي اختفت فيه الدبابتان. كان ذلك مرصد استطلاع العدو. وقبل أن نتعامل مع مرصد العدو، قامت الدبابات بضرب مدافعنا من عيار 88مم. إن قواتنا من المشاة الآلية لا يلائمها هذا. فمن تجاربهم كانوا يعلمون أن علينا الاعتماد على المدافع من عيار 50مم (المضادة للطائرات)، وكان واضحاً أن هذه المدافع لا يمكن مقارنتها مع مدى مدافع مونتجمري الجديدة.

وبدأت الآن أقدر أكثر من أي وقت، ضرورة إعداد المواقع وتمويهها جيداً وضبط النيران، إذ كنا واثقين من فائدة المفاجأة في سلسلة من ضربات النيران والحركة، التي أصبحت الآن متعذرة،

فالرجال تدربوا عليها بثبات، وقد تحصلنا على فرصة لاختبارهم عندما عدنا للقتال بقرب أجدابيا.

دخل البريطانيون طبرق بدون مقاومة في يوم 13 نوفمبر. لقد تقدم القسم الأكبر من جيشهم مسافة 220 ميلاً في ستة أيام وهم يتحصلون على الإمدادات بشق النفس للاستمرار في المسير، وأصبح لديهم موانئ مرسى مطروح والبردى التي بدأت في العمل بعد يومين من احتلالها، وكان في استطاعتهم، على الأقل، مطاردتنا بقوات خفيفة خلفنا. دخلوا درنه يوم 16 وأصبح باستطاعتهم استخدام أراضي الهبوط والمطارات هناك، بالإضافة إلى أراضي الهبوط في كمبوت، أبعد إلى الخلف، والتي تؤمن منها المقاتلات الجوية الدعم المباشر للقوات البرية، وتمكنها من تغطية القوافل القادمة من الإسكندرية، ولرفع الضغط عن مالطا التي كادت أن تشرف على المجاعة.

قمنا بضرب وطرد العربات المدرعة يوم 18 بواسطة قواتنا من حرس المؤخرة في منطقة الشليظيمة وأنتيلات في الممرات الرئيسية في المرتفعات، ثم انسحبنا مرة ثانية أثناء الليل. لقد ضاعت منا بنغازي، وهطلت أمطار غزيرة لمدة يومين مما أتاحت لنا فترة قصيرة من الراحة في أجدابيا قبل أن تلحق بنا قوات العدو.

لا زال تشكيلنا يعادل قوة كتيبة، وقد احتليت خطاً دفاعياً على كثبان رملية. كنا مبتهجين، كما أذكر، لأننا كنا قريبين من مخزن تموين ألماني مهجور، حيث جمعنا كميات كبيرة من

المخازن والطعام من مطبخ الميدان، كان في ذلك الوقت طعاماً استثنائياً وممتازاً، كما حصلنا على كميات كبيرة من الشوكولاته والسجائر. لم نقسم حصصاً على الرجال، لأن أحداً لا يعلم ماذا سيحدث لنا غداً؟.

أحكمنا مواقع مدافعنا ورشاشاتنا عميقاً داخل الأرض، ووزعنا أكداس الرمال التي أخرجناها بعد حفر مواقع المدافع على الأطراف. وجهزنا مدافع الهاون في واد بالقرب من مطبخ الميدان، وتم تمويه جميع مواقعنا بأشواك الإبل.

أخذت صفحة من كتاب[1] روميل، حيث قمت بتفتيش مواقعي من الأمام ـ الجبهة ـ لقد أصبح من الصعب تمييزها وتحديدها، عدا مدفع روسي من عيار 76,2مم فقط، كان واهناً في إخفائه تماماً. وقبل أن أستطيع إخفاءهُ، صاح أحد رجالنا المكلف بالمراقبة من خلال منظار قوي مرتكز على ثلاثة قوائم، من حفرة السلاح ـ الخندق ـ: «دبابات العدو ـ شمال شرقي!».

قفزت داخل حفرة بجانبه وقمت بالمراقبة من خلال المنظار، للحظات، ثم أصدرت أمراً: «استعدوا للقتال ـ دبابات شمال ـ شرقي!».

أوقفنا كل الحركات المنظورة في خطنا فوراً. الاتصالات كانت تتم فيما بيننا بواسطة هواتف الميدان فقط. واستطعنا مشاهدة

(1) يقصد المؤلف أنه استفاد من خبرة روميل في التفتيش على المواقع عندما كان مرافقاً له. (المراجع).

دبابات في القطاع الآخر. طائرتا استطلاع بريطانيتان تطيران فوق الرؤوس.

لكنها لم تكتشفنا. وإلى الغرب منا أطلقت مدافع خفيفة مضادة للطيران نيرانها فجأة على الطائرتين فأسقطتهما. ثم اتصلت بي قيادة العقيد منتون تقول: إن أحد الطيارين البريطانيين الذي أنقذ حياته بواسطة القفز بالمظلة وقع أسيراً، وأكد لهم بذهول أنه لم يكتشف مواقعنا ولم يكن يعلم أنه يطير فوق مواقعنا.

اتضحت لنا الآن صورة مثيرة، حوالى ثلاثين دبابة ثقيلة تحتشد تدريجياً بطول واد صغير أمام جبهتنا. وكانت مدافعنا الثقيلة بعيدة إلى الخلف في أجدابيا تطلق نيراناً متقطعة فوق رؤوسنا، ولكن بدون أية فعالية أو تأثير. وقد انضمت بطاريتان من المدافع بالإضافة إلى المشاة إلى الدبابات في الوادي. جهزنا المدافع بالذخيرة المحدودة، ومن خلال المنظار كنت أميز حركة رجال المدفعية وهم يعالجون بأيدهم معداتهم ويقومون بالقصف المضاد من بطارية في اتجاه أجدابيا. كانت قذائفهم تمر عالياً فوق رؤوسنا. وشاهدت أيضاً عربات قيادة مدرعة وعدداً من الضباط البريطانيين الظاهرين للعيان. ومن الأوامر الصارمة الصادرة إلى رجال مدفعيتنا هي عدم إطلاق النيران على أي شيء لم يعبر خطاً تم تحديده لهم. كان كل رجالنا محافظون على هدوئهم ومسيطرون على أعصابهم.

ومن خلال منظاري شاهدت ضابطاً بريطانياً، يحمل عصا ويعطي إشارة بيديه، فتقدمت دبابات الشيرمان نحونا. 3 دبابات

منها اقتربت بطول الممر نحونا وإلى حيث تمركز أحد مدافعنا.

المدفعيون كانوا في الماضي من جنود الفيلق الأجنبي الفرنسي. تقدمت تلك الدبابات الثلاث بثبات قريباً من خط النار، وتقدمت بقية الدبابات. وعندما وصلت الدبابة الأولى الخط وعبرته، اهتزت القذائف منطلقة من فوّهات مدافعنا وضربت الدبابة القائدة وأصيبت إصابة مباشرة في برجها الذي يشبه القبة، ولكن القذائف كانت ترتد إلى الهواء دون أن تؤثر في الدبابة، فالدبابة كانت جيدة بصورة لا تصدق. الشيرمان القائدة، تراجعت. وعند استدارتها انطلقت رمايتنا في الجانب، فاشتعلت فيها النيران. لقد اكتشفنا نقطة الضعف في هذا الوحش المخيف.

استمر تبادل النيران بين الدبابات ومدافعنا بقوة لمدة ساعتين. لقد خسرنا مدفعين بعد أن أصيبا إصابات مباشرة ودمر الموقعان، لكننا دمرنا عدداً كبيراً من دباباتهم، فتوقف تقدم العدو.

تمكن رجال خدمات الإنقاذ (الإخلاء) البريطانيين، بمهارات عالية جداً من سحب الدبابات المعطلة من أرض المعركة إلى مناطق آمنة، في الوقت الذي كان فيه القتال محتدماً على أشده.

لقد قررت أن بقاءنا غير مجد. وأن رأس الحربة للواء 22 المدرع الذي قطع الآن مسافة 260 ميلاً في الصحراء، قد وصل إلى يميننا ويهدد بالاتجاه نحو جناحنا، ومرة أخرى انسحبنا واندفعنا إلى الخلف . . . إلى العقيلة. لقد خسر روميل الآن كل منطقة برقة.

الفصل السادس والثلاثون

خسارة مقاطعة طرابلس

عند وصولي إلى العقيلة استدعيت إلى مقر الفيلق الأفريقي. وسألني الآمر أن أقدم تقريراً مختصراً عن إمكانية الدفاع عن واحة مرادة، ولا بد أن أحد ضباط الأركان تذكر مهمتي في بداية عام 1941. إن الدفاع عن واحة مرادة يمكن أن يكون سهلاً إذا توافرت قوات لتتمركز فيها على أن تؤمن لها الإمدادات. ويمكن إمدادها بالجو، حيثُ إن خطوط الإمداد البري إلى الواحة يمكن للعدو قطعها بسهولة.

إن تقريري هذا كان يشبه على الأصح دليل إرشادات طفل عن الحرب، وإن مثل هذه التقارير تكون عادة غير وافية ولا بد من زيادة التوضيحات. إن اللواء الذي يناقشني كان ودوداً وفي مزاج طيب، وبعد تحليل وجهة نظري لبعض الوقت قدم لي كوباً من القهوة. كان هذا أول كوب قهوة أتذوقه منذ أسابيع.

تولّد لدي انطباع أن فكرة مرادة وردت لي قبل وصولي لمناقشتها، حيث يمكن إعداد الخط الدفاعي العقيلة ـ مرادة في وقت قصير قبل أن تقوم قوات العدو بالضغط علينا بقوة مرة ثانية.

كانت العقيلة من أهم المواقع للتقدم البريطاني مرتين في ليبيا. حيث إنها من أقوى المواقع في ليبيا: أولاً المهاجمون سيواجهون منطقة المستنقعات المالحة، ثم ثغرة بينها وبين مستنقعات مالحة أخرى في الجنوب، ثم رمال ناعمة وسيوف من الرمال، وهذه التلال الرملية تمتد على شكل هلال بواسطة رياح الصحراء، وإلى الأبعد في الجنوب كثير من المرتفعات والكثير من المستنقعات المالحة، وتبعد العقلية 150 ميلاً عن بنغازي و300 ميل عن طبرق، ويمكن فقط لجيش قوي ومنتعش اختراق هذه الدفاعات مع ضمان الإمدادات، ولكن من الواضح لمقر القيادة بأنه لا يمكننا الاحتفاظ بالعقيلة في هذا الوقت. والحقيقة أن روميل أوضح في بيان: «العقيلة هي الجبهة الأخيرة حيث إن تقدم الجيش الثامن يجب أن يوقف، ولكننا لن نتمكن من الحصول على تعزيزات لخوض معركة دفاعية فعالة».

كان الجو مثقلاً بالإشاعات، فقطعاتنا علمت بوصول إمدادات قوية إلى تونس. وقد تحدث سائقو عربات الإمداد الذين وصلوا من تونس، عن الدبابات العملاقة (النمر)، وهي الدبابة الثقيلة التي وعد هتلر روميل بها قبل معركة العلمين، وأسطورة قاذف الدخان (نيبلفيرفر) التي تحولت إلى هاون متعدد الفوهات في

الجبهة الروسية. وقد تحدثوا أيضاً عن الطائرات الشراعية الضخمة والعملاقة للنقل التي تستطيع نقل دبابة خفيفة أو 250 رجلاً.

وأخيراً، فإن قصة الإشاعات لا نهاية لها، ومطلوب من القيادة العليا في برلين القيام بشيء ما للقوات في أفريقيا. أما في الجبهة ونحن نواجه الجيش الثامن، لم نر أية تعزيزات حقيقية، وعلى النقيض، فقد سُحبت بعض الوحدات المتخصصة من الفيلق الأفريقي على عجل إلى تونس.

وبالفعل، فإن قوات الغزو الأنجلو ـ أمريكية في الغرب سيطرت بإحكام على المغرب والجزائر، وحتى هذه اللحظة فإنهم أصبحوا داخل الأراضي التونسية لمسافة 25 ميلاً، وكل ما يرد من تعزيزات يمكن توفيرها لأفريقيا تذهب إلى تونس، وليس إلى روميل في ليبيا. وإذا أحصينا الرجال الذين تم تراجعهم في هذا الانسحاب الطويل، فنحن لدينا الآن 58.000 جندي إيطالي ـ وهي قطعات عديمة الفاعلية في القتال ـ و10.000 ألماني. ولدينا أقل من 100 دبابة.

لم تكن خطة روميل الاحتفاظ بالعقيلة أكثر من حاجته لإجبار مونتجمري على نشر قواته واستعداده للهجوم، ثم ينطلق إلى الخلف إلى (بويرات الحسون) لتغطية ميناء طرابلس نفسها.

وفي بداية شهر ديسمبر، يبدو أن العدو قد أدرك بأننا سننسحب مسافة أبعد، وربما استنتج هذا بعد إدراك روميل خطر ضياع الآلاف من الإيطاليين الذين لا توجد لديهم وسائل نقل

لسحبهم كما في العلمين، حيث قام بسحبهم أولاً، وأبقى على القوات الآلية الألمانية للاحتفاظ بالمواقع لحين هجوم مونتجمري المرتقب قريباً.

وفي ليلة 12 ديسمبر بدأنا الانسحاب، بعد أن اتضح لنا بأن العدو قد خطط للقيام بالهجوم على الجبهة. كان على المجموعة الخاصة 288 حماية مؤخرة الفيلق الأفريقي جنوب طريق مرادة وحتى الطريق الساحلي على البحر الأبيض المتوسط. القوات البريطانية أبطأت في طريقها من جراء مصائد المغفلين وألغامنا ومن جراء الخنادق، وعند حلول يوم 15 تقدموا سريعاً ضدنا. ضربنا بقسوة في طريق مرادة بواسطة دبابات اللواء الثامن، وكانت النتيجة تقريباً خسارة سرية كاملة، لقد أوقفنا الدبابات البريطانية بخنادق ضد الدبابات عميقة عبر الطريق الرئيسي. النيوزيلنديون كانوا في نفس الوقت يقومون بحركة تطويق على الجناح الأيسر وقد اشتهروا بهذا النوع من الالتفاف، فالتفوا بحركة واسعة حول المواقع الرئيسية، وهددوا بقطعنا في وادي (مطراطين) على بعد 60 ميلاً غرب العقيلة. لا زال القسم الهام من قواتنا وحرس المؤخرة، يقاتل بطريقة قفزة الضفدعة على طول الطريق، في الجانب الأيسر من الوادي، وإن الطريق الأسهل لانسحابهم هو من خلال وعلى طول الطريق الرئيسي. النيوزيلنديون احتلوا بعض المواقع، وللمرة الأولى لم يكونوا في أحسن حالاتهم، ويبدو أنهم ضلوا طريقهم في تلك الليلة رغم أنها كانت ليلة مقمرة. تم تقسيم قواتنا إلى مجموعات صغيرة بقوة سرية، وقمنا بالاندفاع من خلال الثغرات

ومن خلالهم، لكننا فقدنا بعض الدبابات والمدافع والرجال. وخلال انسحابنا كنا نقوم بنسف الجسور والمعابر في كل وادٍ، ونزرع الألغام بطول الممرات، وكان على العدو أن يشق طريقه بحذر. ورغم هذا فقد لحق بنا العدو عند النوفلية في ليلة 16، حيث قمنا بمناوشات مع الحرس المتقدم لجيش مونتجمري لمدة يومين ثم اندفعنا باتجاه سرت. وبحلول يوم 22 كانت أمامنا فرقة واحدة فقط وهي الفرقة الخامسة عشرة بانزر، بينما التحقت الفرقة 21 بانزر والفرقة 90 الخفيفة بالقسم الأكبر في (بويرات الحسون) لإعداد خط جديد للجبهة. تردد العدو قبل أن يتقدم وراء النوفلية، لأنه ابتعد عن قاعدته في بنغازي مسافة 250 ميلاً، وكان عليه أن يؤمن أراضي هبوط (مطارات) إذا ما أراد قتالنا في البويرات، وقام بدفع عرباته المدرعة إلى الأمام إلى سرت مسافة 80 ميلاً أخرى.

ورغم أن القوات المتقدمة، هي الحرس المتقدم المكون من قوات خفيفة، إلا أنها كانت تهدد بتطويق جناحنا الخارجي، ومرة أخرى على المجموعة الخاصة 288 القيام بالحماية بقفزات الضفدعة. القرية تركناها للعدو.

في مساء عيد الميلاد وجدت نفسي أقود الكتيبة الأمامية لحرس المؤخرة على الطريق الساحلي. على مدى النظر من سرت، كنت أستطيع مشاهدة قطعات مونتجمري وهي تدخل القرية في عصر ذلك اليوم، وكنت أشاهدهم ينظفون أراضي الهبوط.

أي ليلة عجيبة للاحتفال!. كنا نقوم بابتكار شجرة الميلاد من

عمود خشبي، حيث قمنا بعمل ثقوب فيه لتثبيت فروع شجيرات أشواك الإبل. وزيّنا الشجرة بالأوراق الفضية وارتجلنا نوعاً من الشموع. وكانت هدية عيد الميلاد توزيع عدد 3 سجائر لكل واحد من رجالي، والتي ادخرناها في بعض الأوقات. وأخرجت حقيبة البريد الخفيفة التي تحوي رسائل من الوطن وسلمتها لأصحابها. كانت هذه الرسائل أجمل هدايا عيد الميلاد.

بينما كنا مشغولين بإنارة الشموع المثبتة على أغصان شجرة عيد الميلاد المقامة في الهواء الطلق، لاحظنا ثلاثة رجال يراقبوننا من خلال الأرض المظلمة. فدعوتهم، تقدموا نحونا بتردد، وإذا بهم دورية ألمانية تتكون من ضابط واثنين من الرتب الأخرى.

أوضح لي ذلك الضابط بأن وحدته العسكرية موجودة بعيداً إلى الغرب، وأمر بأن يستطلع القوات التي أمامه. قلت له: «يجب عليك أن لا تتقدم أبعد من هذا، لأن أمامنا يوجد الإنجليز فقط، ومن الأحسن لكم أن تشاركونا في احتفالنا الصغيرة هذا».

لكنه كان رجلاً حساساً، فاستأذن ليواصل دوريته، ثم توارى في الظلام متجهاً شرقاً. وقد علمت ما حدث له عندما قابلته عرضاً في إيطاليا بعد أمد طويل فيما بعد، لقد ضل طريقه لعدة ساعات ثم وجد نفسه مرة ثانية في المكان الذي احتفلنا فيه بشجرة عيد الميلاد، عندها توصل إلى قرار بأننا قد زرعنا الألغام في الطريق وقمنا بالانسحاب، فواصل التقدم غرباً للبحث عن العربة التي تركها عندما بدأ دوريته مشياً على الأقدام، وواصل تعقبنا غرباً متحاشياً

الممرات التي اعتقد أننا قمنا بزرع الألغام فيها، ورغم حذره الشديد، فقد دخل ممراً ملغوماً، وانفجر لغم أصابه بجروح خطيرة وأصيب رفيقاه بجروح خفيفة، فحملاه حتى وجدا بالصدفة مفرزة من مهندسي الألغام الذين لا زالوا يقومون بزرع الألغام، ورجعوا بهم إلى الخلف بأمان.

هذه الحادثة لا تروى كقصة سلوك خاص، ولكن حسب ظني، تروى فقط لترينا سلوك إنسان حي الضمير في عيد الميلاد.

قام روميل بعرض للوقوف مرة ثانية في وادي زمزم، غرب البويرات. اندهش العدو.. لماذا؟ وكذلك بعض ضباطنا. كان يبدو أن الدفاع في هذه المواقع غير منطقي، إذ يبلغ طوله 25 ميلاً ويمكن بسهولة الالتفاف حول جناحه، وكان يمكن لنا الوقوف في خط طبيعي وقوي بين منطقة الخمس وترهونة.

الحقيقة أن القيادة العليا قررت قبل نهاية العام التضحية بكل مقاطعة طرابلس لكي تركز للمحافظة على رأس الجسر في أفريقيا حول تونس، وإذا استطعنا إيقاف القوات الأنجلو ـ أمريكية هناك، يمكن لنا الاستمرار في السيطرة على وسط البحر الأبيض المتوسط والاحتفاظ بصقلية أيضاً، ولحرمان العدو من حرية استخدام هذا البحر إضافة إلى ذلك، والسيطرة من خلال هذا الاحتفاظ بالجناح الجنوبي لأوروبا، الذي سيهاجم كما نعلم، وقد أعلنها تشرشل صراحة.

في بداية شهر فبراير أرسل الجنود الإيطاليون إلى غرب منطقة

البويرات. أصدقاؤنا الفرقة الواحدة والعشرون، تم فصلها من جيش روميل الألماني ـ الإيطالي المدرع وانضمت إلى الفريق فون آرنيم. انسحبنا من وادي زمزم مع الفرقة 15 بانزر والفرقة 90 الخفيفة، وكان في استطاعة مونتجمري طردنا من خط البويرات سريعاً، لو علم بأننا لا نستطيع الاحتفاظ بهذا الخط، وكانت المشكلة أنه إذا انتصر في هذه المعركة، عليه الاستعداد سريعاً لإنزال الضربة من خلاله إلى ميناء طرابلس. وقبل أن يصل إلى هناك سوف يكون على بعد 600 ميلٍ من أقرب ميناء إمدادات، في بنغازي الأكثر تعرضاً للتدمير.

لقد خطط لضربنا على الطريق الرئيسي بفرقتين من المشاة، وأرسل مدرعاته والفرقة النيوزيلندية في مناورتهم المعروفة للقيام بتطويق الجناح الأيسر. وفي الحقيقة، لقد تعرض ميناء بنغازي لأضرار كبيرة من جراء عاصفة قوية، حيث سحب آليات ووسائط النقل لإحدى فرقه التي كان ينوي زجها في الجبهة الأمامية، ودفع بها لنقل الإمدادات من ميناء طبرق. لا بد أن مونتجمري كان قلقاً، ولكن لم يكن في حاجة إلى مزيد من الحشد، فلم نكن أقوياء بما يكفي لمقاومته مقاومة قوية.

قام الأستراليون بزحف سريع حول جناحنا. وفي اليوم الأول كان لديه قطعات في الجبهة عبرت وادي زمزم. وبدأ عملنا القديم والمرهق، الانسحاب بحركة قفزة الضفدعة وزرع الألغام، واستمرت عمليات النسف. وفي ليلة 17 يناير انسحبنا من الخمس،

والمنطقة أصبحت وعرة مما ساعدنا على التفوق الكبير على أعداد العدو، وتمكنا من إيقاف مونتجمري بعناد قرب ترهونة، بالتعاون خاصة مع مظليي اللواء رامكه والأعداد القليلة من دباباتنا التي تدعو إلى الحزن.

لقد قاتلت قوات حرس المؤخرة قتالاً عنيفاً غرب مدينة الخمس، وقد تم إعداد مواقع دفاعية قوية رغم قلة أعدادنا، أما روميل فكان نظره مثبتاً الآن على تونس. قاتلنا قليلاً في منطقة (Corradini)، (غنيمة) وقصر بن غشير ومنطقة الهضبة الخضراء، وبعد ذلك قامت الفرقة 90 الخفيفة بآخر عرض لها في قتال ليلي، على بعد اثني عشر ميلاً خارج طرابلس، وحدثت مقاومة من حرس المؤخرة في منطقة المطار، والعزيزية وغريان، ثم أوقفنا القتال وانسحبنا بقفزة الضفدعة بعيداً مرة ثانية. لقد دخل مونتجمري إلى طرابلس في 23 يناير، وبعد ثلاثة أشهر فقط من فتح معركة العلمين.

الفصل السابع والثلاثون

لقاؤنا الأول مع الأمريكيين

كلينا، نحن والحلفاء، قمنا بإعادة تنظيم قواتنا وإعدادها للعمل في شمال أفريقيا.

وفي منتصف شهر يناير اجتمع كل من تشرشل وروزفلت وأيزنهاور في مدينة الدار البيضاء ووضعوا خططاً. إن تلك الاستعدادات تضع الجيش الثامن، عند دخوله إلى تونس، تحت قيادة أيزنهاور. ومع أن أيزنهاور كان هو القائد الأعلى، إلا أن ألكسندر كان القائد الفعلي للقتال، وكان يقود ما أطلق عليه الجيش الثامن عشر، والجيش الأول الذي كان تحت قيادة اللواء أندرسون، المسؤول عن القتال في تونس.

إن الجيش الأول البريطاني لم يتضمن في البداية تحت قيادته تماماً الفيلق الأمريكي الثاني العديم الخبرة أو الفيلق التاسع عشر الفرنسي، الذي رفض قائده اللواء جيرو أن يقوده قائد بريطاني.

ولكن عندما حدثت بعض الأخطاء قام أيزنهاور بنقلهم من تحت قيادته غير المحكمة ووضعهم تحت سيطرة اللواء أندرسون.

في يوم 17 فبراير تولى ألكسندر القيادة الفعلية على عجل، وكان ذلك قبل عدة أيام من تعيينه فعلياً، لأن روميل قام بضربة غير متوقعة عصفت بعنف في منطقة ممر قصرين ـ والتي سأذكرها أكثر فيما بعد ـ. لقد كنت محظوظاً بوجودي هناك. في نفس الوقت قابل روميل فون آرنيم في قابس وناقشا خطة المحور. كان فون آرنيم يعتقد، بأن الجيشين قد نجحا في الاتصال ببعضهما، وعليهما أن يحتفظا برأس جسر قوي من بنزرت إلى خط ماريت، (ماجينو الأفريقي) الذي بناه الفرنسيون في السنوات الماضية على الحدود التونسية ـ الطرابلسية (الليبية). ولكن روميل لم يكن مقتنعاً بأن مثل هذه الجبهة الطويلة يمكن الاحتفاظ بها مدة من الزمن.

تم إعادة تنظيم مقر قيادة مجموعة الجيوش، لكي تقود القتال على طول الجبهة في تونس. وعين روميل في القيادة العليا رسمياً يوم 23 فبراير، وأطلق عليها اسم مجموعة جيوش أفريقيا، (لقد كان رسمياً قائداً أعلى لمجموعة الجيوش حتى يوم 13 مايو وهو تاريخ انتهاء المقاومة في أفريقيا)، واستمر فون آرنيم في قيادة جيشنا الخامس المكون من القوات الأصلية التي اندفعت إلى تونس لمقاومة الزحف الإنجليزي ـ الأمريكي، الذي تلقى تعزيزات كبيرة. وعندما أقام روميل ومعظم هيئة أركانه مقر قيادتهم الجديد، فإن الجيش الألماني ـ الإيطالي المدرع البانزر (وهو الجيش الذي كان يقوده روميل منذ 25 أكتوبر 1942) وهي القوات التي دفعها

الجيش الثامن إلى الخلف من مصر، أعيد تنظيمه وأطلق عليه اسم الجيش الإيطالي الأول تحت قيادة الفريق الإيطالي ميسا، الذي كان يقود في السابق فيلقاً إيطالياً في روسيا. الفيلق الألماني الأفريقي أصبح الآن تحت قيادته. وضُمَّ إلى الجيش أيضاً الفيلقان الإيطاليان 20 و21.

إن تعزيز القوات في تونس بفرق، كانت بكل تأكيد ستمكن روميل من اختراق قناة السويس منذ عام مضى، مع اتخاذ الإجراءات لضمان تحسين إمدادات الوقود لمواصلة الحركة. لقد تحصل فون آرنيم على الفرقة 10 بانزر وهي فرقة محنكة من المحاربين القدماء في فرنسا، والفرقة 334 مشاة، وفرقة هيرمان جورنج المدرعة، وكتيبة برنثين (Barenthin) وكتيبة العاصفة كوخ (Koch)، وهاتان الكتيبتان تتكونان من مظليين، ومفرزة بانزر 501 بقوة كتيبة مجهزة بدبابات جديدة نوع النمر العلامة 6، وفرقة مانتويفل (Manteuffel) التي وصلت مبكراً، وعدة كتائب من رماة القنابل التابعة للواء 47، المكونة من قسم من رجال كريت وقسم من القادمين حديثاً للاستبدال.

نحن الآن لدينا ثلاث فرق بانزر وفرقة أخرى مجهزة بدبابات إيطالية. الجميع يقول: كان يوجد لدينا أربع عشرة فرقة تقريباً، والتي كان نصفها ألمانياً. وكان لدى ألكسندر حوالى 9 فرق فقط عند توليه القيادة، ولكن استمرت الإجراءات بالزيادة إلى حوالى 20 فرقة في شهر مايو.

وفي نفس الوقت وصلتنا تعزيزات ـ على الأرجح ـ أسرع من العدو. وحسب ظن ألكسندر بأن تعزيزاتنا تصل بمعدل ألف رجل في اليوم. ومن بين التشكيلات الجديدة، كانت وحدة طبية لمشيرنا المريض.

ومن دون سؤال، فإن انسحابه الاقتصادي مع بقايا الفيلق الأفريقي من العلمين ـ والتي كانت معركتها خاسرة قبل وصوله ـ إلى خط ماريت، كان أعظم إنجازاته، وإن كانت أقلها بالنسبة لقائد تعبوي (تكتيكي) ولرجل خارق.

أنا لست من مؤيدي النظرية القائلة بأن روميل رجلاً خارقاً للعادة (إنسان فائق)، ونتيجة لقربي منه فقد وجدته أقل خيالاً، ومتبلداً في الأحاسيس الخيالية (الرومانسية) التي رسمها له كل من أصدقائه وخصومه. ولكن كأحد الذين كانوا دائماً على اتصال بالعدو أثناء التراجع والانسحاب الطويل من العلمين إلى خط ماريت، فإنني أقدر له طريقته في الخداع، إذ إنه لم يُمنَ بخسائر أكثر مما يجب، ويقاتل لفترة من الوقت ليرعب العدو بينما كان يشيد تحصيناته ويحاول بناء قوته في تونس. عملياً، قام روميل بشقّ النفس بالاتصال والتلاحم مع فون آرنيم، وقام بانسحاب سريع بالفيلق الأفريقي إلى ملاجئ وتحصينات خط ماريت، حيث كان قد خطط لاستئناف تعرض (هجوم) تعبوي (تكتيكي).

في هذا الوقت، فإن الخطر كان من القوات البريطانية ـ الأمريكية في تونس، التي يمكن أن تندفع بهجوم على جبهة واسعة

ومفتوحة على مؤخرته. لذا قرر أن يضرب ضربته أولاً بهجوم مفاجئ بكل قواته الآلية بهدف تدمير ما يمكن تدميره من جيش العدو وحسب استطاعته. وبعد ذلك يتجه سريعاً نحو مونتجمري لدفعه إلى الخلف إلى الشرق حتى يؤخر هجوم الجيش الثامن المتوقع.

ليس في نيتي كتابة دراسة عسكرية لمعركة تونس المعقدة، رغم أنها كانت معركة ساحرة. وإذا لم تكن من طلبة الحرب فإنك لن تهتم لماذا أرسلت وحدتي بطول الطريق الجيد الذي يقود من قابس إلى واحة قفصة، وإذا كنت طالباً في الدراسات الحربية، فسوف تعلم أنه من تلك الواحة تمتد طرق عبر سلسلة جبال تونس الغربية عند قصرين وفريانا، وبذلك، يمكن أن تتضح لك خلفية خطة روميل.

قام روميل بتشكيل مجموعة جيش احتياطية خلف منطقة فايد، وكانت الفرقة 21 بانزر قلب هذه القوة. كان الفيلق الثاني الأمريكي، الذي لا زال خاماً، وقطعاته التي لم تعمَّد بالدم يتمركز عبر سهل فايد بين قفصة وفندق حيث يمتد خلفه ممر قصرين. الفرقة المدرعة الأمريكية الأولى كانت موزعة حول سيدي بوزيد وعلى جبل السوداء، وهذه الفرقة كانت معزولة شمال القرية عند سبيطلة، وطريق سبيطلة ـ بيشون.

في يوم 14 فبراير، زج روميل بحوالى 100 دبابة وقطعات مساندة ضد الأمريكيين (اليانكي)، مع عدد كاف من طائرات شتوكا

لكي تضيف الإرباك (للأولاد الجدد، الأمريكيين)، وقد تم اكتساح مدفعية الأمريكيين، فخسروا 30 مدفعاً. وضربت البانزر الدبابات الأمريكية ضربات موجعة. وبعد محاولة الهجوم المضاد الفاشل الذي قام به الأمريكيون في اليوم التالي، انسحبت قواتهم باتجاه قرية سبيطلة تاركين مشاتهم معزولين في جبل السودا، وقد سقط معظمهم في الأسر، وانخفضت أعداد دباباتهم بتدمير 86 دبابة، ولم يكن في قدرتهم الاحتفاظ بالسهل، حيث قاموا بالانسحاب بعيداً إلى خلف سلسلة الجبال الغربية.

إن وحدتي، المجموعة الخاصة 288، دخلت في الصورة في اليوم الثاني للتعرض. صدرت إلينا الأوامر بمهاجمة واحة قفصة واحتلالها، حيث كنا نتوقع وجود المظليين الأمريكيين والفرنسيين الأحرار فيها. وفي الحقيقة كانت محتلة بحراس أمريكيين من قوات (الرانجر) وقوات (دربي شاير يوملنري) البريطانية، التي كانت من ضمن قوة أعدائنا القدامى في الصحراء اللواء 11 هوسار، والتي سيكون لها ـ فيما بعد ـ شرف احتلال تونس. ولكنهم انسحبوا جميعاً تنفيذاً لانسحاب أمريكي عام إلى سلسلة الجبال الخلفية، أما القوات الفرنسية الحرة التي كانت تحتل السلسلة الشرقية، فانسحبت إلى الخلف حيث يتحصن الآخرون.

وعند وصولنا خارج قفصة، كنا في حالة إثارة وابتهاج لأننا سنقابل الأمريكيين في معركتنا الأولى معهم. لم نكن نعلم بأن الأمريكيين في هذه المرحلة لا يعرفون شيئاً عن فن الحرب، ولا

يمكننا مقارنتهم مع رجال الامبراطورية البريطانية المروعين الذين كنا نقابلهم في العامين الماضيين.

انتشرنا شرق الواحة، في الوادي الذي يمتد فيه طريق قابس. وبينما كنا نعد أسلحتنا للعمل عند العصر، اكتشفت قطعات الاستطلاع بأن الواحة خالية من العدو. تقدمنا عند الغروب نتحسس طريقنا من خلال حقل الألغام.

إن القتال الوحيد الذي خضناه، كان مجرد مناوشات ثانوية مع مجموعة صغيرة عند الحافة البعيدة من الواحة.

بدأنا نبحث عن السجائر، وكان سرور الرجال عظيماً عندما وجدنا عربات أمريكية، كانت إحداها محملة بالسجائر. وبعد تلك الوجبات العامة القصيرة في مرحلة الانسحاب الكبير، حدث تغيير بحصولنا على كميات من التموين الأمريكي الذي سقط بين أيدينا!..

عند الفجر خطط سائقي باكراً للتمتع بإفطار سخيّ من الطعام الأمريكي، عندها دعيت إلى اجتماع مع النقيب ماير، وهو آمري الجديد. كنت لا أزال أقود الكتيبة الثانية من المجموعة الخاصة 288، عندما وصل ماير حديثاً من ألمانيا وهو أقدم رتبة، فاستلم القيادة مني. وقد تقلصت الكتيبة من 3 سرايا إلى سريتين قويتين. توليت قيادة إحداهما. ماير وأنا لم نكن صديقين، وعندما سلمت له قيادة الكتيبة بدا لي أنه يستخف بكل ما أقوله له حول الكتيبة.

أما الآن، بدأ ماير يناقشني عن الوضع التعبوي (التكتيكي)

والسَّوقي (الاستراتيجي). كنت أدرس الخريطة بينما كان ماير يقرأ عليّ الأوامر: المجموعة الخاصة 288 عليها أن تشق طريقها للأمام بطول الطريق باتجاه فيريانا فوراً. وإن أوامر المسير للفوج تكون كما يلي: الكتيبة الثانية في المقدمة، تتبعها الكتيبة الأولى ومقر الفوج.

وأضاف ماير: «ستقود سريتك. ويلحق بك مدفع مضاد للدبابات». تقدمت بالمسير بسريتي على الفور، والمدفع المضاد للدبابات الثقيل خلف عربتي، وخلفه مفرزة من المهندسين مع تسع كاشفات ألغام. كانت الطريق من قفصة إلى الشمال معبدة وكانت بحالة جيدة أكثر مما توقعت.

إن حركتنا لم تكن سهلة ولا تخلو من الإزعاج. وليس بعيداً خارج قفصة بدأت المدفعية تقصفنا بقذائفها، وكما يبدو فإن ضباط الرصد يتمركزون في الأراضي المرتفعة على يسارنا. قمنا بالرد على نيران العدو. وتقدمت الطائرات المنقضة باتجاهنا. لقد خسرت اثنين من خيرة شاحناتي. أعدت تنظيم سريتي حسب الأوامر الصادرة من الكتيبة التي وصلت عبر الخط: «استمروا في التقدم!».

تقدمت سريتي لمسافة ميل أو اثنين وأسرعت باتجاه الشمال. ومرة أخرى هاجمتنا الطائرات المنقضة، ولكن بعض الطائرات المنخفضة تركتنا ولم تتعرض لنا بالقصف.

مررت بجثة أمريكي زنجي كانت ملقاة على الطريق. وكان مجرداً من ثيابه، وبالطبع يمكن أن تكون من العرب.؟!.

دققت بالنظر بعيداً، فشاهدت دبابات تتحرك باتجاه الشمال، لا بد أنها دبابات أمريكية. وحسب خريطتي فإننا أصبحنا قريبين من فريانا. والصحيح، أننا بعد أن قطعنا في المسير ميلاً، أو اثنين آخرين انحدرت الطريق إلى أسفل وداخل الوادي، واستطعت مشاهدة بعض البيوت في الأسفل. تقدمنا بسرعة إلى أسفل المنحدرات حتى وصلنا إلى ضواحي القرية بينما لازالت مؤخرة طابورنا في مقدمة القمة خلفنا. بدأت المدافع في القرية بقصف مؤخرة طابورنا، قفزنا من داخل عرباتنا، فأصبحنا تحت نيران البنادق من البيوت القريبة منا. قمنا بالرد على النيران بالرشاشات باتجاه القرية لعدم رؤيتنا لأية أهداف فردية أمامنا.

ترجل بقية رجال الكتيبة من العربات سريعاً، وتقدمنا بتشكيل المشاة في جبهة واسعة. توقف القناصون. وتدفقت أعداد من العرب خارج البيوت رجالاً ونساءً وأطفالاً يلوحون ويصرخون بابتهاج. إن هؤلاء الناس يقفون مع القوات المنتصرة. وميزني شيخهم كضابط مسؤول عن القيادة فهرول نحوي مسرعاً ماداً ذراعيه مثرثراً بكلمات الترحيب. لكن يدي اليمنى كانت مستعدة على غدارتي الآلية. انحنى نحوي وحاول تقبيل يدي، لكنني سحبتها بكل اشمئزاز فجلس على ركبتيه وقبل حذائي. ؟!.

كان هؤلاء العرب يحاولون إثبات صداقتهم لنا على مضض، ولا أشك في أنهم كانوا مع الأمريكيين منذ دقائق مضت. أشاروا نحو حقول الألغام، وحذرونا من المدفعية الأمريكية التي انسحبت

خارج القرية، وأخبرونا بوجود أعداد من الدبابات الثقيلة التي لا زالت في الجانب البعيد من القرية.

كان حقل الألغام قد تم زرعه حديثاً، والذي يدل عليه دائرة الحفرة من التراب التي تحدد كل لغم بوضوح. تقدمنا بحذر شديد من خلال الألغام، وقام المهندسون بتعقبنا محددين الثغرات لمرور المدافع خلفنا.

بعد حقل الألغام بدأنا نتقدم صعوداً. وعند وصولي حول منعطف حاد، شاهدت وميزت دبابة شيرمان على الطريق أمامي، كانت ضمن مدى الهجوم. أدرت بسرعة عجلة القيادة التي كانت بين يدي السائق فانحرفت العربة بحدة باتجاه حافة الجانب الأيسر من الطريق، قفز طاقم المدفع من مقاعدهم داخل العربة في ثوان، وأعدوا المدفع سريعاً للقتال ثم أخذوا مواقعهم خلفه وأطلقوا قذيفتهم الأولى، بينما كان الأمريكيون لا يزالون واقفين بدون حراك. كانت ماسورة الدبابة موجهة نحو هضبة صغيرة باتجاه نصف اليمين عنا، أصابت قذيفتنا الأولى زاوية جانب الدبابة فانفجرت والتهمتها النيران.

تحسسنا طريقنا إلى الأمام، وبعد مرور فترة وجيزة وقعنا في وسط النيران من الدبابات والرشاشات المتمركزة على الجانب الآخر من الطريق. أرسلت مراسل الدراجة النارية إلى ماير في الخلف لإعلامه بالموقف ثم نشرت سريتي تحت تغطية المدافع

المضادة للدبابات لمهاجمة المرتفع الواقع على يمننا.

وصلنا إلى القمة بخسائر محدودة. في نفس الوقت تحركت السرية الأخرى بقيادة الملازم الأول بونتش هولز نحو المرتفعات على اليسار واستمرت في تقدمها.

استمر القتال العنيف لمدة ساعة، بعدها بدأت تتصاعد أعمدة الدخان الكثيفة وأعقبه انفجار. كان من الواضح أنه انفجار مستودع للذخيرة. أوقفت دبابات العدو إطلاق النيران. وواصلت وحدتنا تقدمها مسرعة، حيث شاهدنا دبابات العدو تتحرك منسحبة، وهي مؤخرة رتل قوات التثبيت والإعاقة للعدو.

في قرية فريانا لم يكن لدينا وقت فراغ لجمع الغنائم. أمرت مفرزة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الوقود المحترق، والذخيرة، ومستودعات التموين. وواصلنا تقدمنا سريعاً إلى مهبط الطائرات في منطقة (ثاليبا) وهناك بدأنا نقدر نتائج التعرض الجديد. ترك العدو 60 طائرة عاطلة، معظمها، بالإضافة إلى المستودعات التي قام العدو بتدميرها قبل انسحابه.

قضينا الليل في مواقع دفاعية شمال المهبط، وقبل الفجر استلمنا أوامر بالتقدم باتجاه الشمال. لم نواجه أي مقاومة إلى أن اصطدمنا بدبابات فرادى من الفرقة الأولى المدرعة والمنتشرة في المرتفع غرب سلسلة الجبال والتي تهددنا من اليمين. وصلنا تقرير من المستوى الأعلى يوضح: لماذا قامت الفرقة الأولى المدرعة

بعد خسائرها الكبيرة بالانسحاب إلى تيبيسا؟. المجموعة الخاصة 288 وصلت إلى منطقة جبل السودا.

عند منتصف ليلة 16 ـ 17 فبراير هاجمت البانزر سبيطله مرة أخرى، وبعد قتال عنيف اخترقت القرية خلال الصباح. فانسحبت الفرقة الأمريكية المدرعة باتجاه الغرب وتم سحبها في الاحتياطي جنوب شرق تيبيسا لإعادة تنظيمها.

كان أندرسون القائد البريطاني قلقاً من الفشل الأمريكي، بحيث أوقف اللواء المدرع البريطاني الذي كان في طريقه إلى المؤخرة لاستبدال دباباته العتيقة من نوع كروسيدر بدبابات حديثة من نوع شيرمان، وأرسله مع دباباته القديمة وبعض دبابات الشيرمان التي يقودها أطقم بريطانية حديثة، لتقوية معنويات الأمريكيين (اليانكي).

في يوم 18 فبراير أوقف روميل قواته الآلية، لإعادة حشدها وإعادة تنظيمها وتزويدها بالوقود. وأجبر الأمريكيين والبريطانيين على الانسحاب في بروز عميق داخل خطوطهم، وكان باستطاعته دحر جناح العدو الذي لا يزال بعيداً، بالتقدم بطول ثلاث طرق مختلفة، من خلال قصرين، وسبيطلة، وسبيبا، ومن خلال فريانا باتجاه تيبيسا.

وحسب معلوماتنا فيما بعد، فإن قوات العدو كانت تقترب من الأسداس والأسباع (وهذا يعني أنها فقدت النظام بالكامل).

قام الفريق ألكسندر بالطيران من طرابلس إلى الجزائر في

اليوم الخامس عشر من فبراير بقصد استلام القيادة شخصياً بعد مرور خمسة أيام. ولكنه بدلاً من هذا، اندفع إلى الجبهة واستلم القيادة شخصياً على الفور، ووجد الموقف أكثر تعقيداً مما توقعه، وكما كتب فيما بعد. ففي ربكة انسحاب القطعات الأمريكية والفرنسية والبريطانية، اختلطت في فوضى بدون وجود سلسلة محددة للقيادة. وعند زيارته لأول ممر جبلي، ممر ديرنايا، الذي يقع أعلى فريانا في طريق تيبيسا قام بتعيين الضابط الأمريكي الأقدم كمسؤول عن قيادة القطاع، وليخبر الأمريكيين أن عليهم الاحتفاظ بالأرض إلى النهاية.

نعم، لقد أبدع روميل في بث الفوضى بطريقته الخاصة القديمة. وحيثما كنت أتحرك في أي مكان من تلك المنطقة، كنت أجد مجموعات من المفارز الأمريكية مختبئة بين الصخور والأشجار في سفوح الجبال، وعرباتهم بعيداً في الوديان. لقد وقع بين أيدينا أعداد مهمة من سيارات الجيب والشاحنات وكانت كلها جديدة، وبالنسبة لنا كانت تثير فينا الدهشة بتجهيزاتها.

حاولت الدخول في حوار مع أحد الأسرى الأمريكيين، وكانت المفاجأة بالنسبة إليّ عندما اكتشفت أنهم بولنديون، أبناء المهاجرين الذين هاجروا من أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. أرسلت كشافاً وهو نمساوي تقدم به العمر إلى واد عميق ليستطلع فيما إذا كان يرى أية مجموعة معزولة أخرى من

الأمريكيين. وإذا به يرجع بأقصى سرعة، قائلاً: «سيدي الملازم، هناك العديد من الدبابات في الوادي».

دخلنا الوادي بحذر مع مدافعنا المضادة للدبابات. نعم، كان هناك دبابات على مرتفع، بالقرب من حافة الغابة.

شاهدنا بعض الدبابات التي تشبه العربات تتحرك محاولة الوصول إلى الأحراش للاختباء في ذلك الوادي.

الحقيقة، أنها لم تكن دبابات، وإنما ناقلات جنود مدرعة، مسلحة بمدافع من عيار صغير. فتحنا عليها النيران وإذ بنا نشاهد سائقيها يتركونها ويلجأون إلى الغابة. فاندفعنا بسرعة واستولينا على ست عربات، وأسر أحد السائقين. ابتهجنا لتعزيز قوتنا بهذه العربات الست في سريتي، حيث إنني قد خسرت ستاً من عرباتي خلال قتالنا مع العدو. الآن نحن متعادلون.

الفصل الثامن والثلاثون

ممر قصرين

يساراً وإلى الأمام قمة مرتفعة مسيطرة، ذلك هو ممر قصرين.

عند وصولي إلى المنعطف على الطريق، استلمتُ أمراً من الفوج يقول: «هاجم ممر قصرين، الكتيبة الأولى يسار الطريق، والكتيبة الثانية من جهة اليمين. استخدم القوات المنقولة آلياً بالكامل، وإن مقر الفوج يقع في أول بيت إلى الشمال من المنعطف على الطريق» انتهى الأمر.

استلم بوخهلز (Buckhalz) الأوامر قبلي، وانتشرت سريته باتجاه الأراضي المرتفعة على يميننا. شكّلت سريتي في دقائق، ثم اندفعنا بسرعة جنونية خلال المروج والوديان باتجاه التل المسيطر على الممر من جهة اليمين. بدأت مدفعية العدو تقصفنا قصفاً مباشراً، لكننا تقدمنا من خلال القذائف المتفجرة، وكانت عرباتنا

متباعدة، فأصيبت عربة واحدة. واصلنا مسرعين إلى أسفل المنحدر، فاعترضنا واد عميق اضطرنا إلى الترجل من العربات مع أسلحتنا، ثم استدارت العربات مزمجرة إلى الخلف للحماية.

واصلنا تقدمنا متسلقين سفوحاً وعرة، محاولين الاحتماء من نيران مدفعية العدو، وأسلحة المشاة وراء كل صخرة وفي أخاديد الأرض.

بعد وقت قصير، وجدنا أنفسنا نزحف على أرض مرتفعة، ومن هناك أصبحنا نشاهد سرية بوخهولز على جبل عبر الطريق من جهة اليسار، إنني أذكر بأن جناحي الأيمن أصبح مكشوفاً في الفضاء. كان العرق يتصبب من أجسادنا، فواصلنا التسلق أعلى وأعلى باتجاه قمة الجبل. القمة نفسها كانت سلسلة من الصخور المرتفعة. أمسكت ببروز وسحبت نفسي، وعندما رفعت رأسي نحو القمة انطلقت نيران رشاشة آلية مزمجرة قرب أذني، فهبطت، إنه موقع رشاش أمريكي أمامنا مباشرة على بعد 30 ياردة تقريباً.

توقفت للحظات محتمياً بصخرة متدلية فوق رأسي مع عدد قليل من رجالي لتقدير الموقف، ولتناول جرعة من الماء من حافظة المياه. وصلت حضيرة اللاسلكي، وقدمت تقريراً سريعاً إلى مقر الكتيبة.

وصل الملازم بيكر، قائد السرية التي على يساري إلى القمة، حيث تمركز في موقع ممتاز مشرفاً بنيران جانبية، وأجبر طاقم الرشاشة الآلية على ترك موقعهم الموجود أمامي مباشرة. لا زلت

أتعرض لنيران متقطعة من الجناح الأيمن المكشوف، ولكن ـ عملياً ـ حققنا هدفنا الأول وهو الوصول إلى المرتفعات.

من موقع مقر بيكر كنا نستطيع استكشاف الجبل بأكمله إلى خلف ممر قصرين على يسارنا. العربات الأمريكية تتدفق سريعاً صعوداً وهبوطاً. إن تلك العربات التي تصعد يحتمل أنها تحمل الذخيرة والتعزيزات. كنا نطل عليهم، وننظر أسفل المنطقة الخلفية للجبهة الأمريكية، وأصبحنا مثل المتفرجين على مناورة لجيش صغير، كم يبدو الرجال والعربات والمدافع صغيرة هناك في الأسفل، وكيف أن هذا الجيش يبدو غير مؤذ!.

وصلنا تقرير من خلال حضيرة اللاسلكي: «ستهاجم دباباتنا الممر». وانتظرنا بقلق المزيد من الأخبار. لقد بدأ هدير المعركة ودويها يصل إلى أعلى الجبل باتجاهنا، الأمريكيون يتمركزون في الأسفل في مواقع ونيران قوية ضد قواتنا المهاجمة.

استلمت المزيد من التفاصيل. يا إلهي! لقد فشل الهجوم. ولسبب ما لم أكن قلقاً لهذه الأخبار الرئيسية، بقدر قلقي لتقرير ثانوي بأن ماير دخل في الهجوم لدعم الدبابات مع 6 عربات مدرعة كنت قد استوليت عليها من الأمريكيين، وقد خسرناها باستثناء عربة واحدة.

جزءاً بجزء كان بيكر يدرس الطريق الممتدة بعيداً إلى الأسفل من خلال منظاره. وفجأة دفعني بيكر برفق، لقد كان ضابطاً شاباً

التحق بنا في أفريقيا عند نهاية معركة الصحراء والانسحاب الطويل، ولكنني عرفت في الحال أنه ضابط كفء ومغامر.

دفعني مرة ثانية وقال: «سيدي الملازم هل ترى ذلك الجسر الصغير البعيد هناك على الطريق؟ إذا استطعنا الوصول إليه، إذا استطعنا فقط الوصول هناك، فسنقطع خطوط مواصلات الأمريكيين في المؤخرة».

درست الأرض وقلت إنها خطة جريئة، بيكر، وقررت: «جريئة، ولكنها ممكنة دعنا ننطلق».

الفصل التاسع والثلاثون

الجسر والرجل من بروكلين

بكل سرعة جمعت فصيل الهجوم الذي يتكون من ثلاثة ضباط وواحد وعشرين جندياً مسلحين بأسلحة ذاتية (أوتوماتيكية)، مع الكثير من الذخيرة التي يمكن حملها وزحفنا من خلال شجيرات الأرض الخلفية باتجاه أخاديد الوديان.

انتهت الأرض المتموجة، وقفزت وخلفي الآخرون في أخدود جاف يتمدد إلى أسفل المنحدر. ثم زحفنا إلى ملجأ واد بطول عدة مئات من الياردات حيث أصبحنا في أرض منبسطة. كنت أخشى أن نظهر في أرض مفتوحة، ولحسن حظنا شاهدت منخفضاً على بعد عشرين ياردة إلى الأمام؛ إلا أن هذا المنخفض كان يبدو لي نقطة خطرة، إذ كانت مكشوفة ومستوية وجرداء، وفي حال وجود أي مراقب على الأرض فإنه حتماً سيشاهدنا.

أصدرت أمراً: «العبور منفرداً». اندفع الملازم أبنبخلر مع

الأسلحة أولاً. ثم عبرنا واحداً بعد الآخر. والغريب، أننا اجتزنا الكثيب دون أن يلاحظنا العدو، حيث لم تطلق علينا النيران. تملكني العجب؛ هل كنا مخطئين في هذه المسافة القصيرة لقطاعات الحلفاء؟ هل اعتقد العدو أنه لن يتوقع وجودنا في هذا الجانب من الجبل الحاجز.

بدأت الشمس في الغروب. ويجب علينا القيام بمهمتنا حالاً. بدأت أفكر في مهمتنا، هل سننجح في خطتنا؟ ذلك الجسر يجب أن يسقط بين أيدينا. لقد حالفنا الحظ، فالأخدود الذي كنا فيه يمر إلى اليمين داخل الوادي الذي يوجد فيه الجسر. وهو مجرد جسر صغير فوق بركة من المياه تمر في قناة، يتكون من قوسين وقنطرة ترتفع أقل من ست أقدام ولا يزيد طوله عن اثنتي عشرة قدماً. وصلنا إلى هناك وتنفسنا الصعداء ثانية.

كان لدي رشاشتان وضعتا على جانبَي التقدم إلى الوادي والجسر موجهتين اتجاه مؤخرة العدو.

حل الظلام فجأة على الوادي، وبعد عدة دقائق اقتربت عربة من المنطقة الخلفية للعدو، وبينما كانت تتحرك باتجاه الجسر حاولت إيقافها. أبطأت العربة من سرعتها، ولكن الرجال الذين داخل العربة ميزونا وعرفوا أننا ألمان. أطلق أحدهم علي النيران من وضع الوقوف وزادت العربة من سرعتها وانطلقت في طريقها عبر الجسر قبل أن نستطيع تمالك أنفسنا من أثر المفاجأة. لقد كان ذلك درساً. كنا أكثر هدوءاً عندما سمعنا زمجرة العربة التالية في اتجاهنا

تلوح في الأفق بشكل غير واضح في الظلام، وتقدمت العربة مسرعة واقتربت، كلا الرشاشتين أطلقتا النيران عليها من جانبي الطريق، فانحرفت العربة عن الطريق وانقلبت. قفز أحد رجالي واقفاً وأسر الرجال الذين في داخلها وكانوا أربعة، اثنان منهم أصيبا بجراح، إصابة أحدهما خطيرة. غطيناه ببطانية وأخذناه مع الثلاثة الآخرين إلى الوادي المظلم في منطقة آمنة أسفل الجسر.

كشفت نيران رشاشاتنا مكان تواجدنا. المشاة الأمريكيون في مكان ما أسفل الوادي قاموا بالرماية العشوائية بنيران البنادق في اتجاهات عامة نحو الطريق. أرسلت ثلاثة رجال مع ضابط صف للاستطلاع. وعلى الفور رجع أحد رجال الدورية مسرعاً وقال وهو يلهث: «يوجد مجموعة من الجنود الأمريكيين يقتربون.. وهم قريبون جداً». بعد مرور دقائق قليلة شاهدنا ستة من جنود المشاة الأمريكيين المسلحين ببنادق يعبرون الجسر، وعندما اقتربوا من منتصف الجسر تقريباً، انقض رجالي عليهم وأطلقوا عليهم النيران من كلا الجانبين حيث أذهلتهم المفاجأة. بعد ثوان سمعنا صوت عربة أخرى تتقدم، قفزنا للحماية وتركنا العربة تتقدم نحو الجسر حيث وجهنا نيران الرشاشات نحوها. في هذا الوقت تضمن أسرانا ثلاثة من الضباط احتفظنا بهم تحت أحد أقواس الجسر حيث تتواجد المجموعة الصغيرة من الاحتياط، بينما احتفظنا بالرتب الأخرى من الأمريكيين تحت الحراسة أسفل القوس الثاني. بعد إصابتنا للعربتين، أقام رجالي حاجزاً سريعاً مرتجلاً على الجسر. وتقدمت عدة عربات أمريكية عبر الطريق إلى الحواجز، فأبطأت

سرعتها وتوقفت حيث أخذنا الرجال الذين في العربات أسرى بدون إطلاق طلقة واحدة.

كانت لدي دورية لا زالت أمامنا. وقد رجع أحد رجالها لاهثاً ولم يصدق بأنه استطاع الهروب والنجاة. قال لاهثاً: «سيدي الملازم لقد سقط الآخرون... بينما كنا نسير حول منعطف على الطريق في الأسفل وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه مع الأمريكيين. ولا بد أنهم شاهدونا ونحن قادمون. وقبل أن نقوم بعمل شيء أطلقوا النيران من غدارات استين... وقد نجوت لأنني كنت بعيداً خلف الآخرين». فأرسلت طقم رشاشة أخرى إلى المنعطف أسفل الوادي لحماية جناحنا.

بدأ أحد الضباط الأمريكيين الأسرى بالكلام. كانت لغتي الإنجليزية ضعيفة وكنت بمشقة أستطيع فهمه، ولكنني عرفت بأنه كان يسأل فيما إذا كنت الضابط المسؤول، ثم اقتادني إلى اثنين من الرجال الذين كانت إصابتهم خطيرة أسفل الجسر. وأخبر بضرورة الاهتمام بهما. لكن رجل الإسعاف الذي كان معنا قام في الحال بعمل ما في استطاعته، ولا يوجد شيء يمكن عمله أكثر مما فعل رجل الإسعاف. لقد كان مصاباً في رأسه ويئن من الوجع. إن الاستماع إلى أنين الرجل المغمى عليه أسفل الجسر وفي الظلام الدامس مؤلم جداً. في مجرى مياه قذرة من مياه الإسمنت لا أهمية له... يموت الرجال من أجلها في ليالي أفريقيا، ويرهقون شجاعتهم إلى حد السخف، لتسحق جماجمهم بقطع معدنية قاتلة.

تحركت إلى الخلف بهدوء في الظلام. تحدث إلي أسير آخر وهو ضابط أمريكي، وقدم نفسه باسم النقيب سميث. فكرت بأنه اسم جيد مثل أي اسم في هذه الظروف: «إن سيارتي قريبة من السيارات المحطمة عند حاجز الطريق وفي الخندق الممتد على جانب الطريق» وقال بتردد: «إنني لا أملك أدوات حلاقة أو فرشة أسنان معي أتسمح لي بجلبها من فضلك». إن عربته لم تبعد أكثر من عشرين خطوة، وكانت الليلة مظلمة، إضافة إلى أن رجال المشاة الأمريكيين كانوا قريبين منا. ساورني الشك بأن سميث كان يبحث عن فرصة للهروب، وحين يفلت منا سيعود إلينا يقود التعزيزات ويهاجموننا.

فأجبته بكل لطف. «لا تقلق. نقيب سميث إنني أملك شفرة حلاقة جديدة في حقيبة معداتي وفي استطاعتي أن أقدم لك فرشة أسنان جديدة».

لست أعلم ما إذا كانت ابتسامته للاستنكار في الظلام، ولكنها كانت حقيقية. وفي سيارة الجيب التي تم أسرها واستخدامها في اليومين السابقين، وجدت عدة حمام جديدة وهي بدون شك من امرأة قلقة في الولايات المتحدة الأمريكية. فهل تصورت عندما أعطتها لزوجها في يوم ما، أن العدو سيستخدمها؟ الأسير الآخر كان برتبة ملازم. كان أكثر مرحاً ومميزاً عن النقيب سميث. الغريب أننا بدأنا الحديث بطريقة مرحة وابتهاج تحت جسر قصرين عن شؤوننا الخاصة. لقد وثق بي، وأخبرني أنه من بروكلين (نيويورك) إنه يعيش مع زوجته وطفلين.

«إنها مدينة كبيرة» أجبته بلغتي الإنجليزية المتكسرة. «إنني أرغب في زيارتها في يوم ما». أجابني بشبه استهزاء: «إن تلك الزيارة يمكن أن ترتب بعد فترة قصيرة»، ففهمت ماذا يعني، وخطوت جانباً وقلت: «أعتقد أنه سيستغرق وقتاً للفوز في هذه الحرب» وضحك كلانا. وسألني: من أين قدمت؟ وهل أنا متزوج؟ فأجبته. وأذكر بأننا كنا قد ناقشنا عبث الحرب وتفاهتها. ثم قال للآخر: «إن هذه الحرب كانت ترتيباً مرعباً وغير ضروري».

فأخبرته بأنني ولدت في مدينة ناتال في الولايات المتحدة الأمريكية. وأن أختي ولدت في نيوجرزي. فأجابني بأنه يعرف نيوجرزي جيداً. اعترض حديثنا طنين اللاسلكي المحمول. مقر قيادة الكتيبة يطلب تحديد موقعنا. حددت لهم الموقع بدقة حسب استطاعتي من الخريطة. وبعد مرور فترة قصيرة طلب مقر قيادة الكتيبة معلومات أخرى، لتأكيد الإحداثيات التي أرسلت، فقد لا تكون صحيحة. فكررت نفس أرقام الإحداثيات السابقة. ورغم الإشارات التي أرسلتها، لم يدركوا بوضوح بأننا قطعنا الطريق خلف ممر قصرين.

مر الآن نصف ساعة منذ قدوم آخر عربة إلى حاجز الطريق الذي أقمناه. ثم بدأت أسمع هديراً على بعد مسافة إلى الشمال. وبدأت الأرض ترتج قليلاً. راودتني الشكوك، فتسلقت من الوادي إلى حافة القمة. وفي الهواء المفتوح كنت أسمع صوت المحركات تدوي بوضوح من الاتجاه الذي كنا نعلم بتواجد الأمريكيين فيه وبكل تأكيد إنها دبابات العدو.

أصدرت أمراً إلى أقرب رامي رشاشة: «إذا تقدمت الدبابات إلى الجسر، دعها تعبر ولا تطلق النيران». «نعم سيدي الملازم». بدأ ضجيج المحركات وصرير سلاسل الدبابات بالارتفاع. وبدأت دبابة تلوح على الطريق، وتظهر بحجم ضخم في الأراضي الخلفية وتحت السماء المرصّعة بالنجوم، بينما انتصبت واقفاً من حافة الوادي.

توقفت الدبابة وفتحت فتحة برجها، ظهر آمر الدبابة واقفاً مكشوفاً ينظر حوله. وتساءل: «لماذا ذلك الحاجز؟» ولكن آمر الدبابة لم يحصل على جواب. كان رجالي يشهرون مسدساتهم على الأسرى تحت الجسر. وتحدث آمر الدبابة بسرعة إلى سائقه، فاندفعت الدبابة إلى الأمام، دافعة أمامها العربة المحطمة إلى جانب الطريق. عندها فتحت رشاشتنا الثانية نيرانها المباشرة على برج الدبابة. لقد نسيت أن أتأكد من وصول أوامري إلى الرشاشة الأخرى في الجانب البعيد من الوادي. كان رامي الرشاشة يطلق نيرانه وكأن دبابة الشيرمان لحم قطط! قفز آمر الدبابة كالأرنب داخل برج دبابته وأغلقه. وبدأت الدبابة تقذف نيرانها في جميع الاتجاهات. عندما انطلقت الإطلاقة الأولى انحدرنا إلى أسفل حافة الوادي، وزحفنا إلى أسفل الجسر. وفوق رؤوسنا عبرت، ولكن الهدير تواصل كالرعد مرة أخرى، الصرير وضجيج العربات، وإطلاق نيران المدفعية والرشاشات، وارتجاج الأرض. وعبرت دبابة أخرى فوق الجسر، ودبابة أخرى، وواحدة أخرى وأخيراً عبرت الدبابة الخامسة والأخيرة. واندفعت باتجاه الممر، ثم

استدارت بعنف باتجاه ما أعتقد أنه موقع المشاة الأمريكيين، إلا أني كنت أخشى أن يطلقوا علينا النيران تحت الجسر. وكلانا نحن والأسرى سنكون تحت رحمة نيرانهم. ولكننا انبطحنا بدون إزعاج وتلاشى دوي المحركات. فهل واصلت الدبابات تقدمها نحو الجبهة المهددة؟ أم توقفوا في الجوار لأنهم علموا من مشاتهم أن كلًّا من العدو والأسرى الأمريكيين يحتمون أسفل الجسر؟ مرة أخرى فكرت بأن لعبة الحرب شيء شاذ وسخيف.

لا زلت أستطيع أن أميز أشكال الدبابات فرادى على مسافة في الظلام. وإذا غادرنا الجسر الآن، فستحدث مجزرة من أسلحة الدبابات المرعبة. لا، إن الشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو البقاء تحت الجسر حتى تبتعد الدبابات بعيداً... ولكنها ستعود لتعبر الجسر في عودتها.. ويمكن أن تعود بالمشاة لمهاجمتنا؟، أو يمكن لهم أن يسقطوا عدداً من القنابل اليدوية من أبراج دباباتهم على كلا جانبي الجسر داخل خنادقنا.. وهنا كنت موجوداً، بدون المدافع المضادة للدبابات المعتادة، ولا قنابل لتدمير الدبابات، كما لا توجد متفجرات لتدمير الجسر. وبالطبع فإن الجسر السليم حيوي بالنسبة لنا.

الساعة التالية كانت حرجة. لقد قدّم إلي الملازم الأمريكي من بروكلين سيجارة و(علك). كنت نادراً ما أدخن، وشعرت بأن هذه السيجارة يمكن أن تفيدني الآن، وفي إمكانية الحلم بمشاهدة بروكلين، أو على الأقل قسم من أمريكا، وحتى قبل نهاية الأعمال

العدائية التي أرى أنها ليست بعيدة. فكرت حقيقةً أنَّ كل ما أريده بعد حصولي على مؤهلي العلمي أن أكون مزارعاً في شرق أفريقيا. وبصدق إنني أحب أن أرى أمريكا في يوم ما.

ولكن ليس بهذه الطريقة، ليس بهذه الطريقة، آه اللعنة، لماذا لا يتركني العالم أنهي دراستي فقط وأذهب إلى مزارع أفريقيا. كنت أشعر بأن النقيب الأمريكي والملازم كانا يراقبانني باهتمام، فهدأت نفسي واستنشقت بعمق، متظاهراً التمتع بالتدخين مثل أي مدخن.. وفكرت بأن أرسل دورية صغيرة بعد التأكد من انسحاب الدبابات.

يجب علي العودة من نفس الطريق وأخذ الأسرى معي.. حسناً ماذا يحدث يا فتى؟ لقد بدأ الملازم الأمريكي يقترب مني. هززت أكتافي باعتدال وأجبت بصوت منخفض «انتظر»!، ودخلنا في حديث شخصي عميق. لقد كان وضعاً غريباً.

لا أحد يعلم مِن الألمان أو الأمريكيين مَن سيكون الأسير في الصباح التالي. لذا على الجانبين أن يكونا دمثين وإنني آمل أن نكون واثقين.

مرة ثانية علا هدير الدبابات. وفي هذه المرة من طريق قصرين. أمعنا النظر ببعضنا بسكون، والأيدي تقبض على الغدارات. قفز طاقما الرشاشتين للحماية أسفل الوادي. وعلى مسافة بعيدة منا فتحت الدبابات العائدة نيرانها على الجسر. وقذائف مدافعهم تتجاوزنا لتصطدم وتنفجر في حافة الوادي. ومرة

ثانية تهتز الأرض تحت أقدامنا، الأزيز وضجيج العربات والدويّ فوق رؤوسنا. دبابة واحدة، اثنتان، ثلاث أربع خمس. واصلت الدبابات حركتها. وتسلق طاقما الرشاشتين عائدين إلى مواقعهم. أزيز محركات الدبابات بدأ يتلاشى عبر المسافات، مثل أنغام مزمار مضطرب. وبدأ الأمريكيون وأنا ننظر إلى بعضنا البعض. وابتسم الملازم من بروكلين. «هل لديك بعض العلك يا فتى؟».

قررت أنه حالما تعود الدبابات قريباً ستقدم تقريراً إلى الآمر الأعلى، وستقوم بحركة ضدنا، لذا يجب علينا مغادرة الجسر فوراً. أصدرت أوامري: «أبنبخلر مع عدد من الرجال ستقود المقدمة». الملازم بيكر: «سوف تقود مجموعة صغيرة تحرس المؤخرة».

استعد الرجال. ولكن أولاً، علينا الاهتمام بالجرحى حسب استطاعتنا. اتجهت نحو المجموعة الصغيرة من الضباط وحاولت بلغة إنجليزية ضعيفة أن أقول: «أيها السادة، سيبقى أحدكم مع رجل الإسعاف ومع الجرحى. وعليه أن يعطي كلمة الشرف أن لا يقوم بالقتال ضدنا في الحال أو يتعقبنا قبل مرور ساعة على مغادرتنا. هل نحن متفقون؟.

كانوا ينصتون بكل اهتمام، وأعطوا موافقتهم بصمت وبهز رؤوسهم.

تركت لهم اختيار أحدهم للبقاء في الخلف. فقاموا بسرعة برمي قطعة معدنية، الرأس أو الذيل. المحاولة الأخيرة تمت بين النقيب سميث والملازم من بروكلين. وقد بدأت أهتم أيضاً لهذا

الأمر. هبطت القطعة المعدنية في الظلام مرة أخرى، وعلى بصيص النور. الرأس. لقد اختار الملازم من بروكلين الرأس، وكان عليه أن يقف. إنه لن يكون أسيري، وكنت سعيداً لهذا.

النقيب، قلل من النتيجة التي خسرها، وقال: «إذاً، أنا قادم». وأضاف النقيب: «ماذا عن عدة الحلاقة وفرشة الأسنان التي في داخل العربة؟».

أجبته: «لا تقلق سألبي احتياجاتك عندما نعود إلى خطوطنا».

تقدم أبنبخلر ورجاله في المقدمة بهدوء وتبعتهم مع رجالي. وعندما غادرنا مدخل الجسر نادي الملازم من بروكلين بضحكة هامسة: «وداعاً رفاقي، سأراكم في برلين!».

إن سخريته المرحة لم تكن خالية من المتعة. وأجبت بصوت خافت: «إلى اللقاء في بروكلين، عندما تنتهي الحرب».

واصلنا التسلق إلى أعلى حافة القمة مع رجالي والأسرى الأمريكيين. وبعد ذلك وبكل سرور اضطجعت على الأرض مع رجالي ونمت.

عندما استيقظت كان شعاع الفجر يلوح في السماء. لقد أخلي الأسرى بسرعة إلى الخلف لاستجوابهم في معسكر أسرى الحرب. ولكنني لم أستطع تقديم أدوات حلاقة وفرشة أسنان إلى النقيب سميث.

لقد بزغ النهار. ومع بداية اليوم استلمنا أمراً جديداً بالهجوم.

الفصل الأربعون

الأمريكيون في الضباب

سأختصر الوصف المطول للتطورات السوقية (الاستراتيجية)، وسأترك الفريق ألكسندر يروي باختصار إنجازاته: «في اليوم التاسع عشر من شهر فبراير قام العدو بهجمات استطلاعية»، إلى أن قال: «ضد ثلاث طرق، محاولاً إيجاد الأسهل للهجوم. وكان الجهد الرئيسي لقواته في اليمين ضد سبيبا، حيث قام بالهجوم على الممر في أعلا قصرين بحوالى قوة فوج من المشاة، وكانت قوة تجس ممر درنايا إلى أعلا من فيريانا، على طريق طبيسا، تتكون فقط من قوة صغيرة للاستطلاع. وفي جنوب سبيبا كان يوجد اللواء الأول (الحرس) الذي يصد العدو بثبات، ولكن الهجوم على ممر قصرين كان أكثر نجاحاً، حيث بدأ العدو يتسرب من خلال المواقع الأمريكية، وهكذا في اليوم التالي، يوم 20، كانت التعزيزات والضغط قوياً وترك الممر. لقد ضغطت

الفرقة 21 بانزر مع المشاة ومفرزة من مدرعات من الفيلق الألماني الأفريقي إلى أن دخلت إلى ما وراء الحوض. وهنا وجد روميل نفسه يواجه خيارين، حيث إن الطريق بعد حاجز الممر يتفرع إلى فرعين أحدهما باتجاه الغرب والآخر باتجاه الشرق.

الاتجاه الأول سيقوده إلى طبيسا، حيث توجد قاعدتنا الجنوبية ومركز المطار».

كان روميل يراقب هجومنا الجديد، وهو واقف في أعلى نقطة قرب ممر قصرين. ورغم سقوط الطريق التي تخترق الممر، فإن المشاة الأمريكية والدبابات قاومت بعناد التقدم الألماني الذي يضغط إلى ما وراء السهل. وصدرت الأوامر إلى المجموعة الخاصة 288 بتطهير الطريق للمجهود الرئيسي بطول الطريق. انتشرنا على كلا جانبي الطريق. وأخذتُ سريتين من كتيبتي فاحتلتا المرتفعات المشرفة على الممر واتخذت مواقعها على يمين الطريق، وهي المرتفعات التي سبق وأن قاتلنا فيها، كانت تطل من فوق عن يميننا. وقد تسللت بعض المشاة الأمريكية إلى ما وراء المنحدر حيث تمركز اثنان من الرشاشات المنعزلة، فأصبحت شوكة في جنبنا.

بدأت أراقب الطريق الممتدة أمامي بواسطة منظاري المقرّب للبحث عن الجسر الذي كان مسرحاً لمغامرتنا الليلية خلف خطوط الأمريكيين، وفكرت بأنه قد يكون في منخفض في الأرض. وفجأة شاهدت دبابة شيرمان تتقدم باتجاه الطريق قادمة من المنطقة الخلفية

للعدو. كانت ترفع علماً أبيضَ، لذا لم نقم بأي عمل حربي، فقامت بحصر الخسائر ثم رجعت إلى الخلف. وقد قدرت بأن الجسر قد يكون في مكان ما من موقع استدارة الدبابة.

لم نتقدم إلى الأمام حتى حلول العصر. أوامر العملية كانت معقدة ومعدة لمعركة مشتركة وأسلحة متنوعة والمشاة ـ هؤلاء ونحن ـ كان علينا تحطيم المقاومة في المواجهة، ووُعدنا بدعم الدبابات والمدفعية والدعم الجوي.

من خبرتي السابقة في الهجوم تعلمت ألا أثق في صدق الوعود بالدعم، ولكن أثناء سير العملية كان كل شيء متماسكاً بدقة. فمجموعة الدبابات التي يقودها النقيب سلوتن تقدمت حسب الخطة وراءنا مباشرةً.

عندما تقدموا بالقرب منا، أطلق المدفع الجديد الذي وصل حديثاً نيرانه، وكان يزمجر بسبطاناته الثمانية بسدود نارية زاحفة وفعالة من فوق رؤوسنا، ثم انطلقت طائرات شتوكا مغيرة فوقنا فقدمت دعماً إضافياً للقصف، واندفعنا إلى الأمام. عندما وجد رجال المشاة الأمريكيون في خط الدفاع الضعيف قوة وضراوة النيران أمامهم، انسحبوا بصعوبة إلى المنحدرات والسفوح المتعرجة، للحماية تحت الشجيرات الصغيرة التي كانت خلفهم. وفي نفس الوقت تشتت الدبابات الأمريكية وانحدرت إلى الأخاديد هاربة قبل تدميرها، وتوقفت في الوادي قبل وصولنا إليها حيث تركها أطقمها هاربين. حل الظلام ونحن نتقدم، وكان طريق التقدم

كما أراد روميل، وهجومه الأول الصغير قد تطور حسب خطته تماماً. قبل تطور هذا النجاح المحدود، قرر روميل الاندفاع بكل ما في استطاعته من قوة.

إن المجموعة الخاصة 288، كانت نسبياً وحدة صغيرة، والآن كلفت بمهمة كبيرة. كان علينا الاندفاع خلال الليل باتجاه المواقع الأمريكية في تيبيسا واختراقهم إذا استطعنا ذلك. سنعوض كل احتياجاتنا من مواد العدو، كما قال روميل، مستفيدين من خبرتنا القتالية، وعلينا انتهاز فرصة ارتباك العدو، حسب توقعه.

إن ذلك الزحف والمسير الليلي جرى في ليلة مظلمة ومصاعب عديدة. لقد تعرضنا لعوائق عديدة، وقد فقدنا نحن الكتيبة الثانية اتصالنا بالكتيبة الأولى.

عند اقتراب الصباح وصلنا إلى أسفل مرتفع متدرج. تركنا عرباتنا وواصلنا التقدم سيراً على الأقدام. وعند حلول الفجر كنا نستخدم أطرافنا الأربعة إلى المرتفعات المغطاة بالأعشاب، تحت ستار الضباب الكثيف الذي أخفانا تماماً. كان الملازم بيكر بجانبي، عندما أمسك بذراعي، ومن خلال فجوة في دوامة الضباب، تمكنا من مشاهدة رجال يتسلقون جانب التل القريب منا. قال بيكر: «أظن أنهم أمريكيون».

اعتقدت أنه مخطئ، لا بد أنهم من أفراد سريتي. ولكن بعد مرور دقيقة أو دقيقتين هز بيكر ذراعي مرة أخرى وتلعثم بانفعال: «ولكنهم بالتأكيد أمريكيون!»، ثم أشار إلى أفراد آخرين منهم

ظهروا لنا بكل وضوح خلال الضباب لفترة قصيرة. ولكنني لم أصدق، رغم إصراره على أنهم أمريكيون لكونه ميز شكل خوذاتهم الفولاذية.

وبعد مرور ثوان قليلة اقتنعت بأنهم أمريكيون. على بعد ياردات قليلة أمامي شاهدت شخصين منحنيين كانا يتسلقان التل، ومن دون شك كانا من الأمريكيين.

لكننا لم نجرؤ على فتح النيران قبل بزوغ الشمس التي ستبدد الضباب، حيث كنا مكشوفين في ضوء النهار، ويجب علينا أن نخفي أنفسنا بكل إحكام على قمة التل، وكذلك الأمريكيون أيضاً، لديهم عيون ولن يوقفوا إطلاق النيران. ثم إن بيكر ورجاله عثروا على المزيد من رجال العدو، وعلى الفور انطلق صوت النيران عنيفاً قبل انقشاع الضباب، وإذا بأحسن رجالنا أنتوفيزر فاجنر، يسقط سريعاً لإصابته بجروح مميتة.

كان ضوء النهار ساطعاً عندما وصلنا إلى القمة، وهناك اكتشفت أنها قمة زائفة، فالأرض مستوية لمسافة قصيرة ثم ترتفع ثانية إلى القمة. ليس أمامنا عمل أي شيء الآن سوى الحفر أينما كنا، لقد كنا واضحين أثناء اندفاعنا، ووجوهنا إلى أعلى ضد العدو.

كنت أقود من الجناح الأيمن، فوجدت موقعاً لمقر قيادتي في مجرى صخري صغير وجاف، ومنه يوجد ميدان جيد للرؤية على أرض مسطحة في جناحنا.

بدأت مدافع (اليانكي) الأمريكيين تدكنا عند بداية أول ضوء النهار، وكانت بداية غير سارة. زحفت إلى الأمام من موقعي في المجرى الجاف إلى أعلى القمة. ومنها كنت أستطيع الرؤية غير بعيد إلى الأسفل، حيث شاهدت مواقع للمدفعية وعدداً من الدبابات. كنا قريباً من قلب الفرقة المدرعة الأمريكية الأولى. وبتقدم النهار ازداد الموقف ضراوة. وأصبحت القذائف مثل المطر تطلق علينا من جميع الاتجاهات. وبعيداً إلى اليسار شاهدت الكتيبة الأولى، تحت قيادة النقيب مول الذي هوجم. وعملياً تم تطويقة بالدبابات. لقد أصبحوا في مأزق خطير ولا يمكن إنقاذهم إلا بالانسحاب السريع. وبانقسام قواتنا، شعرت بأن وحدتي معزولة أكثر من أي وقت مضى.

وإلى الخلف عن يميننا في طالا، كانت تشتعل معركة عنيفة بين دباباتنا والدبابات الإنجليزية الأمريكية، لقد كان ألكسندر صائباً في تقديره بأن روميل سيندفع إلى الشمال، حيث أمر القائد البريطاني اللواء أندرسون أن يركز دروعه للدفاع عن طالا.

دفع البريطانيون إلى المنطقة بقوات مؤلفة من مجموعة اللواء 26 المدرع، مدعم بكتيبتين من المشاة البريطانية وكتيبتين من مدفعية الميدان الأمريكية.

كان القتال التالي يدور في أرض مفتوحة، وكما ذكر ألكسندر في تقريره فيما بعد! «لقد كان القتال شرساً وعنيفاً وكان حظ الحرب يتبدل». وفي لحظة واحدة شق قليل من الدبابات الألمانية طريقه

من خلال الممر الأسفل إلى الجنوب من قرية طالا، لكنها دمرت إلى قطع بواسطة مدافع الميدان من المدى القريب. الموقف أصبح خطيراً جداً ولم يستقر التوازن إلا بعد فترات كانت في غاية الخطورة، وبعد تمهيد من حفنة من القطعات الشجاعة على أرض المعركة. وفي جميع الأحوال، فقد دفع روميل الفرقة 10 بانزر التي كانت نسبياً في حالة راحة، وبمعونة الفرقة 21 بانزر قامت بالهجوم ولكنهما أوقفتا. في قصرين طريق تيبيسا أوقفتنا الفرقة المدرعة الأولى الأمريكية عند جبل حمراء، فوصلتنا أوامر بالانسحاب بعد الظهر، وبما أنه كان من الصعب الانسحاب في ضوء النهار، فإننا انتظرنا حلول الظلام حتى يحمي انسحابنا، قمنا بصعوبة بإخلاء خطوطنا بنظام، وواصلنا انسحابنا طوال تلك الليلة.

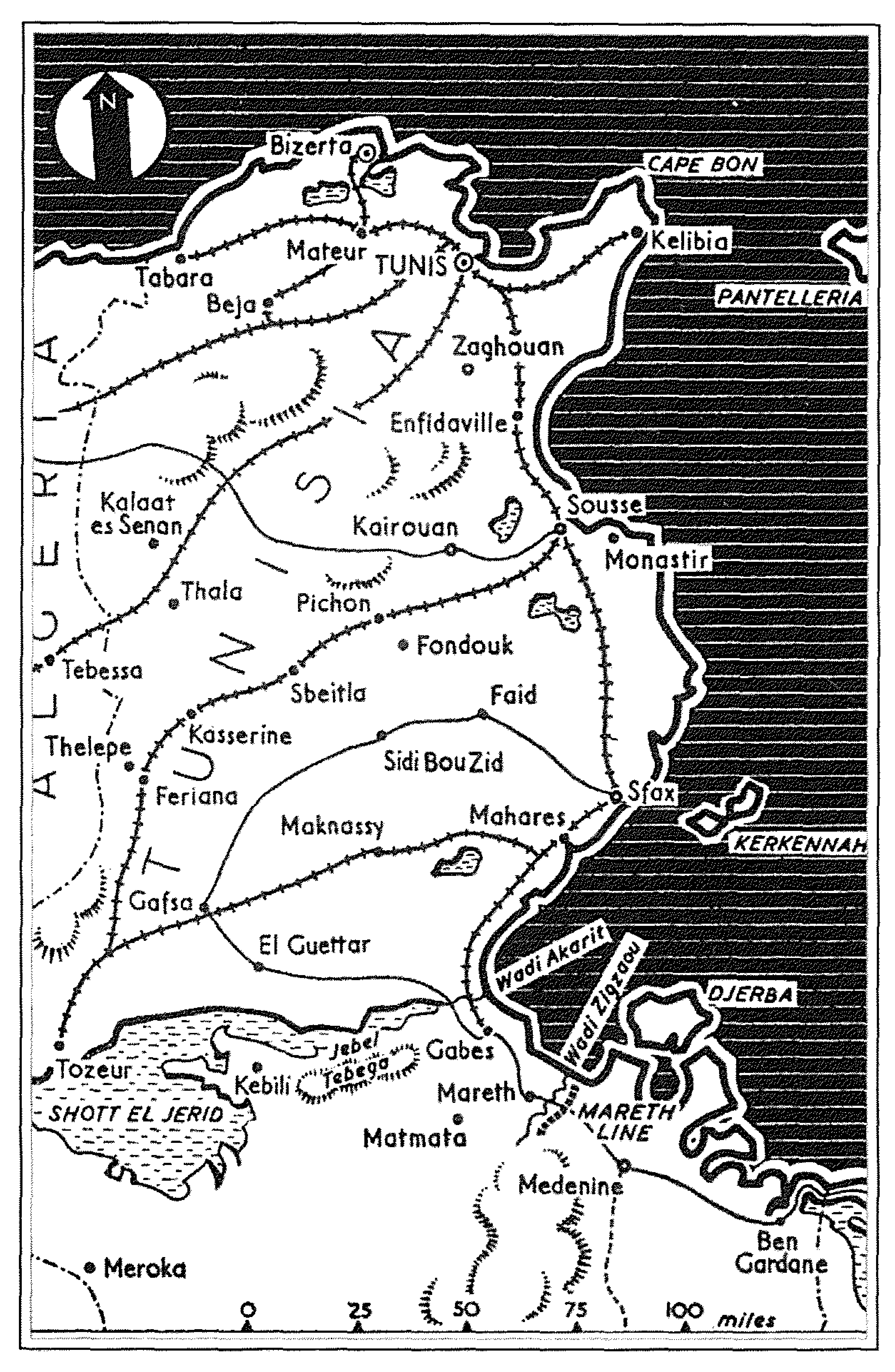
تخلى روميل عن كل الأراضي التي كسبها خلال الأيام السابقة. خلص كل دباباته التي هاجم بها ما عدا تسع دبابات، وقد أعاقت الألغام وعمليات النسف العدو عن ملاحقتها. وفي يوم 25 عادت القوات الأنجلو ـ أمريكية إلى ممر قصرين. وبدأ مونتجمري بتهديدنا أيضاً، في خط ماريت.

الفصل الحادي والأربعون

وداعاً ثعلب الصحراء

في هذه الفترة بدأ خط ماريت يقلقنا، وبدأت القيادة العليا في برلين تلاحظ الوضع في أفريقيا بتفاؤل وتأخذه بعين الاعتبار، فاستمرت بإرسال التعزيزات بقوة سرايا حيث بدأ وصولها بسرعة وباستمرار الآن. وجد العقيد مينتون نفسه في وضع يمكنه من تشكيل كتيبة ثالثة للمجموعة الخاصة 288. عهد إليّ بتشكيلها، وتوليت قيادتها في صفاقس، وهذا أعطانا عدة أيام سعيدة من الراحة والبعيدة عن المعارك.

في محنة معركة قصرين، يوم 21 فبراير، أمر ألكسندر مونتجمري بالقيام بتهديد قوي قدر الإمكان لجناحنا الجنوبي، ولكن مونتجمري لم يستطع إنجاز ضربته، لأنه لم يكن مستعداً بعد للقيام بذلك، لكنه حرك قوات قوية وملائمة إلى الأمام باتجاه مدنين، وإن لم تكن في تماس معنا، وبعد بداية فشلنا في قصرين، أخبر ألكسندر مونتجمري بأن لا يقوم بالإضرار بخططهم



الخريطة رقم: 5 بن جردان إلى طبارا (TABARA)

المستقبلية، وبالقيام بمجازفات غير ضرورية، وبشن هجوم.

لم يكن مأزق روميل أكثر خطورة مما كان، صحيح أن ألكسندر قد قال: «مثل تقدمه إلى العلمين، فإن روميل قام بعمل بطولي وجريء وهام في نجاحاته الأولى ليضع نفسه في وضع أسوأ من ذي قبل، ولكن لا يمكنك لومه لمحاولته الجريئة لإحراز النصر، وكاد يقترب من النجاح في كلتي المعركتين». وعندما وجد نفسه أمام مقاومة عنيدة توقف بعد أول ضربة أنزلها به الأمريكيون، ولم يقم بأية مجازفة أبعد، ومن السخف القول بأن نتائج مغامرة قصرين كانت مأسوية.

إن روميل كان يعرف جيداً وفي أحسن الأحوال، أن فرصة الانتصار الجدير بالذكر قد تضاءلت، وكان باستطاعته أن يأمل في أحسن الأحوال الآن بالوقوف لضرب مونتجمري قبل أن يضربه، ولربما سيكون من الأحسن إذا استطاع ضرب مونتجمري مبكراً قليلاً. ويجب أن نتذكر أنه دائم التفكير بالمخاطر المتمثلة في الجيش الأول المتمركز خلفه.

وبينما كنا ننسحب من قصرين، كان فون آرنيم، في جبهة الجيش الخامس، يهاجم جيش أندرسون، فنشب قتال جبلي جيد في مناخ سيء استمر لعدة أيام.

قرر روميل الهجوم في صباح يوم 6 مارس، وحشد قطعاته في منطقة خط ماريت، كما قرر استخدام خطة الهجوم التي صممها الفرنسيون قبل الحرب لاستخدامها ضد الإيطاليين في منطقة

طرابلس، والتي تتم بالاندفاع من خارج الجبال الواقعة على يسار خط مونتجمري.

تم إيجاز الخطة لنا في الليلة السابقة، وكان على الفرقتين 10 و21 بانزر ـ وهي التشكيلات الأقوى تحت قيادة روميل ـ أن تقوما بالمرحلة الأولى من الهجوم، ونقوم نحن في الفرقة 15 بانزر بالإضافة إلى الفرقة 90 الخفيفة، بالاستعداد لاستغلال أي نجاح أو قيام بدعم أي تطور آخر.

أوضح لنا روميل في أوامره للمعركة في تلك الليلة بأن هدفه من الهجوم كان منطقة طرابلس، وهذه خطة طموحة. في صباح اليوم التالي وقف روميل في عربته المفتوحة على قمة الممر في قصر الحلوف يراقب الدبابات وهي تندفع منحدرة مع الطريق للهجوم خلال الضباب مع الفجر.

كان رجلاً مريضاً يقاسي من مرض اليرقان. وكانت رقبته ملفوفة بضمادات، ويتألم من قروح الصحراء، وقد صرح: «ما لم ننتصر في هذه المعركة، فإن آخر أمل لنا في أفريقيا قد انتهى، وإنها الهزيمة».

لاحظت طائرات استطلاع العدو حشود تشكيلاتنا، وحذر ألكسندر مونتجمري بأن روميل يتحرك بوضوح للقيام بهجوم، وأجاب مونتجمري: بأنه يأمل بأن يقوم روميل بالهجوم، وكان قلقاً بألاّ يقوم روميل بذلك . .

تحت قيادة مونتجمري يوجد أعداؤنا القدامى ـ النيوزيلنديون بقيادة فرايبرغ واللواء 201 حرس ـ ينتظروننا حول مدنين. كان

مونتجمري يعلم بأنه إذا تمكن روميل من احتلال مدنين فسيتمكن من تقطيع خطوط مواصلات الجيش الثامن مع طرابلس وتطويق القسم الأكبر من القوات البريطانية.

لم يكن لدى مونتجمري الوقت لزرع الألغام، ولكن كان لديه حشد من المدافع المضادة للدبابات في مواقع حصينة، وأعد خطة لميدان رماية قصير لصد هجوم الدبابات.

لم يعلم روميل بمدى قوة مواقع العدو التي ستبرهن على ذلك. قمنا في ذلك اليوم بأربع هجمات خسرنا فيها أكثر من 50 دبابة وهو عدد لا نستطيع تحمله ـ وكما في معركة علم حلفا، لم يزج مونتجمري بدباباته ـ حقيقة، لقد استخدم سرية واحدة فقط، وأهدرنا نحن قوتنا في مواجهة المدافع. وعند حلول الليل أوقف روميل معركته اليائسة.

في ذلك المساء أدرك روميل وتحقق بأنه لا توجد سوى فرصة واحدة لقواته في أفريقيا، وهي نقلهم إذا أمكن بأمان إلى إيطاليا لكي تقاتل مرة ثانية، والشيء الوحيد الذي كان في استطاعته القيام به هو استخدام نفوذه الشخصي مع هتلر للحصول على إذن بإخلاء أفريقيا.

في يوم 9 مارس عام 1943، وبعد مرور سنتين على وصوله إلى أفريقيا، غادر روميل مسرح عملياته بمحض إرادته، افترض ألكسندر بأن مغادرته حقيقة تعزى إلى مرضه، كما أن القيادة العليا الألمانية أيضاً، لا تريد المجازفة بسقوط قائد شهير أسيراً بين يدي العدو.

فشلت مهمة روميل لدى هتلر، وعين في قيادة بأوروبا ومنع من العودة إلى أفريقيا. تولى فون آرنيم قيادة مجموعة الجيش، وفون فيرست وهو قائدي القديم، عندما كنت أعمل في الفوج 115 من الفرقة 15 بانزر، أصبح قائداً للجيش الخامس، وأرسلت برلين برقية مشفَّرة إلى القيادة العليا في أفريقيا: «إن نقل المشير روميل يجب أن يبقى سرياً في جميع الظروف». وكان لهذا تأثير كبير على الفيلق الأفريقي.

رأيت المشير روميل بعد ذلك مرة واحدة فقط، كان هذا في شمال إيطاليا، عند انعقاد مؤتمر لضباط الأركان بالقرب من بحيرة جاردا. وكالعادة، تعرف عليّ من خلال مجموعة من الضباط من الرتب العليا، وقد اندهشت مجموعة منهم للحديث الشخصي الذي جرى بيننا في وقفة في منتصف التمهيد للحديث المهم، الذي حدد له اجتماع المؤتمر.

لم يكن روميل الذي التقيته قائدي القديم (ثعلب الصحراء) المغبر، مع لفافة حول عنقه وأعلامها المميزة، ونظارات الغبار على قمة قبعته، ومع اثنين فقط من مساعديه الشخصيين الذين يرافقونه. إنه الآن يحيط به حاشية من ضباط الأركان، قبعته كانت جديدة وغريبة عليّ، وكان يحمل عصا (المارشالية) في يده.

سألني: «هل أنت سعيد يا شميدت؟». آه أعتقد أن تلك الأيام كانت أحسن عندما كنا في أفريقيا، وكنا نقارن دهاءنا بالجيش الثامن.

الجحيم في خط ماريت

إن خط ماريت كان مسرحاً لمعاركنا الكبيرة التالية، وكانت الأولى بعد يوم من مغادرة روميل لأفريقيا، في يوم 10 مارس، وكانت قصيرة ودموية.

حسب تعليمات روميل فإننا لا بد من أن نبذل جهداً، وننتصر ولو نصراً طفيفاً بهدف رفع المعنويات بعد الفشل الذريع في مدنين، ثم علينا أن نواصل نشاطنا لمنع العدو من الإعداد لمعركة حاسمة. وبدأت وحدات الاستطلاع من الفرقة الواحدة والعشرين والفرقة الخامسة عشرة بانزر مع طائرات شتوكا، بمهاجمة قوات الفرنسيين الأحرار ـ التي تضم محاربين محنكين ـ الذين قاموا بتقدم طويل من بحيرة تشاد وخلال الواحات الأفريقية تحت قيادة اللواء ليكلير. في قصر رحيلان، وهو موقع متقدم في الصحراء غرب جبال مطماطة، ومن دون شك، كان مونتجمري يخطط قريباً لإرسال قوات لتطويق

الجناح البعيد من خلاله، إذا استطاع ذلك. ولكن هجومنا فشل، بصورة عامة، بسبب القتال العنيد للفرنسيين، وكما قاتلت من قبل في بئر حكيم تحت قيادة اللوا كوينج (Koenig)، وبسبب التدخل القوي لطائرات السلاح الجوي البريطاني.

كان خط ماريت يمتد من البحر حتى جبال مطماطة بطول اثنين وعشرين ميلاً تقريباً، ونهايته القريبة من الساحل كانت تقع وراء وادي (زيجزاو)، الذي يكوّن مانعاً طبيعياً ضد الدبابات وقام الفرنسيون بتقويته اصطناعياً، وكانت الدفاعات تتكون من منظومة نقاط قوية ومتصلة فيما بينها، وتم تقويتها بالتحصينات الخرسانية، وجزئياً كان بعضها محصناً تحت الأرض، وتم قفل الثغرات بالألغام والأسلاك الشائكة. وعندما بنى الفرنسيون هذا الخط قبل الحرب اعتقدوا بأن هذا الخط لا يمكن تطويقه من الصحراء غرب مطماطة، ولكن مجموعة قوات الصحراء بعيدة المدى التابعة لمونتجمري أثبتت عكس هذا، كما اعتبر ألكسندر أن خط دفاعنا قوي كقوة خط العلمين.

إن خطة مونتجمري لدحر خط ماريت كانت تتضمن: هجوماً على الجبهة بالقرب من وادي زجزاو على مقربة من الشاطئ، وبعد أن تخترقه قطعاته، تقوم بتطويقه من جهة اليمين كما خطط للنيوزيلنديين مع الفرنسيين الأحرار ولواء من الدبابات، للقيام بتطويق الجناح الأيسر حول الجبال وقطع طريق قابس ـ ماريت ومحاصرتنا.

قام ألكسندر أيضاً باتخاذ الاستعدادات للأمريكيين تحت قيادة اللواء باتون (الذي حل مكان اللواء فريدندال) للقيام بالضغط ضد مؤخرة قواتنا اليمنى. بدأوا في التقدم يوم 16 مارس، وحافظت وحدة استطلاع ألمانية بالتماس معهم، لكنها لم تقاومهم في قفصة وتراجعت إلى شرق قرية القطر. في نفس الوقت ازداد النشاط في جبهة ماريت نفسها، واندفعت القوات النيوزيلندية مع 27.000 رجل حول جناحنا الأيمن، وقد حدد توقيت الهجوم الرئيسي لمونتجمري في ليلة 20 مارس. إن أعداءنا القدامى: الفيلق الثلاثين الذي يتشكل الآن من الفرقة 50 و51، والفرقة المدرعة الهندية الرابعة، واللواء 22 حرس يقومون بالهجوم على وادي زيجزاو وتحطيم خط التحصينات، وعندما يخترقونه يقوم الفيلق العاشر مع فرقتين مدرعتين، بالضرب في اتجاه قابس وصفاقس.

كانت وحدتي المجموعة الخاصة 288، متواجدة خلال الأسابيع الثلاثة الماضية على مقربة من واحة قابس خلف خط الجبهة مشغولة بالتدريب، وكانت مهمتي توحيد تدريب كتيبتي الجديدة من أجل المعركة المحتومة.

في صباح يوم 20 مارس وبينما كنت على وشك الجلوس لكتابة رسالة مطولة إلى خطيبتي، وصلني نداء عاجل من مقر قيادة الفوج: «لقد صدر الأمر إلى كتيبتي بأن تستعد وتتهيأ للحركة فوراً». كان علينا أن نضع أنفسنا تحت تصرف ضباط أركان الفرقة 90 الخفيفة في مدة أربع ساعات.

احتل الفيلق العشرون الإيطالي القطاع الساحلي من وادي زيجزاو وتحت قيادته، الفرقة 90 الخفيفة بالإضافة إلى فرقتين إيطاليتين ـ فرقة الشباب الفاشيستي وفرقة تريستا ـ كما كانت توجد ثلاث فرق تحتل نهاية الخط في جبال مطماطة، مع الفرقة الخامسة عشرة بانزر في الاحتياطي المباشر خلفهم، وكانت الفرقة 21 بانزر تحتل مواقع أبعد إلى الخلف، وهي على استعداد في وقت الحاجة، للدفاع عن الثغرة بين جبل طباقا وجبل معيليب، وضد النيوزيلنديين الذين يتقدمون في هذا اليوم.

قدمت نفسي مع عدد من ضباط كتيبتي إلى مقر قيادة الفرقة 90 الخفيفة حسب الوقت المحدد، وقبل وصولنا بدقائق قام تشكيل من القاذفات الأمريكية بتغطية المنطقة بالقذائف، وكان العمل على إخلاء الرجال الجرحى بعيداً لا زال مستمراً.

تم تلخيص الصورة عن الموقف، وبعد استماعي لبعض الكلمات القليلة الأولى، أدركت أن مهمتنا ليست في واجب آلي (متحرك)، ولكن لمهمة قتال ثابت وعنيف.

وبكلمات هادئة تكلم رئيس العمليات: «أيها السادة، أنا سعيد بقدومكم السريع، وإن كل دقيقة ستتيح لكم فرصة التفتيش على مواقع خط الجبهة، وقد استلمنا تقارير موثوقة من وكالتنا (الاستخبارات) بأن الجيش الثامن ينوي القيام بهجوم في هذا القطاع هذه الليلة». ثم باشر معنا في دراسة الوضع على خارطة كبيرة، وقمنا بسرعة بتسجيل ملاحظات عن الحدود والقطعات المجاورة

على الورق الشفاف في لوحة خرائطنا، ثم واصل رئيس العمليات حديثه: «وكما ترون، فإن الشباب الفاشيستي يحتلون هذا القطاع، وإن قيمتهم القتالية جد منخفضة، وهذه الحقيقة ربما تغري قائد الجيش الثامن بتركيز الهجوم على هذه النقطة، وبكل تأكيد يجب نجدة ومساندة هذه القطعات فوراً، وقبل حلول هذه الليلة عليكم بإعداد وتجهيز قطاعاتكم وأنتم تستعدون لدحر هجمات العدو»، إن ذلك المؤتمر بأكمله استغرق أقل من عشر دقائق، وعند نهاية المؤتمر قمت بتقسيم قطاعي وحددت منطقة لكل سرية من سرايا كتيبتي، وقد انتهت هذه المهمة بأسرع مما كنت أتوقع، وبدون أية عرقلة، تمركزنا في الخط بكامله، والحقيقة أن القسم الهام من القطعات الإيطالية كان قد تم سحبها قبل وصولنا.

سررت عندما شاهدت بناء التحصينات الفرنسية على حافة وادي زيجزاو، فبعضها كان مسلحاً بالفولاذ وكانت ضد القذائف والقنابل، ومن بينها تحصينات تحت الأرض بدون مزاغل للرؤية، وهي للحماية وليس لميدان الرماية، وأيضاً، معظمها خطط في تشييدها كمواقع للمدفعية الفرنسية من عيار 25 و 47مم المضادة للدروع، التي كانت أصغر من مدافعنا من عيار 50 و 75مم، والتي تركناها وراء خط التحصينات، وكان يوجد عدد من مواقع الرشاشات الآلية ومدافع الهاون الجاهزة في مركز منظومة الخنادق التي تم تشييدها في أرض حجرية رملية.

إن وادي زيجزاو الممتد أمام خط تحصيناتنا مغمور جزئياً

بالمياه، وعلى بعد عدة مئات من الياردات أمام الوادي توجد هضبة صغيرة تحد من مدى الرؤية، كما كانت تحد من مدى رؤية العدو الذي يراقب مواقعنا، كما توجد منظومة خنادق منعزلة على الهضبة أعدت كمواقع متقدمة، وبتردد فقط، وبسبب الأمر المباشر، قمت بفرز مفرزة بقوة سرية لتتمركز في الهضبة، وبعد ذلك وقبل عدة ساعات من الغروب قمت مسرعاً بالتعرف على القطاع، وترتيب نظام أسلحتي، وتحديد مسؤولية الرجال الذي سيقودون نقاط الدعم.

قبل غروب الشمس بقليل، وصلت تعزيزات من قوات ألمانية، هبطت في أفريقيا جواً قبل ساعات قليلة، وبدون إضاعة للوقت تأكدت من إعداد القوات الحديثة. قمت بتقسيمها إلى مجموعات ودفعتها إلى خط الجبهة في القطاع، أرسلت رئيس العرفاء فيدل فيبل آمنون لقيادة التحصينات البعيدة الواقعة في الجبهة اليسرى، التي كانت معرضة لنيران المدفعية القوية خلال الساعة الأخيرة من هذا اليوم. حيث قام بإرسال تقرير إلى الخلف عن مشاهدته بوضوح لتحركات العدو، كما أخبر بأنه لا يوجد اتصال مع القطعات الإيطالية في الجوار الأيسر، حيث توجد هناك ثغرة واسعة بين مواقعه والإيطاليين، وقمت بتقديم تقرير إلى الخلف إلى مقر الفوج، حيث وعدوني بالمساعدة.

عند الساعة العاشرة ليلاً، تسلقت إلى أعلى الخندق الحصين، الذي كان مقر قيادتي القتالي. كانت ليلة ربيعية معتدلة

وساطعة النجوم وهادئة، وتملكني العجب، لا بد أن وكالة الاستخبارات قد أخطأت كما حدث كثيراً في الماضي، وربما لن يقوم الجيش الثامن بضربته في تلك الليلة، لقد سمعت أزيز طائرة فوق رؤوسنا، وقدرت من صوت محركاتها أنها طائرة مقاتلة ليلية من نوع (ميسر شميت)، وبعيداً عند خط الأفق باتجاه العدو أسقطت مشاعل المظلات التي هبطت ببطء، وبذلك أصبحت طائراتنا مشغولة.

وفجأةً أصبحَ الأفق أمامي مضيئاً مثل وميض البرق، «أي مضادات رهيبة يستخدمها العدو!» هتفت بهذا للجندي المراسل، لم يكن الوميض محدوداً، كان بعيداً وعلى طول مدى البصر، وميض يعقبه وميض، وفجأة عرفت أنه ليس برقاً ولكنها سدود من النيران لمدافع مونتجمري، وبعد مرور ثوان قليلة سمعت أصوات انفجارات، وأزيزاً ودوياً، وانفجارات حولنا، وبقفزة واحدة قفزت من سطح الخندق المحصن إلى عمق الخندق في الأسفل، ولم تمض لحظات حتى رجت انفجارات البريطانيين الأرض من حولنا.

بذلك السد الناري الرهيب تبخرت كل الأفكار. قاتل من أجل حياتك! . هذا ما شعرت بأنني أهمس به. وقدرت بأنه بعد قليل ستقوم المشاة أو الدبابات بالهجوم، وربما كلاهما، وبعد أن تسحقنا نيران المدفعية أولاً. واستمرت نيران المدفعية متواصلة.

اندفعت أركض من خلال منظومة الخنادق محاولاً التأكد من كل رجل من رجالي واقفاً على أهبة الاستعداد لإطلاق النيران. إن

كل قطاع قد دفع بمراصد إلى الأمام لإعطاء إنذار مبكر عن تقدم العدو، لاحظت الآن أن شكل الخنادق قد تغير إلى حد كبير، ورغم الأحجار الرملية الصلبة، فقد انهار معظم جوانبها، وكنت أزحف فوق حطام المباني أو أكداس الصخور، وحتى كنت أقفز فوق قذائف العدو التي لم تنفجر.

وفي بعض الملاجئ أرى القتلى والجرحى مضطجعين بجانب أسلحتهم. إن أولئك الرجال الذين يحتلون مواقع الرصد المتقدمة والأقل تحصيناً مطالبون بجرأة وشجاعة هائلة بالصمود فقط لمدة نصف ساعة. وصلت إلى الموقع الحصين السفلي في منتصف القطاع على حافة وادي زيجزاو، وجدت أعداداً من المفارز هناك قتلى بجانب مدافعهم. . وأمام مدخل الخندق المحصن وقريباً من أحد الجانبين وفي وسط الخندق وجدت جنديين جراحهما خفيفة.

«دبابات على المرتفع أمامنا مباشرة!» صرخ أحدهم تجاهي. لم أتعرف عليه، فلا بد أنه أحد الرجال القادمين حديثاً.

ثم صرخ ثانية: «الدبابات دمرت خندقنا المحصن بقذيفة مباشرة»، «إن البقاء في الخندق يعني الانتحار».

وصحت بغضب: «بحق السماء، يبدو أن المشاة البريطانية ستقوم بالاختراق في أي لحظة، احتل موقع تلك الرشاشة الآلية المجاور للخندق فوراً». جرحى وغير جرحى، كنا جميعاً منهمكين في مسألة الحياة والموت، زحفت داخل الدشمة المهدمة وسحبت

الرشاشة من داخلها. وعندما التفت شاهدت الرجلين لا يزالان منبطحين في الخندق حيث تركتهما وهما لا يتحركان، ففي خلال تلك الثواني أصيبا بانفجار قذيفة فقتلتهما.

عدت مسرعاً باتجاه الدشمة، وكانت العودة أصعب مما أتوقع، الانفجارات أجبرتني على الانبطاح أرضاً بعد عدة ثوان، لقد كانت الخنادق تتداعى بصورة متواصلة.

عندما وصلت إلى الدشمة المحصنة، تبينت ثلاثة رجال في موقع الرشاشة، ومن بينهم كان أحسن السعاة لديّ، وهو رجل صغير في السن ومليء بالمرح والسرور، وبعد مرور دقائق قليلة رجع إليّ راكضاً يلهث: «سيدي الملازم، (التومي) الإنجليز يهاجموننا، إنهم منبطحون على اليمين وأمام خندقنا».

الآن قد انتهت اللعبة. وبدأ الرجال يتسابقون عبر الخنادق لإعطاء إنذار فوري: المشاة يهاجمون أسلحتكم في مواقعها!» وبعد ثوان قليلة بدأت الرشاشة التي لم تصب من قصف مدفعية العدو تصب نيرانها بعيداً ومتقاطعة على الجبهة، كانت نيراننا تطلق في الجبهة والجوانب معاً، باتجاه الوادي. كانت رهيبة، شريط بعد شريط يملأ في الرشاشات.

تم اكتساح السرية التي تحتل المواقع المتقدمة أمام الجبهة ـ بهجوم الدبابات، والآن لا توجد أية معلومات عنهم ـ وبدأت رماية دبابات تطلق علينا من المواقع التي كانوا يحتلونها.

أرسلت مراسلاً إلى مواقع جناح آمون، حاول المراسل عبور

أراضٍ مفتوحة ولكنه لم يستطع، ولم أندهش لذلك، فقد اصطدم بالمشاة البريطانية وقوبل بقنابل (ميلز). كان واضحاً أن بعضاً من المشاة البريطانية قد وصلوا إلى حافة الوادي حيث مواقع فرقة الفاشيست ـ وأولئك كانوا أكثر شجاعةً وذا روح قتالية عالية ـ. نيران مدفعية البريطانيين كانت شديدة كما هي دائماً، وتقدموا الآن إلى الأمام على الأرض المفتوحة التي ما زالت تحت سدود نيرانهم.

أفرزت مجموعة من الجنود لتطهير جناحنا الأيسر أمام الخنادق من الغزاة الذين يضغطون هناك، وتم استرداد الخندق المحصن في نهاية منظومة الخنادق مع ثلاثة من الأسرى، ولكن بعض المهاجمين تمسكوا بإصرار ببعض النقاط المعزولة واستقبلونا بوابل من القنابل، لم نتمكن من الوصول إليهم، وعلينا الاكتفاء بجزء من الطريق إلى خنادقنا الرئيسية.

استلمت رسالة لاسلكية من آمون في موقع الدعم: «المشاة البريطانية اجتازوا خطوطنا وانتشروا على يميننا ويسارنا. موقعنا لا زال صامداً».

عند طلوع النهار شاهدت دبابات فالنتاين البريطانية على المنحدرات، حيث كانت مواقع سريتي المتقدمة في الليلة الماضية، ولم نكن قادرين على وضعهم تحت نيراننا، فمدافعنا الثقيلة المضادة للدبابات لا زالت خلف التحصينات، ولم يكن لدينا الوقت في مساء الليلة الماضية لإعدادها في مواقع مناسبة، ولكن

بحشد من نيران الرشاشات الآلية ومدافع الهاون استطعنا تطهير الهضبة عند حلول العصر، وأصبح موقف المشاة المتسللة حرجاً لاستهلاك ذخيرتهم، وخلال اليوم استرددت كل مواقع التحصينات في قطاعي باستثناء الجناح الأيسر البعيد.

أخذنا عدداً من الأسرى الإنجليز من الفرقة 50 البريطانية، وكانوا في وضع سيء بعد أن عبروا فيضان مياه وادي زيجزاو مشياً على الأقدام، والذي يتعذر على الآليات عبوره، ما عدا عدد من الدبابات التي استطاعت عبوره بصعوبة، ولم يستطيعوا تعزيزها.

قام طبيبنا بتضميد جراح ملازم إنجليزي شاب، الذي سأله: «من أجل أي شيء مستمرون في القتال؟ نحن لدينا التفوق الساحق في الرجال والمعدات، إنه مجرد سؤال، فالحرب ستنتهي خلال أيام أو أسابيع بالنسبة لكم على أي حال». رفضنا تصديقه وضحكنا لتفاؤله، ثم سأل الضابط الإنجليزي الطبيب: «هل تحب غوبلز؟»[1] وكان الطبيب الجراح شاباً حساساً من ڤيينا، فسألني: «بماذا يجب أن أجيب؟» ولكنني وبدون مبالاة لم أجاوبه.

بعيداً وإلى يسارنا اخترق رجال الجيش الثامن بعمق خط ماريت، وشاهدت بعيداً في مؤخرة خط التحصينات، مباشرة خلف ظهورنا، مجموعة صغيرة من البريطانيين يهرولون على الأرض المرتفعة.

(1) غوبلز: وزير دعاية ألمانيا. (المراجع).

كنا قد فقدنا الاتصال برجالنا في المؤخرة. هل اعتقدوا أننا قد انتهينا؟. أرسلت رسالة لاسلكية إلى الخلف للاستفسار، وبعد عدة ساعات وصلني الرد: «حافظ على مواقعك بأي ثمن، سيتم تعزيزكم من الفوج بهجوم مضاد».

أصبح موقع آمون الساند مثل جزيرة صغيرة على جناحي الأيسر، واتصل بي لاسلكياً: «العدو يحاول دفع دباباته إلى الأرض التي أمامنا». بدأنا نتعرض لمزيد من النيران الدقيقة التصويب من الدبابات الواقعة مباشرة خلف الهضبة التي أمامنا، وأصبح من المستحيل علينا رفع رؤوسنا فوق مستوى ساتر الخنادق.

حلت الليلة الثانية، وتوقعنا المزيد من نشاط مدفعية العدو، ولكن من المدهش أن هذا لم يحدث، كما لم يحدث ما توقعته من هجوم آخر للمشاة، وكإجراءات احتياطية قمت بتمشيط الوادي بنيران الرشاشات الآلية وقنابل الهاون، ثم حاولت قطعات الاقتحام التقدم مرة ثانية من الخنادق التي احتلوها في الليلة السابقة، بعيداً على يسارنا، تقدموا وهم يطلقون النيران بالغدارات والقنابل اليدوية غير مكترثين بخسائرهم، ومرة ثانية فقدنا الخندق المحصن على يسارنا، وبدأت أحس بخسائري، ففي كل موقع مهم يحتله مدفعان، ولا أملك أي قوة احتياطية للقيام بهجوم مضاد محلي، ومرة أخرى كان الاحتفاظ بنهاية منظومة الخنادق يعتمد على إيقاف العدو بستارة من نيران مدافع الهاون، وإلى الآن لا يوجد أية علامة على الوعد بالهجوم المضاد، وتملكني الاندهاش فيما إذا كانت

الإشارة اللاسلكية مؤاساة رخيصة لا غير، لما فيه نحن من خطر شديد.

لكننا استلمنا بعد الظهر بقليل إشارة لاسلكية: «إن فوج البنادق 115 يهاجم الآن، احترسوا من إطلاق النيران على قطعاتنا».

بعد ذلك بقليل شاهدت المشاة الألمانية خلف مواقعنا بعيداً يتقدمون بقفزة الضفدعة، بدون هوادة، وكانوا يستردون الأرض الضائعة بكل وضوح، وأخذنا نراقب بكل دقة القتال في الخلف أكثر مما نقوم به في جبهتنا، ولكن لا يوجد ما يدعو للقلق على الهجمات المحلية المضادة، لقد شعرت بالفخر والإحساس بالجميل لفوجي القديم، إنهم حقيقة قادمون لإنقاذنا.

بدأت مدفعيتنا بقصف الخنادق التي احتلها العدو على يسارنا، وأيضاً على الهضبة التي أمامنا، ورغم القصف المدفعي التمهيدي المرعب، لا زالت المدفعية البريطانية هادئة. فهل كان الجيش البريطاني لا يعرف مواقع قطعاته المتقدمة، أم انتقلت المدافع إلى قسم آخر من الجبهة؟. امتلأنا بشحنة من الشجاعة الجديدة.

تقدمنا من خط التحصينات باندفاعات قصيرة، واندفع الرجال إلى الخارج وإلى اليسار ثم إلى وادي زيجزاو نفسه، واكتشفنا المشاة البريطانية على غير توقع وجهاً لوجه، إن بعضهم يجثم خائفاً على بعد ياردات قليلة أمام المواقع، وحاول العدو الانسحاب، فنجح معظمهم، وسقط قليل منهم أسرى بين أيدينا، ورجعنا

بحوالى فصيل من الأسرى إلى الخلف، بعدما وصلت تعزيزات من رماة القنابل.

وفي الحال أعدنا السيطرة على خط التحصينات مرة ثانية، وتم الاتصال مرة ثانية مع آمون، الذي شاطره الغزاة البريطانيون في خنادق المواقع المتقدمة لمدة يومين، وتمركزت مشاة ألمانية نشطة وسدت الثغرة التي على يساره، وبدأت أشعر الآن بالأمان ثانية. تحت تغطية نيران المدفعية البريطانية عبرت قطعات رأس الجسر الوادي، حيث تم سحبها إلى الخلف بناءً على أوامر مونتجمري، الهجوم الجبهوي ضد خط ماريت فشل.

الفصل الثالث والأربعون

الخط ضد (اليانكي)

تخلى مونتجمري عن خطته الأصلية، وسحب قواته التي تهاجم في مواجهة الجبهة وعزز القوات التي تهاجم في الجناح، وعند الغسق في ذلك المساء أرسل فرقة الدبابات الأولى لتقوية طابور فرايبرغ، الذي يضرب بقوة منطقة جبل (ميلعاب)، اندفعت الفرقة 21 بانزر والفرقة 164 من النهاية الغربية لخط ماريت لإيقاف النيوزيلنديين ودباباتهم المائتين. وبهذه الفرق المدرعة الجديدة تمكن مونتجمري من مواصلة تقدمه الآن، وكان يتوقع أنَّ باستطاعته الهجوم على المؤخرة بثلاثمائة دبابة.

في نفس الوقت أمر ألكسندر باتون بقواته الأمريكية، بدفع فرقة مشاة للتقدم أسفل طريق قفصة ـ قابس، وفرقة دبابات بالاندفاع إلى أسفل طريق قفصة ـ مكناس.

كان لا يوجد أي شيء لدى قيادتنا العليا لتعطيه لنا لتقوية خط

الدفاع في تونس ـ هذا الخط الذي يشبه خط (ماجينو) الفرنسي ـ في شمال أفريقيا خط ماريت. تراجعنا في تلك الليلة وانسحبنا مرة أخرى. ومع الفرقة الخامسة عشرة بانزر اندفعت للقتال في الحال الفرقة 21 بانزر والفرقة 164 وأوقفت النيوزيلنديين عند (الحمّا)، بينما كانت قطعات خط ماريت تنسحب من خلال (المجاز) الواقع خلفهم، إلى المواقع الدفاعية التالية عند وادي العكاريت في شمال قابس، وقد وقع قتال شديد لعدة أيام قبل دخول فرايبرغ إلى قابس في منتصف يوم 29 مارس. وإلى الآن فقد جيشنا الألماني ـ الإيطالي 7000 أسير معظمهم من الإيطاليين بالإضافة إلى أعداد كبيرة من المدافع والدبابات. وطوال ذلك الوقت كانت كتيبتي منهمكة في قتال جديد ضد الأمريكيين في منطقة (القطر).

أمر ميسا القائد الإيطالي الذي يقود بقايا جيش العلمين، بإجلاء الحامية الصغيرة في واحة قفصة في وقت مبكر، وارتجل خطاً دفاعياً جديداً على بعد خمسة أميال شرق مكناس بوحدات استطلاع ألمانية وإيطالية، وتم تعزيز هذا الخط بالفرقة 10 بانزر، وثلاث كتائب مشاة ألمانية، وبعض الدبابات الإيطالية، واحتفظوا بالممر ضد الفرقة المدرعة الأولى الأمريكية. كما أن هجوم المشاة الأمريكية إلى أسفل طريق قفصة ـ قابس قد أوقف حتى 25 مارس بواسطة الهجمات المضادة المتتالية للفرقة 10 بانزر. وغالباً ما استخدمت المجموعة الخاصة 288؛ مع مدافع مضادة للدبابات لتوفير (حواجز نيران) عند انسحابنا من خط ماريت، وهذا العمل لم يفاجئني أبداً. وجدنا أنفسنا في جبل (القطار) حيث استقبلنا من قبل

أعدائنا القدامى، بمدافع باتون الثقيلة الأمريكية، وشاهدت ناقلة جنود مدرعة تندفع باتجاهي تحمل قائد الفرقة 10 بانزر. كنا تحت نيران قذائف شديدة عندما توقف للحظات قليلة فقط لكي يعطيني صورة للموقف، وبدا ودوداً وبكل وضوح لم يكن خائفاً؛ وصرخ بأعلى صوته ليجعل صوته مسموعاً وسط ضجيج القذائف: «تقدم بأقصى سرعة ممكنة مع كل رجل لديك، ففي الوادي الأمامي ـ وهناك خلف المرتفع الذي ستشاهده بعد الطريق ـ يوجد موقع دفاعي إيطالي من المحتمل أن الإيطاليين تم اكتساحهم، وقد لاحظنا أعداداً كبيرة من الأسرى الإيطاليين خلف جبهة الأمريكيين. إن مهمتك هي احتلال موقع دفاعي مناسب بعيداً إلى الأمام قدر استطاعتك؛ ومع أية قوات موجودة هناك، عليك بإقامة خط دفاعي جديد». «إن أي تقدم للأمريكيين إلى الأمام يجب إيقافه بأي ثمن». وأضاف قائد البانزر (الدبابات): «إذا اخترق هذا الخط. فستكون نهاية قوات روميل، اعمل ما في استطاعتك!». وبينما كان القائد لا يزال يتكلم أصدرت أمراً: «اسحبوا الأسلحة والذخيرة! ولتتراجع العربات!».

لقد كان اللواء يعلم كما كنت أعلم بأننا في حالة طوارئ، ولم يحاول إيقاف كلامي عند مقاطعته. «اعمل ما في استطاعتك» كررها بهدوء؛ ثم واصل حركته.

وتحت قذائف المدفعية نفذت المفارز الأمر على الفور، إن عرباتنا العالية عملت فعل المغناطيس لجذب نيران مدفعية العدو،

وتعقبتهم القذائف. حصلنا على راحة قصيرة، وانبطح رجالي إلى الجنوب من الطريق، وكانت أسلحتهم بجانبهم، وفي فترة التنفس القصيرة تمكن ضباطي من تكييف أنفسهم. كانت أوامري مختصرة!: «شكلوا خط مشاة وتقدموا في جبهة واسعة؛ والباقي اتبعوني!». إن أحسن فرصة بالنسبة لنا كان هو التقدم بأقصى سرعة ممكنة. وركضت إلى الأمام لأتولى القيادة.

تقدمت الكتيبة سريعاً إلى الأمام على يمين طريق قفصة؛ مستفيدة من كل ستر لتوفير الحماية. وفي خلال دقائق قليلة وصلنا إلى منخفض ضحل وقليل العمق لا يوفر لنا الحماية، ففيه يمكن للأمريكيين مشاهدة كل رجل منا على انفراد، وفكرت: آه إنه الجحيم، يمكن أن نضيع في أية دقيقة، اعبروا بأقصى سرعة ممكنة!. ركضت وكأني مطارد من روح شريرة أو مطارد من مخلوقات الشياطين، إن التردد معناه الهلاك، الرجال يمزقون خلفي. وفي الحقيقة، كنا في قلب الجحيم هنا وهناك يسقط جندي، وكان الصراخ يتردد مرة وأخرى «إسعاف» وبدأ الرفاق يتحركون جرياً لمساعدة الذين سقطوا أرضاً. والبعض واصلوا جريهم خلفي.

مرت نصف ساعة ولا زال السد الناري مستمراً كستارة متدلية وراءنا. وبصعوبة استطاع فصيلان العبور معي، وحاول البقية اللحاق بنا، ولكنهم أجبروا على الانبطاح أرضاً بخسائر جسيمة.

نحن الذين لا زلنا أحياء في (المرجل) نشق طريقنا بثبات إلى

الأمام. وفي بعض الأوقات كنا نتوقف لحظات لاستعادة الأنفاس خلف ساتر للحماية، لا زالت القذائف تنفجر بيننا وعلى مقربة منا، ولكن النيران لا يمكن مقارنتها بالمحنة التي قاسيناها في السابق. عبرنا المرتفع الذي حدده اللواء، ولكننا لم نستطيع مشاهدة أي شيء، لا الأمريكيين ولا الإيطاليين، والأرض الآن توفر لنا الحماية، ومقابل المرتفع شاهدت مدخل كهف وأمامه يقف جندي إيطالي. تحركنا باتجاهه، وطلبت منه معلومات وطلبت منه ماءً. فأجابني بلغته الإيطالية ماء؟.. لا يوجد ماء .. نبيذ أحمر جيد، وبكل لطف وكرم قدم إليّ زجاجته، أخذت جرعة عميقة، فشعرت بطاقة جديدة تدب خلال جسدي المنهك، ثم جلب صفاً من الزجاجات الإيطالية إلى خارج الكهف المظلم، وتناول كل واحد من رجالي جرعة. اعتادت عيناي على الظلام في مدخل الكهف، وحدقت داخل الكهف فشاهدت حوالى ستين إيطالياً. سألتهم باللغة الإيطالية: «أين مواقعكم؟». وأجابني أحد الضباط بغير مبالاة: «لا يوجد لدينا مواقع، يوجد الأمريكيون فقط».

بدا الإيطاليون قلقين لتجمعنا أمام كهفهم، يمكن لنا أن نكشف مخبأهم. نشرت رجالي بسرعة، ثم وقعنا في سد ناري قوي من المدفعية، وشاهدت أمامي منحدراً به خنادق طولية ولا يوجد هناك أي جندي يمكن مشاهدته، ولكنني خمنت أنها كانت مواقع إيطالية، فقد كنت رفيقاً لهم وأعرف عاداتهم في إعداد مواقعهم، فهم يحفرون عميقاً مع حماية جيدة وخلف القمم، مع القليل فقط من المواقع المتقدمة للسيطرة باتجاه ميدان النيران.

سريعاً وبكل أحاسيس الارتياح، نشرت رجالي على الخنادق الإيطالية المهجورة، نشرت الرجال على منطقة واسعة، مع ملازم لقيادة كلا الجناحين على جانبي الطريق، وتمركزت في الجهة الجنوبية من الطريق.

وبينما كنت أراقب موقع المجموعة المتمركزة على يسار المرتفع، اكتشفت حفرة بها ثلاث مدافع هجومية ذاتية الدفع ألمانية، ووجدت الضباط المسؤولين داخل موقع إيطالي محصن تحت الأرض مقوى ومحمي بالحجارة والتراب، وقد بني ـ بكل تأكيد ـ خصيصاً لضابط إيطالي كبير.

كان قائد مفرزة مدافع الاقتحام ضابطاً برتبة ملازم أول ابتهج عند علمه بوصول قوات الدعم من المشاة، وما عدا رجاله، فقد أخلي القطاع بدون إذن، حيث هاجم الأمريكيون خلال الليل وأخذوا معهم جميع الإيطاليين باستثناء أولئك الذين هربوا إلى المؤخرة. وقال الملازم: «أمامنا مباشرة فوق المرتفع، على بعد 40 خطوة فقط يوجد مأوى للأمريكيين». وبينما كان يتكلم، كان ينظر إلى الخارج من خلال فتحات الخندق المحصن. كان يبدو شجاعاً وعنيفاً، وقد خاب أمله عندما علم أنه لا يوجد لديّ مدفع مضاد للدروع في الأمام!، وكان من المستحيل في وجه القصف المدفعي الأمريكي دفعها إلى الأمام حتى حلول الظلام.

وفجأة صاح الملازم بقوة: «دبابات تهاجم!». شاهدت اثنتي عشر دبابة شيرمان ضخمة تزحف نحونا. ثم توارت في منطقة

منخفضة، حيث لم نتمكن من مشاهدة سوى بعض من أبراجها، ثم شاهدت المشاة الأمريكية لإسناد الدبابات، وحسب تقديري من مسافة بعيدة تقدر بسريتين، كان الضابط الواقف بجانبي قلقاً، ولكنني طمأنته: «من المحتمل ألا تهاجمنا الدبابات وعلى ما يبدو ستقوم بالدعم الناري للمشاة».

كان تفكيره مختلفاً: «لا يمكن مقارنة مدافعي الهجومية بالدبابات الأمريكية. إن المشاة بدون مدافع مضادة للدبابات لا يمكن لها أن تحمي مدافعي من تلك الدبابات»، قلت له قد تكون على صواب، ومع ذلك: «إنني الآمر المسؤول في هذا القطاع. عليك بالاختفاء في هذا الخندق العميق والمحمي مع مدافعك، ولكن عليك بدعمنا بالنيران ضد المشاة».

حان الوقت لإنذار رجالي، وكان لديّ عدد قليل فقط من الرشاشات الثقيلة وخمسة هاونات في الأمام، ولديّ عدد محدود من ذخيرتها، وبعد دقائق قليلة وصلني تقرير من جميع مواقع الأسلحة «نحن جاهزون للرماية». كانت أوامري «نيران حرة»، «وستكون رماية مدافع الهاون كإشارة عامة لجميع الأسلحة». في وقت واحد بدأ خطنا الدفاعي كله بفتح النيران. وبعد رماية نصف شريط من الذخيرة، قفز طقم الرشاشات تحت ستر الحماية مرة أخرى. كل شيء جرى بصورة جيدة وبراعة أكثر مما كنت قد شاهدته في المناورات أو ميادين التدريب، وكانت النتيجة هي كل ما أطلبه: فقوات مشاة الهجوم الأمريكية خفضوا رؤوسهم إلى

الأسفل، وعندما تقدمت الموجة الأولى مرة أخرى، انفتحت عليهم نيران أسلحتنا على المواقع والسواتر.

خطوت خطوات بعيداً من الرشاش الثقيل قريباً من الحفرة التي أعمل بها كمقرٍ لقيادتي، فسقطت قذيفة على الموقع، وقتلت رجال مفرزة الرشاشة الثلاثة، والآن بدأت الدبابات الأمريكية بتركيز نيرانها على موقعنا في المرتفع، وبعد دقائق قليلة سحبت مدافع الهجوم الثلاثة خلفنا بعد خروجها من ستر حماية الخنادق، ثم صاح الضابط نحوي: «دبابات تهاجم! يجب علينا أن نتراجع!» لا؛ قلت لنفسي إن هذا لم يحدث أبداً في فيلق روميل الأفريقي القديم، نحن نواجه الهزيمة في أفريقيا، وكما توقعت؛ فالدبابات الأمريكية لم تتقدم كنا الوحيدين في الجبهة ومعنا أقل من فصيلين؛ ولا يعلم سوى الله مدى قوة عدونا. أدركت بأن اختيار الإيطاليين لهذه المواقع الدفاعية بعد كل هذا، لم يكن اختياراً غير معقول... كنا سعداء بانسحابنا من القمة، تاركين وراءنا مواقع مراقبة فقط خلف ركام من الصخور، والانكفاء إلى المرتفع الخلفي، ومن وراء الساتر احتفظنا بنيران مدفع هاون دفاعية لإيقاف الهجوم، ولكن ليس قبل آخر إطلاقة لدينا.

كان معنا رجل إسعاف واحد فقط، وكان في حياته المدنية قسيساً كاثوليكياً، درس قبل الحرب في سويسرا بمساعدة جمعية خيرية أمريكية، أرسلته ليعتني بالجرحى ويجمع أقراص الهوية من الذين سقطوا موتى، معتمداً على علامة الصليب الأحمر على

ذراعه. تسلق القمة عندما توقف إطلاق النار وتحرك على مرمى البصر من الأمريكيين، ووجهت نحوه فوهة مدفع مهددة إياه بالنيران، ولكن آمر الوحدة المعادية ميز العلامة من خلال منظاره، وتركوه بدون إزعاج. إنني أحترم الأمريكيين لشهامتهم في مواجهاتنا. بعد حلول الظلام، فإن القطعات التي فشلت مبكراً في التقدم من تأثير سدود النيران قد التحقت بنا، وكان باستطاعتي تمديد جبهتي إلى شمال الطريق حيث مواقع النقيب مول مع بقية الأحياء من كتيبته. وتحت جنح الظلام حركنا مدافعنا المضادة للدبابات إلى الأمام وحددت مواقعها على طول الطريق لحماية أجنحة مواقع مشاتنا في الوادي.

أفرزت مجموعة قوية باحتلال موقع مراقبة (مرصد) فوق قمة تل مخروطي أمامنا، تحت قيادة ضابط صف مرشح ضابط، المميز باسمه أنه روميل ولكن لا علاقة له بالمشير. وصل روميل ورجاله إلى الهضبة وقاموا بحفر مواقعهم خلال الليل.

بعد منتصف الليل بقليل سمعنا أصوات الهاونات تنفجر أمامنا، فدفعت بدورية زحفت إلى الأمام وقدمت تقريراً: بأن الأمريكيين قد استلموا إمدادات تموين وذخيرة، وكانوا قريبين من الأمام بحيث إن دوريتنا كان في استطاعتها تمييز توهج سجائرهم.

نحن أيضاً، استلمنا تموينا وأهم من هذا بكثير، الذخيرة. كانت مدفعية العدو قد تركتنا بكل لطف آمنين. ولكن في الصباح طارت طائرة استطلاع فوق مواقعنا، وبعد قليل بدأت المدفعية

بقصفنا بنيرانها، وبما أننا كنا متمركزين خلف القمة فمعظم القذائف تئز من فوق رؤوسنا، حلت الليلة التالية، وبين الساعة الأولى والثانية صباحاً سمعنا وصول طابور إمدادات للأمريكيين، فقام الملازم بيكر بالرماية من ستة مدافع هاون وأربعة رشاشات ثقيلة لمدة دقيقة واحدة، وأسفت لهذا العمل العدواني، لأن الأمريكيين بدأوا فوراً بإطلاق النيران المتقطعة ممتعضين من حرق اتفاقية الصمت التي استمرت طوال الليل، بينما كنا في السابق نستطيع المشي لإراحة أرجلنا خارج الحفر، والآن، لرماية صليات مخالفة للقواعد لا تتجاوز اثنتي عشرة قذيفة بعثت من جديد هذه الحالة الخطرة.

عند حلول الصباح، وبعد طول انتظار تم تعزيزنا بسبع دبابات تمركزت في الحال في مواقع خلفنا في الوادي، وعندما تقدمت دبابات ومشاة باتون أخيراً كنا بلا جدال نشعر بثقة كبيرة.

اختفت أعداد من المشاة الأمريكية في الوادي وفي المرتفعات الواقعة جنوب الطريق، وظهر بعض منها على غير توقع خلف ظهورنا في الوادي، تم صد هجومهم بمساعدة دباباتنا ووقع بين أيدينا بعض الأسرى. القتال كان موجعاً، وأصبحنا الآن نميز بصعوبة بين ساعات التوتر وبين القتال.

في المساء وصلتنا إشارة من المشير كيسلرنغ: «إنني أشكركم على دفاعكم الشجاع. احتفظوا بالمواقع مهما كان الثمن».

اجتمعنا مول وأنا، وقررنا إرسال الرد مباشرة إلى المشير،

كتبنا مسودة البرقية وقمنا بإرسالها. وكان نصها كما يلي: «سنحتفظ بالمواقع. أين الكحول؟».

كانت رسالة وقحة من ضابطين صغيرين، ولكن فوجئنا بأنها قد أتت بنتيجة ولم تجلب لنا أية متاعب. خلال المساء وصلتنا عربة تحمل صفائح من النبيذ الأحمر، وهذه هي المرة الأولى منذ قدومي إلى أفريقيا، باستثناء مرحلة القتال في أسمرة، التي أتناول فيها نبيذاً، لقد كانت مفاجأة جيدة لنا جميعاً، جعلت من مهمتنا تبدو سهلة وخفيفة، أين كان أولئك الأمريكيون؟.

بعد مرور ليلتين، لم نتمكن من تأسيس اتصال بموقع المرصد المتقدم لروميل في القمة المخروطية للجبل. وأصبحت دورياتنا المتقدمة تتعرض الآن لنيران قوية من تلك النقطة . . . عند الفجر رجع رجلان وقدما تقريراً، وأفادا بأنهما الوحيدان اللذان بقيا على قيد الحياة من مجموعة روميل الصغيرة، وأن المشاة الأمريكية تمركزوا عند سفح التل وقاموا بالرماية عليهم بمدافع الهاون، وأخبرَا بأن روميل قد سقط قتيلاً. بعد مرور عام قابلته أثناء زيارتي القصيرة لألمانيا حيث إنه لم يقتل، ولكنه، أصيب بجراح خطيرة وزحف خلال يوم وليلة رهيبة إلى أن احتمى بالوادي في المرتفع الجنوبي، حيث اكتشفته أخيراً وحدة من رجال المظلات، فنقلوه إلى مستشفى الميدان، وعندما أخبرني بقصته كان قد خرج من المستشفى حديثاً حيث كان يتماثل للشفاء.

اليوم التالي، أعتقد أنه يوم 6 أبريل الذي جلب لنا هجوماً

قوياً من المشاة الأمريكية والعدو وصل إلى مواقعنا، ولكننا أجبرناهم على التراجع قبل أن يتمكنوا من الاختراق.

في اليوم التالي، أو في الهجوم التالي، يمكن أن تكون النهاية. سُحبت دباباتنا وأصبحنا وحيدين. وللمرة الثانية أنقذنا صدور الأوامر بالانسحاب. خرجنا من مواقعنا في الفجر وأرسلنا المدافع والعربات بعيداً، وكان بيكر وأنا آخر المنسحبين. عندما سطع الضوء في ذلك الصباح المبكر، نظرنا إلى الخلف وشاهدنا أولى الدبابات الأمريكية تصل إلى الخنادق والحفر، حيث قاتلنا لمدة طويلة، ولكن يبدو أنه بدون هدف.

المعركة الأخيرة

أرجو ألاّ تفكر بأنني أحاول أن أنقل لك بأن كتيبتي كانت تقاتل الآن وحيدة في أفريقيا، والحقيقة الفعلية، أن حشوداً خاضت صراعاً معقداً منذ البداية. ففي الشمال أعاد جيش العدو الأول تنظيمه بعد مفاجأة روميل غير السارة في قصرين، وعاد للهجوم في منطقة (إنفيدافيل) ليقوم بعمليات ضد جيش فون آرنيم، وفي 27 مارس، بتوجيه من ألكسندر، دخلت المشاة الأمريكية منطقة الفندق لتهدد ولتضغط من خلال سلسلة الجبال الشرقية باتجاه القيروان، وهكذا تم تهديد مؤخرة خط جيش الفريق ميسا الألماني ـ الإيطالي في وادي العكاريت.

واستعد مونتجمري للهجوم جنوباً على وادي العكاريت بثلاث فرق: الفرقة 50 والفرقة 51 الجبلية والفرقة الهندية الرابعة. وفي يوم 6 أبريل اخترق وادي العكاريت في معركة يوم واحد

وحسب رأيه، كانت معركة وحشية ودموية من بين كل المعارك التي خاضها منذ العلمين.

هجوم وهجوم مضاد في التلال، وكما قال ألكسندر فيما بعد إن كلا من الألمان والإيطاليين: «أظهروا تهوراً في القتال ومعنويات عالية». ولكن لم يكن هناك من يستطيع الوقوف وتحمل مواجهة الفرق البريطانية والهندية بالإضافة إلى 450 مدفعاً.

لقد قاتلت الفرقتان: الفرقة 15 بانزر والفرقة 90 الخفيفة أحسن معاركهما المميزة في تاريخهما «ومرة ثانية أستشهد بألكسندر»، ولكن الكتابة كانت فوق الحائط: «وكان قدراً محتوماً». وخسر جيشنا المنسحب 6000 أسير. وفي عصر اليوم التالي ونهاراً انسحبنا وتركنا خط (القطر). الأمريكيون القادمون من الجزائر اتصلوا بالبريطانيين القادمين من القاهرة لأول مرة، وهذا كان السبب في إيقاف معركة (القطر) القاسية وغير المتكافئة.

وحسب الأوامر الصادرة، انسحبت مع كتيبتي عبر المنطقة من مسرح القتال الأخير، بمحاذاة مكناس وسيدي بوزيد في السهول التونسية، بعيداً عن منطقة الفندق، إلى أن وصلت إلى المدينة المقدسة القيروان في 10 أبريل. وهناك توقفنا لعدة دقائق.

أمضيت تلك الأوقات في سلام ديني مبهم بجوار الثانوية الدينية هناك، إن تلك الدقائق القليلة قد منحت نفسي الهدوء لأعصابي المشدودة، وطوال الطريق من (القطر) كنا منهكين ونضرب بالقنابل والرشاشات من طائرات الحلفاء، وقسم من رجال

المظلات المرعبين. كنا نقاتل منذ شهور، أليس لهذا من نهاية؟. أو لا يوجد سلام أبداً ووقت للتفكير ثانية؟.

لكن الوقت يضغط علينا، فانسحبنا من القيروان. وبينما كنت أتأمل جدران المدينة في مؤخرة طابوري، شاهدت أولى العربات المدرعة البريطانية تلاحقنا.

إن هذه المدينة المقدسة قد تبادلت الضيوف في خلال دقائق، فهل سيتوقفون هم أيضاً للحظات لإنعاش أرواحهم؟.

كان لا يوجد أمل لدى الفريق ميسّا في وقفة جنوب خط جبال إنفيدافيل. وشعر بقلق، وأمر تشكيلاته الإيطالية بالانسحاب إلى خطه الدفاعي التالي الواقع بين زغوان والبحر، تاركاً الألمان للقتال كحرس مؤخرة كالعادة.

وفي زغوان، فإن قمم الجبال ذات النتوءات العالية، التي يحدها فجأة السهول الواسعة الجنوبية لتونس، جرف عملاق وأخاديد عميقة في وديان صخرية، تقدم حماية ممتازة ضد القصف الجوي والمدفعية. هنا لا تستطيع حشود الدبابات المطاردة التقدم نحونا بسهولة، فكرت، بأنه يمكن لنا الاحتفاظ بهذا الموقع لحين إرسال التعزيزات إلينا من أوروبا.

يختلف رفاقي عني اختلافاً كبيراً حول المستقبل، بعضهم فكر بالاندفاع إلى الخلف، إلى رأس بون لينقلوا بالسفن إلى صقلية لمعركة جديدة، وآخرون يصدقون بأن هتلر لن يتنازل عن شمال أفريقيا، وأن دبابات النمر وأنواعاً جديدة من طائرات السلاح

الجوي ستدفع إلى القتال لإحداث التوازن في المواد والأعداد لتفوق الحلفاء. إن مشكلة الإمدادات يمكن حلها بعبارات (سيبل فاهرن) التي يمكن أن تحمل دبابتين مسلحتين بمدفع من عيار 88مم المضاد للجو. والمقاتلات، التي تجر طائرات انسيابية بدون محرك تسمى (جيجانتن) العملاقة. وأن إسبانيا ستقوم بدور ما.

ثم أعقب ذلك أيام هادئة فأقمنا خطوطنا الدفاعية، وأحكمنا مواقع أسلحتنا خلف ملاجئ صخرية، وعند حلول الليل، أطلقت مدفعية العدو نيرانها على هدف واحد للإزعاج، على المرتفعات شرقي وقرب الساحل. لم أحسد أولئك الذين يحتلون الجبل، واعتقدت في هذا الوقت أننا كنا محظوظين. ولكن في عصر ذلك اليوم صدرت الأوامر بالتحرك إلى المرتفعات التي تم قصفها والقيام بهجوم مضاد من هناك.

حسناً، لقد قمنا بالهجوم في تلك الليلة مع هطول الأمطار، قناصو العدو ورماتهم المتمركزون أمامنا يطلقون نيراناً قاتلة ودقيقة، وقذائف المدفعية ومدافع الهاون تنهال علينا.

لقد تملكنا الحزن، إن الصعوبات التي قاسيناها والأعصاب المجهدة خلال الأشهر الماضية قد أنهكت قوانا وحيويتنا، وإن التغيرات والاستنزاف أثر على رجالي، ولم يكن بمقدورهم القتال ومقاومتهم للنوم وخصوصاً بعد دخولهم إلى الملاجئ في اضطراب من الأوحال الناتجة من حفر القذائف، وبدا الموت يلوح لنا، ويبدو لي أنه من السخف الخوف منه. لأنه رحمة.

استيقظت فجأة على اهتزاز ذراعي بشدة، فإذا بجندي مغطى بالوحل قد سقط بجانبي في الحفرة، كان يلهث بأنفاس متقطعة، بعد زحفه لعدة ساعات في ميدان المعركة المبهم والقفز من مخبأ إلى آخر طلباً للحماية.

«كنت أبحث عنك منذ ساعات، سيدي الملازم» قال هذا لاهثاً، وسلمني رسالة موحلة. وفكرت. ربما أمر غبي آخر باستمرار الضغط بالهجوم. وتحت بصيص من النور الصادر من المصباح اليدوي المعتم للمراسل المضطجع بجانبي قرأت: «الملازم شميدت، المجموعة الخاصة 288 الملازم أول شميدت عليك بالحضور فوراً إلى قيادة الجيش».

في أسفل الرسالة، كتب مقر الفوج ملاحظة بقلم الرصاص: «عليك بتسليم الكتيبة فوراً إلى الملازم أول إيبنخلر». ماذا يعني هذا؟ مشكلة؟ ولكن لا يحق لعسكري أن يسأل عن الأوامر، سلمت الكتيبة لآمرها خلال ساعة، وفي بداية الفجر، وكنت منهكاً وملطخاً بالأوحال، غادرت بخطورة من الخط إلى عربتي.

الفصل الخامس والأربعون

ضحكة ساخرة بين أشجار الكستناء

وصلت مقر قيادة الجيش عند الظهر، لقد فقدت النشاط والحيوية القديمة، ويبدو أن هناك بقية قليلة فقط من أركان روميل في مقر قيادة الجيش، والعلم يرفرق باعتزاز وكبرياء باسم (قائد الجيش الألماني ـ الإيطالي المدرع)، وبعض عربات القيادة الألمانية الخالية في معظمها تعطي انطباعاً بأنها تأوي القليل جداً من ضباط الارتباط الذين يعملون مع القائد الإيطالي، الفريق ميسّا. قدمت نفسي متعجباً من أية أنباء سيئة في انتظاري، وجدت ضابطاً برتبة نقيب من قسم شؤون الأفراد يفتش بين أوراقه، ثم قال: «منذ عام مضى كنت قد قدمت طلباً للإذن بالزواج، وهذه هي الموافقة، لديك موافقة على أربعة عشر يوماً إجازة خاصة وفورية». «وعند عودتك، ومن فضلك، عليك تقديم نفسك إلى قيادة الجيش بخصوص تعليمات أخرى».

وخلال ساعات كنت قد وصلت إلى تونس وذهبت في عربة جيب إلى المطار، وكان هذا في عيد الفصح، يوم 25 أبريل.

توقف سائقي للحظات، وبدهاء الجندي القديم، استحوذ على زجاجة شراب من مكان ما ـ شراب الموز ـ وشربناها معاً.

وسألته: «هل تريد الذهاب في إجازة أيضاً؟». فأجابني مبتسماً: «ولم لا، سيدي الملازم!».

كنت أحتفظ في جيبي برزمة من أوراق الإجازات الرسمية الخاصة بالذهاب إلى الوطن لجنود كتيبتي، وإن صلاحياتي لم تنته بعد، ولدي صلاحيات أستطيع بسهولة إعطاء الإذن لسائقي بمرافقتي. واتفقت مع طيار السلاح الجوي الألماني بالحصول على مقعد في الطائرة.

ولكن سائقي أخبرني: «سيدي الملازم، يجب علي أن أزور المستشفى أولاً...»، وذهب في زيارته الشخصية القصيرة، قائلاً: «سأعود قريباً»... ولكنه لم يعد ولم أشاهده مرة ثانية أبداً.

خلال تلك الليلة المظلمة ركبت طائرة النقل المزدحمة.. واستمر أزيز محركاتها عبر البحر الأبيض المتوسط، وهبطت عند الفجر في مطار (كاتانيا) بصقلية. وانطلقت مسرعاً إلى إيطاليا فألمانيا..

هيرتا وأنا تزوجنا في يوم 5 مايو. وبعد يومين سقطت تونس في أيدي البريطانيين، وسقطت بنزرت في أيدي الأمريكيين،

وانهارت المقاومة المنتظمة وجاءت النهاية سريعاً في شبه جزيرة رأس بون الموحشة.

كنا نقضي شهر العسل في (بادن بادن) بين أشجار الكستناء المزهرة في الغابة السوداء في يوم الثالث عشر من مايو. وفي المذياع سمعنا لحناً لسيمفونية جميلة. وانتهت الموسيقى ببلاغ حزين: «بعد قتال بطولي، انتهت مقاومة الجيش الألماني ـ الإيطالي المدرع ضد التفوق المروع. وبهذا انتهت المعركة في أفريقيا».

حوالى ربع مليون جندي ألقوا سلاحهم، وتمكن ستمائة وثلاثة وستون فقط من الهرب.

ولا توجد الآن المجموعة الخاصة 288 لألتحق بها، ولا قيادة جيش لأقدم نفسي إليها. لقد خرجت من أفريقيا بنفس الحظ السعيد الذي لم يخطط له، والذي أخرجني من أسمرة في آخر طائرة هبطت بي لألتحق بأركان روميل.

إن آلة الجيش الثقيلة لا زالت تزمجر بنفس الطريقة السائدة، وإن الشؤون الخاصة لآمر كتيبة شاب مغمور تم تنظيمها وترتيبها، وكقسم مشهور من آلة عظيمة كانت تطحن نفسها إلى حطام في أفريقيا، وصلت رسالة من خلال، وبين فوضى الرسائل السرية جداً والعمليات لتعطي إشارة أسبقية، لتخبر بأن على الضابط الصغير الذي قدم طلباً بالإذن للزواج، لديه الموافقة الآن بذلك، ووصلته الرسالة بيد المراسل الذي جازف بحياته من أجلها، والتي أبعدت

الضابط الصغير عن آخر معركة في أفريقيا، من بين مئات الألوف.

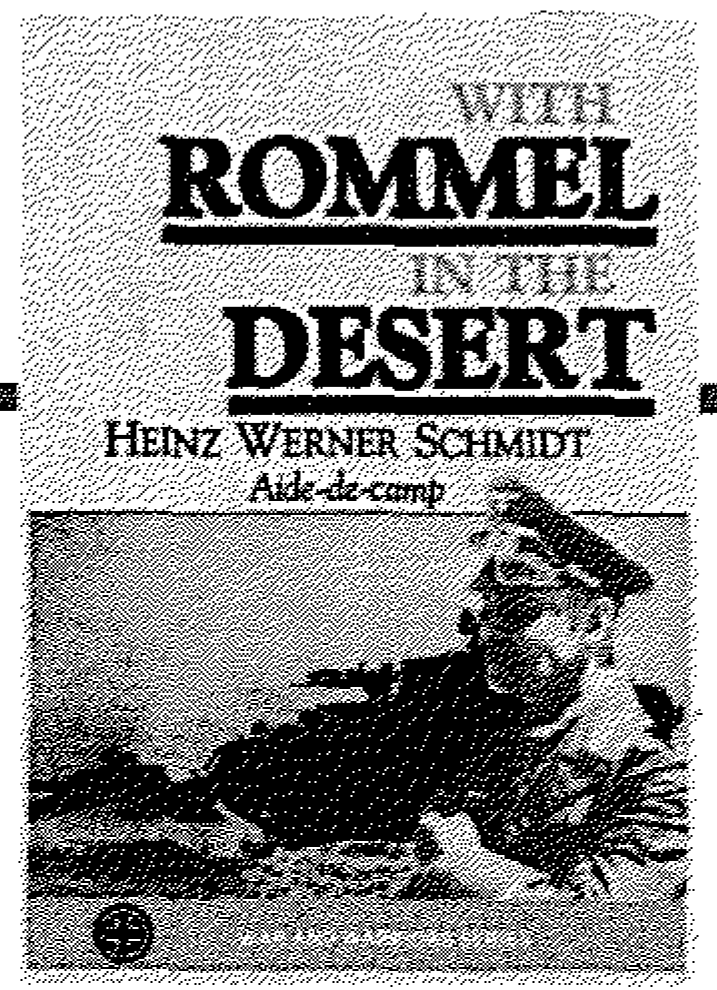
وفي مكان ما بين أشجار الكستناء الهادئة في الغابة السوداء، يوجد عروسان كانا يسمعان ضحكة خافتة لإله الحرب (مارس). مرة ثانية يبتسم بسخرية الرجال الرياضيين.

الفهرس

1 . التحاقي بهيئة أركان روميل 11
2 . الخدعة في طرابلس 25
3 . مغامرة في الواحات 35
4 . مهمة عسكرية بطائرة روميل 47
5 . على أبواب طبرق 63
6 . قائد على جمله 73
7 . الهجوم على بلاسترينو 87
8 . طائرات الهاريكان تقصف روميل 97
9 . الفريق باولوس: قائد حملة مدينة ستالينجراد
وقصتي في أريتريا 105
10 . معركة الفأس في الحدود 117
11 . رسائل اللواء 133
12 . يوم في خطوط الجبهة 145

13. ولادة مجموعة البانزر 157
14. كيف أثر رومل في هتلر 165
15. روميل يصطاد غزالاً 173
16. روميل في غـارة. . وجنوح في الأرض المحايدة 181
17. كيز يفشل في اصطياد روميل 193
18. معركة الصليبي 201
19. الهجوم على سيدي رزق 211
20. الفوضى في الصحراء 223
21. حرس المؤخرة 237
22. العودة إلى العقيلة 241
23. رومل يضرب ثانية 249
24. خطة طبرق 255
25. اكتساح كتيبتي 263
26. التـوازن 273
27. على الأبواب 279
28. نحن نسحق طبرق 287
29. لماذا سقطت طبرق؟. . تقييم المعركة 299
30. في إجـازة 305
31. غريب في العلمين 319
32. محاولة روميل الأخيرة 331
33. هزيمة في العلمين 339
34. الانسـحاب 345

35. شيرمان الأمريكية ذات القدرة العالية 355
36. خسارة مقاطعة طرابلس 363
37. لقاؤنا الأول مع الأمريكيين 373
38. ممر قصرين 387
39. الجسر والرجل من بروكلين 391
40. الأمريكيون في الضباب 403
41. وداعاً ثعلب الصحراء 411
42. الجحيم في خط ماريت 417
43. الخط ضد (اليانكي) 431
44. المعركة الأخيرة 443
45. ضحكة ساخرة بين أشجار الكستناء 449

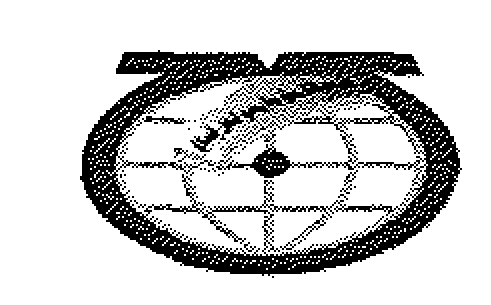


مع روميل في الصحراء

□ هذا الكتاب تعريب لكتاب: (WITH ROMMEL IN THE DESERT) لمؤلفه الملازم الأول هاينز فارنر شميدت (HEINZ WERNER SCHMIDT) مرافق روميل. كان الملازم شميدت محظوظاً، فبينما كان على رأس سرية من المتطوعين ومعظمهم من البحارة في السفن التجارية، الذين حوصرت سفنهم، حيث تم تشكيل سرية منهم لمساعدة الإيطاليين في أريتريا، وبعد هزيمة الإيطاليين في أريتريا أمام قوات القائد البريطاني الفريق ويفل، انسحب شميدت وأمر بالالتحاق بروميل في ليبيا. فغادر في آخر طائرة إيطالية انسحبت من أريتريا، وبعد رحلة مثيرة في الطائرة، وصل إلى مهبط رأس لانوف، ليلتحق بمقر الفيلق الأفريقي بفندق الودان في مدينة طرابلس، حيث عين مرافقاً لروميل.




ISBN 9959-0-0187-3
9 789959 001870



الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان
AD-DAR AL-JAMAHIRIYA
FOR PUBLISHING, DISTRIBUTING & ADVERTISING
E-Mail: daraljamahiriya@maktoob.com
مصراتة: ص.ب. 1459 هاتف: 614658 - 051
بريد مصور: 619410 - 051
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى